

صفحات جديدة من التاريخ الإسلامي

تحرير: أ. د. محمد مؤنس عوض

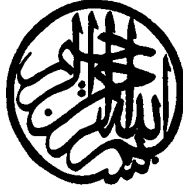
بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى

بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى
كتاب تذكاري لتكريم أ. د. زبيدة عطا
عميدة كلية الآداب - جامعة حلوان (سابقاً)
وأستاذة تاريخ العصور الوسطى
تحرير
أ. د. محمد مؤنس عوض



DS
36
.85
B84
2013
MAIN

**بحوث ودراسات
في تاريخ العصور الوسطى**



٢ شارع امتداد رمسيس (١) - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٥١٤٩٨.٢٤٠٢٤٦١٢

e. mail: af_madkour@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٣ م / ربيع أول ١٤٣٤ هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٠ / ٢١٩٤٩

الترقيم الدولي: ٩٧٨.٩٧٧.٤٩٥.٠٦١.٢

صفحات جديدة من التاريخ الإسلامي

بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى

كتاب تذكاري لتكريم د. د. زبيدة عطا،
عميدة كلية الآداب، جامعة حلوان (سابقاً)
وأستاذ تاريخ العصور الوسطى

تحرير

أ. د. محمد مؤنس عوض



بيانات الفهرسة المكتبية
(إعداد: إدارة الشؤون الفنية بدار الكتب المصرية)

بحوث ودراسات

في تاريخ العصور الوسطى /

تحرير محمد مؤنس عوض ..

ط ١ .. القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠١٣.

٣٤٠ ص؛ ٢٤ سم ..

كتاب تذكاري لتكريم أ. د. زبيدة عطا

(سلسلة صفحات جديدة من التاريخ الإسلامي)

تدمك: ٢٠١١. ٠٦١. ٤٩٥. ٩٧٧. ٩٧٨.

١. العصور الوسطى - تاريخ.

٢. عطا، زبيدة

عوض، محمد مؤنس (محرر)

ديوي ٩٠٩.٠٨



سيرة ذاتية

الاسم: أ.د. زييده محمد عطا

الوظائف الأكاديمية:

- 1- مدرس بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة المنيا.
- 2- أستاذ مساعد عصور وسطى - كلية الآداب - جامعة المنيا.
- 3- أستاذ بآداب المنيا.
- 4- رئيس قسم التاريخ - جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية (إعارة) 1984 - 1989 م.
- 5- رئيس قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة المنيا.
- 6- أستاذ بكلية التربية - جامعة حلوان.
- 7- أستاذ ووكيل كلية الآداب - جامعة حلوان.
- 8- رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة حلوان.
- 9- وكيل كلية الآداب - جامعة حلوان.
- 10- عميد كلية آداب حلوان 1999-2004.

الجوائز:

- 1- جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام 2003.
- 2- شهادة تقدير من وزارة التعليم الروسى وجامعة الصداقة لتدعيم العلاقات الثقافية بين مصر وسوريا.
- 3- شهادة تقدير من جامعة الدار البيضاء ووزارة التعليم بالمغرب.
- 4- شهادة تقدير من جامعة المنيا عن الرواد.

عضوية لجان وجمعيات علمية:

- 1- عضو في مكتبة الإسكندرية ولجانها ولجان ومؤتمرات الإصلاح العربي.
- 2- عضو المجلس الأعلى للثقافة والفنون ولجنة التاريخ.
- 3- مقرر لجان ترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين في التاريخ عدة مرات.
- 4- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- 5- عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب.
- 6- عضو في النادي الثقافي المصري.
- 7- عضو اتحاد الأثرين العرب.
- 8- عضو في لجنة تضامن.
- 9- رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة مجلة التاريخ والمستقبل - جامعة المنيا سابقاً.
- 10- عضو لجنة تقييم مادة التاريخ بالمراحل الإعدادية والثانوية بوزارة التربية والتعليم.
لجنة تحت إشراف أ.د. وزير التعليم السابق حسين كامل بهاء الدين.
- 11- رئيس مجلس إدارة مجلة كلية الآداب - جامعة حلوان سابقاً.
- 12- عضو مشارك في إعداد المتحف العالمي للحضارة المصرية.
- 13- عضو لجنة تحكيم جوائز الدولة التشجيعية - لجنة التاريخ - المجلس الأعلى للثقافة.
- 14- إعداد مقرر التاريخ بوزارة التعليم «الفترة القبطية».
- 15- عضو في لجنة تقييم جوائز الدولة للتفوق العلمي (التشجيعية ، التفوق).

أبحاث في مصر والعالم العربي:

قدمت أكثر من خمسين بحثاً بلغات مختلفة باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية في كبرى المجلات العلمية في الداخل والخارج.

(أ) أبحاث في مصر والعالم العربي:

- 1- العراق في عيون الرحالة المسلمين. بحث ألقى في المركز الثقافي العراقي، 1989 م.
- 2- العلاقات المصرية العراقية في عصر الأيوبيين. بحث ألقى في ندوة: «العلاقات المصرية العراقية»، القاهرة، 1989 م.
- 3- عكا آخر إمارة صليبية، القاهرة 1882 م.
- 4- ندوة الشعبية. العراق، 1989 م.
- 5- عُمان كما وردت في كتابات الرحالة في العصور الوسطى. سلطنة عمان، 1998 م.
- 6- وثائق الجنييزة كمصدر لدراسة التاريخ الإسلامي. جامعة الدار البيضاء، 1999 م.
- 7- المغرب مجموعة محاضرات بإيفاد من وزارة التعليم العالي 1999 م.
- 8- الغرب الإسلامي والشرق المسيحي خلال القرون الوسطى. الرباط، جامعة محمد الخامس الرباط 1999 م.
- 9- ملامح الشخصية المصرية في العصر القبطي. ندوة الدولة والكنيسة المصرية، المجلس الأعلى للثقافة.
- 10- دولة المهاليك وممالك النوبة المسيحية. ندوة حدود مصر الجنوبية، المجلس الأعلى للثقافة.
- 11- دراسة مقارنة مقارنة بين التنظيمات الباطنية في العصر الإسلامي والتنظيمات الإرهابية الحديثة. المجلس الأعلى للثقافة، ومؤتمر الإرهاب - المجلس الأعلى للثقافة نشر أيضًا في مجلة إبداع.
- 12- دمياط كواجهة دفاعية لمصر في العصر الأيوبي والمملوكي. المجلس الأعلى للثقافة.
- 13- صورة الفارس الإقطاعي والصراع الإسلامي المسيحي كما وردت في ملاحم القرن الحادى عشر الميلادى البيزنطية واللاتينية. مجلة التاريخ والمستقبل، جامعة المنيا، كلية الآداب، قسم التاريخ، مج 5، العدد 3، 1992 م.
- 14- القومية اليهودية. محاضرة ألقى في جامعة القنيطرة، 1999 م. المغرب.

- 15- الصلة بين السلطة السياسية والدينية في العصر المملوكي. مؤتمر الحكومة عبر العصور، المجلس الأعلى للثقافة، 1999م.
- 16- العلاقات المصرية المغربية. بحث ألقى بالمغرب في المؤتمر المشترك بين مصر والمغرب برئاسة وعميد كلية الآداب بالمغرب. المغرب، 2003م.
- 17- المغرب في التاريخ. ندوة دولية، جامعة حلوان بالاشتراك مع المغرب، القاهرة، 2001م.
- 18- يهود المغرب. محاضرة ألقيت في جامعة فاس. المغرب. 1999م.
- 19- الحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي. المغرب، جامعة المحمدية 1999م.
- 20- يهود العالم العربي. محاضرة ألقيت في سيمينار جامعة عين شمس، 2000م.
- 21- صورة الفارس الصليبي كما وردت في المؤلفات الإسلامية، جامعة الإسكندرية، 2000.
- 22- الفتح الإسلامي كما وردت في كتابات صفرنيوس بطريك بيت المقدس، جامعة الإسكندرية 2001.
- 23- الحملة الصليبية الثامنة. مؤتمر الغرب الإسلامي والغرب المسيحي، تونس 2002.
- 24- تطوير الدراسات الأدبية- المناهج. مؤتمر عمداء كليات الآداب، سوريا، 2004.
- 25- منهج البحث التاريخي في المدارس المصرية. ندوة مناهج التاريخ، المجلس الأعلى للثقافة، 2005.
- 26- المالك وشرعية الحكم، بحث ألقى في المجلس الأعلى للثقافة 2002.
- 27- "Antony Police" بحث نشر باللغة الفرنسية في إصدارات جامعة المنيا، 1982م.
- 28- حقوق الإنسان نقابة الاجتماعيين القاهرة 2005.
- 29- مكنتات المدارس (خزانة الكتب في العصرين الأيوبي والمملوكي). ندوة المدارس في مصر الإسلامية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى للثقافة، 1992م.
- 30- محمد عبده وموقفه من المرأة في ندوة المجلس الأعلى للثقافة عن الشيخ محمد عبده 2005.

- 31- ابن خلدون الذات والإبداع. المجلس الأعلى للثقافة، مؤتمر دولي، 2006. عن ابن خلدون.
- 32- برنارد لويس وكتابه ضد السامية. المجلس الأعلى للثقافة، 2006م. ندوة السامية.
- 33- رافيل ايتان وقتل الأسرى المصريين. المجلس الأعلى للثقافة، 2006م. ندوة حرب 1956.
- 34- بدو سيناء وعلاقتهم بمصر وإسرائيل «ندوة سيناء»، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، 2007م.
- 35- البابوية ومسئوليتها عن الحروب الصليبية، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، 2007م.
- 36- يهود مصر في العصر الحديث محاضرة في روتاري المعادى 2007.
- 37- الكتابة التاريخية عن عصر سلاطين المماليك ندوة الكتابة التاريخية مزيدة 2007، المجلس الأعلى للثقافة.
- 38- برنامج صالون دريم الثقافي حلقة عن كتابي يهود العالم العربي مع أ. جمال الغيطاني.
- 39- برنامج صالون دريم الثقافي حلقة عن كتابي قبطني في عصر مسيحي مع د. ميلاد حنا.

أبحاث نشرت في الخارج:

- (1) The Position of The woman between The Roman Law and Islamic Religeon, 1982. LosAnglos Cale state Univ.
- (2) The Magic in coptic Egypt in univ. poland, 2001.
- (3) The Jews Quarter at Mamluk era. 2001
Luvan univ. Belgum 2002 لوفان بيلجيكا
- (4) Russia and American invention of Iraq. Moscow, 2003, in cofcmece dialoage of civilization Friendship. Univ.
- (5) The globalization and its effect in Arab world. The friendship. Univ. Moscow, 2000.
- (6) The effect of Arab civilization on European writers. Granda, Spain, 2004.
- (7) The Jews of Spain Confernce of Seviella Spain, 2004.

- (8) The Human rights in The Light of Arabic Constitutions friendship Univ. of Humaninty, Moscow, 2005.
- (9) The Influnce of christian fayeam portrait in univ. of Humaninty, Moscow, 2005.
- (10) The west as seen by Arabs native. Unesco. The Conferance of Ruman Right, 2007.
- (11) Research on Medieval Syria in Egypt. 1950-2000. in A Humantics Univ. and Social Science Review, 2002. The centre of Asian Cultural Studies for Unesco. Tokyo, 2002.
- (12) The Career of Balak the Artukd "Chrongico" Univ. of szeged Hungary, 2007.

المؤلفات:

- 1- الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين. القاهرة، 1996م.
- 2- الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية، القاهرة، 1994م.
- 3- الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى. القاهرة، 1991م.
- 4- بلاد الترك في العصور الوسطى. القاهرة، د.ت.
- 5- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، لبيبرس الدوادار (تحقيق). 1394 هـ دار عين.
- 6- المنيا في العصر البيزنطى. القاهرة الهيئة العامة للكتاب.
- 7- موسوعة قبطى وعصر مسيحي 2003م.
- 8- عروبة القدس وفقاً للأوراق والوثائق المقدسية 2007م.
- 9- المقاتل البيزنطى 1989م.
- 10- منهج البحث التاريخى المنيا 1990م.
- 11- الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى انستاسيوس دار الفكر العربى.
- 12- موسوعة يهود العالم العربى:
- 1- الجزء الأول: يهود العالم العربى القومية الجيتو- الاتجاه إلى بيت المقدس 2002م.

- 2- الجزء الثاني: دعاوى الاضطهاد وتم شراؤه من قبل وزارة التعليم لإيداعها في مكاتب المدارس.
- 3- الجزء الثالث: يهود مصر الهوية والانتماء عبد الناصر- السادات التطبيع 2007م.
- 4- اليهود في مصر الحديثة (التاريخ السياسي).
- 5- اليهود في مصر الحديثة (التاريخ الاجتماعي والاقتصادي).
- 13- قبطى في عصر مسيحي المجلس الأعلى للثقافة 2003م.
- 14- موسوعة قبطى في عصر إسلامى 2007 تحت الطبع.
- 15- تجارة اليهود في مصر 2007م.
- 16- المشاركة في الكتاب الصادر عن المؤسسة العربية للعلوم والآداب (سيسكو) الكتاب الجامعة لتاريخ الأمة العربية كتابة مقالين.
- 17- مصر والشام والحروب الصليبية - الحياة الاجتماعية في مصر والشام زمن الحروب الصليبية (سيسكو) 2006 - 2007م.
- 18- موسوعة تاريخ مصر الإشراف على إعداد والمشاركة بدراسة عن الفتح الإسلامى بين المصادر الإسلامية والمصادر المسيحية في موسوعة تاريخ مصر في العصور الوسطى المجلس الأعلى للثقافة 2007م.
- 19- قبطى في عصر اسلامى تحت الطبع.

المؤتمرات:

- شاركت في أكثر من أربعين مؤتمر في البلدان العربية كالمغرب والبحرين وعمان والسعودية ولبنان وسوريا، في العالم الغربي في أسبانيا وفرنسا وبلجيكا وروسيا واليونسكو.

المحتويات

الصفحة	الموضوع
17	المقدمة
23	1- أ.د. إسحق عبيد شمس العرب تستطع على أرض النيل.
33	2- سرور عبد المنعم المنشآت المعمارية في عهد الملك فولك الأنجوي (1131-1143م).
59	3- صلاح عبد المنعم (.) طبوغرافية مملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقتها بنشأة القلاع.
145	4- ياسر عبد المعبود جامعة باريس المنشأة والتطور والتنظيم الجامعية (1200-1250م).
217	5- ياسر كامل محمود السياسة الداخلية لمملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بله وين الرابع (1174-1185م).
281	6- أحمد عبد الله السلع التجارية في الساحل الشمالي في القرنين 12، 13م.

المقدمة

يحتوي هذا الكتاب على عدة بحوث من جانب عدد من المؤرخين المصريين من جامعات عين شمس والقاهرة وحلوان وجنوب الوادي من المتخصصين في تاريخ العصور الوسطى من أجل تكريم الأستاذة الدكتورة زبيدة عطا عميدة كلية الآداب - جامعة حلوان السابقة.

وقد شارك في الأبحاث كل من أ.د. إسحق عبيد، أ.د. ليلي عبد الجواد، د. فاطمة الشناوي، بالإضافة إلى بحث من إعدادي، د. رفعت موسى، ود. يحيى عباس، د. سرور عبد المنعم، د. صلاح عبد المنعم، د. ياسر عبد المعبود، د. شرين العشماوي، وهي أبحاث متنوعة تحتوي على دراسات عن عصر الحروب الصليبية في بلاد الشام في القرنين 12، 13م، وبلاد الأندلس، وكذلك النظم التعليمية في فرنسا من خلال دراسة جامعة باريس.

وكاتب هذه السطور يدرك جيدًا أن جامعة حلوان العزيزة أصدرت كتابًا تذكاريًا لتكريم المؤرخة الراحلة أ.د. زبيدة عطا، ووقع في مجلدين كبيرين من خلال جهد بارز قاده الزميل الفاضل أ.د. عادل عبد الحافظ بأداب المنيا، إلا أن ذلك لا يمنع البتة من صدور كتاب تذكاري آخر لباحثين من جامعات مصرية متعددة وأتشفرف بتحرير هذه الدراسات كي تكون بمثابة إعلان تكريمي جديد من جامعة غير الجامعة التي تتسبب إليها مؤرختنا القديرة في صورة جامعة عين شمس التي أتشفرف بالانتساب إليها.

إنني أتشفرف بهذا التقديم وعلى ثقة تامة من أن القارئ العربي في كل مكان سيسعد بقراءة البحوث المذكورة، وهي في معناها تعكس الوفاء الذي تحتاجه الآن أكثر من أي وقت مضى، فهي هي مصر ممثلة في عدد من باحثيها وباحثاتها وعلى رأسهم أستاذي العلامة أ.د. إسحاق عبيد

تكرم ابنة مصر المؤرخة القديرة التي أضاءت بعلمها وخلقتها سماء الحياة العلمية والأدبية لأعوام طوال - أطال الله تعالى في عمرها ومتعتها بالصحة والسعادة.

وأود لفت نظر القارئ إلى أنه في الأعوام السابقة صدرت بالقاهرة والإسكندرية عدة كتب تذكارية لتكريم عدد من مؤرخي أرض الكنانة في مجال تاريخ العصور الوسطى وهم:

أ.د. إسحاق عبيد

أ.د. محمود سعيد عمران

أ.د. قاسم عبده قاسم

وقد قام بتكريم الأول شخصي المتواضع والثاني د. على أحمد السيد وإبراهيم خميس، والثالث د. حاتم الطماوي، ولا شك في أن صدور مثل تلك الكتب التذكارية أمر يدعو إلى عودة روح الوفاء التي نحتاجها الآن أكثر من أي وقت مضى.

ولا يفوتني هنا أن أتوجه بخالص الشكر ووافر التقدير لعدد من تلاميذ مؤرختنا القديرة، وهم: أ.د. عادل عبد الحافظ، د. فاطمة الشناوي، د. رفعت موسى، إذ إن مساعدتهم جعلت صدور هذا الكتاب أمراً ممكناً، ومن خلال هذه السطور أبدي امتناني العميق لهم.

والآن أترك القارئ ليتصفح فصوله التي تعكس روح الفريق المحب والوفي لرمز من رموز الكتابة التاريخية المصرية الحديثة عن مرحلة العصور الوسطى.

والله تعالى من وراء القصد،

أ.د. محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة عين شمس

وكلية الآداب - جامعة الشارقة

2008/8/9م

زبيدة العلم وعطاء الروح

بقلم: أ.د. محمد مؤنس عوض

من بين العديد من المؤرخين والمؤرخات المصرية برزت مؤرخة رائدة ساهمت على نحو بارز في الكتابة التاريخية في مجال تاريخ العصور الوسطى في صورة أ.د. زبيدة عطا أستاذة تاريخ العصور الوسطى بجامعة حلوان والعميدة السابقة لها.

والواقع إن جميع من تعامل مع تلك المؤرخة القديرة أدرك صفاتها البارزة، فهي صادقة متمسكة بالحق مهما كلفها ذلك من متاعب ومشاق. وتملك إرادة لإرادة الرجال، ثم إنها موفورة النشاط بين محاضر هنا وندوة هناك، وهكذا تشهد جامعات القاهرة والمنيا وحلوان وأسيوط نشاط بارز لتلك الروح الوثابة التي تحمل اسم زبيدة عطا.

وقد حضرت لها عدة مناقشات لرسائل الماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات المصرية فلاحظت مدى ما تمتعت به من خبرة عريضة، ونظرة ثاقبة وقدرة فذة على النقد والتحليل على نحو تفوقت به على العديد من أقرانها من المؤرخين والمؤرخات.

أما علاقاتها مع تلاميذها وتلميذاتها فحدت ولا حرج! فهي الأم الحانية المحبة لهم العطوفة التي تبتناهم وعندما نسأل واحداً أو واحدة منهم تجد سيلاً من الأخطار والعبارات والذكريات التي تشيد بتلك المؤرخة التي ملأت عقول وقلوب طلابها عبر محافظات مصر من أقصاها إلى أقصاها.

وسعادة أ.د. زبيدة عطا صاحبة فكر مستنير متحرر لا يعرف البتة الجمود أو الانكفاء على الذات، وقد مثلت مصر في مؤتمرات وندوات دولية فكانت خير سفيرة لأرض الكنانة.

وإذا قيل أن لكل إنسان من اسمه نصيب فإن زبيدة عطا هي بالفعل زبيدة العلم وعطاء الروح، لقد جبلت على العطاء فحصدت تقدير الكثيرين، وبحث المرء عن من تماثلها فلم أجد، وهنا قيمة التفرد والتميز.

وأتذكر أنني ألقيت وبدعوة كريمة منها محاضرات لطلبة وطالبات دبلوم التاريخ الأوربي الوسيط بكلية الآداب - جامعة المنيا فتعاملت معها عن قرب فأدركت أنها كنز حقيقي من الخلق الرفيع والمشاعر النبيلة الفياضة والروح الوثابة التي جبلت على العطاء ولا تعرف له بديلاً.

ولا عجب أن تكون هي كذلك؛ فقد تتلمذت على يدي العلامة عبقرى جامعة القاهرة، الجامعة الأم لكافة جامعات مصر - أ.د. سعيد عاشور الذي تفرس فيها العديد من الصفات الخلاقة المبدعة، وهكذا لا نجد ندوة في رحاب جامعة القاهرة أو مؤتمرًا لاتحاد المؤرخين العرب إلا ونجد أ.د. زبيدة عطا شعله نشاط متقدمة وبمثابة الروح المحركة لتلك الندوة أو ذلك المؤتمر بالتعاون مع زملائها من الأساتذة والباحثين الآخرين، فلا عجب إذا نالت باقتدار احترام وتقدير كافة مؤرخي مصر على اختلاف جامعاتهم، وتوجهاتهم الفكرية.

إن العبادات السابقة لم ولا ولن نفي بحق تلك المؤخرة الرائدة التي تستحق عن جدارة أكثر من كتاب تذكاري لتكريمها، واعتقد عن قناعة أنها نموذج مشرف للمرأة المصرية التي تقدمت على العديد من الرجال من من افتقدوا روح المبادرة والعطاء وخدمة الآخرين دون كلل.

والآن أقدم للقارئ العربي لمحة عن أهم محطات مؤرختنا العلمية والإدارية كما يؤكد تميزها:

- حصلت على الليسانس من كلية الآداب - جامعة القاهرة - عام 1964م.
- الماجستير من نفس الكلية عام 1969م.
- الدكتوراه من نفس الكلية عام 1972م.
- عملت مدرس لتاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة المنيا عام 1973م.
- أستاذ مساعد عام 1978م.
- أستاذ عام 1983م.
- رئيس قسم التاريخ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة بالمملكة العربية السعودية عام 1984م.

- رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة حلوان عام 1989م.
- أستاذ بكلية التربية - جامعة حلوان عام 1994م.
- وكيل كلية الآداب - جامعة حلوان عام 1995م.
- رئيس قسم التاريخ - كلية الآداب جامعة حلوان عام 1997م.
- وكيل كلية الآداب عام 1999م.
- عميد كلية الآداب عام 1999م.
- أشرفت على (30) رسالة ماجستير ودكتوراه في جامعات المنيا وحلوان والزقازيق وجامعة الملك عبد العزيز بجدة.
- اشتركت في العديد من المؤتمرات العلمية والدورات التدريبية والندوات وقد بلغت (18) مؤتمراً وندوة بالدول العربية والأوربية وأمريكا، وتحديداً المغرب وعمان والعراق وفرنسا وروسيا وبلجيكا وأمريكا.
- أصدرت العديد من المؤلفات العلمية نذكر منها:
 - الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين.
 - المنيا في العصر البيزنطي.
 - موسوعة من 3 أجزاء:
 - (1) يهود العالم العربي.
 - (2) دعاوى الاضطهاد.
 - (3) يهود مصر.
 - قبطي من العصر المسيحي.
 - المقاتل البيزنطي.

- حصلت على وسام تكريمي من جامعة الصداقة بموسكو.
 - حصلت على جائزة الدولة التقديرية عام 2003م.
 - عضو اتحاد المؤرخين العرب.
 - عضو الجمعية التاريخية المصرية.
 - عضو اتحاد الأثر بين العرب.
 - عضو المجل الأعلى للثقافة.
 - عضو لجنة تحكيم جوائز الدولة التشجيعية، وتقييم جوائز الدولة للتفوق العلمي.
 - مقرر لجنة الترقية للأستاذية.
 - مقرر لجنة الترقية لدرجة الأستاذ المساعد.
- وهكذا يتضح للقاصي والداني أننا بالفعل أمام مؤرخة لها تاريخ وأنها بالفعل زبيدة العلم وعطاء الروح.

أ.د. محمد مؤنس عوض

(1)

شمس العرب تسطع على أرض النيل

أ.د. إسحاق عبيد أستاذ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة عين شمس

شمس العرب تسطع على أرض النيل

كان هيرودوت أبو التاريخ قد زار أرض مصر في القرن الخامس قبل الميلاد، كي ينهل من منابع حكمتها وليرتوي من نيلها الكريم وليتسامر مع كهنتها حول الأسرار المقدمة، ولقد صُدم هذا الإغريقي النابه عندما علم من الكهنة المصريين بما فعله الملك الفارسي قمبيز (522 ق.م) بأهل مصر وبفرعون مصر وبالأمرء المصريين، فقد ألجم هذا الغازي المتجبر واحدًا من أبناء الفرعون مع ألفين من الشباب المصري كما تلجم الخيل وقام بإعدامهم في العاصمة منف.

والمعروف عن قمبيز أنه كان مصابًا بداء الصرع منذ طفولته ولما أن قدّر للإسكندر المقدوني ذي القرنين، في القرن الرابع قبل الميلاد أن يوحد بلاد اليونان بالحديد والنار، انطلق يصفي الحساب مع مملكة فارس، وانتصر هذا المقدوني الطامح على الفرس انتصارًا ساحقًا سنة 332 ق.م. وبعدها زحف على مصر وطرده الفرس منها، ثم وضع أساسات الإسكندرية، وتوجه في النهاية إلى واحة سيوة حيث أنعم عليه الكهنة بلقب «ابن آمون».

وبعد وفاة الإسكندر (232 ق.م) بلدغة بعوضة في مدينة بابل، صارت الإسكندرية وولاية مصر من نصيب صديقه بطليموس بن لاجوس المقدوني، ولقد كتب على مصر أن تظل قرابة آلاف من السنين تحت حكم هؤلاء الأغارقة ومن بعدهم الرومان حتى الفتح العربي (232 ق.م - 641م).

وفي خلال تلك الحقبة الطويلة من التاريخ باتت مصر «ضيعة» لحاكم الإسكندرية وجزالاته وكبار مرتزقته، وصار لزامًا على الفاح المصري المغلوب على أمره أن يوفى جزءًا من حصاد قطعة أرضه الهزيلة إيجازًا، وأن يحمل ما تبقى من حصار إلى «شونة التاج» أو الحكم هذا إلى جانب ضريبة الرأس التي أكره عليها المصريون في حين أعفى منها الأجانب.

ترسيخ التراث المصري

ورغم هذا القهر الشديد فإن المصريين قد ظلوا مستمسكين بتقاليدهم وعاداتهم، ولم تفلح محاولات البطالة ولا الرومان في اغرقه أو رومنة مصرن ذلك لأن المعابد المصرية برعاية كهنتها في الدلتا والصعيد ضاعفوا من تأدية رسالتهم في ترسيخ التراث المصري التليد في قلوب أبناء مصر خاصة وعمامة. وهكذا - كماداتها - أخذت البوتقة المصرية العبقرية في صهر المعدن الأجنبي الخييت وتذويبه في ماء «حاي» الفياض الذي بدأت ملامح واديه الحضارية في الإشراق على العالم في الألف الخامسة قبل الميلاد، قبل أن تولد الهلينية أو الرومانية بألوف السنين، وهنا يصدق القول المأثور بأن الفاعل صار مفعولاً به!

في أواخر أيام البطالة في مصر، كانت قوة روما تزداد يوماً بعد يوم على سائر بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط وفي خضم الصراع على السلطة، وصل يوليوس قيصر بفيالقه وسفنه لى ميناء الإسكندرية (48 ق.م) ليساند كليوباترا السابعة في صراعها ضد أخيها بطليموس الصغير.. وفي واحدة من نوابته الغاضبة أضرم قيصر النار في سفن الأسطول البطلمي (أكثر من مائة سفينة) الراسية في المينائين الكبير والصغير، فالتهمت السنة النار مكتبة الإسكندرية وأنت على قاربة نصف المليون من المخطوطات ولفائف البردي التي كانت تحوي تراث العالم القديم شرقه وغربه جميعاً⁽¹⁾.

ثم يغتال قيصر في قلب مجلس الشيوخ الروماني، وتشتعل الحرب الإهلية من جديد، على أن يتمكن أوكتافيانوس أغسطس سنة 31 ق.م من جحر صديقه القديم مارك أنطوني وعشيقتة كليوباترة السابعة آخر الملوك البطالة في مصر؛ أنطوني متحراً بخنجره وكليوباترة بسم الأفعى المقدسة (الكوبرا)⁽²⁾.

وكان الحكم الروماني لمصر امتداداً للحكم الإغريقي، وبقيت الوظائف العامة والهامة حكراً على الأجانب من رومان ويونان، خاصة من أبناء الصفوة الذين عرفوا في الإسكندرية باسم «بولتيوماتا».

القسيسيون يتعزضون للاضطهاد

وفي العصر الروماني دخلت المسيحية إلى أرض مصر سنة 61م على يد مرقس الرسول، ثم استشهد على أيدي كتاب الرومان ورعاع الأغارقة في عهد الإمبراطور المختل نيرون (54م). ثم جاء إلى حكم الإمبراطورية الرومانية الإمبراطور دقلديانوس (284_305م) الذي ساءت الإمبراطورية إلى أربع ولايات تضم ستا وتسعين مقاطعة، ويقترن عر دقلديانوس في اذهاننا بجمجمة عاتية من الاضطهاد والاستشهاد، وبعد اعتزال دقلديانوس الحكم، اندلعت فتنة بين الفياصرة الرومان انتهت بخروج قسطنطين الكبير حاكمًا أوحده للإمبراطورية الغربية وشرقيها، وأطل الإمبراطور الجديد على الولايات الشرقية في صورة المخلص المتسامح مع جميع الديانات، بل أنه نقل عاصمة ملكة روما القديمة إلى ضفاف البسفور، وفي مدينته الجديدة القسطنطينية، وفي عهده انعقد ما يعرف بالمجمع المسكوني الأول سنة 325م في مدينة نيقيا بآسيا الصغرى ووسع «قانون الإيمان» لجميع كنائس العالم، وذلك بفضل رجال اللاهوت المسكونيين وعلى رأسهم اثناسيوس الكبير، وظل رجالا لكنيسة الإسكندرية أصحاب الكلمة العليا في قضايا اللاهوت فيما تلا من مجامع (أفيسوس الأول والثاني 431_449م).

القطيعة بين الكنيسة وروما

زغلت مراحل الغيظ والحقد في قلوب أساقفة روما القديمة وروما الجديدة، فعقد الطرفان مجتمعا سنة 451م في مدينة خلقيدونية بيسيا الصغرى، لم يدع عليه ديوسقوروس البطريرك المصري بطبيعة الحال، وخرج المؤمنون بقرارات تدين الكنيسة المصرية ورأسها ديوسقوروس بالخرقة مع تحريم مجتمعهم في أفيسوس على أنه «مجمع اللصوص»!

وبشكلها كانت القطيعة الكبرى بين الكنيسة القبطية والعاصمتين الرومانيتين القديمة والجديدة، عبرة عن الريح المصرية المتنامية الراضة للوصاية الهلينية الرومانية في ثوبها المسيحي الجديد.

ونشئ الإقطاع في ريف مصر فيظل الحكم البيزنطي، وثقلت على كواهل الناس أعمال سخرة والإتاوات، كما كان على كل مصري أن يدفع لخزانة القسطنطينية ضريبة الرأس، وأرغبت على الإسكندرية أن تُصدر لروما القسطنطينية 3000 أردب من القمح كل يوم.

ثم نصل إلى عصر الإمبراطور البيزنطي هرقل (610-641م) حيث تجدد الصراع بين البيزنطيين (الروم) وبين مملكة فارس من جديد، ونجح الفرس في السيطرة على الولايات البيزنطية الواحدة تلو الأخرى، وسقطت إنطاكية ثم دمشق (611م)، وزحف الفرس بعدها على فلسطين واجتاحوا بيت المقدس (614م) حيث جرت مذبحه رهيبه ساهم فيها اليهود بنصيب كبير، وبلغ عدد الضحايا 60.000 من الأنفس، ونهب لافرس لانفانس والكنائس وشحنوها مع الأسرى وعلى رأسهم بطريرك القدس زكريا إلى عاصمتهم كتييفون. وفي سنة 618م وقعت مصر من جديد في مخالب الفرس، وقد ورد ذكر هذه الأحداث في القرآن الكريم في سورة الروم

(2-3) ﴿طَلَبَتِ الْأَرُومُ ۖ فِي آذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَقْلَبُونُ ۖ فِي يَضْحَجِ سِينِكُمْ لِئَلَّا تُرْمَى مِنْ قِبَلِكُمْ ۚ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَعُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾﴾ .

واعاد الروم العدة للانتقام من الفرس، والتقى الحصان اللدودان هرقل وخسرو في واقعة تاريخية على خرائب مدينة نينوي القديمة (قرب الموصل) سنة 627م. وكان النصر فيها لهرقل، وما لبث هرقل أن طرد الفرس من مصر وأعادها إلى حظيرة الروم من جديد.

المذهب الهرقلي الجديد

فكر هرقل في حيلة يضم بها كنيسة مصر قسراً إلى كنيسة الروم، فصاغ هو ورجاله مذهباً وراح يفرضه على جميع الولايات الإمبراطورية بما فيها مصر، وكان المذهب الهرقلي الجديد مشار سخرية في مصر، فأطلقوا عليه مذهب الملك أو المذهب الملكاني، وفي حين قبل البيزنطيون المقيمون في الإسكندرية هذا المذهب، ظلت الكنيسة المصرية عند موقفها الراض لهذا المذهب، وعلى رأسها البطريرك المصري بنيامين (623-661م)، وفي سنة 631م عين هرقل بطريركاً للكنيسة الرومية في الإسكندرية اسمه سيروس (المعروف في المصادر العربية باسم لمقوقس)، مزوداً بتعليقات صارمة بفرض المذهب الهرقلي على أهل مصر، وشعر بنيامين بالخطر يتهدد حياته، فهرب من الإسكندرية إلى مريوط ثم إلى صحراء وادي النطرون.

وجن جنون المقوقس فقبض على شقيق لبنيامين وأمر بجلده بالسياط ثم قام بإغراقه على مشهد من أهل الإسكندرية، ويروى أن المقوقس قد شارك بنفسه في تعذيب رجل دين مصري آخر من أشياع بنيامين يدعى صمويل القلاموني حتى سال دم سمويل نازفًا حتى الموت.

دخول ابن الخطاب أرض السلام

في أثناء ذلك كانت جيوش الدولة الإسلامية العربية الفتية تقلم أظافر أكسار فارس وقيصرية الروم، وكانت واقعتا القادسية واليرموك، وبعدها دانت العراق والشام وفلسطين للعرب، ووصل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (الفاروق) بنفسه إلى أرض فلسطين ليتسلم بيت المقدس (639م) من بطريكها سفرونيوس، ودخل الخليفة أرض السلام ليزيدها سلامًا، فأصدر لأهل القدس عهدًا هو المعروف بالعهد العمري (أورد الطبري نص العهد) وورد فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما اعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا (اسم آخر لبيت المقدس) من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئتها وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا يتقص منها ولا من خيرها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينه...».

كانت أخبار الفتح العربي لفلسطين تصل بالضرورة على مسامع أهل مصر، وكانت سماحة عمر بن الخطاب وعدله قد طارت ليتهامس بها الناس في أرض الوادي، وتطلع بنيامين الهارب في الصحراء وابتناؤه الرهبان والرعية المكتوبة بعبء الضريبة وفساد جباة الضرائب الروم، تطلعوا جميعًا إلى أبناء هاجر المصرية أم أسماعيل⁽³⁾ لتخليص خزولتهم من مخالب الروم.

فتح مصر

ولقد عقد الخليفة الراشد مجلسًا مع صحبه وقادته في بلدة الجابية (مرتفعات الجولان الحالية) لمدرسة الموقف برمته وتقدم لأقائد المحنك عمرو بن العاص بخطته لفتح مصر التي اتخذها الروم قاعدة لأسطولهم يمددون به أرض الحجاز من البحر الأحمر وأرض فلسطين والشام من البحر الأبيض، ووافق الخيفة على خطة القائد فزوده بجيش قوامه 4000 رجل، وقال له:

«سر وأنا مستخير الله في سيرك.. وسيتأتيك كتابي أمرك فيه الانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك، واستعن بالله واستغفره».

فتح عمرو بن العاص مدينة العريش في ديسمبر 639م، وتقدم على مدينة الفرما وحاصرها لمدة شهر حتى استسلمت حاميتها الرومية في يناير 640، ويقول المؤرخ ابن عبد الحكم في هذا الصدد: «إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعرافاً.. وتتابع أحداث، ويمنى الروم بالهزيمة تلو الأخرى، ويفتح عمرو بن العاص مدينة بلبيس، وعند هذا المنعطف التاريخي الطالع في المصادر أن ابنة المقوقس اسمها أمانوسة كانت آتت في مدينة بلبيس في طريقها إلى فلسطين حيث كان مقرراً أن تزف عروساً في مدينة قيسارية لواحد من أبناء الإمبراطور هرقل، ثم وقعت مع فتح بلبيس هي وأموالها، وجواربها وحرسها أسيرة في أيدي جنود عمرو بن العاص، ولما أن عرف القائد العربي بأمرها أعادها وكل مالها معززة مكرمة إلى أبيها في الإسكندرية، ثم يدحر عمرو بن العاص كتاب الروم في معركة أخرى في أم دنين (الأزبكية حالياً)، وتصله تعزيزات عربية بقيادة الزبير بن العوام بلغت 4000 رجلاً وفي معركة عين شمس فر الروم مذعورين يعتصمون في قلعتهم في حصن بابليون، بينما هز قائدهم تيودور إلى مدينة الإسكندرية وقام عمرو بن العاص بضرب حصار حول حصن بابليون وأخذت المجانيق تدك هذه القلعة الرومانية الحصينة حتى استسلمت حاميتها في 9 أبريل 641م.

عهد أمان لبنيامين

ويذكر المؤرخ تقي الدين المقريري - نقلاً عن مصادر باكرة - أن سبعين ألفاً من رهبان مصر وفدوا من مختلف صوامعهم ويبيعهم لمقابلة عمرو بن العاص حاملين النواقيس مرمنين ومرحين بالعرب معلنين الولاء والحب، فما كان الفاتح عمرو بن العاص، إلا أن أصدر كتاباً يؤمن فيه البطريريك الهارب بنيامين على نفسه ويطلب إليه أن يخرج من مخبأه لكي يضطلع برعايته لكنيسة مصر من كرسية في الإسكندرية، بعد أن تحرر مصر من المقوقس وزبانيته.

وفي نوفمبر 641م - وكان الإمبراطور هرقل قد توفي⁽⁴⁾ دخل عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية، وأبحر الروم عنها في 17 سبتمبر 642م بصفة نهائية وفق ما اتفق عليه بين الطرفين. ويروى أن عمرو بن العاص استدعى البطريريك بنيامين واستقبله استقبالا حافلا، وانه قال لصحبه بأنه لم يشهد في كل فتوحاته رجلا يخشى الله مثل بنيامين هذا.

لقد حرر العرب بقيادة عمرو بن العاص أرض مصر، من كابوس هليني روماني طويل، وتنفس أهل مصر الصعداء وسطعت على أرض النيل الكريمة شمس فجر جديد من الإخاء ومن الساحة والعدالة والتكريم، وكان القائد عمرو بن العاص في مسلكه مع بنيامين ورعيته ينفذ قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالَوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ بِأَنْ يَنْهَضُوا قِيَامًا وَرُفْعًا وَأَنْهَضُوا لَاسْتَعْمَارًا. ﴿٥١﴾ وَإِذَا سَأَلُواكَ إِلَى السُّبُلِ فَحِمْهُمْ قَوْلًا تَعَفُّوا لَوْ كُنَّا جُنُودًا لَفُوقَ سَعَاةِنَا كُنَّا مَعَ الشَّاهِدِينَ. ﴿٥٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِالْقَوْلِ مَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. ﴿٥٣﴾ فَأَنْهَضُوا لِقَوْلِ الْجِنَّةِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٤﴾ [المائدة: 82-85].

الهوامش

(1) وبهذا تنتفي التهمة الزور بأن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية وقت الفتح العربي للمدينة سنة 641م.

(2) صور أمير الشعراء أحمد شوقي، هذه اللحظة الدرامية ابداع تصوير على لسان الكاهن المصري الأكبر أنوبيس في الأبيات التالية:

اكثري أيها الذئاب عواء	وادعى في البلاد عزًا وقهرًا
انشري واهتفي وغني وضجج	واسبحي في الدماء نابا وظفرا
لا وإيزيس ما تملككت إلا	واديامن ضيام الناب قفرا
قسما ما فتحتمو مصر لكن	قد فتحتم بهارلرومة قبرا

(3) وقال الله لإبراهيم: «وأما إسماعيل ففقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًا اثني عشر رئيسًا يلد واجعله أمة كبيرة» [سفر التكوين: 20].

(4) فسر البيزنطيون المعاصرون النكبات المتتالية التي حلت بالبيت الهرقلي بعد وفاة هرقل من اغتيال أبناءه الأمراء وأحدهم للأخر، من دس للسلم وسمط للعيون وسم للآذن، على أنها قصاص العدالة الإلهية من فعلة هرقل النكراء ألا وهي زواجه الثاني من المحارم: من أبناء أخته مارتينا.

(2)

**المنشآت المعمارية الصليبية
في عهد الملك فولك الأنجوي**

(1131 - 1143م)

سرور علي عبد المنعم

المنشآت المعمارية الصليبية في عهد الملك فولك الأنجوي

(1131 - 1143 م)

استطاع الصليبيون في بادئ الأمر، أن يحرزوا إنصارات على المسلمين، لكنها في الواقع لم تبعث في نفوسهم الثقة، ولا التفاؤل بالمستقبل فضلاً عن أنهم لم يطمئنا إلى مصيرهم ويقائهم في الشرق الأدنى⁽¹⁾ والحقيقة أن الموقع الجغرافي لمملكة بيت المقدس جعلها بصفة مستمرة معرضة لخطر الهجوم من جانب القوى الإسلامية المجاورة، وكان "طول مملكة بيت المقدس ما بين أربعمائة وخمسة مائة ميل"، وكان ذلك الكيان الطولي يعاني من نقص عرضه الذي كان حوالي خمس وسبعين ميلاً، بالإضافة إلى أنه على الجانب الصحراوي لتلك المملكة الساحلية لم يستطع الصليبيون إخضاعها، واللذين شكلتا خطراً دائماً في مواجهة الوجود الصليبي في بلاد الشام⁽²⁾

كذلك كان الصليبيون "أقلية غريبة"⁽³⁾، ولقد عانى الصليبيون من تلك المشكلة المزمنة، التي لازمت تاريخ وجودهم في بلاد الشام، فبعد نجاح الحملة الصليبية الأولى في تحقيق هدفها، عادت أعداد غفيرة من الصليبيين إلى الغرب الأوربي، في الوقت الذي كان الحجاج القادمين إلى فلسطين لا يمثلون دعماً بشرياً مستمراً ومضموناً.⁽⁴⁾

لذلك فما أن أدرك الصليبيون تلك المشكلة حتى واجهوها بصورة جزئية عن طريق استخدام عناصر المسيحيين الشرقيين من لبنان، والرها وهوران، وغيرها للإقامة في بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الأول (1100 - 1118 م / 493 - 512 هـ)، ومن جهة أخرى عملوا على تثبيت أقدامهم في المنطقة من خلال إقامة العديد من القلاع والحصون من أجل تعويضهم على قلة العنصر البشري⁽⁵⁾

وهكذا أصبح إنشاء العديد من القلاع والحصون هدفاً ملحقاً وأساسياً لتأمين طريق الحج المسيحي، ذلك لأن هبة ومكانة مملكة بيت المقدس الصليبية بصفة عامة كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً برعاية الحجاج القادمين إلى فلسطين من كافة أنحاء العالم من أجل القيام بشعائر الحجاج القادمين إلى فلسطين من كافة أنحاء العالم من أجل القيام بشعائر الحج. لذلك قصدها الآلاف من الحجاج المسيحيين من كافة الأرجاء وكان تأمينهم خلال رحلتهم إلى تلك البقاع بمثابة خير دعاية سياسية للقيادة الصليبية في أوروبا، لذا عمل الصليبيون على تشييد العديد من القلاع على طريق الحج، لتأمين حماية الحجاج من خطر مهاجمة المسلمين⁽⁶⁾

كذلك عمل الصليبيون على إقامة القلاع من أجل مساعدتهم على إسقاط المدن الإسلامية التي استعصت عليهم، ومن أمثلة ذلك قلعة صنجيل التي شيدها ريموند الصنجيلي Reymond de saint gilles (1045- 1105 / 439- 499) في عام (1104/ 498هـ) من أجل إسقاط مدينة طرابلس التي طال حصارها، وكذلك تشييد الصليبيين لقلعة الإسكندرونة seandalium من أجل إسقاط مدينة صور Tyer التي استعصت عليهم بفضل مناعتها الطبيعية، ومقاومة أهلها للصليبيين، بالإضافة إلى الدعم الفاطمي لها⁽⁷⁾ وهناك سبب آخر وراء تشييد الصليبيين للقلاع والحصون ببلاد الشام، فمن المعروف أن الحصن كان مظهرًا من هامة من مظاهر الإدارة في النظام الإقطاعي، فكان السيد يحتاج إلى مركز آمن ومحصن يدير منه إقطاعاته المختلفة، وقد ساعد موقع القلاع والحصون في بلاد الشام على القيام بذلك العمل⁽⁸⁾ وهكذا أدت كافة تلك الظروف السابقة إلى إهتمام الصليبيين بتشييد العديد من القلاع الحصينة التي فاق عددها ماتم تشييده من قبل سواء في العصر الروماني أو البيزنطي أو خلال الحكم العربي الإسلامي لبلاد الشام⁽⁹⁾ ولقد أحاطت مملكة بيت المقدس الصليبية نقلها بسلسلة من القلاع والحصون شيدت في مناطق إستراتيجية هامة، بالقرب من المسالك والحصون والدروب المؤدية إلى قلب فلسطين من الشمال والجنوب والشرق، أما الساحل فكان بمثابة بوابتها الطبيعية على الغرب الأوربي من أجل ضمان الحصول على الرجال والعتاد والأموال⁽¹⁰⁾.

تلك كانت أهم الأسباب العامة لقيام الصليبيين بتشييد قلاعهم الحربية أما عن الأسباب الخاصة وراء قيام الملك الأنجوي بإنشاء العديد من القلاع والحصون خلال فترة حكمه للمملكة (1131-1143 م، 256-528هـ) فنجد أن أسباب إنشائها تعددت وظائفها فمنها ما قام بحماية الحجاج كقلعة أرنولد ومنها ما قام بالدفاع عن المملكة ضد مدينة دمشق الإسلامية كقلعة الصبية وصفد وحصن شقيف أونون، ومنها ما قام بالدفاع عن المملكة من ناحية الجنوب الغربي ضد مدينة عسقلان الفاطمية مثل حصن بينه وبيت جبرين وتل الصافية ومنها ما قام بالدفاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية ضد الخلافة الفاطمية في مصر كقلعة الكرك.

القلاع والحصون في عهد الملك فولك

قلعة أرنولد (Chastel Ernaut)

تحسنت الأحوال الأمنية داخل المملكة زمن الملك فولك الأنجوي ولكن الطريق الممتد بين يافا وبيت المقدس، لم يكن مأموناً حتى إعتلاء الملك فولك العرش، ذلك أن "قطاع الطرق من المسلمين" لم يهاجموا الحجاج فحسب: بل منعوا المؤن من الوصول إلى مملكة بيت المقدس، فبينما كان الملك فولك في أنطاكية بعيداً عن المملكة سنة (1132م / 527هـ) أعد البطريك وليم الأول حملة لقتال قطاع الطرق، وشيد قلعة اشتهرت باسم (chastel ernaut) قرب بيت نوبه حيث تقع على الطريق من اللد إلى بيت المقدس⁽¹¹⁾ وكانت القلعة عبارة عن مستطيل، به أربعة أبراج مربعة بنيت من الحجر الأصم، لكي تؤمن طريق الحجاج بين يافا وبيت المقدس الذين كانوا يتعرضون لأخطار أثناء اجتيازهم لذلك الطريق، فلما تم تشييد القلعة، قل تعرض المسافرين الحجاج للخطر أثناء قدومهم من الساحل⁽¹²⁾.

كما ترتب على بناء تلك القلعة آثار إقتصادية هامة، فقد راجت التجارة، وسهل أمرها في تلك المنطقة" وبالتالي إنخفض سعر الطعام في مملكة بيت المقدس⁽¹³⁾.

قلعت بينه (Ibelin)

كان فولك مؤسساً عظيماً للقلاع، وكانت مدينة عسقلان ما تزال صادمة، وتعتبر حاميتها مصدر قلق وإزعاج دائم لمملكة بيت المقدس نتيجة إهتمام الخليفة الفاطمي بإمدادها كل ثلاثة

أشهر بحاميات جديدة، مع تزويدهم بالميرة والطعام والسلاح الوفير وكان من الطبيعي أن يحاول هؤلاء القادمون الجدد مضاعفة جهدهم للدلالة على شجاعتهم، لذلك كانوا يكثر من القيام بغارات وحملات هدفها التخريب، وإضعاف قوة الصليبيين فقرر الملك فولك إلاق منافذ عسقلان بواسطة حزام من الحصون والقلاع فقام ببناء قلعة بينه⁽¹⁴⁾ التي تقع على بعد عشرة أميال إلى الجنوب الغربي من اللد وفي بقعة غزيرة المياه، تتحكم في مفترق طريقين يمتدان من عسقلان إلى يافا وإلى الرملة، وقامت قلعة بينه على أنقاض مدينة يمنية (famina) الرومانية القديمة⁽¹⁵⁾.

كانت بينه عبارة عن قلعة مربعة ذات أبراج مربعة في الأركان ونتوءات مستطيلة ولما فرغوا من بناء القلعة وتحصينها من جميع الجوانب، قام الملك فولك بمنحها إلى أحد النبلاء ويدعي (باليان) الذي حظي برضى الملك فولك، بعد أن سانه ونصره على (هيولي بوزيه) حاكم يافا، الذي ذكرنا موقفه من الملك فولك من قبل، وقام باليان بالمحافظة على قلعة بينه أون "إيلين" طوال حياته، وحارب الفاطميين في مصر، وخلف سلالة عائلية رفيعة عرفت في تاريخ الحروب الصليبية "بيت إيلين" الذي كان يعدهم القدر لأن يلعبوا دورًا هامًا في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية⁽¹⁶⁾.

وكان من نتائج قلعة بينه أنها وضعت حدًا لغارات مدينة عسقلان، كما عبر عن ذلك بويس "وكبح جماحهم (أي الفاطميين)، وقلل من غاراتهم وأفسد عليهم خططهم"⁽¹⁷⁾.

أما تاريخ بنائها فليس معروفًا على وجه التحديد، فالبعض ذكر أن بعض بناء القلعة يرجع إلى عام (1141م/ 536هـ)⁽¹⁸⁾ والبعض الآخر ذكر أن ذلك كان في عام (1142م/ 537هـ)⁽¹⁹⁾ ومع ذلك ليس في الإمكان الأخذ بذلك التحديد الزمني بصورة نهائية وذلك لصمت مورخ المملكة الصليبية من ناحية، وإغفال المصادر التاريخية الأخرى لذلك التحديد، وتظل مسألة وضع تواريخ دقيقة لتشييد مثل تلك القلاع الصليبية، مسألة اجتهادية يختلف بشأنه الباحثون⁽²⁰⁾.

حصن بيت جبرين (Bethe Gibelin)

قام الملك فولك بإنشاء حصن بيت جبرين ضمن الحصون التي أنشأها، لكبح غارات العسقلانيين، ووقف غاراتهم داخل حدود المملكة⁽²¹⁾ كان بيت جبرين يقع على بعد إثني عشر ميلاً من عسقلان" على الطريقمن عسقلان إلى خليل⁽²²⁾ ولقد أصبح الحصن تابعاً لمنطقة الخليل St. Abraham وكان يعتبر مركزاً لمنطقة بئر سبع⁽²³⁾ وكان في بداية عهد الصليبيين بالشام مهدداً من جانب حامية عسقلان⁽²⁴⁾

وكان يرصد لنا وليم الصوري ظاهرة جديدة أصبحت مواكبة لعملية تشييد الحصون والقلاع الصليبية المجاورة للجهة الاسلامية وهي أن الصليبيين عندما قاموا بشييد حصن بيت جبرين اتبعوا خطة جديدة ستكرر أثناء جميع السكان الموجودين في المنطقة كما تم إضار البريرك والنبلاء الصليبيين كذلك⁽²⁵⁾.

ونستشف من ذلك من حضور ذلك الحشد الكبير الذي احتوى عناصر متعددة سواء ذات مكانه سياسية أو دينية يرجع إلى أهمية العمل ذاته كما كان الحرص على وجود البطريرك يعكس صورة الحافظ المعنوي والديني من أجل إنجاز البناء في همة وحماس وبأسرع وقت ممكن⁽²⁶⁾.

ولقد قام الملك فولك بتشيد ذلك الحصن فوق تلال بئر سبع التي يكثر بها الأطلال⁽²⁷⁾ ويقع على منتصف الطريق الواصل بين غزة وجنوب البحر الميت⁽²⁸⁾.

ووصف حصن بيت جبرين بأنه كان ذا بناء قوي، ومحاط بأربعة أسوار على شكل مربع كل طلع حوالي اربعين متراً، وكان يوجد في كل ركن من أركانه الأربعة برج فضلاً عن برجين إضافيين عند السور الشرقي، وكان يوجد بوابتان في نفس السور الذي يؤدي إلى بئر سبع، ونظراً لأن الحصن يرتكن إلى تل، فقد تم نحت غرف متسعة بشكل مخروطي على صف واحد⁽²⁹⁾، ويفسر البعض اسلوب نحت الغرف على ذلك النحو بأن اجزاءها العليا كانت تنتهي بفتحة ضيقة إلى الخارج لتوفير الإضاءة اللازمة داخلها، وعادة ما يكون لذلك النوع من الحصون بوابة واحدة تؤدي إلى فناء الحصن وذلك تسهيلاً للدفاع عنها⁽³⁰⁾.

كذلك استخدم الصليبيون الأساليب الشرقية في تزيين الحصن مثل السجاجيد وغيرها لإظهار الأبهة في حين استخدم النمط القوي في البناء⁽³¹⁾ والراجع أن الصليبيين استقوا قدرًا كبيرًا من العمارة الإسلامية في بناء حصونهم وقلاعهم.

أما عن دور هذا الحصن العسكري فقد تمكنت حامية بيت جبرين وبينه من إحكام القبضة على الطريق بين بيت جبرين والخليل وبيت لحم وبيت المقدس، وكذلك الطريق المؤدي إلى الرملة وبيت لحم وبيت المقدس، وكذلك الطريق المؤدي إلى الرملة ويافا⁽³²⁾ وبعد الانتهاء من بنائه قام بمنحه للفرسان الإيستبارية⁽³³⁾ وعلى الفور قام رجال الإيستبارية بتزويده بالمؤمن والسلاح⁽³⁴⁾.

كذلك أسس فرسان الإيستبارية تمستوطنة يسكنها الفلاحون الذين هم ممن أصل أوروبي، ومنح كل واحد منهم قطعة أرض مساحتها (1000 متر مربع) مقابل عشر المحصول، ومبلغ آخر يدفعه سنويًا، كما تعهد هؤلاء الفلاحون بالخدمة العسكرية، في مقابل الحصول على نصيب من الغنائم، وقد استوطنت اثنان وثلاثون أسرة في بيت جبرين بعضهم من الجيل الأول، والبعض الآخر من الجيل الثاني⁽³⁵⁾.

كذلك لم يتوقف دور الطائفة وفرسانها على الناحية الدفاعية فحسب، بل أصبحت مرابطة على خط الهجوم الأول لحدود مملكة بيت المقدس⁽³⁶⁾.

أما تاريخ بناء حصن بيت جبرين فاختلف فيه المؤرخون فمنهم من قال: أن ذلك عام (1134م / 529هـ)⁽³⁷⁾ أو عام (1135م / 530هـ)⁽³⁸⁾ أو عام (1136م / 531هـ) أما المؤرخون المحدثون فقد أجمعوا على أن التاريخ الحقيقي هو عام (1137م / 532هـ)⁽³⁹⁾.

حصن تل الصافية (Blanche Garde)

قرر الملك فولك ونبلائه والبطريك وليم وكبار رجال الكنيسة: إقامة حصن تل الصافية من أجل إحكام السيطرة على غارات العسقلانيين بجانب قلعة بينه وحصن بيت جبرين⁽⁴⁰⁾ أطلق عليه العرب اسم تل الصافية⁽⁴¹⁾ ويعرف في اللهجة الدارة (بلانش جارد) ومعناها في اللاتينية (برج المراقبة الأبيض)⁽⁴²⁾ ويعق تل الصافية إلى الجنوب من قلعة بينه على الطريق بين بيت لحم من ناحية، والرملة من ناحية أخرى⁽⁴³⁾.

قام الملك فولك بتجهيز العمال بكل ما يلزمهم للبناء، وأقاموا الحصن من الصخر الأصم على أساس قوي، وهو مربع الشكل، ومحاط بأربعة أبراج ذات ارتفاع ملائم، إذا علاه المروء طالع من فوقه مدينة عسقلان على امتداد البصر، ولا يخرجها عن ناظره عائق⁽⁴⁴⁾ يعجز تمييزها حال الإفا.

يعطينا حصن تل الصافية مثالاً لنوع رائع من الحصون النورمانية المعروفة باسم (keep) وهو ذلك الطراز الذي عرفه الصليبيون قبل رحبتهم إلى الشرق، وقد تميز ذلك الطراز بالضيخامة وسنك أسوداء وقوة بناه ويزيلج بهما فيسور البرج حصن تلك الصافية (أجر عشر قديماً) ولا يوجد للسور أي فتحات ما عدا تلك الفتحات التي خصصت لرمية الأسهم Archers، وباب صغير منخفض، وهو المدخل الرئيسي للحصن، كما أنه يوجد بالدور الأسفل بالحصن قاعة كبيرة⁽⁴⁵⁾ لذلك فكا كاد يكتمل بناء الحصن حتى وضعه الملك فولك تحت حمايته، وزوده بكميات ضخمة من الأطعمة، وزوده بالذخيرة، وعهد بحراسته إلى أرنولف وهو من أغنى وأقوى الأمراء في مملكة بيت المقدس الصليبية⁽⁴⁶⁾.

ترتب على بناء ذلك الحصن، إن أصبح سكان الإقليم المجاور يعتمدون اعتماداً كبيراً عليه وعلى الحصنين المجاورين، ونشأ حوله قرى كثيرة، استوطنتها أمرات كبيرة عاشت جنباً إلى جنب مع الفلاحين، وقاموا بزراعة الأرض حول الحصن لأنها كانت آمنة، وكانت الزروع تكفي حاجة الإقليم، فقد كانوا يزرعون القمح بكميات كبيرة، وقد كان ذلك الحصن من أحسن المدن⁽⁴⁷⁾.

نستشف من ذلك أن قلعة بينه وحصن بيت جبرين وتل الصافية غيرت من الوضع العسكري في الجنوب فمئنتين عسقلان أصبحت محاصرة بهذه الصورة وبالتالي قلت تدخلات العسقلانيين في مملكة بيت المقدس الصليبية⁽⁴⁸⁾ ويرجع تاريخ بناء الحصن إلى عام (1142م / 527هـ)⁽⁴⁹⁾.

قلعة الكرك (Petra Deserti)

أما عن المنشآت الحربية التي أقامها الملك فولك لحماية بقية أجزاء المملكة فإنه اتخذ عدة خطوات تكفل له السيطرة التامة على الإقليم الواقع شرق البحر الميت وجنوبه، بإقطاع الشوبك بقلعته الواقعة وسط تلال الشراة (Edom) هياً للصليبيين سيطرة كاملة على طرق القوافل التي

تمر من مصر إلى شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام، غير أن القوافل كانت لا تزال تحتاز ذلك الطريق، وكان الفاطميون حتى ذلك الوقت قادرين على القيام بغارات واسعة المدى على القوافل الصليبية وعلى النفاذ إلى داخل المملكة⁽⁵⁰⁾.

عندما تولى الملك فولك عرش المملكة (1131م / 526هـ) كان (رومان تدي بويه) سيداً على الشوبك وعلى إقليم ما وراء نهر الأردن ولما قام رومان دي بوي بالاشتراك في الثورة التي خاضها هيو حاكم يافا ضد الملك فولك كما ذكرنا سلفاً، قام الملك فولك بإنتراع ذلك الإقليم ومنحه إلى باجانوس PAGAHNUS ساقى المملكة، ولأجل ما اشتهر به باجانوس من كفاية ومهارة إدارية فقد حاول أن يوطد سلطانه على ذلك الإقليم⁽⁵¹⁾ والحقيقة أنه نجح في إحكام قبضته على الإقليم الواقع إلى الجنوب من البحر الميت، على أنه حدث في عام (1139 / 534هـ) وبينما كان الملك فولك يقوم بحملته على مدينة دمشق حاولت جماعة من المسلمين أن تعبر نهر الأردن، قرب إتصاله بالبحر الميت للإغارة على مملكة بيت المقدس فتوجهت جماعة من فرسان الداوية لقتالهم واستطاعوا القضاء على خطرهم، وكان ذلك سبباً قوياً لقيام باجانوس حاكم قلعة الشوبك بنقل مقره إلى مواب وهناك قام بعد موافقة الملك على تشييد قلعة على تل أطلق عليها المؤرخون اسم حجر الصحراء (petre deserti) وهي قلعة كبيرة بالغة التحصين، اشتهرت باسم قلعة الكرك⁽⁵²⁾.

كان لموقعها من الأهمية ما هيا لها السيطرة على طرق التجارة الممتدة من مصر وشبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، فضلاً عن أنها لم تكن شديدة البعد عن مخاضات نهر الأردن الأدنى، والمعروف أن الملك بلدوين الأول أقام في أيلة على شاطئ خليج العقبة، موقعاً للمراقبة، فقام باجانوس حاكم قلعة الكرك بإنزال حامية بالغة القوة بذلك الموضع، وفي قلعة وادي موسى، ولقد مكنت تلك القلاع، بالإضافة إلى الشوبك والكرك باجانوس من تقوية سيادته على إقليم ما وراء نهر الأردن⁽⁵³⁾.

ولقد قام باجانوس بحفر عدد من الأبراج ليجعل تلك القلعة مكنة آمناً، وكانت القلعة قائمة في الناحية الشرقية، أما في النواحي الأخرى فكانت عبارة عن جبل تحوطه وديان عميقة،

وهكذا كان السكان لا يحسون بالخوف طالما كان للقلعة سور له ارتفاع مناسب، ولقد كان الدفاع عنها أمرًا ميسورًا، حتى لو كان المدافعون قلة والمهاجمون كثرة⁽⁵⁴⁾ لما تمتعت به هذه القلعة من تحصينات⁽⁵⁴⁾.

كذلك قام باجانوس حاكم الكرك بنقل مقره في الشوبك من أيديوم إلى مؤاب (أي الكرك) كي يسيطر على الطرف الشمالي والطرف الجنوبي للبحر الميت⁽⁵⁵⁾.

ولا شك أن قلعة الكرك تلك، بالإضافة إلى قلعة الشوبك مكتا الصليبيين من بسط سيطرتهم على طرق المواصلات والتجارة والقوافل من بسط سيطرتهم على طرق المواصلات والتجارة والقوافل الواقعة جنوب البحر الميت وشرقه، مما أجبر البدو على الخضوع للصليبي، ودفع مقررات ثابتة لهم، وأصبحت تلك القلعة تسيطر بين مصر وغربي بالد العرب إلى الشام ولم تكن بعيدة عن مخاضات الحوض الأدنى لنهر الأردن⁽⁵⁶⁾.

نستشف من ذلك أن تلك الحصون والقلاع والأراضي الزراعية المجاورة لها كانت مناطق جذب تغري الصليبيون على القدوم إليها والاستقرار فيها وهذا ما حدث بالفعل فقد اندفعت أعداد غير قليلة من الصليبيين للاستيطان هناك ولحق بهم بعد قليل عدد من رجال الدين لإقامة الطقوس الدينية مما أدى بالتالي ظهور بعض التجمعات السكانية على هيئة قرى صغيرة قام سكانها بزراعة الأرض حول تلك القلاع والحصون دفعوا في مقابل ذلك الضرائب إلى حكامها ولذا تولو حمايتهم من هجمات المسلمين.

والحقيقة أن فولك كان من أعظم بناء الحصون والقلاع وأنه اتبع في ذلك سياسة أسلافه العظام ببلدوين الأول والثاني بل إننا لانغالي إذا قلنا أنه قد تنوق على أسلافه في هذا الجانب حيث أنه لم يترك أي ثغرة تهدد مملكة بيت المقدس إلا وقام بتحصينها فقد حصن المملكة من ناحية عسقلان وحماية طرق المواصلات وفي نفس الوقت لم يهمل الجهة المواجهة من ناحية عسقلان وحماية طرق المواصلات وفي نفس الوقت لم يهمل الجهة المواجهة لمدينة دمشق التي كانت مصدر قلق وإزعاج بالغ للصليبيين في مملكة بيت المقدس فقد قام الملك فولك بتحصين بعض القلاع

القديمة تارة والاستيلاء على بعض قلاع المسلمين تارة أخرى مثل قلعة صفد وقلعة كوكب وقلعة الصبية وحصن شقيف ارنون كما سبق بيانه.

قلعة صفد

لم يكف الملك فولك ملك بيت المقدس عن مواصلة نشاطه لرعاية مصالح الصليبيين وتحصين بلادهم والدفاع عن كياناتهم، من ذلك أنه بني قلعة صفد جنوبي دمشق، على جبل عاملة في الجليل الأعلى شرقي عكا وشمال شرقي بحيرة طبرية⁽⁵⁷⁾ كانت قلعة صفد تسيطر على المنطقة الواقعة بين وادي الحولة ونهر الجليل، حيث يوجد الطريق بين دمشق وطبرية، وكان الهدف من إنشاء قلعة صفد هو الدفاع عن مملكة بيت المقدس ضد إغارات المسلمين من ناحية دمشق⁽⁵⁸⁾.

كانت القلعة تحت سيطرة أمير الجليل، ثم تحولت بعد ذلك بشكل تناوبي إلى ملكية فولك عام (1140م / 535هـ)، في ظروف غير معروفة، ثم قام الملك فولك بتوسيعها وتحصينها في نفس⁽⁵⁹⁾ وأشار إليها أحد المؤرخين المحدثين بأنه من أقوى القلاع الصليبية وأحصنها⁽⁶⁰⁾.

ثم قام الملك فولك بمنحها للفرسان الداوية عام (1141/ 536هـ) وذلك نظرًا للخبرة العسكرية التي اكتسبها في أعمال الدفاع من جهة، ومعرفتهم بطرائق المسلمين في الحرب والقتال من جهة أخرى⁽⁶¹⁾ وقد شرع فرسان الداوية في زيادة تحصينات قلعة صفد وتقويتها، فأقاموا برجًا كبيرًا في الجانب الغربي منها، وعملوا على تعليية أسوارها، واستغلوا في سبيل ذلك الصخور الضخمة الموجودة في تلك المناطق، وبنوا بها أيضًا مستودعًا كبيرًا لتخزين المياه، مما جعل القلعة قادرة على الصمود بعدد قليل من المحاربين، وكان يقيم بالقلعة وقت السلم ألف وشبعمائة محارب زادوا إلى ألفي محارب في أوقات الحرب، كما كان يقيم بها في الأوقات العادية خمسون فارسًا، مما جعلها تلعب دورًا واضحًا في الصراع الصليبي للإسلامي⁽⁶²⁾.

قلعة كوكب (Belvoir)

أما قلعة كوكب التي كانت شبيهة بحصن بيت جبرين في بنائه، فقد كانت لها عدة أسماء وردت في المصادر المختلفة، فقد جاءت في المصادر العربية باسم كوكب الهواء وحصن كوكب⁽⁶³⁾ أما الأجنبية فقد أشارت إليها بأسماء (بلفوار) (ويوفوار) (Beauvoir)⁽⁶⁴⁾.

وهي قلعة تقع شمال مدينة بيسان، وشرق مدينة جبل طابور وترتفع عن سطح البحر بنحو واثنى عشر متراً⁽⁶⁵⁾.

وتقع تحت سيادة أمير الجليل، ولا نعرف متى قام الصليبيون ببناء القلعة، ولكن يرجح أنها شيدت بين عامي (1138-1140م / 533-535هـ) بواسطة الملك فولك أو بمساعدته، لأن تلك الفترة شهدت أعمال تحصينات متزايدة ومكثفة على طول حدود المملكة، والحقيقة أن البناء الأول للقلعة كان صغيراً يمتلكه أمير يدعى إيفوفيلوس (ivovelos)⁽⁶⁶⁾ وكان الهدف من بناء هو حماية الطريق المحلية⁽⁶⁷⁾.

قام الملك فولك ببنائها على الأسلوب البيزنطي، فقد كان يحيط بها سور خارجي، يكاد يكون مربع الشكل تقريباً، ويدعمها سبعة أبراج كما كان لها تحصين طبيعي من جانب سورها الشرقي، إذا وقع في ذلك المكان منحدر تلال وادي الأردن، ولذلك لم تكن القلعة في حاجة إلى تحصينات إضافية، وكانت أبراجها مربعة الشكل، وعلى ذلك كانت قلعة كوكب من القلاع الهامة التي أقامها الملك فولك⁽⁶⁸⁾.

قلعة الصبيبة (Subibe)

تقع قلعة الصبيبة جنوب جبل الشيخ وبنيت لكي تتحكم وتكشف أي تقدم يرد من جهة دمشق، تم بناؤها في عهد الملك فولك عام (1141م / 536هـ) لاختضاع الأهالي في منطقة الريف المحيطة بالقلعة وللدفاع عن بانياس التي تقع بالقرب منها من جهة⁽⁶⁹⁾ لأنها معرضة لهجمات المسلمين الكثيرة، حتى إن الصليبيين المقيمين ببانياس كانوا يخافون الخروج من المدينة، أو الدخول إليها إلا تحت حراسة مشددة، أو من خلال طرق سرية خوفاً من هجمات المسلمين⁽⁷⁰⁾.

وقد زاد الصليبيون من قوة القلعة بما أضافوه إليها من استحكامات تمثلت في الأبراج المحصنة المحاطة بالخنادق، والأسوار الحاجزة في شكل غير منتظم، وأما من جهة الشمال فكان فيها ما يكفي من الحماية الطبيعية بسبب إنحدار دبل الشيخ المخيف لأي عدو يتقدم من تلك الناحية بناء دخلي وخارجي شأنه في ذلك شأن العديد من القلاع الصليبية⁽⁷¹⁾.

كان للقلعة دورًا اقتصاديًا إلى جانب الدور العسكري تمثل في الاشراف على الوادي المحيط بها كلها، وكان لوجود القلعة في تلك المنطقة الزراعية اثره في موافقة حكام دمشق على اقتسام عوائد المنطقة مع الصليبيين في بانياس (72).

حصن شقيف ارنون:

قام الملك فولك بالاستيلاء على حصن شقيف ارنون من حاكمة شهاب الدين حاكم دمشق عام (1139م / 534) (73).

وكان الاستيلاء عليه جزء من خطة محكمة تهدف إلى الاستيلاء على الحصون والمعازل الشمالية لتحصين مملكة بيت المقدس من الشمال (74).

يقع حصن شقيف ارنون في جنوب لبنان فوق جبل عاملة الذي يرتفع 750م عن سطح البحر مقابل نهر الليطاني (75) الذي يحد حصن شقيف ارنون من ناحية الشرق، يحده البحر المتوسط من ناحية الغرب ومن الجنوب قلعة هونين الجنوب الشرقي قلعة الصبيبة، ومن الجنوب الغربي حصن توروب تبين، وأيضًا حصن المارون، وهما يتحكمان مع حصن شقيف ارنون في ميناء صور ويحده من الشمال الغربي مدينة صيدا (76).

قام الملك فولك بإدخال بعض التحصينات على حصن شقيف ارنون لتعزيز موقفه، وحياته من أي هجوم يأتي من جانب المسلمين، فقام ببناء أحد الأبراج في الجهة الجنوبية منه، وأقام سورًا قويًا حول الحصن في عام (1139 / 534هـ) مما ضمن حمايته من هجمات المسلمين في دمشق (77) كذلك لا تنحصر قوة حصن شقيف ارنون في ارتفاع السواره وامتانتها وكثرة أبراجه والخنادق المحيطة به، بقدر ما يتمتع به من صعوبة في الوصول إليه نسبيًا، وصموده أمام عمليات الاقتحام الكبيرة التي يتعرض لها من حين لآخر من قبل أعدائه، ولطبيعة ارض حصن شقيف ارنون اثر كبير جعلته في مصاف الحصون الأخرى القوية الموجودة في بلاد الشام زمن الصليبية الأخرى القوية الموجودة في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية (78).

لقد عمل الصليبيون على توفير أسباب الراحة والحياة داخل حصن شقيف ارنون، فكان الحصن مصمماً بحيث يتلاءم مع ظروف المناخ فيكون دافئاً في فصل الشتاء ومعتدلاً في الصيف وساعد على ذلك ضخامة جدرانها⁽⁷⁹⁾ ونوافذه الضيقة، كما كان الحصن يحتوي على آبار للمياه، ومخازن للواد الغذائية ومطاحن، ومعاصر وأفران ومطابخ وثكنات للجنود تستخدم للنوم أو لصناعة السفن، كما احتوى أيضاً على قاعات تستخدم للاجتماعات، وعلى كنيسة، وغرف للسجن، وحمامات واسطبلات، وحظائر لقطعان الخيول والغنائم⁽⁸⁰⁾.

ظل حصن شقيف ارنون تحت سيطرة الملك فولك، ثم قام بمنحة إلى القائد ويندفيليس (windfalls) مقابل بعض الإلتزامات الإقطاعية كان يقدم حاكم الحصن إلى الملك فولك ستين فارساً لمسائته عند الحاجة ولم تحدد المصادر التي بين ايدينا وتناولت تلك الفترة الزمنية فترة حكمه لذلك الحصن أو حيازته لذلك الإقطاع⁽⁸¹⁾.

المنشآت الدينية في عهد الملك فولك الأنجوي

أصبحت مملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك تنعم بحالة من⁽⁸²⁾ إذا أن البارونات برهنوا على ولائهم الصادق بمساندتهم للملك بعد أن قمع فتنة هيو حاكم يافا ويعد أن هدأت ثائرة الملكة ميلسندا من رغبتها في الإنتقام إلى جانب دوام العلاقات الطيبة بين الملك وكنيسة بيت المقدس فلقد كان البطريك وليم الأول الذي سبق أن توج الملك فولك، والذي عاش بعده صديقاً وفيّاً له⁽⁸³⁾ وأما الملكة ميلسندا فكانت كلها تقدمت في العمل زاد شغفها بأعمال البر، فتبنت فكرة بناء أحد الأديرة ليكون مقرّاً لعبادة المرأة داخل المملكة، ورغبت بذلك العمل للتكفير عن خطاياها وخطايا والديها وزوجها الملك فولك⁽⁸⁴⁾.

وكان للملكة ميلسندا اخت تدعى إيفتا iveta أصبحت راهبة في كنيسة القديسة (أن) أم القديسة ماري، واندمجت بين الراهبات داخل دير بسيط لكن الملكة ميلسندا بما كانت تصف به في بداية حياتها الملكية من غرور زائد وأيضاً بإشفاقها على اختها، رأت ذلك الوضع لا يليق وأن اختها يجب الاتعامل معاملة الأشخاص العاديين من أهل المملكة⁽⁸⁵⁾ لذلك قامت بنفسها

بمسح كل ارضي المملكة، وأخذت تبحث عن المكان المناسب لبناء دير فخم من القدس فانتهى بها المطاف إلى بناؤه في بيثاني Bethany بالقرب من القدس، كما قامت بإنشاء التحصينات القوية والأبراج العالية حول الدير للدفاع عنه ضد أي محاولة للاعتداء عليه⁽⁸⁶⁾.

بعد ذلك "أمرت ببناء كنيسة جميلة بالدير وجمع للراهبات وأروقة للنوم ومرافق أخرى بالطريقة التي كانت تعجب أصحاب الدير⁽⁸⁷⁾".

كما سبق يتضح لنا حرص الملكة ميلسند على إقامة الدير المذكور وقبله السعي بحثًا عن الموقع المناسب، والتفاوض مع كهنة الضريح من أجل الحصول على أرض الدير، وإذا كانت ميلسند قد حرصت على تأمين الموقع ببرج متين: فإنها أنفقت بسخاء على راهبات الدير " فأغدقت عليهن الكثير من المنح والهبات مثل الكؤوس والصلبان الذهبية، والشامعدانات الفضية، والأغطية الحريرية، ومعاطف القداس، وملابس أخرى ثمينة، إلى جانب الأموال الطائلة " فأصبح الدير أغنى دير في مملكة بيت المقدس وكان من الممتلكات التي وهبتها الملكة ميلسند أيضًا لذلك الدير "مدينة اريحا الشهيرة بكل ملحقاتها"⁽⁸⁸⁾ ووفقًا للعادة المتبعة فبعد انتهاء عملية بناء الدير واعداده لأداء المراسم الدينية، أنزلت الملكة به أخوات طاهرات عهدت برعايتهن إلى سيدة مورقة تدعى ماتيلدا maithilda وكانت سيدة طاعنة في السن لكنها ذات خبرة ناضجة، أهلتها لتحمل مسئولية الدير والراهبات⁽⁸⁹⁾.

والراجح أن ميلسند كانت حريصة أيضًا على إختيار تلك الراهبة بالذات، وجعلها على رئاسة الدير لكونها سيدة مسنة، أملاً في أن تخلفها أختها إيفيتا في أقرب وقت، وهو ما حدث بالفعل، فما لبثت ماتيلدا أن ماتت بعد بضعة شهور، وقامت ميلسند بتعيين أختها لتخلفها في رئاستها للدير بعد موافقة البطريرك وليم، ورضاء الراهبات أنهسن⁽⁹⁰⁾.

كانت إيفيتا عند توليها رئاسة الدير لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها وظلت بقية حياتها الطويلة تحتل مركزًا جليلاً مرموقًا باعتبارها أميرة من الأسرة المالكة، بالإضافة إلى ما أوقفته على الدير من هبات ومنح جمّة⁽⁹¹⁾.

وقد قام الملك فولك ببناء عدد من الكنائس عن طريق زوجته التي كانت حسب قول أولدبنرج «أولدبنرج»، وكانت ميلسند متدينة تديناً شرقياً وحتى وفاتها استطاعت أن تحتفظ بولعها باكتائس⁽⁹²⁾.

وكذلك انشأ الملك فولك كنيسة بيت جبرين مع بنائيه لذلك الحصن عام (1134م/528هـ) تقريباً، وقد تم للأثرين التعرف عليها من خلال الأعمدة ذات التيجان دقيقة البناء التي تتخذ شكل ورقة نبات الأكتوس Aconrthus (شوك اليهود) والراجح "أن كثيراً من تلك التيجان التي كانت تشبه النمط البيزنطي، قد اخذت من المباني القديمة"⁽⁹³⁾.

وفي نفس العام أنشئت كنيسة القديسة آن بمساعدة العائلة الملكية، وكانت إيفيتا ابنة بلدوين الثاني وأخت الملكة ميلسند راهبة في كنيسة آن، وكان للكنيسة أملاك لا يستهان بها في القدس، وكان البناء يتألف من صدر للكنيسة وعمرين وثلاث مشربيات وجناح غير بارز به ثلاث تقويسات تتجه ناحية الشرق، واستخدم البناءون أسس الكنيسة البيزنطية القديمة⁽⁹⁴⁾ قام أقام فولك كنيسة لازاروس التي تقع خارج السور الشمالي للقدس.⁽⁹⁵⁾

كذلك إهتم الملك فولك ببناء المقابر الجنائزية، وخاصة مقبرته التي يبدو أنه قد استخدم فيها قطعاً من الهندسة البيزنطية، وكانت تنتمي لطراز المقابر الصليبية للملوك الأوائل للمملكة بيت المقدس، فقد كانت تتضمن قاعدة مسمطة ذات شكك مكعب، وتابوت منخفض وأربعة أعمدة صغيرة مرتكزة على زوايا التابوت، لكي تحمل أعمدة الغطاء، وهناك عمود خاص يحمل منتصف الواجهة الأمامية⁽⁹⁶⁾ وكانت تلك المقابر في الجزء الجنوبي من كنيسة الضريح المقدس⁽⁹⁷⁾.

نخلص من ذلك كله أن الملك فولك قام بتدعيم المملكة وتقويتها وذلك ببناء الحصون حيث قام بينا ثلاثة حصون لتكون خط الدفاع ضد عسقلان واستطاع أن يقلل من هجمات الفاطميين على المملكة كما قام ببناء قلعة الكرك في الشرق وعدد من الحصون لحماية المملكة من ناحية دمشق وحماية طرق الحجاج وفي أثناء ذلك كانت الأبنية الدينية والكنائس تقام في جميع نواحي المملكة واكتظت مدينة بيت المقدس بالمباني الضخمة ذات الفن المعماري الإيطالي ووصت المملكة في عهد الملك فولك على حد تعبير كوندرا "إلى ذروة الرخاء والتقدم"⁽⁹⁸⁾ وهكذا اعتبر الملك فولك "آخر ملك صليبي صميم لمملكة بيت المقدس"⁽⁹⁹⁾.

الهوامش

- (1) فيليب حتي: لبنان في التاريخ. ت: أنيس فريجة، بيروت 1959، ص 355.
- (2) محمود محمد الخويري: الأوضاع الحضارية، ص 184 - 185.
- (3) سميل: الحروب الصليبية، ص 137.
- (4) ميخائيل زابوروف: المرجع السابق ص 157، محمود محمد الخويري: المرجع السابق؛ 185؛ محمد مؤنس أحمد عوض: وليم الصوري مؤرخًا للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية (1137 - 1150/532 - 454هـ) مركز بحوث الشرق الأوسط عدد 180، القاهرة، ص 10-11.
- (5) prawer, (j): the settlement of the latin in Jerusalem. S.vol xxxii, cambridg, 159. p. 496.
- (6) عبد الرحمن زكي: القلاع ص 58؛ محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص 12.
- (7) فوشية دي شارتر: المصدر السابق، ص 132؛ عبد الرحمن زكي: القلاع، ص 50.
- ريموند الصنجيلي: هو ريموند الرابع أمير تولوز المعروف في المراجع العربية بالنصجيلي نسبة إلى مقاطعة Saint gilles بفرنسا وهو رجل حنكته التجارب حتى بلغ الستين من عمره، ولقد أسهم من قبل في محاربة مسلمي الأندلس، ولعل ذلك راجع إلى زواجه من الفيرا الأرجوانية من البيت المالك بأسبانيا وتوفي في عام (1105م/ 499م).
- (حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، القاهرة 1985، ص 67؛ السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلاميين الاسكندرية 1963م ص 96).
- اسكندرونه (Seandalium) تقع بالقرب من صور وحددها التبعض بأنها بين صور وعطا وأنها سميت سكاندليو وتعني ميدان الأسد Field of the Lion.
- (شيخ الربوة الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليزج، 1923، ص 57، إبراهيم خورشيد وآخرون: الاسكرونه، دائرة المعارف الإسلامية، م 3، القاهرة، 1966، ص 222 - 223.
- (8) نبيلة مقامي: المرجع السابق ص 70.
- (9) عبد الرحمن زكي: القلاع، ص 58.
- (10) يوسف درويش غ وانمة: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، عمان 1948، ص 115، عبد الرحمن زكي: القلاع، ص 50.
- (11) وليم الصوري: المصدر السابق. ج3. ص 102؛ رنسيان: المرجع السابق، ج2. ص 371-372.

- يتفق كثير من المؤرخين على أن تاريخ بناء تلك القلعة نهاية عام (1132م/527هـ) وبداية عام (1133م/528هـ).

Op, cit, p.19., deschamp. (p)

- رنسيان: المرجع السابق، ص 372؛ سعيد عبد الفتاح عاشرو: المرجع السابق، ج 1، ص 421).

(12) وليم الصوري: المصدر السابق. ج 3، ص 102؛ 315 op. cit. p. benvenisiti, (m)

- رنسيان: المرجع السابق، ج 2 ص 372.

(13) Bevenisiti, (m): op.cit,p. 314.

(14) وليم الصوري: المصدر السابق، ج 3، ص 131

(15) deschamp (p): op. cit. p. 101: fusebe (f): op. cit, p.220 prawer, (j): op. cit. p. 133.

- وردت بينه في المصادر العربية بأسماء: بينه، وجينه وجبيل.

- (Lestrang) (G) plaestin under moslem. p. 553.

- كان الملك فولك الأنجوي من نسل عائلة من الأمراء الأنجفين، الذين كانوا من كبار بناء القلاع، وقام باختراع نوع من القلاع مكون من حصن مستطيل ومحاط بسور مزود بأربعة أبراج

deschamp, (p): op. cit.236.

(16) وليم الصوري: المصدر السابق ج 3 ص 210؛ رنسيان: المرجع السابق، ج 2، ص 368.

- كان باليان رجلاً عظيماً معروفاً بالولاء. كان شقيقاً لأمير شارتر، أتى إلى فلسطين مع عشرة من فرسانه وأتباعه. وتزوج من هيلفيس Helfies وارثة الرملة، وأصبحت أسرته أشهر أسرة أرسقراطية في الشرق الصليبي.

- (وليم الصوري: المصدر السابق، ج 3، ص 210؛ رنسيان: المرجع السابق، ج 2، ص 368.

(17) boase, (j): op. cit, p 79.

(18) deschamp (p): op. cit, p. 11: Benvensit,(m): op, citp. 316.

(19) مولرلر: المرجع السابق ص 18.

(20) محمد مؤنس عوض: المرجع السابق ص 18.

(21) King (j) cit, p, 34 stevetn.(t): op, cit, p.50.

- عبد الرحمن زكي: القلاع، ص 58: مولرلر: المرجع السابق، ص 16.

- بيت جبرين: مدينة قديمة بالشام وأهلها قوم من جزام، وأطلق عليها الصليبيون خطأ قلعة بئر سبع

- (ياقوت الحموي: المصدر السابق، جـ 1، ص 519؛ الجميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ت د /إحسان عباس، بيروت 1980، ص 156؛ رنسيان: المرجع السابق، جـ 2، 369.
- (22) deschamp, (p): op,p, 10:Benensiti, (m) op,cit, p.86.
- (23) عبد الرحمن يونس وآخرونك دائرة المعارف الإسلامية، م 4 ص 371.
- (24) نبيله مقامي: المرجع السابق ص 77.
- (25) نبيلة مقامي: المرجع السابق ص 78.
- (26) محمد مؤنس عوض: المرجع السابق، ص 14-15.
- (27) وليم الصوري: المرجع السابق جـ 3 ص 131.
- Boase, (t) Military Architecture in the Crusader States in Pallastin and Ayria in Setton, vol.5. Pensylvaina.1985.142.
- (28) Grousset (r) cit, t.2,p.157 Conder: (c): op cti.98.
- (29) Deschamp, (p): op,p, 123.
- (30) Benvensiti. (m): ip.cit.p.220.
- (31) Prawer, (j): op. cit.p.516.
- (32) Prawer, (j) I bid.p.29.
- (33) وليم الصوري: المصدر السابق، جـ 3، ص 131.
- Delaville, (L. R): op, cit, pp 48 -51: Rohorich (r) Regesta pp 40-41.
- (34) وليم الصوري: المصدر السابق جـ 3 ص 132.
- Brousset, (r) op, cit t.2p.158.
- (35) Benvensit (m): op. cit.p. 186: Prawer, (j): op.cit.p 138.
- (36) Stevenson (w.B): op.cit.p.137, (r): op. cit.T.2 p.157.
- (37) op: cit, p.10 Deschamp. (p).
- (38) Martin: op, cit. pp.34-34.
- (39) Prawer, (j): op, cit, p.183.
- (40) Boase (t): op, cit, p.79.
- موللر: المرجع السابق، ص 18.
- وليم الصوري: المصدر السابق، جـ 3 ص 210، رنسيان: المرجع.

(41) Le strong (G) cit.p.544 Deschamp. (p): op. cot. P.37.

(42) وليم الصوري: المصدر السابق، جـ ص 210.

(43) King (j) op, cit, p. 34: Preawer, (j) op, cit, p299: Beavensiti, (m): ip, cit p,116.

(44) وليم الصوري: المصدر السابق، جـ 3، ص 210.

(45) نبيلة مقامي: المرجع السابق، ص 90.

(46) وليم الصوري: المصدر السابق، جـ 3، 211، رنسيان: المرجع السابق؛ 2، ص 369.

(47) وليم الصوري: المصدر السابق، جـ 3 ص 211؛ Grouisset. (R) op. cit.t.2.p.157.

(48) Prawer (j): op. 330.: Boase (t) op.cit.p.69:

- عبد الرحمن زكي المرجع السابقص 127؛ موللر المرجع السابق، ص 16.

- لم يكن بناء قلعة بينه وحصن تل الصافية وبيت جبرين ضمن خطة معدة مسبقة، وإنما ارتبط بناؤها بالظروف الموضوعية لتطوير الأوضاع السياسية والعسكرية في المنطقة.

- (صلاح الدين عبد المنعم: قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية. رسالة ماجستير غير منشورة، بنات عين شمس 2000م ص 66-67).

(49) عبد الرحمن زكي: المرجع السابق. ص 127.

(50) رنسيان: المرجع السابق، جـ 2، ص 369؛ سعيد عبد الفتاح عاشرو: المرجع السابق، جـ ص 468.

- الشوبك: قلعة كبيرة، وغالب سكانها من النصارى، تقع إلى الشرق من عربة في جبال الشراة، وقد شيد بلدين الأول تلك القلعة عام (1115م / 509هـ) في ثمانية عشر يوماً وأطلق عليها الصليبيين اسم مونتريال (montereal).

- (أبو الفداءك تقويم البلدان، ص 237، ارنست باركر: المرجع السابق، ص 46، دائرة المعارف الإسلامية/ 13، ص 438-439).

(51) Prawer. (j): op cit, pp 331-332: Rey (f).p.19

- رنسيان: المرجع السابق، جـ 2 ص 369.

(52) Fedden (r): Crusader Castles, London 1950 p.31: Strang: op cit.p.. 479 Boase (t) op cit. p. 79

- الكرك: قلعة حصينة على طريق اللقاء من ارض الشام من ناحية جبال الشراة وفي موضوع آخر يقول ياقوت الحموي الكرك اسم لقلعة حصينة جداً وهي على جبل عالي.

- (ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ 4 ص 262).

- كما قال عنها ابن شاهين الظاهري قلعة ليس لها نظير في الاسلام ولا في الكفر.

- (ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف المالك ص 43).

(53).

(54) وليم الصوري: المصدر السابق، ج 3 ص 328.

- rey. (f) op. it p.19

- سعيد عبد الفتاح عاشرو: المرجع السابق، ج 2، ص 601؛ محمود رزق محمود: العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصالح الدين الأيوبي حتى معركة حطين عام 1178م، رسالة ماجستير غير منشورة، آجاب عين شمس 1987، ص 53.

- كانت تلك الأبراج القوية التي بدأها الصليبيون في الكرك، لمي يسبق لها مثيل في العمارة العسكرية، وكان الصليبيون يشيدون نزل الحصون في بادئ الأمر في أسهل مكان دفاعي في القلعة وكلنهم بعد التجربة وجدوا أن خير مكان يشيدوها هو ذلك المكان الذي يتطلب الدفاع عنه أقوى أعمال الحصين.

- (عبد الرحمن ذكي: المرجع السابق، ص 57).

(55) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ج 2، ص 601؛ محمود رزق محمود: العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصالح الدين الأيوبي حتى معركة حطين عام 1178م، رسالة ماجستير غير منشورة، آجاب عين شمس 1987، ص 53.

- كانت تلك الأبراج القوية التي بدأها الصليبيون في الكرك، لمي يسبق لها مثيل في العمارة العسكرية، وكان الصليبيون يشيدون نزل الحصون في بادئ الأمر في أسهل مكان دفاعي في القلعة وكلنهم بعد التجربة وجدوا أن خير مكان يشيدوها هو ذلك المكان الذي يتطلب الدفاع عنه أقوى أعمال الحصين (عبد الرحمن ذكي: المرجع السابق، ص 57).

(56) Grousset. (r) op, cit, t.2. p160.

(57) Grousset. (r) cit. t.p. 138.

- صفد: بلدة متوسطة ولها قلعة ذات بناء جيد، وهي مشرفة على بحيرة طبرية ولها قناة للشرب تبصل إلى باب قلعتها وبساتينها اسفل الوادي.

- (أبو الفداء: تقويم البلدان ص 223 طه نلجة الطروانة: مملكة صفد في عهد المالك، بيروت 1982 ص 58؛ دائرة المعارف الإسلامية م 14 عدد 1 ص 215).

(58) king.(j): op. cit, p 36: conder (c): op cit p.51:

- سعيد عبد الفتاح عاشرو: المرجع السابق، ج 1 ص 468 نبيله مقامي: المرجع السابق، ص 87.

(59) *benvensiti, (M) op. cit, pp, 201-202*

(60) طه ثلجة الطراونة: المرجع السابق ص 58.

(61) يعقوب الفكري: المصدر السابق ص 61 إبراهيم خميس إبراهيم: المرجع السابق ص 79.

(62) *king, (j) op. cit. p. 3: benvensiti (m): op. cit pp. 201-204:*

- إبراهيم خميس إبراهيم: المرجع السابق. ص 79؛ نبيه مقامي: المرجع السابق ص 88

(63) أبو شامة: كتاب الروستين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ت/ محمد حلمي أحمد، القاهرة 1956م

ج 1 ق 1 ص 135؛ مصطفى مراد الدباغ: بالدنا فلسطين ج 6 ق 2 519 - 520

(64) *fedden © op. cit, 22. Desechamp, (p) cit 122*

- كوكب: اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية، وهي قلعة حصينة تشرف على نهر الأردن فتحها

صلاح الدين ضمن ما فتحه من البلاد ثم خراب بعد ذلك

- ياقوت الحموي: المصدر السابق ج 4 ص 494).

(65) بوركا هارد: المصدر السابق ص 95 .

- *Prawer (j) op.cit.p.200*

- مصطفى مراد الدباغ: المرجع السابق، ج 6 ق 2 ص 519 - 520.

(66) *benvensiti. (m): op. cit. p. 295*

- نبيلة مقامي: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(67) عبد الرحمن زكي: المرجع السابق، ص 59 نبيلة مقامي: المرجع السابق ص 78.

(68) *fedden. (r): op. cit. p.25*

- فيليب حتى: لبنان في التاريخ، ص 21؛ موللر: المرجع السابق، ص 53

- الصيبية: اسم لقلعة بانياس وهي من الحصون المنيعة

- (أبو الفداء: تقويم البلدان، ج 4 ص 239).

(69) فيليب حتى: المرجع السابق ص 210.

- استولى الملك فولك على قلعة الصيبية نتيجة نشوب صراع عربي داخل بين حكام حلب ودمشق، حوصت

القلعة وأخذت بقوات مشتركة صليبية ودمشقية وسلمت إلى الصليبيين عام (1140م/ 535هـ).

(70) (ابن شداد: الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ج 3 دمشق 1962 ص 414 فيليب حتى:

المرجع السابق، ص 210 (ص 293) أما المصدر السابق فقد ذكرته بأسماء مختلفة مثل حصن ارنولد

(Arnold castles).

- Haytom: le floride estoiri de terre de r.Ilc coc..arm t.2 paris, 1889 p. 1889p.174

وحسن بلفورت fedden (r) op. cit.....

- Grousset (r): op, cit t.2p.261

في كتابه فيليب حتى ابن الملك فولك على حسن شقيق ارنون كان في ام (1135ك: 530هـ) و.... أنه في عام

(1139م/ 534هـ) امتازا إلى ابن شهاد (فليب) من ص 358.

(71) وليع الصوري: المصدر السابق ج 2 ص 181 نبهه مقامي: المرجع السابق، ص 40.

(72) سميل: فن الحرفي ص 223.

(73) fedden. (r) op cit p.255: grousset (r) pp. cit: t.2 p 370

- ابن شهاد: المصدر السابق ج 2 ص 154، مولد المرجع السابق ص 81، طه ثلجة الطراونة: المرجع السابق

ص 150.

- عرف حسن شقيق ارنون بأسماء مختلفة ورد ذكرها في المصادر العربية منها شقيق هرون حتى (فليب حتى:

المرجع السابق، ص 70) وشقيق ارنون.

- (ابن الأثير: المصدر السابق ج 12 ص 27) وشقيق اربلان (سيط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان

حيدر آباد 1951 ج 8 ق 1

(74) ابن شهاد المصدر السابق.... سرور على عبد النعم: الدور السياسي لحسن شقيق... الحروب الصليبية

رسالة ماجستير غير منشورة آداب طناطا

(75) بسام كرد على (.... سوريا ولبنان الأردن 1949) ص 45.

- جبل عامل: من أهم جبال بلاد الشام ويشرف على البحر المتوسط ويدنو كثيرا من الساحل القريب م

صور، وهو يمتاز بجودة التربة وغزارة في الأمطار ووقفة المزروعات وثري القى

- (المقديسي: احسن.... الاقاليم تحقيق دي بوجيه 1925 لندن 1909 ص 160... على: خطط الشام جـ

2دمشق

- نهر اللباني: ينبع من..... ويمتد من الشمال إلى الجنوب في مجرى قليل المنطف ثم يتجه ليصب في

البحر المتوسط وهناك يسمى بنهر القاسمية

- (الأنصاري الدمشقي نخبة... ص 180 السيد أهد أبو العنين: دراسات في جغرافية لبنان وبيروت 1968،

يوسف الشدياق: أخبار الايثار في جبل لبنان بيروت 1954 ص 17).

(76) Deschamp. (p) cit. pp.177-178.

- هونين: تقع عند ملتقى الطريق القادم من صفح بالطرقب الموصلة من تبينين إلى بانياس فالحصون الثلاثة متقاربة وتمتد بانياس وهونين وتبينين من أشهر الحصون في بلاد الشام.

- (التويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ 29/ تحقيق/ محمد ضياء الرئيس، القاهرة 1992 ص 29).

- تبينين: بلدة في جبل عاملة تقع على بعد 17 كم من بانيناس الداخلية في الجنوب الشرقي في مواجهة ساحل صور وهي ممتازة بحصانها ومناعتها، وقد تم بناء القلعة في عام (1104م / 498هـ) من أجل القيام ببعض الأعمال العسكرية الموجهة إلى مدينة صور، (ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ 1 ص 89؛ ابن شداد الأعلام الخطيرة ص 69).

(77) Deschamp (j) the art and archictecture of the crusade states. Setton vol.5 pensylvaina 1985 p.60.

- موللر: المرجع السابق، ص 80 عبد الرحمن زكي: القلاع ص 127 كان لابد للأسوار أن تكون أشد تماسكًا وأكثر طولاً حتى تستطيع أن تقاوم ما تعرض له من هجوم مباشر.

- (رنسيان: المرجع السابق، جـ 3 ص 628؛ عبد الرحمن زكي القلاع، ص 67-68، سليمان مظهر قلعة الشقيف المرجع العلمي دمشق عدعام 1944، ص 426.

(78) deschamp. (p) cit,p.113.

(79) fedden (r) Syria londin 1947.p.85.

(80) fedden (A) ibid p.86:

- سليمان مظهر: المرجع السابق ص 429؛ سرور على عبد المنعم المرجع السابق ص 59.

(81) lamonte (j) op cit,p.191

(82) وليم الصوري: المصدر السابق جـ 3 ص 214

- Graousset (r) op. cit t.2. p160

(83) رنسيان: المرجع السابق جـ 2 ص 273

(84) وليم الصوري: المصدر السابق جـ 3 ص 224

- Boase (t): op cit, p.79 conder (c): op, cit p. 98:chartou (j): op. cit,p 239: eusebe (p) op.cit p 28.

(85) وليم الصوري: المصدر السابق جـ 3 ص 214، رنسيان: المرجع السابق جـ 2، ص 274؛ سعيد البيشاوي: الاقطاعات الكنسية، ص 242، اسامة ذكي زيد: ملكات بيت المقدس - ص 34.

- كنيسة القديس آن (st anna) التي عرفها العرب باسم (حنه) وهي تقع في الضواحي الجنوبية لبيت جبرين

- Delaville le rovlx: op.cit, p443 rey (f) les loonies p.384

(86) ولیم الصوري: المصدر السابق، ج 3، ص 214،

- cit, p. 172P Smith. (r): op, cit, p.168 prawer, (J)

- وينسيان: المرجع السابق، ج 2، ص 274

- بيثاني: تقع جنوب شرق القدس وهي من القرى الفلسطينية المشهورة التي مازالت قائمة حتى الان، وفي عصر الوجود الصليبي اشتملت على بساتين ممتعة فضم الدير مساحات كبيرة.

(87) ولیم الصوري المصدر السابق، ج 3، ص 214

grousset @: op, cit: t; 2. p. 161

(88) ولیم الصوري: المصدر السابق. ج 3 ص 214

Roziere: op, cit.p. 65: rohoricht (r): Regesta. P.174 :

رنسيان: المرجع السابق، ج 2، ص 373.

(89) ولیم الصوري: المصدر السابق ج 3، ص 214

- Oldenbourg (z) cit. p.334 chartou (j): op. cit.p239: grousset, (r): op. cit.t.p.162

(90) ولیم الصوري المصدر السابق، ج 3 ص 214،

- Rohoricht. (r) regesta.pp.43-44

- رنسيان: المرجع السابق، ج 2 ص 273، فتحي عبد العزيز: الحياة الديرية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب الزقازيق 1998، ص 71

(91) ولیم الصوري: المصدر السابق ج 3 ص 214

Prawer. (J): OP. CIT.P.172

(92) Oldenbourg (z): op, cit, p.334: joroslap, (f) Painting and Sculpure in the Lation Kingdom of Ferusalem. in Setton, vol.2.p.27

(93) bevensiti, (m): op, cit, p71: rohoricht:9G0M regestq PP.43-44

(94) bevensiti, (m): ibid, p.71

(95) Hamilton (L): op, cit, p.109

(96) fnlart, (c): op, cit, p. 160

(97) bevensiti, (m) op, cit, p.32

(98) conder: (c) op, cit, p.100

(99) Grousset. (r): op, cit,t.2.p.5

(3)

طبوغرافية مملكة بيت المقدس
الصليبية وعلاقتها بنشأة القلاع

(1131 = 1143م)

صلاح عبد المنعم

طبوغرافية مملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقتها بنشأة القلاع

(1131 = 1143 م)

طبوغرافية مملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقتها بنشأة القلاع حينما قدم الصليبيون إلى بلاد لاشام أثناء الحملة الصليبية الأولى قوبلو بتحد خطير تمثل في جهلهم بطبيعة الأرض، والدليل الواضح على ذلك اعتمادهم على المرشدين، والأدلاء البيزنطيين وغيرهم، وهو ما يعكس مدى ضعفهم المتوقع في معرفة طبيعة الأرض الجغرافية والطوبوغرافية في بلاد الشام، كما قوبلوا بتحد آخر وخاصة بعد تحقيق هدف المنشود وهو فتح بيت المقدس عام 1099م/ 492هـ إلا وهو عودة الكثيرين من الفرسان الصليبيين، فظهر هذا التحدي المتمثل في كيفية ترسيخ الكيان الصليبي في وسط المحيط الإسلامي الترامي الأطراف في ظل شدة المعاناة المتمثلة في قلة أعداد الفرسان الصليبيين، فكانت الاستجابة لهذا التحدي هي الإسراع بمحاولة الاستيلاء على القلاع الإسلامية، وكذلك محاولة التعرف على طبوغرافية المنطقة وخاصة الجانب التضاريسي المتمثل في بلاد الشام وبالأخص المنطقة التي ستقوم فيها مملكة بيت المقدس، لتحديد المناطق الطبوغرافية الهامة من النواحي السياسية الاقتصادية والعسكرية، لتكون مواقع هامة لنشأة القلاع الصليبية في مملكة بيت المقدس الصليبية.

ولكي نوضح مدى الاستجابة في استغلال الصليبيين لطبوغرافية مملكة بيت المقدس في تأسيس القلاع الصليبية، لابد من التعرض لمحورين، أولهما: التصدي لجغرافية بلاد الشام بصفة عامة، مع التركيز على جغرافية مملكة بيت المقدس الصليبية بصفة خاصة.

وثانيهما استعراض الوضع التحصيني أو القلاع المتواجدة في المنطقة التي ستقام عليها مملكة بيت المقدس الصليبية.

جغرافية بلاد الشام

تمتد بلاد الشام في العصور الوسطى، كما وصفها الجغرافيون العرب من الفرات إلى مصر، إذ تحدها من الشرق البادية من أيلة جنوباً إلى الفرات ومن الغرب البحر المتوسط، ويحدها شمالاً حد يمتد شرقاً من بالس مع الفرات ومنها إلى سمساط ثم إلى مرعش وأخيرًا إلى طرسوس، أما الحد الجنوبي فيمتد من رفح غربًا إلى تيه بني إسرائيل إلى ماين الشكوك وأيلة ثم إلى البلقاء (التصف الجنوبي من إقليم شرقي الأردن)⁽¹⁾.

نلاحظ أن إقليم الشام يتميز بتنوع الأرض من ارتفاع وانخفاض يسيران في سمت واحد أخذًا مسارًا طوليًا من الشمال إلى الجنوب.

لذلك فقد كان التقسيم الطولي هو أنسب التقاسيم لطبيعة بلاد الشام، لأنها تنقسم إلى خمسة أقسام طولية يحدها من الشرق بادية الشام ومن الغرب البحر المتوسط⁽²⁾.

القسم الأول:

هو السهل الساحلي وهو عبارة عن شريط يقع شرق البحر المتوسط وغرب الجبل ويمتد من ساحل شبة جزيرة سيناء حتى خليج الأسكندرونة⁽³⁾، وهو متسع في الشمال والجنوب "فيبلغ اتساع السهل الساحلي عند عسقلان عشرين ميلًا"⁽⁴⁾، وضيع عند لبنان، وينقطع امتداد السهل الساحلي ف نقطتين الأولى إلى الجنوب من مصب نهر الكلب فيصل إلى البحر. وقد أفاد السكان من هذه الميزة فائدة عظيمة إذ أعطتهم موقعًا إستراتيجيًا هامًا فقد شكل ذلك مانعًا طبيعيًا أمام القوات المعادية السالكة لهذا السهل، والنقطة الثانية عند جبل الكرمل حيث يتميز السهل بخصوصية أرضه وخاصة عند سهل صارونة وسهل فلسطين جنوبًا⁽⁵⁾، ويتميز هذا السهل بأنه أرض منبسطة لا يزيد متوسط ارتفاعها عن مائتي مترًا فوق سطح البحر، وتنتشر الكثبان الرملية في هذه المنطقة ويتراوح عرضها بين بضعة مئات من الياردات ونصف الميل، ويبلغ ارتفاعها نحو

150 قدمًا يليها أرض صلبة يقطعها عديد من الوديان الصغيرة، ولا يوجد في هذه المنطقة من الموانع الطبيعية ما يعوق التحركات العسكرية سوى لسان التل الذي يخرج من سلسلة تلال يهوذا وينتهي عند حيفا غرب البحر والذي يعرف بجبل الكرمل⁽⁶⁾. وإن كانت هذه المنطقة سهل التنقل للقوات إلا أن مياهها قليلة العمق، وساحلها قليل التعاريج، مما يقلل من صلاحيته لقيام الموانئ الطبيعية، خاصة لكونه مكشوفًا للرياح الغربية وهي رياح محملة بالرطوبة تهب على الساحل فتسبب سقوط الأمطار التي تعوق من تحرك الأساطيل خاصة في فصل الشتاء⁽⁷⁾.

القسم الثاني:

يقع إلى الشرق من السهل الساحلي الذي يمتد من جبل الأمانوس شمالاً حتى جبل سينا في الجنوب، مكونًا سلسلة من المرتفعات التي تشكل عائقًا أمام الاتصال بين البحر وداخل الشام، ويمكن عبور هذا العائق في عدة مواضع عن طريق الجسر السوري مع سهول ما بين النهرين، وعند تصدع مرج ابن عامر شرقي عكا وحيفا، وعن طريق وادي النهر الكبير وشمال طرابلس، ولذلك فقد «كان على الجيوش الصليبية المتجهة إلى ظهير بلاد الشام أن تسلك أحد هذه الأبواب». على أن أهم جبال هذه السلسلة هو جبل الأمانوس الذي يفصل بين الشام وAsia الصغرى، وتمر هذه الجبال بالاذقية وتعرف بجبال النصيرية⁽⁸⁾.

وتضم جبال النصيرية أودية عميقة وكثيرة بعضها شديد الوعورة وشديد الارتفاع، وذات ميل حاد «مما جعل طائفة الحشاشين الإسماعيلية يفضلونها ويتخذونها مكانًا لاعتصامهم»⁽⁹⁾. وقد اتخذ الصليبيون من هذه المواقع الحصينة مكانًا لبناء حصونهم وقلاعهم أو السيطرة على ما وجدوه من قلاع إسلامية أو بيزنطية⁽¹⁰⁾.

وتستمر هذه السلسلة في الاتجاه جنوبًا في شكل مرتفعات وهضاب تسمى الجليل الأعلى وأقصى ارتفاع فيه عند جبل (جرمق) شمال صنفد، وهو أعلى قمة في فلسطين، والجليل الأدنى وأعلى قمة فيه عند جبل طابور قرب الناصرة. وتقطع هذه السلسلة عند مرج ابن عامر الذي يجتاز فلسطين فيفصل تلال الجليل في الشمال عن مرتفعات السامرة واليهودية في الجنوب⁽¹¹⁾.

القسم الثالث:

يقع إلى الشرق من سلسلة الجبال الغربية وتبدأ من الشمال بسهل العمق، فسهل البقاع ويمتد في وادي الأردن حتى البحر الميت، ثم وادي عربة حتى خليج العقبة⁽¹²⁾. والبقاع من أجود أراضي الشام أو أخصبها مرعى فهي ذات نخيل وأشجار⁽¹³⁾.

القسم الرابع:

تكون من سلسلة الجبال الشرقية وتبدأ من جنوبي حمص وتقابل جبل لبنان الغربي بجبل لبنان الشرقي، ثم تنحدر نحو هضبة حوران ومنها إلى هضبة الجولان في الغرب، ثم إلى شرقي الأردن حيث تلال جلعاد وهضبة مؤاب المرتفعة إلى جبل سعيد جنوبي البحر الميت⁽¹⁴⁾. يقع إلى الشرق من سلسلة الجبال الشرقية سالفة الذكر، ويتمثل في بادية الشام وهي تكون مثلث رأسه عند حلب شمالاً وقاعدته عند خليج الكويت في الشرق وخليج العقبة في الغرب. وأرض بادية الشام قاحلة، وهي امتداد لصحراء العرب وهي التي تفصل الشام عن العراق وقد سمي الجزء الشرقي من البادية بادية ما بين النهرين. أما الجزء الجنوبي فيعرف ببادية العراق أو السهولة⁽¹⁵⁾.

نلاحظ أن مملكة بين المقدس الصليبية قد أقيمت في الجزء الجنوبي من بلاد الشام، وامتداد حسب أقصى اتساع لها من نهر الكلب شمال بيروت شمالاً حتى الداروم جنوب غزة جنوباً⁽¹⁶⁾. أما الجهة الشرقية فكانت فوق مرتفعات الجولان عند مدينة بانياس، ومن هنا تمتد الحدود حوالي «ثلاثمائة ميل» باتجاه الجنوب حتى أبلة على البحر الأحمر، ويدخل في نطاقها إقليم شرق الأردن (جلعاد وعمون ومؤاب القديمة)⁽¹⁷⁾.

جملة القول أننا نجد أن مملكة بين المقدس حسب المساحة السابق ذكرها، قد تنوعت بها الظواهر التضاريسية من جبال وأودية وسهول، ونجد أن السهول هي الطابع الغالب لها والتي تميزت بها الدفعات الطبيعية، لذلك استدعت الحاجة تشييد قلاع كثيرة⁽¹⁸⁾. وهو ما سيفسر كسرة القلاع الصليبية المتزايدة بكثافة خاصة على السهل الساحلي ما بين حيفا ويافا في قلب مملكة بيت المقدس الصليبية⁽¹⁹⁾. وهذا بعكس المنطقة الشمالية التي تميزت بشدة الوعورة، وصعوبة

المسالك، فالسلاسل الجبلية منتظرة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، مما جعل التحرك بين معابرها القليلة عسيرًا على الجيوش⁽²⁰⁾، ولذلك أقيمت القلاع عند تلك الممرات القليلة التي تربط بين الساحل وداخلية البلاد مثل حصن صهيون، وحصن الأكراد⁽²¹⁾. ونجد أن هذه المواقع التضاريسية حققت ميزتين أن جعلت القلعة صعبة المنال، كما أنها قللت من كثافة المنشأة، وذلك أثناء الفترة الصليبية.

الطوبوغرافية التي كانت جنوب منطقة بلاد الشام عليها عند وصول الصليبيين وما كان بها من قلاع ولكي تتضح لنا مدى استفادة واستغلال الجبهة الصليبية لطوبوغرافية مملكة بيت المقدس لتأسيس قلاعهم الصليبية فلا بد من التعرض لمعالجة المحور الثاني، وهو استعراض الوضع التحصيني، بغرض القلاع المتواجدة في المنطقة حتى لحظة قدوم الصليبيين للشام. عند التركيز على الوضع التحصيني في بلاد الشام قبل مجي الصليبيين، نجد أن المنطقة الشمالية في بلاد الشام قد شهدت اهتماما في الوضع التحصيني وكثرت بها الحصون والقلاع المنفردة عن المنطقة الجنوبية من بلاد الشام (وهي المنطقة الممتدة بمملكة بيت المقدس في الفترة الصليبية)، ويرجع هذا التفاوت في الحجم التحصيني بين الشطر الشمالي والجنوبي لبلاد الشام قبل الفترة الصليبية، لعدة اعتبارات تدور أغلبها حول الصراع الإسلامي البيزنطي.

فنجد أن بعض خلفاء العصر العباسي الأول ركزوا اهتمامهم على تحصين المناطق المتاخمة لحدودهم مع الدولة البيزنطية، وبالتالي أثر على منطقة شمال الشام فقد شهدت اهتمام عسكريا لدى بعض الخلفاء لأهميتها من الناحية العسكرية لأنها خط التماس مع القوات البيزنطية، وأكبر مثال على ذلك علاقة الرشيد البيزنطيين، فكانت علاقة حرب وعداء كما كانت على عهد أبيه وجدة، فالرشيد واصل استكمال تحصينات ثغوره المتخامة فعمر فيها طوسوس وأذنة، وعين زرية⁽²²⁾ كما أقام فيه حصونا جديدة مثل المارونية الذي أقيم في الشمال الغربي لجبل اللكام ويقع بين مرعش وعين زرية⁽²³⁾، وما يشهد باهتمام الرشيد بتقوية الجيش العباسي في عهده أنه صار من أقوى جيوش العالم في ذلك الوقت، وبواسطته وجه الحملات المتكررة على المواقع البيزنطية في أسيا الصغرى⁽²⁴⁾.

كذلك شهدت حصون المنطقة الشمالية من بلاد الشام نشاطا ملحوظا، وخاصة بعد أن حصلت الخلافة الفاطمية على موقع متقدم لها في المنطقة الشمالية من بلاد الشام، وذلك باستيلائهم على مدينة حلب واتخاذهم ولاية فاطمية في عام (407هـ / 1071م)⁽²⁵⁾. فكان ذلك إيذانا بعودة العمليات العسكرية والصدامات بين الجانبين في شمال الشام، ويلاحظ أنه لم تحدث مواجهات عسكرية حاسمة ومباشرة بين القوتين الفاطمية والبيزنطية في بلاد الشام، وإنما كانت بيزنطة تستخدم بعض القوى الأخرى التي اصطنعتها بدون أن تزج بجيشها في معارك فاصلة ضد الجيش الفاطمي، ما عدا الفترة التي يمكن أن يطلق عليها "حروب الحصون أو القلاع" في الفترة المحصورة بين عامي 423 - 426هـ / 1032 - 1035م، التي شهدت قيام البيزنطيين بحصار عدد من القلاع الفاطمية أو تلك التابعة لأمارة بني مرداس، ونجاح البيزنطيين في استعادة بعض تلك القلاع في وقت رد فيه الفاطميون على ذلك بشن سلسلة من الغارات والحصارات لقلاع البيزنطيين التابعة لمارة إنطاكية البيزنطية والقريبة من الحدود البيزنطية في الشمال⁽²⁶⁾.

وهكذا رأينا أن المنطقة الشمالية في بلاد الشام، كانت بمثابة مسرحا للصراعات العسكرية سواء في العصر العباسي الأول أو زمن الخلافة الفاطمية ضد الإمبراطورية البيزنطية، ولهذا شهدت تلك المنطقة نشاطا في بناء الحصون والقلاع سواء من قبل الإمبراطورية البيزنطية أو الجبهة الإسلامية⁽²⁷⁾.

أما بالنسبة للتحصين في الجزء الجنوبي من بلاد الشام قبل مجي الصليبيين، فقد كان قاصرا على المدن، التي قلبت بها سياسة إنشاء القلاع أو الحصون المنفردة، وفي مواجهة خطر الحملات البيزنطية على تلك المنطقة⁽²⁸⁾، انصب الاهتمام بتحصين المدن وخاصة الساحلية وتم التركيز على تشيد القلاع بها، فمثلا عكف أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية التي حكمت مصر والشام في الفترة الواقعة بين عامي (254 - 292هـ / 868 - 905م) على تحصين يافا وعكا اللتان كانتا أهم ثغور الشام البحرية آن ذاك⁽²⁹⁾. وصار الفاطميون على نفس النهج الخاص بتحصين

المدن الساحلية، ونستشف ذلك من الرسالة التي بعثها الإمبراطور البيزنطي حنا تزيمسكيس John Tzimisces أو حنا الشمشقيق (969-976م / 359-366هـ) إلى ملك أرمينيا أشوت الثالث "لو أن الفريقين الوثنيين - يقصد الفاطميين - كانوا غير مخبئين في القلاع الموجودة على ساحل البحر المتوسط لتيسر لنا بعون الله دخول أورشليم"⁽³⁰⁾، ولقد كرس بندر الجمالي وابنه الأفضل جهودهما على استعادة قواعد مصر البحرية من عسقلان جنوباً حتى ضواحي اللاذقية شيئاً، وأعادة تحصين بعض مدن الساحل مثل صورة وصيدا⁽³¹⁾. وبهذا نجد أن طبيعة الصراعات العسكرية التي شهدتها منطقة جنوب الشام انعكست على تحصين المدن وخاصة الساحلية، فشيدت بها القلاع، وقد وجدت قلعة بصورة أشار إليها الرحال ناصر خسرو بأنها «بنيت على صخرة امتدت في الماء: والقلعة مبنية بالحجر المحوت الذي سدت فجواته بالقار حتى لا يدخل الماء من خلاله»⁽³²⁾. وكذلك أنشأت بعض القلاع في يافا⁽³³⁾، وعكا⁽³⁴⁾، وقيساريه: كما وجدت أيضاً في المدن الداخلية مثل الرمله، الخليل⁽³⁵⁾، وطبرية⁽³⁶⁾.

جملة القول أن طبيعة الصراع العسكري بين الجبهة البيزنطية والجبهة الإسلامية (سواء الفاطميين أو بني مرداس...)، أفرزت اهتماماً بتشييد القلاع والحصون أو تنشيط القلاع والحصون القديمة شمال الشام، وذلك لطبيعة الصراع بين الجبهتين البيزنطية والإسلامية، بينما انعكس ذلك الصراع على تنشيط قلاع المدن وخاصة الساحلية في الشطر الجنوبي لبلاد الشام (وهي المنطقة التي قامت بها مملكة بيت المقدس الصليبية)، وهذا كان متماشياً مع طبيعة الصراع بين البيزنطيين والفاطميين في المنطقة الجنوبية لبلاد الشام، التي كانت بمثابة خط الدفاع الثاني لشمال الشام.

كان ذلك هو مجمل الوضع التحصيني بالمنطقة، والذي تمثل في وجود قلاع لأغلبية المدن الساحلية وبعض المدن الداخلية قبل مجي الجيوش الصليبية، وسنعالج كيفية استجابة الصليبيين للتحديات التي واجهتهم وذلك بدراسة طوبوغرافية المملكة لاستغلالها في إقامة العديد من القلاع لتحقيق تلك الاستجابة.

جهود الصليبيين في السيطرة على القلاع قبل تعيين الملك جود فري

عندما حصل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بالقسطنطينية على يمين الولاء مي كل الأمراء الصليبيين ما عدا ريموند الذي تفاهم معه سراً⁽³⁷⁾، تحركت الجيوش الصليبية وكان هدفها الأول الاستيلاء على حصن نيقية وكان ذلك في 19 يونية 1097/491هـ⁽³⁸⁾، لأن بقاء ذلك الحصن الكبير في يد السلاجقة كان سيهدد سائر الطرق التي يخترقها الصليبيون بالإقليم⁽³⁹⁾، ثم اعقب الصليبيون ذلك بالسيطرة على مدينة أنطاكية في أول يوليو 1098م/491هـ بعد حصار مضني⁽⁴⁰⁾، كما تمكنوا من إسقاط قلعتها في أواخر يونية 1098م/491هـ⁽⁴¹⁾، وفي غضون مسيرة الجيش تجاه بيت المقدس، اقتضت الحكمة العسكرية مهاجمة وتدمير حصن معرة نعان في ديسمبر 1098م/492هـ⁽⁴²⁾، لتأمين الجناح الأيسر، حين يسير الجيش صوب الجنوب إلى فلسطين⁽⁴³⁾. ثم تجمعت الجيوش الصليبية بمنطقة قلعة كفر طاب، ومكثوا هناك حتى 16 يناير 1099م/492هـ، وفي غضون ذلك اجتمع ريموند الصنجيلي وقادته للتشاور في أي الطرق التي يصح أن يتخذها الصليبيون وقتذاك، أيد ريموند فكرة أن الجيش لا بد أن يتجه إلى الشمال الغربي ليستولوا على جبلة، وهي مدينة ساحلية تقع جنوب اللاذقية، وقد رأى ذلك الفريق من الصليبيين أنه من الممكن الحصول على ما يحتاجون إليه من تموين وإمدادات، إذا هم سلكوا طريق الساحل، ومعني تلك الخطة أن يسلك الصليبيون إلى بيت المقدس طريق الساحل، ولكن يتطلب الوضع العسكري الاستيلاء كل الحصون الكبيرة الواقعة على هذا الطريق وبالتالي بذل مزيد من الجهد والوقت⁽⁴⁴⁾. ولكن تنكريد خالف ذلك الرأي وأيد اتخاذ الطريق المباشر إلى بيت المقدس، والواقع إن هذا الطريق أفضل من وجهة النظر العسكرية لأنه يجنب الجيش الصليبي كثيراً من التضحيات والأخطاء العسكرية، وضياع الوقت الطويل المستهلك في حصار القلاع والمدن الساحلية، إلى جانب أنهاك وتحقيق مزيد من إنقاص عدد الفرسان الصليبيين قليلي العدد، بحيث يصل الصليبيون في نهاية المطاف إلى بيت المقدس، وقد تضاؤل عددهم وأنهكهم التعب، وبالتالي وفروا لخصمهم وقتاً كافياً للاستعداد لملاقاتهم، مما يصعب من مهمتهم في الاستيلاء على بيت المقدس هدفهم الأساسي⁽⁴⁵⁾.

كذلك من الممكن أن يؤدي تكرار الحصار للقلاع والمدن الساحلية في ظل قلة عدد الفرسان الصليبيين، مع الاتهاك لتكرار الحصار لأكثر من مدينة وقلعة محصنة، إلى أن يفقد الحصار الصليبي فعاليته وبالتالي يؤدي لأهترز صورة الجيش الصليبي لدى الحاميات الإسلامية، وهي التي تكونت من نجاحات الصليبيين في إسقاط القلاع والمدن الإسلامية⁽⁴⁶⁾.

أما إذا سلك الجيش الصليبي طريقة مباشرة إلى بيت المقدس، فأن الأمر لن يستدعي الإسراع بالاستيلاء على الحصون الواقعة على الساحل، وبعد الاستيلاء على بيت المقدس، فأن الأمر لن يستدعي الإسراع بالاستيلاء على الحصون الواقعة على الساحل، وبعد الاستيلاء على بيت المقدس، فإن تلك الأخبار لن يترتب عليها فقط قدوم المزيد من القوات العسكرية من الغرب، بل أن مدناً مثل طرابلس وصورة وعكا سوف لا تحول مقاومتهم⁽⁴⁷⁾.

وقد أدرك بقيمة الصليبيين صواب رأي تنكريد، فقررروا اتخاذ أقصر الطرق الداخلية إلى بيت المقدس، مع الاقتراب بين حين وآخر من شاطئ البحر استدعت ظروف التموين ذلك، وتقرر أيضًا ألا يضيعوا إلا أقل وقت، عند محاولتهم إخضاع حصون المسلمين⁽⁴⁸⁾.

وصل الصليبيون إلى مدينة مصيف يناير 1099م / 492هـ التي سارع أميرها بعقد معاهدة معهم، ثم هبطوا إلى حصن الأكراد المشهورة بضخامته والذي يتحكم في سهل البقيعة، وكان جميع الأهالي قد لجأوا بقطعانهم إلى داخل الحصن، فشدد الصليبيون الحصار حوله استولوا عليه في 23 يناير عام 1099م / 492هـ⁽⁴⁹⁾. لحاجتهم المحلة لتموين الجيش الصليبي، لا لأغراض حربية.

ثم حاول الصليبيون الاستيلاء على عرقة، لكنهم اضطروا نتيجة منعة استحكامات المدينة، وشدة استبسال أهلها في الدفاع عنها إلى تركها والاتجاه إلى بيت المقدس مايو 1099م / 492هـ⁽⁵⁰⁾، ولما اقتربوا من طرابلس، بادر أميرها بالتماس الأمان لعاصمته وضواحيها، وسار على نهجه حاكم بيروت وعكا⁽⁵¹⁾، ولم يقاومهم إلا رجال حامية صيدا لما اشتبهوا به من صلابة⁽⁵²⁾، وعند استئناف السير، ساروا إزاء الساحل حتى أرسوف، ومنها توجه الجيش إلى

الداخل، فوصل إلى الرملة في يونية 1009م / 492هـ التي ارتاع أهلها عند اقتراب الصليبيين منهم، لأن الحامية كانت قليلة العدد، فهربوا وتركوا المدينة والقلعة خاوية⁽⁵³⁾.

اشتد حماس الصليبيين، لاحتلالهم أول مدينة بقلعتها الإسلامية والتي تقع في جوف الأرض المقدسة، "وأقسموا على أن يعمرُوا الرملة واللد، وأن يجعلوا منها إمارة تنتمي للقديس جورج، وأن يقيموا أبروشيه جديدة يتولها أسقف اللد"⁽⁵⁴⁾.

نجح تنكريد وبلدوين دي جورج، في السيطرة على مدينة بيت لحم⁽⁵⁵⁾. ثم عسكر الجيش الصليبي أمام بيت المقدس في 7 يونيو 1099م / شعبان 492هـ وتعبرت تلك المدينة من أضخم المعازل والحصون في عالم العصور الوسطى⁽⁵⁶⁾. وفي غضون حصار بيت المقدس في 17 يونية 1099م / 492هـ رست ست سفن جنوية بمرفاً يافا، واكتشفوا أن المدينة قد هجرها أهلها، وكان ذلك "بعداً، دمروا المدينة والقلعة ولم يبق من تلك القلعة المدمرة إلا برج واحد سليم"، وسيطرة الصليبيين على قلعة مدينة يافا أصبحت بمثابة أو ميناء أو أقرب ميناء لبيت المقدس.

التوسعات الجديدة في عهد ملوك بيت المقدس على التوالي مع إبراز القلاع الجديدة التي نشأت في عهد كل منهم:

عهد جودفري (1099 - 1100م / 493 - 494هـ)

تمكن الصليبيون بعد حصار طويل من الاستيلاء على بيت المقدس في 15 يوليو 1099م / شعبان 492هـ وتم تعيين جودفري حامي للقبر المقدس وترتب على استيلاء الصليبيين على قلعة بيت المقدس (برج داود) التي كانت بمثابة مفتاح مملكة بيت المقدس، أن أصبحت تلك القلعة بمثابة حجر الزاوية التي ارتكزت عليها حركة توسيع هامة للملكة: ولتدعيم مدينة بيت المقدس كان لا بد من تحقيق السيطرة على القلاع والمدن الإسلامية، وهو ما ركز عليه جودفري وتابعه تنكريد في المرحلة القادمة.

توجه جودفري على رأس قواته إلى بيت لحم، وبعد أن نظم صفوفه وأتم الاستعدادات اجتاز الشعاب التي تتخلل الهضاب والتلال بسرعة تجاه الجنوب وأخذت قري الخليل تهاوي في

يده الواحدة تلو الأخرى، ولم تلبث القوات الصليبية أن هاجمت مدينة الخليل وتمكنت من إسقاطها بعد هجوم قصير وطردها المسلمون منها⁽⁵⁷⁾. ثم قرر جودفري تشييد القلعة وأشرف على بنائها بنفسه واختار موقعها خارج المدينة بقليل، فوق التل الذي يتحكم فيها بحيث تشرف على التلال المجاورة على الحرم الإبراهيمي، وواصل جودفري العمل في البناء حتى أصبحت القلعة في عام 1100م / 493 هـ توصف بأنها عظيمة المناعة والثروة⁽⁵⁸⁾. ولكننا نرجع أن جودفري قام بترميم قلعة الخليل التي أشار إليها المقدسي⁽⁵⁹⁾، ولم يؤسس قلعة جديدة، وذلك لضيق الوقت وكثرة المهام العسكرية الملقاة على عاتقه.

كما قام تنكريد «بإعداد حوالي من ستين إلى ثمانين فارساً» وذلك لتنفيذ أوامر جودفري للاستيلاء على مدينة نابلس وإدخالها في حوزة الصليبيين واصطحب معه يوستاس البولوني Eustace of Bouillon ودخل الصليبيون المدينة «دون أية مقاومة» وذلك في الخامس والعشرين من يولييه عام 1099م/ الثالث من رمضان 492 هـ⁽⁶⁰⁾، وأعقب ذلك مهاجمة بيسان، وكانت عملية الاستيلاء عليها سهلة «لعدم وجود الدفاعات القوية بها»⁽⁶¹⁾، ويعتبر استيلاء تنكريد على بيسان خطوة هامة على سبيل غزو باقي إقليم الجليل، فتعد بيسان مفتاح الجليل الجنوبي، وقد إتخذها تنكريد قاعدة لإنطلاقاته العسكرية لاستكمال عملية الإستيلاء على مدن وقلاع الجليل، ولذا قام بتحصين المدينة لتلك الغاية⁽⁶²⁾ وأسرع تنكريد بتجميع فرسانه الذي بدأ بهم زحفه، وصعد نحو الشمال إلى مدينة طبرية التي تعد المدينة الرئيسية في المنطقة، وتمكن من الاستيلاء عليها بسهولة⁽⁶³⁾، وأخذ تنكريد يوطد سيطرته عليها، وذلك بعد أن تمكن من إسقاط قلعتها. ويسقوط قلعة طبرية في يده أصبحت المنطقة مفتوحة أمامه بعد تأمين تلك القاعدة العسكرية، إذ تمكن من الاستيلاء على الناصرة وجبل الطور، وأكمل ذلك بالاستيلاء على مدينة صفد ذات الموقع الهام في الشمال⁽⁶⁴⁾. ويرجع أحد الباحثين أن تلك النشاطات العسكرية لتتكريد للتوسع في الجليل استمرت حتى منتصف أكتوبر عام 1099م / أواخر ذي القعدة 492 هـ⁽⁶⁵⁾. ولكي يحافظ تنكريد على أملاكه الجديدة في الجليل، كان لابد أن يربطها بالساحل عن طريق إسقاط

قلعة حيفا، وبالفعل تمكن من التفاوض مع قائد الأسطول البندقي فارمرديجياري Warmer de Gray، وتم تحويل الحصار من مدينة عكا إلى حيفا، وذلك بعد وفاة جودفري وقائد الأسطول البندقي، وما لبثت أن قامت سفن البنادقة بتطويق المدينة من جهة البحر وأكملت بحصار بري في أواخر يوليو عام 1100م / 493هـ ولكي يتم الاستيلاء على المدينة كان لابد من توجيه الضربات القوية لقلعتها ولتحقيق ذلك حاولت مجموعة انتحارية من عشرين فردًا السيطرة على قلعة المدينة، إلا أن الوضع أسفر عن فشلهم وموتهم جميعاً⁽⁶⁶⁾، ولكن أعقب تنكريد ذلك الحادث بتنظيم الصفوف واستمر الضغط لمدة أسبوعين، مما أدى في النهاية إلى إلقاء الرعب في قلوب المدافعين عن القلعة ونال الضعف منهم، مما اضطرهم إلى إخلائها بسرعة بعد تدمير كل ما وصلت إليه أيديهم قبل تركها. وبهروب المدافعين عن القلعة انتهت أسباب الدفاع عن المدينة، وسيطر عليها تنكريد في العشرين من أغسطس عام 1100/ 22 من شوال 493هـ⁽⁶⁷⁾، أي بعد وفاة جودفري بما يقرب من شهر⁽⁶⁸⁾.

تحليل مرحلة جودفري في السيطرة على القلاع

لقد نجح جودفري عقب تنصيبه حامياً على مدينة بيت المقدس، أن يتوسع تدريجياً شيئاً فشيئاً فضم إليها قلعة الرملة، اللد، بيت لحم، قلعة يافا، قلعة الخليل، نابلس، بيسان، قلعة طبرية، الناصرة، جبل الطور وصفد، وهنا نتساءل عن الأسباب التي ساعدت جودفري على تحقيق ذلك الاتساع بالسيطرة على كل تلك القلاع والمدن؟

الحقيقة أن هزيمة الجيش الفاطمي في موقعة عسقلان - أغسطس عام 1099م / رمضان 492هـ - ساهمت في القضاء على معظم الجيش الفاطمي⁽⁶⁹⁾. ولهذا تعتبر تلك الموقعة حدثاً فاصلاً في تاريخ الصراع بين الجانبين، وكان من نتائجها⁷⁰ "أن أصيبت الخلافة الفاطمية ووزيرها بحالة شلل مفاجئ أصابتهم عقب موقعة عسقلان الكبرى"⁽⁷⁰⁾، وبالتالي أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم للسيطرة على المدن والقلاع المتواجدة بالجليل⁽⁷¹⁾، ويشير احد الباحثين أن التفكير في غزو الجليل لم يأت إلا كنتيجة مباشرة لانتصار الصليبيين في عسقلان⁽⁷²⁾.

أما أقوى العوامل التي أدت إلى السيطرة على تلك القلاع والمدن المحصنة فهو تقاعس حكام دمشق في الذود عن المنطقة⁽⁷³⁾، في أكثر من مناسبة الأولى حينما لم يقوموا بضم الجليل بعد أن هزم الفاطميون في عسقلان، وحال الصليبيون بين اتصال مصر بممتلكاتها في شبال فلسطين، والثانية حينما لم تنهض دمشق للدفاع عن الإقليم أثناء هجوم تنكريد عليه رغم أن دمشق كانت تعد القوة الإسلامية الكبرى المجاورة للجليل⁽⁷⁴⁾، كما أنها كانت صاحبة السيادة السابقة على الإقليم لفترات طويلة⁽⁷⁵⁾.

كما كان لشخصية تنكريد، وما تميزت به من طموح في غقامة إمارة له في الشرقي أثرها الفعال وخاصة بعد أن أخفقت محاولة الأولى في تحقيق أماله بتكوين إمارة له في قيليقيّة، فقد أراد تنكريد أن يحقق طموحه في إقامة إمارة له بأرض الجليل، بذل جهودًا توسعيه جبارة للوصول بأحلامه إلى حيز التنفيذ، لذا أصبح جديرًا بأن يصفه وليم الصوري: «بأنه النبيل ذو الشخصية المتميزة» كما استحق كرم جودفري فأسبغ عليه مدينة طبرية وقلعتها⁽⁷⁶⁾.

والواقع أن نجاح تنكريد في السيطرة على قلعة طبرية، كان له أثره في إسقاط باقي مدن الجليل، فكانت تلك القلعة بمثابة قاعدته العسكرية⁽⁷⁷⁾.

كذلك نلاحظ أن الأثر النفسي وضعف المعنويات لمسلمي تلك القلاع والمدن، والنتائج عن إعتبارات منها كثرة المذابح التي مارسها الصليبيون ضد مسلمي المناطق التي فتحوها، وكذلك نتيجة نجاح الصليبيين في فتح كثير من القلاع والحصون وخاصة إسقاطهم لحصن الأكراد الذي «لم يكن أحد يستطيع إختراقها من قبل»⁽⁷⁸⁾، إلى جانب ضعف الوضع التحصيني للمنطقة فيما عدا طبرية بأسوارها وقلعتها⁽⁷⁹⁾، كل ذلك اضعب معنويات الحاميات الإسلامية وتدل الشواهد على أن غالبية التحصينات سواء الصناعية أو الطبيعية، لم تكن بالقوة الكافية بحيث لم يجد فيها مسلمو الجليل ما يمكنهم من مقاومة الصليبيين، وساهم ذلك الأثر النفسي السعي في إحداث موجة من الإنزعاج الشديد تملك المسلمون في القلاع والمدن فأسرعوا بمغادرة بلادهم⁽⁸⁰⁾.

إذا نظرنا إلى مواقع القلاع والمدن التي سيطر عليها الصليبيون في تلك الفترة، نستنتج أن التوسع أخذ محورين آنذاك أولهما إتجه نحو الساحل وتمثل في السيطرة على قلعة يافا، وبذلك مزيد من الجهد في تحصين تلك المدينة⁽⁸¹⁾، إلى جانب محاولات جودفري المستمرة في قلعة أرسوف وغيرها من مدن الساحل⁽⁸²⁾.

وثانيهما أتمد التوسع اتجاه الشمال في منطقة الجليل، ولنا أن نتساءل لماذا إتجه التوسع نحو الشمال ولم يتركز في المنطقة الجنوبية؟ وللدرد على هذا التساؤل نذكر أن محور التوسع لم يتجه نحو الجنوب لعدة اعتبارات منها، إن التوسع جنوبا يساهم في إقتراب الكيان الصليبي من مصر، وبالتالي يؤدي إلى مزيد من المشاكل والأخطار وخاصة أن وضع صليبي بيت المقدس لم يكن مهيأ في ذلك الوقت للتعرض لمثل تلك المخاطر التي كان من أهمها تحقيق مزيد من الاقتراب من المراكز الفاطمية القوية، وبالتالي تشتتهم في تلك المناطق.

كذلك نلاحظ أن الخبرة الجغرافية لدى الصليبيين كانت متوفرة أكثر بالنسبة للمناطق الشمالية مقارنة بالمناطق الجنوبية وذلك نتيجة إحتكاكهم بها أثناء إتحاهم إلى السيطرة على مدينة بيت المقدس.

كذلك نلاحظ أنه لكي يتم تأمين الاتصال بين مدينة بيت المقدس والساحل كان لا يمكن تحقيقه بشكل كامل إلا بفرض السيادة الصليبية على اليابس الفاصل بين المدينة وساحل البحر، وهو مالا يتحقق إلا بالتوسع في الشمال في منطقة الجليل، أي بالسيطرة على قلاع ومدن الجليل والتي تؤدي السيطرة عليها إلى تدعيم عملية إسقاط قلاع المدن الساحلية، لأن ذلك يساهم في التكثيف من الحصار البرى على قلاع المدن الساحلية، كما أنه يعرقل جهود الجيش الإسلامي الذي يحاول إنقاذ قلاع المدن الساحلية.

كما ساهمت بعض مدن الجليل المتميزة بطابعها الديني مثل الناصرة والطور⁽⁸³⁾، والتي كانت بمثابة مصادر إغراء للصليبيين عامة، وتكريد خاصة الذي كان يحلم بالسيطرة على تلك المدن كي يرفع من شأنه وقدره بين عامة الصليبيين، بل وشعوب أوربا فيها وراء البحار⁽⁸⁴⁾.

هذا وقد شجعت الجوانب الاقتصادية، وموارد مدن الجليل المثلثة في الأراضي الخصبة والمحاصيل الزراعية والغابات، التي من الممكن أن تؤدي إلى تدعيم الكيان الوليد على عملية التوسع⁽⁸⁵⁾. لكن بالرغم من الجهود المبذولة من قبل جودفري لتدعيم توسعه على المحور الساحلي، باستثناء قلعة مدينة يافا، ومرجع ذلك إلى عدة اعتبارات ساهمت في صمود قلاع المدن الساحلية أمام محاولات جودفري العديدة أهمها:

أنه بالرغم من أهمية النصر الذي حققه الصليبيون على الفاطميين، في موقعة عسقلان، فإن انعكاسات ذلك النصر كانت واضحة على القلاع والمدن الداخلية، دون القلاع الساحلية، ومرجع ذلك إلى أن البحرية الفاطمية كانت لا تزال تسيطر على السواحل، وتبسط حمايتها على الموانئ البحرية⁽⁸⁶⁾.

كذلك أدى تغلب المصالح الشخصية على الصالح العام، إلى تأجيل سقوط قلعتي أرسوف وعسقلان، فحينما أعقب جودفري انتصار عسقلان بحصار مدينتها، حيث أدركت حمايتها أنه ليس بوسعها أن تصمد أمام القوات الصليبية، غير أن ما حدث في بيت المقدس من مذبحه لم ينس المسلمون أمرها، فلم يشاء المسلمون في عسقلان أن يتعرضوا لنفس المصير إذ علموا أنه لم يبق في بيت المقدس إلا أولئك الذين استسلموا الريموند الصنجيلي، لذا أرسلوا إلى المعسكر الصليبي يعلنون أنهم سوف لا يسلمون المدينة إلا لريموند، وعندما قبل الأخير الدعوة، خشي جودفري أن يلجأ ريموند إلى إنشاء إمارة لنفسه على شاطئ فلسطين في مواجهة بيت المقدس، مما يحرم دولة بيت المقدس الناشئة من شواطئها الطبيعية على البحر، وبالتالي يقطع الصلة بينها وبين الغرب لذلك طلب جودفري من ريموند أن يتخلى عن عسقلان⁽⁸⁷⁾. لأنها ستكون تابعة لبيت المقدس فاستاء ريموند الصنجيلي وفضل أن تبقى عسقلان في أيدي المسلمين عن أن يستولي عليها جودفري⁽⁸⁸⁾، وبذلك تأجيل سقوطها لم عن نصف قرن حتى سقطت في عام 1153م / 548هـ وتكرر نفس الموقف بالنسبة لقلعة أرسوف إلا أن جودفري أصر على موقعة⁽⁸⁹⁾، فأدى ذلك الموقف لتأجيل سقوط قلعة أرسوف ما يقرب من عام⁽⁹⁰⁾.

نجد أن عملية السيطرة على القلاع والمدن الداخلية كان متمشياً من محاولة الاستيلاء على قلاع المدن الساحلية، ولهذا كان الجهد مشتركاً بين تلك الجهات، كما أن عدم توفر أسطول بحري ساهم في التقليل من فعاليات الحصار على بعض المدن الساحلية مثل أرسوف في أغسطس 1099م / 492هـ وكذلك في ديسمبر 1099م / 492هـ⁽⁹¹⁾.

كما كان للسلاح الدبلوماسي الذي لجأت إليه حاميات القلاع الساحلية أثره في التقليل من عبء الحصار المفروض عليها، مثلما فعلت أرسوف. كذلك احتذي بأرسوف كل من عسقلان وقيسارية وعكا في أوائل عام 1100م / 494هـ ونرجح أن جوذفري استجاب لذلك لتوفير دعم مادي ممثل فيما تدفعه تلك المدن من أموال، كما أن الحصار لم يكن بالقوة المطلوبة لإسقاط تلك المدينة بقلعها لافتقاده للشق البحري.

يمكن القول أن جوذفري بسيطرته على القلاع والمدن السابقة تمكن أن يكون نواة مملكة بيت المقدس⁽⁹²⁾، والتي أضيفت لها قلعة حيفا عقب وفاته، وبالتالي فإنها كانت تحتاج إلى جهد كبير من أجل تدعيم ذلك الكيان الوليد، وهو ما سيحاول ملوك بيت المقدس التاليين القيام به.

عهد بلدوين الأول (1100 - 1118 م / 494 - 512 هـ)

كان لابد لأول عمل يقوم به الملك بلدوين الأول، عقب تنويعه في ديسمبر عام 1100م / 494هـ هو أن يكفل الدفاع عن مملكته وأن يرسخ ذلك الكيان الوليد، ولتحقيق ذلك الهدف أصبح من الضروري إتباع سياسة السيطرة على القلاع الإسلامية بل وإنشاء قلاع جديدة، ولهذا اتخذت سياسته التوسعية عدة محاور:

أولها الاتجاه للتوسع في الساحل الشامي المواجه لبيت المقدس. ونتساءل لماذا وجه بلدوين الأول اهتمامه لمحاولة السيطرة على قلاع المدن الساحلية على الرغم من توفر منفذين ساحليين للمملكة متمثلان في يافا وحيفا؟

فنجد أن مرجع ذلك عدة دوافع من أهمها:

أن مينائي حيفا ويافا كانت تنقصهما بعض المقومات التي تجعلها ميناءين أمنين للمملكة، وذلك لن ميناء يافا لم يكن من العمق بما يكفل للسفن الضخمة الوصول إلى الشاطئ، ولذا لم يتم النزول على البر إلا باستخدام قوارب العبور⁽⁹³⁾، وتعرض الهابطون للخطر الشديد، خصوصاً عند هبوب الرياح «فإذا اشتداد الرياح، كان ذلك خطراً على السفن ذاتها⁽⁹⁴⁾». وعلى الرغم من أن المجرى المائي المؤدى إلى حيفا كان أكثر عمقاً، وكانت حافة جبل الكرمل تحميه من الرياح الجنوبية الغربية، فإنه تعرض لخطر الرياح الشمالية⁽⁹⁵⁾. ولهذا حرص بلدوين الأول على محاولة إيجاد بدائل بين قلاع المدن الساحلية تكون أكثر أمناً، ويعتبر ميناء عكا الميناء الوحيد المأمون في فلسطين، على مدار السنة، ويؤكد لنا وليم الصوري ذلك بعد سقوط عكا في يد الصليبيين.. وهكذا توفر - ولأول مرة - وجود مدخل آمن للذين يصلون عن طريق البحر⁽⁹⁶⁾

أصبحت الضرورة تحتم سيطرة الملك بلدوين على قلاع المدن الساحلية، وذلك لأن بقاء تلك المدن الساحلية تحت السيطرة الإسلامية (الفاطمية) كان يشكل كثيراً من الأخطار على سفن الحجاج الصليبيين، وخاصة في أواخر خريف عام 1102م / 496هـ، ذلك أن السفن التي كانت تقل الحجاج العائدين إلى بلادهم، تعرضت للعواصف التي قذفت بها إلى الساحل في نقط مختلفة، نعضها بالقرب من عسقلان، وأخرى في مواضع بين صور وصيدا، «وتعرض المسافرون أما للقتل، أو للبيع في أسواق الرقيق في مصر»⁽⁹⁷⁾. كذلك ذات النشاط العسكري لحاميات تلك المدن الساحلية صور وصيدا وبيروت وعسقلان ضد مملكة بيت المقدس، فأضافت مزيد من الأخطار على المملكة وخاصة في خريف عام 500هـ / 1106م حيث قامت عدة ألوف من حاميات تلك المدن الساحلية بغارة مستغلين انصراف بلدوين إلى جهة الجليل، «وفاجأوا معسكر للحجاج بين يافا وأرسوف، وذبخوا النازلين به»، ثم توجهوا إلى الرملة وتغلبوا عليها، ثم تلا ذلك أن مضي الفاطميون قاصدين بيت المقدس، فهاجموا حصناً صغيراً اسمه Arnulf أو Arnaud، وكان قد شيده بلدوين الول لحماية الطريق المؤدى إلى بيت المقدس، وبعد حصار دام يومين «استسلم العمال: غير أنهم لقوا

مصرعهم»⁽⁹⁸⁾، ويرى أحد الباحثين المحدثين أن تلك الغارة أوشكت أن تحقق من النجاح ما أخفقت فيه جيوش تفوقها ضخامة وكثافة⁽⁹⁹⁾.

كما أراد الملك بلدوين تحقيق عدة أهداف من وراء إسقاط قلاع المدن الساحلية وهي زيادة رقعة مملكة بيت القدس الصليبية، وكي ترتبط المملكة بأكثر من منفذ على الساحل، إلى جانب محاولة التخفيف من عبء تكرار الحصار على ميناء يافا، وخاصة بعد تعرضها لأكثر من محاولة لإسقاطها من قبل القوات الفاطمية⁽¹⁰⁰⁾.

كذلك فرضت الضرورة على بلدوين زيادة توثيق اتصاله بالغرب الأوروبي وذلك بإسقاط المزيد من قلاع المدن الساحلية وذلك بعد أن أخفقت حملة عام 1101م / 495هـ⁽¹⁰¹⁾، في السيطرة على الطريق البري عبر آسيا الصغرى، وكان من نتائج ذلك الإخفاق تدمير وتبديد تلك الحملة وإغلاق ذلك الطريق في وجه الإمدادات الصليبية⁽¹⁰²⁾.

وقد أدرك الملك بلدوين الأول مدى أهمية العمل البحري - الذي يفتقد إليه في حسم الصراع حول المدن الساحلية وخاصة مع ما تميز به الجانب الفاطمي من أسطول بحري ونظراً لافتقار بلدوين لقاعدة مالية فكان من الصعب عليه الاعتماد على مساعدة الأساطيل الإيطالية، وهي التي كانت تحركها مصالحها الاقتصادية⁽¹⁰³⁾، ولهذا من الممكن القول بأن بلدوين أراد جذب تلك الأساطيل، عن طريق استخدام المدن الساحلية كمصادر جذب لها، ولهذا ظهرت الامتيازات الممنوحة لهم في لتلك المدن حالة سقوطها⁽¹⁰⁴⁾، ولذا تمكن بلدوين أن يحقق عدة فوائد منها ضمان توفير الشق البحري، مما ساهم بالتعجيل في إسقاط تلك المدن الساحلية، وكذلك ربط الأساطيل الإيطالية بالساحل الشامي لمباشرة امتيازاتها، وبالتالي وفر جسر متصل ربط المملكة الغرب الأوروبي، استغل في تحقيق مزيد من التبادل التجاري ونقل الحجاج الصليبيين لمملكة بيت المقدس.

ولهذا بذل بلدوين الأول جوده في إسقاط قلاع المدن الساحلية، وبدأ ذلك بإسقاط قلعة مدينة أسوف (Arsuf) بعد أن منح أهلها الأمان وخرجوا منها، في التاسع والعشرين من إبريل

1101م / السابع والعشرين من جمادي الأولى 494 هـ⁽¹⁰⁵⁾، كما استولى على قيسارية (Caesarea) عنوة "وأحدثوا بها مذبحه رهيبة" وذلك في السابع عشر من مايو عام 1101م / الثاني عشر من جمادي الثاني عام 494 هـ⁽¹⁰⁶⁾، ونجحوا في إسقاط قلعة عكا في حوالي الحادي والعشرين من مايو عام 1104م / الثالث والعشرين من شعبان 497 هـ⁽¹⁰⁷⁾، كما سقطت بيروت يوم الجمعة الموافق الثالث والعشرين من مايو عام 1110م / الحادي والعشرين من شوال 503 هـ⁽¹⁰⁸⁾، ثم سقطت صيدا بعد عدة محاولات ومفاوضات مطولة تمكن الصليبيون من استلامها يوم الثلاثاء التاسع عشر من ديسمبر عام 1111م / الخامس عشر من جمادي الأولى عام 504 هـ⁽¹⁰⁹⁾.

ولم تقتصر جهود بلدوين في هذا المحور الغربي الساحلي على إسقاط قلاع المدن الساحلية، بل أضاف بعض القلاع لتدعيم سيطرته على طريق يافا - القدس والذي كان بمثابة المنفذ الرئيسي للإمدادات والحجاج وظل معروضا للتهديدات والأخطار من قبل البدو والقوات الفاطمية (العسقلانيون)⁽¹¹⁰⁾. فإلى جانب وجود قلعة الرملة،⁽¹¹¹⁾ قام بلدوين بتشييد حصن أرنولد Chateau Arnold أو حصن أرنول Chateau Arnoul⁽¹¹²⁾.

ولكن عند تناولنا حصن أرنولد، لابد من التعرض للاختلافات بين الباحثين والتي أرتبطت بذلك الحصن، فيعتقد براور Prawer أن هناك حصنين أحدهما يسمى بـ Arnold (أو) Chateau Arnold وهو يقع على الجبال بالقرب من القدس بمنطقة le Castel، والأخر يدعى CAstellum Arnold تقع بمنطقة Yalu بالقرب من بيت نويه⁽¹¹³⁾. ولكن الباحث يتفق مع رأى Deschamps في ترجيح أن الحصنين السابقين ما هما إلا حصن واحد⁽¹¹⁴⁾، والراجع أن سبب الألتباس في المسألة السابقة يرجع إلى أن الملك بلدوين الأول قد أنشأ حصن Chateau Arnold Arnoul وذلك في الفترة المرتبطة بعام 1106م / 500 هـ⁽¹¹⁵⁾، أما المسمى الثاني للحصن Castellum Arnoldi، فقد ظهر حينما أطلقه وليم الصوري على نفس الحصن⁽¹¹⁶⁾، حينما قام الملك فولك الأنجوى بإعادة تجديد وتوسيع الحصن القديم الذي بنى في عهد الملك بلدوين لزيادة تحقيق الأمان لطريق يافا - القدس، وقد أتخذ البناء شكل الكستروم الروماني القديم⁽¹¹⁷⁾ Castrum. وما يؤيد قولنا أن المنطقة التي يرجح يوشع

براور أن حصن أرنولد Chateau Arnold قد أقيم بها وهي المسماة Le Castel لا توفر الحماية لطريق يافا - القدس وخاصة عبر Qubeiba⁽¹¹⁸⁾ ومن هذا لا يعرف الغرض من أنشأ الحصن الآخر الذي يرجح يوشع براور بوجوده.

أما المحور الثاني فقد تمثل في الجهة الشمالية والشرقية من مملكة بيت المقدس الصليبية، ومثل ذلك المحور خط الدفاع الرئيسي للمملكة في مواجهة جبهتين من أهم الجبهات الإسلامية التي طالما وجه المسلمون منها هجماتهم ضد مملكة بيت المقدس، وتمثلتا في جبهة دمشق ومدينة صور الفاطمية، وانعكست تلك الأهمية في استغلال طبوغرافية المنطقة بتشييد العديد من القلاع.

فقام هيوسانت أوامر Hugh de St. Omer والمعروف ب هيو فولكنبرج Hugh of Folkenberg أمير الجليل [1101 - 1106 م / 495 - 500 هـ] بتشييد قلعة صفد في عام 1102 م / 495 هـ⁽¹¹⁹⁾.

يرى البعض أن بناء قلعة صفد تم في الفترة المحصورة ما بين عامي (1140 - 1142 م / 530 - 535 هـ)⁽¹²⁰⁾. لكن بالرجوع لابن شداد نعرف أنها شيدت خلال عام (495 هـ / 1102 م)⁽¹²¹⁾. والراجح أن الرأي الأخير هو الأقرب للصواب، لذا استندنا إليه كما استند إليه بعض الباحثين المحدثين⁽¹²²⁾، وعليه فإن أول تأسيس للقلعة كان على يد هيوسانت أوامر، رغبة منه في تأمين الأجزاء الشمالية في الجليل، ولكن بنائها تم بسرعة نظرًا لضيق الوقت والانشغال بأمر الصراع الإسلامي الصليبي، ولهذا ففي الفترة اللاحقة حينما زادت مهام قلعة صفد، أصبح من الضروري على الصليبيين تدعيم تلك القلعة، والراجح أن الصليبيين قاموا بهدم القلعة القديمة وشيدوا أخرى بديلة أكثر اتساعًا وضخامة من السابقة⁽¹²³⁾.

أقيمت القلعة فوق جبل صفد ذو القمة الشاهقة الارتفاع، وكانت تشرف على الطريق الواصل بين دمشق وعكا⁽¹²⁴⁾، «... وتبعد بمقدار ثلاثة وعشرين ميلًا عن مدينة بانياس»⁽¹²⁵⁾، ولقد قامت القلعة بدور هام في إرساء دعائم الحكم الصليبي في منطقة واسعة من الأراضي التي يشقها نهر الأردن بل وفي السيطرة على قلب الجليل⁽¹²⁶⁾.

كما شيد هيو حصن تبنين Tibenin أو تورون Toron⁽¹²⁷⁾، وكان ذلك الحصن من أول الحصون التي أقيمت لمحاولة إسقاط مدينة صور الخاضعة للفاطميين لما أحدثته من خطر رئيسي في تلك الناحية: اختلفت الآراء حول تاريخ تأسيس حصن تبنين فقد دون البعض أن تاريخ البناء يرجع إلى عام 1104م / 498هـ⁽¹²⁸⁾، في حين ذكر البعض الآخر أنه تم في عام 1105م / 499هـ⁽¹²⁹⁾، كما رجح آخرون أنه تم في عام 1107م / 501هـ⁽¹³⁰⁾، بينما ذكر آخر أن ذلك كان في عام 1115م / 509هـ⁽¹³¹⁾ لكننا نستبعد الرأيين الأخيرين وذلك لأن الأمير هيو سانت أوامر فقد حياته في أدي الغارات مع المسلمين ودفن بالناصرية في السادس من سبتمبر عام 1106م / الرابع من محرم عام 500هـ⁽¹³²⁾.

والراجع أن سبب ذلك الاختلاف بين المؤرخين يرجع على أن عملية بناء الحصن قد بدأت في عام 1103م / 496 - 497هـ ولم يفرغ منها الأمير هيو إلا في خريف عام 1105م / 498 - 499هـ⁽¹³³⁾.

أقيم (حصن تبنين) على قمة أحد الجبال المطلة على مدينة صور، وكانت تبنين "تبعد عن صور بحوالي عشرة أميال"⁽¹³⁴⁾، كما تبعد عن مدينة بانياس "بمقدار سبعة عشر ميلاً" من جهة الجنوب الشرقي⁽¹³⁵⁾، ولقد ساهم موقع ذلك الحصن في تحقيق الأهداف العسكرية المرجوة منه وهو مراقبة صور، كما أنه سيصبح مدعماً لصور بتحصيناته الشهيرة وذلك بعد سقوط صور في القبضة الصليبية⁽¹³⁶⁾.

كذلك شيد هيو حصن هونين Hunin ولكن عند تناولنا تاريخ نشأة ذلك الحصن نجد أن أحد المراجع قد أرجح تاريخ نشأته إلى عام 1179م / 575هـ وذلك على يد همفري تورون Humphrey of Toron⁽¹³⁷⁾، إلا أننا نرجح أن تاريخ بناء الحصن تم أثناء بناء حصن تبنين أو بعده بقليل، وذلك اعتماداً على رأى ابن شداد "هونين وتبنين هما حصنان منيعان بناهما الفرنج بعد الخمسةائة"⁽¹³⁸⁾ ولذا فمن المرجح أن حصن هونين تم تشييده في الفترة المتراوحة من 1105 إلى 1106م / 499 - 500هـ. أما بخصوص حدوث التباين في تاريخ نشأة هونين وإرجاعه لعام

1179م / 575هـ فأن مرجعه إلى أنه حينما زادت المهام العسكرية لحصن هونين وخاصة بعد بناء حصن مخاضة الأحزان 1178م / 574هـ قام همفري تورون بإعادة بناء حصن هونين حتى تدعم حصن مخاضة الأحزان في الدفاع عن المملكة ضد جبهة صلاح الدين بدمشق⁽¹³⁹⁾، ونرجح أن حصن هونين في تلك الفترة عرف بالحصن الجديد Chateau neuf.

تميز حصن هونين في طبوغرافيته العسكرية فهو "يربض على ربوة عالية على ارتفاع 900 متر، من قمة جبل هونين"⁽¹⁴⁰⁾ "أعلى وادي الحولة في مواجهة جبل حرمون، وهو بمثابة الصخرة الواقعة على طريق دمشق صور المار بانياس⁽¹⁴¹⁾."

لم يكن حصن هونين هو آخر الحصون التي أسست تجاه مدينة صور بل نجد أن المصادر الإسلامية تشير على أن الملك بلدوين الأول قام في عام 501هـ / 1108م باختيار موقع قريب من صور لبناء حصن يتميز بالقوة والحصانة في موقع تل المعشوقة⁽¹⁴²⁾، لا يبعد إلا مسافة قصيرة عن مدينة صور (حوالي كيلومترين إلى الجنوب الشرقي منها) ومن المرجح أن الملك بلدوين قد أقدم على بناء ذلك الحصن، رغبة منه في الحد من نشاط المسلمين الحربي الذي كانت مدينة صور مركزاً له⁽¹⁴³⁾.

ولتحقيق نفس الهدف العسكري، وهو استكمال بناء حلقة الحصون الصليبية حول مدينة صور، أعاد الملك بلدوين تشييد حصن اسكندرونه الذي من الراجح أن ابن جبير قد أشار إليه باسم "الزباب"⁽¹⁴⁴⁾ أما في المصادر الأجنبية فقد عرف باسم سكاندليوم Scandalion⁽¹⁴⁵⁾، (أو Scandalion⁽¹⁴⁶⁾)، وذلك في عام 1117م / 510 - 511هـ ويقع الحصن بين صور وعكا على شاطئ البحر، "وتبعد عن صور بما يقرب من خمسة أميال أو بمقدار 12 كم كما تقع شمال قرية رأس الناقورة ويحدها من الشمال الشرقي قرية المنصورة ومن الجنوب الشرقي قرية طير حرفا Tair Harfa وتكثر بها الينابيع المائية التي منها ريبا"، وكان ذلك الموضوع هو نفسه الذي يقال أنه الاسكندر المقدوني شيد فيه - حين أراد الاستيلاء على صور - حصن أطلق عليها (السكنداريوم) نسبة إليه⁽¹⁴⁷⁾.

استمر هيو في المحافظة على الوجود الصليبي في المناطق الشرقية من إمارته (الجليل) حيث منطقة ما وراء الأردن، وأسس فيها حصن عرفته المصادر باسم العال أو عال⁽¹⁴⁸⁾.

نسبة إلى وقوعه شمال قرية عال في حين عرفته المراجع الغربية باسم حصن بلدوين Fort de Baudoin أو قصر البرد ويل Leqasr Berdaouil.⁽¹⁴⁹⁾ ولكن هناك بعض الباحثين من اعتقد أن المسلمين لحصنين مختلفين⁽¹⁵⁰⁾، إلا أننا نختلف مع رأيه لأن حصن عال أو قصر الردييل كان تتمتع بموقع عسكري مميز فهو تقع شرق بحيرة طبرية بين السواد والبثينية⁽¹⁵¹⁾، وبهذا الموقع أصبح تهدد كل من بانياس ودمشق بالعديد من الغارات التي قام بها الأمير هيو مما دفع طغتكين لضرورة مهاجمة حصن عال ولشدة خطورته أمر بهدمه وتسويته بالأرض⁽¹⁵²⁾، وهذا يوضح مدى خطورة ذلك على الحصن، ولهذا فمن المرجح من خلال تلك الظروف أنه وجد حصن واحد فقط في ذلك الموضع وليس حصنين وهو ما كان يرفضه طغتكين، خاصة إذا كان يسيطر عليها شخصية نشيطة مثل الأمير هيو، ويرى البعض أن الصليبيين يسيطرتهم على حصن عال تمكنوا من الوصول إلى أقصى نقطة في المنطقة الشرقية من نهر الأردن⁽¹⁵³⁾، وهو ما يعكس الأهمية الطبوغرافية لذلك الحصن، أما بخصوص تاريخ نشأة حصن عال فمن الراجح أنه كان في نفس العام الذي تأسس فيه حصن تبين وهو عام 1105م / 499هـ⁽¹⁵⁴⁾.

ونتيجة لما أصاب حصن برد ويل أو عال من تدمير على يد طغتكين أراد بلدوين أن يعيد سيطرته على منطقة السواد شرق بحيرة طبرية، فأراد استغلال الهدنة المبرمة بينه وبين جبهة دمشق (طغتكين) والتي بدأت حسب إجماع المصادر العربية عام 1108م / 502هـ" على أن تستمر لمدة أربع سنوات"⁽¹⁵⁵⁾، واستغلها بلدوين في تسييد حصن حبيس جلدك Habis Jaldak⁽¹⁵⁶⁾، وفي عام 1109م / 503هـ واكتسب بلدوين خبرة في اختيار موقع حصن الحبيس واستغلال طوبوغرافية المنطقة، وخاصة بعد ما تعرض حصن عال للتدمير على يد طغتكين فانعكس ذلك على اختيار موضع حصن الحبيس في مكان أقل تعرضاً للهجوم من قبل قوات طغتكين⁽¹⁵⁷⁾، فذلك الحصن بمثابة كهف أو مغارة تقع جنوب نهر اليرموك في منطقة عرفت باسم عراق

الحابس جنوب رأس هلجا Rastlilija حيث بلدة شيجارا Shejara⁽¹⁵⁸⁾، ويتتمي حصن الحبيس إلى الحصون الكهفية، ولذا وصفه المؤرخين المسلمون بأنه «حصن منيع لا يرام»⁽¹⁵⁹⁾، ذلك لأن الصليبيين هياؤه كي يكون محصن طبيعياً بحيث أعطته الطبيعة حماية كافية، حيث تميزت طوبوغرافية الحصن والمنطقة بوقوعه وسط سلسلة من الكهوف الجبلية حتى أنه لا يمكن الوصول إلا عن طريق ممرات ملتوية ومرهقة، أو سلام من الجبال المتدلية نحو منحدراتها، وإذا ما هوجم كان على المهاجمين أن يحفروا في جوانب الحصن بواسطة أدوات النقب⁽¹⁶⁰⁾ وبهذا عاد الصليبيون سيطرتهم على منطقة السواد شرق نهر الأردن بفضل حصن الحبيس.

وتحقيقاً لاستكمال السيطرة على منطقة السواد شيد الصليبيون قلعة خان راجوب Khan Rahup في الطرف الجنوبي الشرقي من نهر الأردن⁽¹⁶¹⁾.

كذلك إلى جانب اهتمام الملك بلدوين الأول بتحصين مدينة نابلس في قلب المملكة، شيد قلعة صليبية في مدينة نابلس إلى جانب برج أمامها، عرف باسم برج نابلس Turris Neopolilana، وذلك من أجل الدفاع عن المدينة ضد محاولات المسلمين المستمرة لاسترجاع أراضيهم السليبية، وذلك حينما منحت لباين دي ميللي Payen de Milly عام 1108م / 502هـ⁽¹⁶²⁾.

أما المحور الثالث من التوسع فتمثل في الاتجاه جنوباً بغرب أي في اتجاه الحدود المشتركة مع الدولة الفاطمية بمصر، ولقد بدأ الملك بلدوين الاهتمام بتلك المنطقة الجنوبية حينما علم "... بأن ثلاثة آلاف دمشق تحت إمرة القائد التركي الأصفهيد بنو قلعة في وادي موسى لمنع المسيحيين من المرور في تلك المنطقة⁽¹⁶³⁾" فخرج إليهم في عام 1107م / 501هـ "على رأس جيش من خمسمائة جندي، يصحبه دليله الكاهن السوري ثيودور"، وأجبر المسلمون على ترك المنطقة وهدم القلعة⁽¹⁶⁴⁾.

لم يلبث بلدوين أن شن أربع حملات على المطقة في الفترة المحصورة بين عامي 1100 - 1115م / 494 - 510هـ⁽¹⁶⁵⁾، أما حملته في عام 1112 - 1113م / 506 - 507هـ والتي اشترك فيها مائتا فارس من المشاة، إلى جانب مساعدة إحدى القبائل البدوية له، فقد عاد الملك منها محملاً بالغنائم التي حصل عليها من قافلة دمشقية⁽¹⁶⁶⁾.

ثم أراد الملك تقوية وجود في منطقة - شرق البحر الميت - فاختار موقع حصن الشوبك عام 1115م / 509هـ⁽¹⁶⁷⁾، وتميز موقعها بوفرة القدرة الدفاعية عنها بشكل طبيعي، وذلك لأن الحصن - يربض "فوق قمة من قم جبال الشراه، ترتفع إلى 1330م عن سطح البحر، وتحيط بها أودية من جهاتها الأربع هي وادي الحماط من الشرق والشمال ووادي الرغاية من الجنوب، ووادي مدقات الزبيب من الغرب، والمسافة ما بين قمة الجبل وقيعان الأودية المحيطة، تتراوح ما بين مائة متر في الجزء الشمالي الغربي إلى حوالي 250 متر باتجاه الشرق"⁽¹⁶⁸⁾، وهذا ما دفع ياقوت الحموي لوصفها بأنها "قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلمزم قرب الكرك"⁽¹⁶⁹⁾ وتحيط بالحصن عيون الماء العذبة، ففي قاع الوادي شرقاً توجد عين العاصي، وفي الغرب عين مغاس، كما توجد عين الرغاية في الزاوية الجنوبية الشرقية للحصن، ولقد كان لوجود الماء في تلك العيون الفضل في جعل الأودية التي تنساب فيها دائمة الخضرة، كما أن الأرض حول الحصن زراعية، تصلح لزراعة الأشجار والحبوب⁽¹⁷⁰⁾، ولقد ساهمت طوبوغرافية تلك القلعة في توفير الحصانة الطبيعية له، كما ساعدت في إغلاق المعمر الذي يسلكه المسلمون، وبالتالي مراقبة طرق التجارة والحج الإسلامي⁽¹⁷¹⁾. والحقيقة أن بلدوين تمكن بقليل نم الأشخاص وفي وقت قصير من تشييد حصن شوبك⁽¹⁷²⁾. ولم يلبث أن شيد في تلك المنطقة أيضاً حصن الوعيرة⁽¹⁷³⁾، والتي عرفت في المراجع الأجنبية باسم (ouairah) أو (Waira)⁽¹⁷⁴⁾، أو (Chateau la Vauxmoise)⁽¹⁷⁵⁾، ويقع الحصن في جبل الشراه قرب وادي موسي⁽¹⁷⁶⁾، ويرتفع عن سطح البحر حوالي 1050 متراً، وكان اختيار بلدوين موقفاً لإقامة الحصن في ذلك الموقع المنعزل بخندق طبيعي يتراوح عمقه ما بين 30 - 50 متراً⁽¹⁷⁷⁾، أما عن تاريخ تشييد ذلك الحصن فإنه يكتنفه الكثير من الغموض⁽¹⁷⁸⁾، فيرى البعض أنه شيد عام 1116م / 510هـ⁽¹⁷⁹⁾، بينما يؤكد مرجع ثالث أن تشييده كان في عام 1117م / 511هـ⁽¹⁸⁰⁾.

منحن نرجح الرأي الثاني لأنه متزامن مع الحملة الثانية لبلدوين في المنطقة والوصول إلى البحر الأحمر مما ساهم في دراسة طوبوغرافية المنطقة، ولا نرجح الرأي الأول لضيق وقت الملك بلدوين، أما الرأي الأخير فهو متأخر نسبياً عن حملتي بلدوين.

استكمل بلديون حملته الثانية عام 1116م / 510هـ - بعد تأسيسه لحصن الوعيرة - حتى وصل بها إلى مدينة ألية Eilat⁽¹⁸¹⁾ وتمكن من السيطرة عليها⁽¹⁸²⁾، ثم تقدم للسيطرة على جزيرة فرعون⁽¹⁸³⁾، Jazirat firaowun⁽¹⁸⁴⁾، وإنشاء بها قلعة حملت اسم الجزيرة⁽¹⁸⁵⁾ ولكن هناك بعض الباحثين يرجح أن هناك قلعة واحدة فقط هي التي بناها الملك بلديون في عام 1116م / 510هـ وتقع على جزيرة فرعون ومن خلالها تم السيطرة على مرفأ أيلة⁽¹⁸⁶⁾. وثمة رأي يذكر أن قلعة أيلة (العقبة) أقيمت عام 1320م / 720هـ⁽¹⁸⁷⁾. ولكننا نرجح أن ذلك الاختلاف يرجع إلى مسمى أيلة نفسه وتعددته على مدار العصور⁽¹⁸⁸⁾، فقد عرفت أيلة في بعض المراجع بجزيرة فرعون⁽¹⁸⁹⁾، ومن الممكن أن أدى ذلك إلى الاعتقاد بوجود قلعة واحدة متحركة في أيلة ورجح أنها قد أنشئت على جزيرة فرعون ولقد نسب بعض الباحثين، تأسيس قلعة فرعون إلى صلاح الدين واستبعدوا أن يكون الملك بلديون قد أسسها⁽¹⁹⁰⁾.

لكن؟ نرجح أن الملك بلديون قد أقام قلعة بجزيرة فرعون، لأنه حينها توجه لميناء أيلة أنسحب بعض المستوطنين إلى ملجأ في البحر يمثل بجزيرة فرعون، وذلك لضعف استحكامات أيلة، فكان لزاما على بلديون لتأمين ميناء أيلة ضرورة السيطرة على جزيرة فرعون وتحصينها، لذلك ركب بلديون القوارب وأتجه لجزيرة فرعون وأستولي عليها دون مقاومة ثم أسس بها قلعة⁽¹⁹¹⁾.

كذلك أنه حينها إتجه صلاح الدين لحصار قلعة أيلة في عام 566هـ / 1170م إعتد على نقل المراكب لحصار القلعة وهو ما وضحه لنا ابن الأثير " .. أمر صلاح الدين بنقل المراكب لحصار قلعة أيلة برا وبحرا." ⁽¹⁹²⁾، نرجح أن الحصار البحري هنا قصد منه حصار قلعة جزيرة فرعون، وكذلك لقطع أي اتصال بين قلعة أيلة التي تبعد عن الشاطئ بمقدار خمسين مترا وقلعة جزيرة فرعون، والواقع أن حصر صلاح الدين على ضرورة وجود مراكب لحصار قلعة أيلة يؤكد وجود قلعة صليبية في جزيرة فرعون، لأنه إذا افترضنا بعدم وجود قلعة صليبية بجزيرة فرعون لما أصبح هناك ضرورة لحصار قلعة أيلة البرية، حصارًا بريًا وبحريًا (بخليج العقبة) وكان من الممكن الإكتفاء بالشق البري من الحصار.

وأيا كان الأمر فقد نتمكن بلدوين من خلال قلعة جزيرة فرعون من الوصول والتحكم لأول مرة في أمن البحر الأحمر وأستمر ذلك التهديد قرابة نصف قرن أو يزيد، كما سيطر تمامًا على الطريق المعتاد للقوافل بين مصر والشام والحجاز⁽¹⁹³⁾.

وهكذا نجح الملك بلدوين الأول في السيطرة على القلاع والمدن الإسلامية، بل تميز عهده بتأسيس العديد من القلاع الصليبية وذلك لما تطلبت الأوضاع العسكرية في مملكته آنذاك، وهنا نتساءل عن العوامل التي ساعدته على تحقيق المهدفين بنجاح؟ والحقيقة أن تحقيقها ناتج عن مجموعة من العوامل أهمها:

تمثل العامل الأول في حسم بعض مواقع الرملة في صالح الجبهة الصليبية⁽¹⁹⁴⁾، التي أنهت تلك المحاولات الضخمة التي قام بها الفاطميون لاستعادة أملاكهم من الصليبيين، وإنحصر الدور الفاطمي في الجانب الدفاعي عما بقي من أملاك للفاطميين في ذلك الشريط الضيق من قلاع المدن الساحلية الممتد من بيروت إلى عسقلان، باستثناء بعض المدن التي سقطت في القبضة الصليبية، ولم تعد المساندة عن تقديم المؤن وبعض الرجال⁽¹⁹⁵⁾، وبهذا أصبح جيش المدين اللاتيني هو المنفرد بساحة القتال، مما أدى إلى تحقيق مزيد من فعالياته في إسقاط القلاع والمدن الإسلامية.

أما العامل الثاني: فتمثل في شخصية الأمير هيو، وما تميز به من شجاعة وجسارة في القتال أظهرها أثناء معاركة ضد المسلمين، مما أهله أن يكون أميراً لكبرى الاقطاعات في مملكة بيت المقدس⁽¹⁹⁶⁾، ولم يكتف الملك بلدوين بتعيينه على الجليل⁽¹⁹⁷⁾، بل نصبه في وظيفة مستشار Seneschal التي كان من أهم اختصاصاتها الإشراف على عملية بناء القلاع داخل المملكة، وكذلك التفتيش عليها وعلي التحصينات المختلفة ومعالجة أوجه القصور بها، وبالتالي أنعكس تولى هيو سانت أوامر لذلك المنصب على المملكة، التي شهد قسمها الشمالي لطفرة كبيرة في مجال بناء القلاع في عصره، وكما لاحظنا تمثلت في قلعة صغد وصفوه عال وتبنين وهونين مما أدى لتدعيم المد الصليبي في شمال وشرق مملكة بيت المقدس الصليبية⁽¹⁹⁸⁾.

كما كان للعامل البحري دورة الحسنم في علمية الصراع حول قلاع المدن الساحلية، ونقصد به هنا دور الأساطيل البحرية، وخاصة أساطيل المدن الإيطالية (جنوة والبندقية) وما قامت به من دور هام وكبير في غزو المدن والقلاع الساحلية، وما ساهمت به في قلب ميزان القوى لصالح الجبهة الصليبية، ولقد أدرك الصليبيون أن فتح قلاع ومدن الساحل عملية شاقة تتطلب قوات ضخمة، وعضواً بحرياً قوياً لحصارها، فكان من المستحيل حصار أية مدينة بحرية طالما كانت تتلقى إمدادات وقوى بشرية عبر البحر سواء من مصر أو من الأساطيل البحرية في صور وعسقلان، ولهذا ظهرت الحاجة الماسة للقوى البحرية الإيطالية، والتي هرعت بدورها نحو الشرق للبحث عن أسواق جديدة لمنتجاتها والاتجار في السلع الشرقية، فوجهت مراسليها نحو سواحل الأراضي المقدسة. ولهذا منحهم الصليبيون من الامتيازات ما فاق ما تمتع به الصليبيون أنفسهم في إمارتهم بالأراضي المقدسة، للإبقاء على ذلك الدور البحري، لدرجة أنه بلغ من عظم تلك الامتيازات أن التجار الإيطاليين كونوا دولة داخل الدولة اللاتينية بالشام⁽¹⁹⁹⁾، وأياً كان الأمر فقد ساهم الدور البحري الممثل في إسقاط قلاع المدن الساحلية، ومن أمثلة ذلك ما قام به الجنوية في ساعدة جيش بلدوين للسيطر على قلعة أرسوم عام 1101م / 495هـ وكذلك قيسارية في 1101م / 495هـ⁽²⁰⁰⁾، كذلك تمكن بلدوين من فرض الحصار على مدينة عكا في مارس عام 1104م / 498هـ وخاصة حينما وصل إلى اللاذقية أسطول جنوي تألف من عدد كبير من السفن، فقد ذكر (فوشيه) "أن عدد السفن وصل إلى سبعين سفينة"⁽²⁰¹⁾، ولهذا استعان بلدوين بذلك الأسطول لحصار عكا في أواخر مايو 1104م / 498هـ حتى عجز والى عكا زهر الدولة الجيوشي عن مقاومة الحصار المحكم على عكا من البر والبحر فاضطر إلى الاستسلام⁽²⁰²⁾ وذكر ابن الأثير "أنهم ملكوا المدينة بالسيف"⁽²⁰³⁾ لم يكن الدور البحري قاصر على الأساطيل الإيطالية فحسب، بل ساهم الأسطول النرويجي مع أسطول بندقية معاً في إسقاط مدينة صيدا في 11 ديسمبر عام 1111م / 505هـ⁽²⁰⁴⁾، وبهذا ساهم الدور البحري في إسقاط قلاع المدن الساحلية في القبضة الصليبية.

كما استغل بلدوين الهدنة المعقودة بينه وبين طغتكين، والتي بدأت في عام 502هـ الحادي عشر من أغسطس 1108م⁽²⁰⁵⁾. عسكرياً وسياسياً في إعادة فرض الهيمنة والسيطرة على منطقة

السواد التي تقع إلى الشمال من نهر اليرموك والتي تعد امتدادا لإمارة الجليل من ناحية الشرق، ولذلك عكف على تحصين المنطقة عن طريق بناء حصن حبيس جلدك⁽²⁰⁶⁾.

كما ساهم استكمال تكوين إمارة طرابلس بدخول الصليبيين مدينة طرابلس نفسها في 12 يوليو 1109م / 503هـ⁽²⁰⁷⁾، في تحقيق الاتصال بين الصليبيين في أنطاكيا والرها، أخونه في مملكة بيت المقدس، بعد أن كانت سلسلة من الإمارات الإسلامية تفصل بينهم⁽²⁰⁸⁾، بل أنها ساهمت في تأمين الحدود الشمالية من مملكة بيت المقدس، وأدى هذا إلى جانب بعض الهدنات والاتفاقات التي أبرمت مع حكام دمشق إلى تأمين الجبهة الشرقية أيضًا، مما ساعد الملك بلدوين للتفرغ لمحاولة إسقاط قلاع المدن الساحلية في الجهة الغربية، وتأسيس بعض القلاع لتحقيق بعض الأهداف العسكرية المرتبطة بالسهل الساحلي، بل أنها سمحت لبلدوين أن يوجه جهوده إلى الجبهة الجنوبية التي لم تطرقها القوات الصليبية من قبل وتحقيق السيطرة على صحراء النقب عن طريق تأسيس مجموعة قلاع الشوبك أيله وجزيرة فرعون.

كما نلاحظ أن تساقط قلاع المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى، كان يفت في عضد القلاع الساحلية المتبقية سواء من الناحية المعنوية أو في تقليص حجم الإمدادات التي من الممكن أن تأتي إليها من تلك المدن الساحلية، ونلاحظ أن تلك الإمدادات كانت لها فعاليتها في إخفاق حصار عكا من قبل بلدوين عام 1103م / 497هـ ولم تلبث أن وصلتها النجيدات من سائر السواحل وجاءت إليها⁽²⁰⁹⁾ السفن الفاطمية من صور وصيدا، وعندئذ أدرك الملك بلدوين أن الاستيلاء على عكا لن يتم في سهولة، فرفع الحصار عنها وعاد من حيث أتى⁽²¹⁰⁾.

كذلك هناك سبب ساهم على وجه خاص في إسقاط قلعة صيدا، تمثل في تقاعس حاكم صيدا في دفع المبلك المتفق عليه لقوات طغتكين، وذلك حينما تعرضت صيدا للهجوم في عام 1108م / 502هـ من قبل الملك بلدوين أسرع حاكم صيدا بطلب المساعدة من طغتكين حاكم دمشق - في مقابل مبلغ من المال، وعندما وصلت القوات الدمشقية أدرك بلدوين أن عملية الحصار أصبحت غير موفقة، فأثر الأنسحاب، وهنا رفض حاكم صيدا تقديم المبلغ المتفق عليه

بل ورفض المساح بدخول القوات الدمشقية للمدينة، ولكن تحت ضغط القوات الدمشقية رضخ حاكم صيدا ودفع «ثلث المبلغ المتفق عليه»⁽²¹¹⁾. والراجح أن ذلك الموقف أضعف من إستجابة دمشق فيما بعد لتقديم المساعدة لصيدا مما قلل من فرص التعاون بينهما فساهم ذلك في إسقاط قلعة صيدا.

جملة القول أن الملك بلدوين الأول نجح في إستكمال المرحلة التي كان قد بدأها سلفه جودفري، فعلى المحور الساحلي الغربي لم يكن لبيت المقدس سوء ميناء يافا ثم ميناء حيفا بعد وفاة الأمير جودفري، لكن الملك بلدوين زاد من توثيق إتصال المملكة بالغرب الأوربي عن طريق إسقاط قلاع أرسوف وقيسارية وعكا وبيروت وصيدا ولم يتبق إلا مينائي صور وعسقلان، كما أقام حصون إسكندرونه وتبين وتل المعشوقة لمحاولة إسقاط مدينة صور، بل أنه أمن طريق الحجاج بتأسيس قلعة الرملة وأرنولد، كما تعمق في المحور الشرقي وأمن حدود مملكته بحصن عال وحينها دمرت سيطر على ذلك الجانب بحصن الحبيس جلدك كما أنه شيد قلعة مدينة نابلس، بل أنه تمكن من الوصول إلى منطقة جديدة لم تكن مطروقة من قبل الصليبيين وهي الجبهة الجنوبية والوصول إلى مياه البحر الأحمر لأول مرة، وذلك بعد تأسيسه لقلاع الشويك والوعيرة وآيلة وجزيرة فرعون، ولهذا من الممكن القول أن الملك بلدوين هو المؤسس الحقيقي لمملكة بيت المقدس⁽²¹²⁾، بعد أن أرسى قواعدها باستغلال طبوغرافية المملكة في تأسيس مجموعة جديده من القلاع الصليبية التي أدت لاتساع رقعتها.

عهد الملك بلدوين الثاني (1118 - 1130 م / 512 - 525 هـ)

لم يترك الملك بلدوين الأول ولدًا يرثه في الملك، لذلك اجتمع أمراء المملكة ومعهم البطريك أرنولف مالكورن في اليوم التالي لوفاته لبحث مشكلة ملء العرش، واستقر رأيهم على إختيار الأمير بلدوين دي يورج أمير الراها Baldwin Du Bourg⁽²¹³⁾، وبالفعل تم تتويج بلدوين الثاني ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية في كنيسة القيامة يوم 14 إبريل عام 1118 م / 512 هـ⁽²¹⁴⁾.

كان أخطر ما يهدد مملكة بيت المقدس الصليبية هو نشأة تحالف بين القاهرة ودمشق، مما يوقع تلك المملكة بين شقي الرحي، وخاصة وأن الفاطميين كانوا يملكون قاعدتين قويتين متمثلتين في صور وعسقلان، وبالفعل تمثل التحالف بين القاهرة ودمشق في حشد الوزير الأفضل الفاطمي جيوشه في عسقلان، وأرسل أسطوله إلى صور، في حين حضر طغتكين بنفسه إلى عسقلان لقيادة القوات المشتركة، وعندئذ أخبره قائد الجيش الفاطمي أن لديه تعليقات "بالوقوف على رأي طغتكين والتصرف على ما يحكم به" وهكذا تمت المعجزة فتحالف الدماشقة السنيون مع الفاطميين الشيعة، مما أندر بتهديد مملكة بيت المقدس تهديدًا خطيرًا⁽²¹⁵⁾.

لم يسع الملك بلدوين الثاني في ذلك الموقف الحرج سوى الاستجداد بالصليبيين في أنطاكيا وطرابلس، ثم رابط الملك نفسه شمالي عسقلان حيث تجمد الموقف بين الصليبيين والمسلمين مدة شهرين أو ثلاثة أشهر، عاد بعدها كل فريق من حيث أتى⁽²¹⁶⁾، وبهذا أيقن الملك بلدوين الثاني بمدى خطورة ذلك التحالف الدمشقي الفاطمي وخاصة إذا ما توفر للفاطميين قاعدتين حصيتين هما صور وعسقلان، لهذا أرسل إلى البندقية طالبًا المعونة ضد الفاطميين المسيطرين عليها، وقد أيد البابا طلب ملك بيت المقدس، وحيث البنادقة على المساهمة في مساعدة الصليبيين، "مما جعل دوق البندقية يعد حملة كبيرة من ثلاثمائة سفينة تحمل خمسة عشر ألف جنديًا للرحيل إلى الشام" هذا وإن كان الإعداد النهائي لتلك الحملة لم يتم إلا بعد مرور ثلاث سنوات أي في صيف عام 1123م / 517هـ⁽²¹⁷⁾. ونظرًا لأهمية وخطورة مينائي صور وعسقلان، أنقسم الصليبيون حول الميناء الذي يبدون بمهاجمته هل يهاجموا صور أولاً أم عسقلان؟ عندئذ أيد أمراء الجليل مهاجمة صور، في حين رأى باقي أمراء مملكة بيت المقدس البدء بعسقلان، ونتيجة لشدة الاختلاف تم الاحتكام إلى القرعة التي رجحت كفة صور⁽²¹⁸⁾، وبدء البنادقة بالفعل في حصار صور بعد أن عقدوا اتفاق حقق لهم أكبر قدر من الامتيازات في المدينة مقابل المساعدة الحربية التي يقدمونها⁽²¹⁹⁾.

ساعت أحوال صور حينها اشتد الحصار الصليبي عليها برًا وبحرًا، فنفذت الأقوات من المدينة وعدمت الميرة وأوشكت المدينة على السقوط في أيدي الصليبيين، عندئذ تحرك ظهير الدين

طغتكين مدفوعاً بدافع الغيرة على الإسلام، ولكن جاء ذلك بعد فوات الفرصة حيث أطبق الصليبيون عليها، وأدرك طغتكين جلية الأمر فلم يجد مفرّاً من العمل على إنقاذ أرواح المسلمين بالطرق السياسية بمراسلة الصليبيين، "واتفق معهم على تسليم المدينة على أن يؤمن كل من بداخلها من العسكر والأهالي على أرواحهم وأموالهم" وأعلن الصليبيون موافقتهم، وتم الاستيلاء على صور في 23 جمادى الأولى عام 518هـ / 1124م⁽²²⁰⁾.

والحقيقة أن هناك عدة دوافع ساهمت في نجاح الصليبيين في إسقاط قلعة مدينة صور تلك المرة، وهي القلعة التي ضرب بها المثل في الحصانة الطبيعية⁽²²¹⁾، وكان أهم تلك الدوافع توفر الشق البحري في حصار المدينة وهو ما قام به أسطول البندقية.

كما ساهم عزل الحاكم الدمشقي سيف الدولة مسعود من قبل الخليفة الفاطمي الأمر في إسقاط المدينة، وهو الأمر الذي جعل المؤرخ أو المحاسن ينتقد الفاطميين من أجله، «لأنه حرم صور من الرجل القوي الذي فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة⁽²²²⁾»، وبالتالي استغل الصليبيون فرصة خروج مسعود حاكم صور وشددوا من هجماتهم على صور.

كذلك كان لتعرض المدينة لفترات حصار كثيرة ومتعددة منذ اعتلاء بلدوين الأول⁽²²³⁾، بل لم تقصر على ذلك فحسب بل زاد من التضييق على صور بتطويرها بمجموعة من القلاع والحصون مثل تبنين وهونين وتل المعشوقة الأسكندرونة.

كما أثرت وفاة بلك الأرتقي حاكم حلب وديار بكر في مايو عام 1124م / 518هـ، وهو الذي كان يستعد للحضور على رأس جيش كبير لإنقاذ صور، فلم يقدر لتلك المساعدة أن تصل لصور⁽²²⁴⁾.

كذلك ساهم تدهور أحوال الخلافة الفاطمية وما كان تعانيه من كثرة المجامعات والثورات، في التقليل من حجم الإمدادات المتجهة إلى صور⁽²²⁵⁾.

كما ساهم اغتيال الوزير الفاطمي في إسقاط قلعة صور، فقد أدى اغتياله على يد الباطنية، نتيجة تنازله عن صور لطغتكين عام 1121م / 515هـ⁽²²⁶⁾، إلى تغيير أسلوب الخلافة الفاطمية

مع طغتكين، وتحولت من الحرص والتعاون معه إلى سياسة أثارته ضدهم، مع العلم أنه يعاب على الخليفة الفاطمي الأمر "التكاسل في أمر الجهاد"⁽²²⁷⁾.

كذلك كان للجهود الكبيرة التي قام بها وليم دي بوج William Du Bourg حاكم الجليل دوره الذي تمثل في عدة أمور منها أنه كان لدية في طبرية ممتلكات فسيحة تمكن من خلالها من القيام بغارات فجائية على مدينة صور، وكانت تلك الجهود استكمالاً لجهود جوسلين أمير الجليل السابق، هذا بالإضافة إلى أن حكم وليم دي بوج المؤقت لمملكة بيت المقدس أثناء فترة أسر الملك بلدوين الثاني على يد بلك بن ارتق، تلك الفترة التي استغلها في عملية تنظيم حصار مدينة صور الفاطمية حتى تم إسقاطها في يد الصليبيين⁽²²⁸⁾.

كان لسقوط صور في أيدي الصليبيين رد فعله السيئ للغاية على المسلمين وهو ما صورته لنا ابن الأثير بقوله "إن ضياع صور سبب وهناً عظيماً على المسلمين"⁽²²⁹⁾ "بينما أدى أستيلاء الصليبيين عليها إلى تدعيم مركزهم لأنها "من أحسن البلاد وامنعها"⁽²³⁰⁾.

ولم يكتف بلدوين بالسيطرة على قلعة مدينة صور الإسلامية بل إنه وجه اهتمامه في خريف عام 519هـ / 1125م لتشييد حصن على جبل يقع على مسافة ستة أميال شمال بيروت وهو المعروف باسم (دير القلعة) وعرف أيضاً باسم (le Mont Glavien)⁽²³¹⁾، جعلها الصليبيون بمثابة قاعدة للدفاع عن بيروت أو لاستخلاص الإتاوات من المسلمين⁽²³²⁾.

كانت السيطرة على مدينة بانياس عام 1129م / 524هـ من أهم الأعمال التي نجح الملك بلدوين الثاني في تحقيقها، وذلك بعد تفاوضه مع جماعة الإسماعيلية الذين أخفقوا بالمنطقة فأرادوا بيعها للملك بلدوين الثاني⁽²³³⁾ وتمكن أهمية بانياس في موقعها الهام على مرتفعات الجولان قرب السفح الجنوبي الشرقي لجبل الشيخ عند منابع النهر الصغير الذي كان يعرف باسم المدينة وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال من تل القاضي المشهور⁽²³⁴⁾، وتقع مدينة بانياس على مفترق الطرق التي تؤدي من دمشق إلى صور وصيدا وبلاد الجليل من فلسطين، وبالتالي فهي المفتاح لتلك المناطق ولوادي البقاع⁽²³⁵⁾، وذلك الموقع جعلها تفصل بين قوى متضادة تمثلت في

القوي الصليبية المسيطرة على منطقة الساحل والأتابكيات التركية في الداخل، مما يجعلنا نصفها بأنها موقع حدودي هام.

لكننا حينها نتحدث عن قلعة بانياس المتواجدة داخل أسوار المدينة⁽²³⁶⁾، نجد أنه من الصعب علينا تحديد نشأة تلك القلعة الداخلية وذلك لصمت المصادر، وأشير لوجود قلعة لأول مرة أثناء هجوم عام 1128م / 523هـ⁽²³⁷⁾. والواقع أن الموضوع يفرض علينا الحديث عن قلعة بانياس وتأسيسها، وذلك يدفعا بالتالي إلى تتبع نشأة قلعة الصليبية Subeiba⁽²³⁸⁾، والتي ارتبط ذكرها بمدينة بانياس وقيل أن تأسيس قلعة الصبيبه تم في أثناء الفترة الصليبية⁽²³⁹⁾. لكن إختلف رأي المؤرخين في أن ذلك تم في الفترة الأولى (1129 - 1132م / 524 - 527هـ)⁽²⁴⁰⁾، أو في الفترة الثانية (1139 - 1164م / 534 - 560هـ)⁽²⁴¹⁾، ونرجح أن سبب ذلك الإجماع لى بناء تلك القلعة أثناء الفترة الصليبية جاء نتيجة اعتماد معظمهم على إشارات الرحالة الجغرافي ابن شداد "بانياس وهي مدينة كورة الجولان ولها قلعة تسمى الصبيبه لم يتصل بعمل شيء من مبدا أمرها إلا ما قرأته في تاريخ لطيف لأحد بني منقذ، وهو عبد الرحمن بن محمد وذكر بعض جماعة أن قلعة «الصبيبه» بنيت بعد ملكها الفرنج في سنة أربع وعشرين، وهم الذين أنشأوها⁽²⁴²⁾ وكذلك إشارات جان دي ايلين⁽²⁴³⁾.

كذلك نجد أن البعض قد دمج بين قلعة الصليبية ومدينة بانياس فأصبحت بمثابة وحدة واحدة فحينها تنتقل مدينة بانياس بين الجبهتين الإسلامية والصليبية يصبح من المسلم به انتقال قلعة الصبيبه معها⁽²⁴⁴⁾، بينما حدث بخصوص الأحداث اللاحقة بالنسبة لمدينة بانياس وبالأخص أثناء تعرضها لحصار من قبل شمس الملوك وذلك في أواخر المحرم عام 1132م / 527هـ⁽²⁴⁵⁾، وكذلك أثناء هجوم نور الدين محمود عام 1157م / 552هـ⁽²⁴⁶⁾ فحينها ذكرت قلعة بانياس في أثناء تلك الهجمات رجح البعض أن المقصود بها قلعة الصليبية⁽²⁴⁷⁾، متجاهلين بذلك دور القلعة الداخلية لبانياس.

ولكننا بالتدقيق في تلك الإشارات التي اعتمدها عليها الباحثون لإثبات وجود قلعة الصليبية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي نجد أننا نختلف معهم في أن بنائها لم يتم خلال

الفترة الصليبية وذلك لعدة إعتبارات منها: أن المصدرين اللذين اعتمد عليهم البعض لإثبات أن بناء قلعة الصيبية تم خلال الفترة الصليبية وهما ابن شداد وجان دي ابلين نجدهما في كتاب النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، ولهذا يعتبران من المصادر الثانوية أو بمعنى أدق الغير معاصرة للأحداث أثناء دراسة فترة القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي هما كما وضح لنا أحد الباحثين المحدثين ما يكتنفهما من شك وعدم دقة بشأن ما أوردها من معلومات خاصة بقلعة الصيبية⁽²⁴⁸⁾.

كذلك صممت مصادر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي عن أي إشارة لقلعة الصيبية، وخاصة أنها لم ترد في إشارات الرحالة ابن جبير الذي زار مدينة بانياس وقام بوصفها وكذلك ما يحيطها من ضواحي، تعكس عدم وجودها وخاصة إذا علمنا أنه أثناء رحلة ابن جبير كان مدينة بانياس تابعة للجبهة الإسلامية⁽²⁴⁹⁾.

كما يتضح لنا من إشارة وليم الصوري عندما ذكر قلعة بانياس لأول مرة أثناء حصارها على يد نور الدين محمود عام 552هـ/ 1157م⁽²⁵⁰⁾. وهي إشارة تؤكد وصف وليم للقلعة الداخلية لمدينة بانياس، لا كما أشار البعض إلى أنها لقلعة الصيبية، وإذا تطرقنا إلى المنطق العسكري فإنه ينفي وجود قلعة الصيبية، لأنها لو كانت موجودة بالفعل لكان من الضروري مهاجمتها أولاً قبل مهاجمة مدينة بانياس نظرًا لخطورة موقعها حيث أنها تتقدم عن المدينة بثلاثة كيلو مترات في مواجهة الجبهة الإسلامية وحتى لا تشكل خطورة على الخطوط الخلفية لجيوش نور الدين محمود أثناء حصاره لمدينة بانياس، كذلك لا يقبل المنطق العسكري أن تتجه الحامية بعد سقوط المدينة إلى قلعة الصيبية التي سبق الذكر أنها "تقع على بعد ثلاثة كيلومترات في عمق الأراضي الإسلامية" ولاي تميز بالخطورة⁽²⁵¹⁾ ولهذا نرجح أن إشارة وليم الصوري المقصود بها هنا القلعة المتواجدة داخل مدينة بانياس والتي شبهها بالملاجئ للمواطنين أثناء سقوط المدينة.

كما أنه إذا قدر للجبهة الصليبية فكان لا بد أن يسبقها استنفار عام لحمل السلاح والخروج لتشييد تلك القلعة نظرًا لخطورة الموقع ومجاورته للجبهة الإسلامية الدمشقية، وبالتالي كان لا بد أن ينال اهتمام كبير من قبل وليم الصوري الذي حرص على الإشارة في فترات لاحقة لتأسيس

حصون بيت جبرين وبينه ومخاضة الأحزان وهما في ظروف مماثلة لقلعة الصبية من حيث الموقع المجاور للجبهات الإسلامية.

كذلك لا بد أن يكون هناك رد فعل إسلامي نشط، لمحاولة الرد على ذلك التشييد في تلك المنطقة العسكرية الهامة، أو صدى عسكري صليبي لاستخدام تلك القلعة كما حدث عند احتلال الصليبيين لبانياس⁽²⁵²⁾، وهذا ما أتضح لنا من قبل من خلال رد فعل طغتكين العسكري الذي أنتهي بتسوية حصن عال (قصر الرويل) الأرض نظرًا لخطورة موقعه العسكري، وعلية فإن صمت المصادر الإسلامية عن أي صدى عسكري في الجبهة الإسلامية كرد فعل في نشأة قلعة الصبية يقلل من احتمالية تشييدها أثناء الفترة الصليبية.

ومما يزيد من ترجيحنا أيضًا أن وجود موقعين عسكريين صليبيين في مواجهة الجبهة الإسلامية في منطقة عسكرية حدودية هامة كهذه لا يفيد عسكريًا الجبهة الصليبية، بل أنه يزيد من العبء العسكري عليها، وخاصة لخطورة تلك المنطقة الحدودية مما يتطلب المزيد من تحصينها وشحنها بالرجال في ظل مشكلة نقص الفرسان الصليبيين.

كذلك نلاحظ أن بناء قلاع خارج المدن لحمايتها لم يكن من السمات المعمارية العسكرية لقلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ولكننا نرى أنها من السمات المعمارية التي اتصفت بها العمارة العسكرية للقرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي⁽²⁵³⁾.

لهذا لا نرجح تشييد قلعة الصبية أثناء الحكم الصليبي أو في غضون القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ولكننا نرجح رأي أحد الباحثين المحدثين في أن تشييدها تم خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في عهد العزيز عثمان عام 1228م / 625هـ وذلك لاستكمال الخطة العسكرية الموضوعية استعدادًا لمواجهة الحملة الصليبية الخامسة⁽²⁵⁴⁾.

هكذا نلاحظ أن بلدوين الثاني لم ينجح في تأسيس قلاع صليبية كثيرة أو إسقاط العديد من القلاع الإسلامية كما فعل سلفيه السابقين، ولكن نجد أن أعماله ارتبطت بالسيطرة وتأسيس ثلاث قلاع جاءت مدعمة ومؤمنة لمملكة بيت المقدس ولهذا من الممكن القول بأن أعمال

بالدوين القليلة في مجال القلاع كانت مؤثرة لما تمتعت به من مواقع هامة، فكان له الفضل في إسقاط قلعة مدينة صور والتي ظلت أمل يراود سابقيه وطال انتظاره لدي صليبي المملكة ما يقرب من ربع قرن، كما تمكن من خلال حصن (دير القلعة) من تأمين مدينة بيروت، كذلك تمكن من السيطرة على مدينة بانياس وقلعتها الدخلية وبهذا زحزح خط الدفاع الأول لمملكة بيت المقدس من الجليل إلى مرتفعات الجولان، ولكن لا يفهم أن الطريق أصبح مهد بل تطلب الأمر من ملوك بيت المقدس بزل مزيد من الجهد لمحاولة إسقاط القاعدة الإسلامية القوية على الساحل الشامي وتمثلة في عسقلان وقلعتها، بالإضافة إلى ضرورة تشييد قلاع جديدة أو تحصين وتوسيع القلاع الصليبية الموجودة.

عهد الملك فولك الأنجوى (1130 - 1143 م / 525 - 538 هـ)

أنصب اهتمام الملك فولك الأنجوى على تحصين المملكة بإنشاء العديد من القلاع الصليبية، بل والسيطرة على قلاع إسلامية، وكان ذلك على عدة مراحل ومحاور.

• المحور الشرقي

تم تأمين ذلك المحور بمحاولة السيطرة على (قلعة جلعاد) الإسلامية في صيف عام 1139 م / أواخر 533 هـ⁽²⁵⁵⁾، وقد شكلت تلك القلعة تهديدًا كبيرًا على المنطقة الشرقية للمملكة⁽²⁵⁶⁾، وذلك بحكم موقعها الحصين فهي مقامه فوق جبل شاهق، وهي عبارة عن كهف منحوت في الجبل⁽²⁵⁷⁾، لذلك كان الاستيلاء عليها يتطلب جهود عسكرية ضخمة، ولهذا أستغل كبار أمراء مملكة بيت المقدس فرصة وصول ثري الألزاسي Thierry De Alsace أمير فيلاندر مع قواته لتوجيهه لحصار قلعة جلعاد الدمشقية⁽²⁵⁸⁾، مستغلين حالة الاضطراب في دمشق⁽²⁵⁹⁾، وبعد تشديد الحصار تمكنوا من إسقاط القلعة وتحقيق عدة مكاسب منها أنهم سيطروا على موقع متقدم استطاعوا من خلال الإطلاع على التحركات الإسلامية ضد المملكة، ومن جهة أخرى حرموا الدماشقة من مميزات ألت إليهم.

أما في منطقة ما وراء الأردن، نجد أن تابعه وليم دري بوج نجح في إقامة وتدعيم أسباب الدفاع عن إمارته وبالتالي عن شرق المملكة، وذلك بتأسيس (حصن كوكب الهوا) الذي عرفه الصليبيون بلفوار Belvoir في عام 1140م / 535هـ⁽²⁶⁰⁾ والحصن يقع على قمة Ramatch العالية التي يصل ارتفاعها نحو أربعائة وخمسة وعشرين متراً فوق مستوى البحر، ومائتين وتسعة وسبعين متراً فوق مستوى وادي نهر الأردن، ووقع الحصن شرق المملكة وخاصة في منقطة جنوب شرق الجليل، ومن ذلك الموقع كانت تشرف على ضفتي نهر الأردن في الغور الجنوبي شمال بيسان بحيث أصبحت تتحكم في كل المناطق الواقعة بين بحيرة طبرية وبيسان، وتحكمت أيضاً في المعابر المؤدية إلى الجليل من جهة الشرق، وهكذا اكتسبت المملكة حماية كانت في ميسس الحاجة إليها عند الجبهة الشرقية⁽²⁶¹⁾.

• المحور الثاني

نجح الملك فولك في إعادة السيطرة على بانياس وقلعتها الداخلية وكان شمس الملوك إسماعيل بن يورى حاكم دمشق قد نجح في فرض السيطرة عليها في صفر 527هـ / 1132م⁽²⁶²⁾ وذلك بعد أن استسلمت حامية بانياس وقلعتها الداخلية لمعين الدين أنر عقب الحصار الذي فرضه عليها بمساعدة الصليبيين⁽²⁶³⁾ ثم قام أنر بتسليمها إلى ملك القدس، نتيجة الاتفاق المبرم بينها⁽²⁶⁴⁾، وقام الأخير بشحنها بالمؤن والجند وأقطعها لحاكمها السابق بروس رينيه وكان ذلك عام 534هـ / 1139م⁽²⁶⁵⁾.

لم تكن نتائج التحالف بين حاكم دمشق والملك فولك قاصرة على السيطرة على بانياس وقلعتها الداخلية⁽²⁶⁶⁾، بل تنازل شهاب الدين محمود عن حصن شقيف أرنون التابع له في ذلك الوقت إلى الملك فولك عام 534هـ / 1139م⁽²⁶⁷⁾ وكان استيلاء الملك فولك على الحصن جزء من خطة صليبية محكمة تهدف إلى الاستيلاء على الحصون والمعازل الشمالية لتحصين مملكة بيت المقدس من الشمال.

كان حصن الشقيف يقع في جنوب لبنان فوق رعن جبلي شديد الانحدار ارتفاعه 2200 قدم، ويمده من ناحية الشرق نهر الليطاني والجبل الذي يشرف على نهر الليطاني من شاطئه

الأيسر في مواجهة الحصن يميز بطرفية المنحوتين بعمق في الصخر الذين يعز لانه عن الهضبة، ومن الغرب البحر المتوسط ومن الجنوب على بعد ثمانى كيلومترات يقع حصن هونين ومن الجنوب الشرقي على بعد حوالي إحدى وعشرين كيلومتر من بانياس، ولم يكتف الملك فولك بوضعية الحصن التحصينية بل أدخل بعض التعزيزات على موقعه فقاد ببناء أحد الأبراج في الجهة الجنوبية منه، وأقاموا سورًا قويًا حول الحصن في عام 1139م / 534هـ لحماية تلك الهضبة ضد أي هجوم يأتي من جانب المسلمين في دمشق، وأسند الملك فولك حصن الشقيف لقائدة ويند فيليس Wind Falls⁽²⁶⁸⁾.

ذكرنا في الجزء السابق أن هيوسانت أو مر شيد قلعة (صفد) في شمال الجليل عام 495هـ / 1102م، ولكن عندما أدرك الملك فولك وليم دي بور ضرورة وأهمية تدعيم القدرة القتالية لنفس القلعة، شرع في هدمها وبناء قلعة بديلة في نفس الموقع تتميز بحصانة أكبر وذلك في عام 1140م حتى يتثنى لها التصدي للخطر الإسلامي المحيط بالجليل في تلك المرحلة، وبالانتهاء من توسيع وتحصين قلعة (صفد) الجديدة قام الملك فولك بمنح القلعة لهيئة فرسان الداوية نظرًا للخبرة التي اكتسبها، وبالفعل قام فرسان الداوية بزيادة تحصينات القلعة وتقويتها، أقاموا برجًا كبيرًا في الجانب الغربي منها، وعملوا على تلبية أسورها واستغلوا في سبيل ذلك الصخور الضخمة الموجودة في تلك المنطقة وبنوا أيضًا مستودعًا كبيرًا لتخزين المياه، وهكذا أصبحت قلعة صفد من أقوى القلاع في المنطقة الشمالية⁽²⁶⁹⁾، وبذلك تمكن الملك فولك عن طريق استخدام قلاع مدينة بانياس الداخلية و صفد والشقيف ارنون من تشديد قبضته على الجزء الشمالي من مملكة بيت المقدس.

• المحور الغربي

أما بالنسبة لتدعيم المحور الغربي الساحلي، فقد كشف الملك فولك جهوده في الجهة الجنوبية الغربية لتحقيق هدف عسكري هو محاولة إسقاط مدينة عسقلان بقلعتها الحصينة ولهذا عكف على تشييد مجموعة من القلاع لتحقيق ذلك الهدف وبدأها بتشيد حصن (بيت جبرين) عام 1136م / 531هـ⁽²⁷⁰⁾، التي كانت تقع «عند سفح الجبال بالقرب من عسقلان

على مسافة اثني عشر ميلاً منها»⁽²⁷¹⁾، «وثماني أميال» من بيت المقدس⁽²⁷²⁾، وكانت القلعة تقع على طريق الخليل Hebron عسقلان⁽²⁷³⁾، ورصد لنا ولسيم الصوري ظاهره جديدة أصبحت موكبه لعملية تشييد القلاع الصليبية المجاورة للجهة الإسلامية وهي أن الصليبيين عندما قاموا بتشييد حصن بيت جبرين أتبعوا نظاماً جديداً سيتكرر أثناء بناء بعض القلاع الصليبية فقد احتاجوا إلى مساعدة جميع السكان الموجودين في المنطقة كما تم إحضار البطريرك، والنبلاء الصليبيين كذلك⁽²⁷⁴⁾.

ونتفق مع رأي الدكتور محمد مؤنس من أن حضور ذلك الحشد الكبير الذي احتوى عناصر متعددة سواء ذات مكانة سياسية أو دينية يرجع إلى أهمية العمل ذاته، كما كان الحرص على وجود البطريرك يعكس ضرورة الحفاظ المعنوي والديني من أجل إنجاز البناء في همة وحماس وبأسرع وقت ممكن⁽²⁷⁵⁾. وذلك يرجع إلى أهمية المنطقة من الوجهة العسكرية ومواجهتها لجهة نشيطة ممثلة في عسقلان، والتي لا تحاول تلك المدينة عرقلة البناء بخشد القوات وتنظيمها.

لم يكتف الملك فولك بتشييد حصن بيت جبرين فقط ولكن إنشاء حصن (بيني) أو إبلين Ibelin عام 1141 - 1142 م / 536 - 537 هـ⁽²⁷⁶⁾، أقيم في المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة الرملة، وعلى مسافة حوالي «عشرة أميال إلى الجنوب الغربي من اللد»، وجاء تشييدها سيطرتهم على تلك الهضبة من شأنها التحكم في المنطقة المشيدة فيها الحصن بصورة محكمة⁽²⁷⁷⁾، ولقد وضع لنا ولسيم الصوري طوبوغرافية حصن (بيني)، وخاصة ما يميز به من توافر مصادر المياه اللازمة، من أجل تزويد المدافعين عنه باحتياجاتهم اليومية ولقترات زمنية طويلة، خاصة في حالات الحصار المتوقع للحصن، وقد أشار إلى أن الموقع الذي وقع اختيار الصليبيين عليه توفرت فيه الآبار القديمة بأعداد كبيرة، وقدمت لهم كمية كبيرة من المياه التي كانت كافية لأعمال بناء الحصن ولسد احتياجات الناس⁽²⁷⁸⁾.

هنا نلاحظ أيضاً أن عملية بناء الحصن شهدت حضور جمع كبير من الأمراء ولم يختلف عن استجابة ذلك النداء أحد من الصليبيين⁽²⁷⁹⁾. وهذا يدل على أهمية الوضعية العسكرية للمنطقة ومحاولة إنجاز العمل في فترة زمنية وجيزة.

لم يكن حصن (بيني) آخر الحصون التي أقيمت من أجل صد غارات عسقلان، بل أقام الملك فولك حصن (تل الصافية) الذي ذكر وليم الصوري⁽²⁸⁰⁾ أنه ما كان يأذن فصل الشتاء بالانتهاء ويدخل فصل الربيع حتى بدأ الملك في أعمال الإنشاء⁽²⁸⁰⁾، ولهذا نرجح أن بني عقب بناء حصن (بيني) ربما في عام 537هـ / 1142م.

أما عن اختيار موقع حصن تلك الصافية فكان من خلال حضور الملك فولك الأنجوى والبطريك ورجال الجنيسة⁽²⁸¹⁾، وهو ما يعكس أهمية وضرورة اختيار الموقع بدقة وكان من نتائج بناء حصن تل صافية أن أصبح من الممكن للصليبيين النظر دون أية معوقات منها على مدينة عسقلان، والتي لم تكن تبعد عنها إلا "بشانية أميال"⁽²⁸²⁾.

لم تكن فكرة إنشاء الحصون في ذلك المحور الغربي الساحلي مقتصرة فقط على صد غارات عسقلان، بل كان هناك دافع آخر هو الرغبة في تقليل المخاطر التي تعرض لها الحجيج أثناء اجتيازهم لوادي يافا - القدس، لذا أراد الملك فولك أن يقلل تلك المخاطر، فأنشاء حصن أرنولد⁽²⁸³⁾، وإن كان نرجح أن ذلك الحصن شيد على الحصن القديم الذي أسسها الملك بلدوين الأول لذلك الغرض لكن خربت عندما هاجمته حامية عسقلان عام 1106م / 500هـ لهذا أراد الملك فولك حصن أكبر تحصين وحجم من ذلك الحصن الذي خرب.

• المحور الجنوبي

وجه الملك فولك الأنجوى مزيداً من الاهتمام تجاه جنوب المملكة وذلك بتشيده لحصن (الكرك) في الجهة الجنوبية الشرقية من المملكة وكذلك البحر الميت، وعلى بعد 121 كيلومتراً جنوبي مدينة عمان، وبلغ ارتفاعه 3100 متر فوق سطح البحر⁽²⁸⁴⁾ وشيدت فوق قمة جبل⁽²⁸⁴⁾، وينحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك⁽²⁸⁴⁾ الذي يتشعب إلى كل من وادي الست، ووادي الفرنجة⁽²⁸⁵⁾، ويلاحظ أن تلك الوديان التقت معاً قرب عين سارة، والتي بعدت كيلو متراً غرب المدينة، ومثلت مع قمة الجبل انحدارات قوية في الشرق، والشمال أكثر انحداراً منها في الغرب⁽²⁸⁶⁾، ونظراً لحصانة حصن الكرك الطوبوغرافية فقد

وصفت من قبل المؤرخين باسم يدل على تميزها الطبوغرافي مثل صخرة الصحراء⁽²⁸⁷⁾، وعرفت كذلك بـ "جوهرة الصحراء"⁽²⁸⁸⁾.

زاد الاهتمام بحصن الكرك وشكل محورًا للصراع الصليبي الإسلامي في غضون الفترة الصليبية، وذلك انعكاسًا لأهمية المنطقة التي أحاطت بالحصن، والتي امتدت في البحر الميت حتى البحر المتوسط، وتعد تلك المنطقة ذات أهمية عسكرية خاصة، إذ مرت بها طرق الاتصال بين مصر والشام والعراق كما أنها مثلت المعبر الذي كان على المسافرين أو المتسللين أو الغزاة أن يسكلوه من الجنوب إلى الشمال، وكذلك من الشرق إلى الغرب وبالعكس، وتلك المنطقة بامتدادها إلى جنوب فلسطين تسمى باب مصر الشرقي مما يعكس أهمية الحصن المذكور⁽²⁸⁹⁾.

لم يكن الملك فولك الأنجوى كما نعرف هو أول من أهتم بتلك المنطقة ولكن سبقه إليها الملك بلدوين الأول ولذلك جاءت قلعة الكرك لاستكمال أوجه تحصينه لقلاع الشبك وآيلة وجزيرة فرعون لتحقيق مزيدًا من التحكم في وادي عربة وصحراء النقب.

عهد الملك فولك إلى باجانوس - Paganus الذي كان ساقيا لديه - بأمر تجديد وتشيد حصن الكرك⁽²⁹⁰⁾ وكان زمن تشييده كما يحدده بعض الباحثين قد تم في عام 1142م / 537هـ⁽²⁹¹⁾.

هكذا أدرك الملك فولك الأنجوى أيضًا مدي أهمية السيطرة على القلاع الإسلامية أو تشييد قلاع صليبية جديدة لضمان السيطرة على القلاع الإسلامية أو تشييد قلاع صليبية جديدة لضمان أهمية السيطرة على الأرض وكذلك لمحاولة تأمين مملكة بيت المقدس الصليبية في الأخطار المحيطة بها، فأسقط قلعة جلعاد الدمشقية وشيد حصن أرنولد على طريق الحجيج بين يافا والقدس، كما تمكن من تشييد قبضته على المنطقة الشرقية وتأمينها بتأسيس حصن كوكب الهوا في المنطقة الشرقية، والسيطرة على بانياس وقلعتها الداخلية في المنطقة الشمالية الشرقية، بالإضافة إلى توسيع وتحصين قلعة صنفد في المنطقة الشمالية، كما تمكن من السيطرة على حصن الشقيف وتحصينه في المنطقة الشمالية الغربية مما أدى لتوفير الأمان في تلك الجهات.

لم يكتب فولك بذلك بل إنه اتبع نفس الأسلوب في مواجهة الأخطار القادمة من مدينة عسقلان الإسلامية، محاولاً التقليل من مخاطرها على المملكة، ولتأمين تلك الجبهة حاول إسقاط مدينة عسقلان معتمداً على سياسة تشييد القلاع الصليبية مستغلاً طوبوغرافية المنطقة المحيطة بعسقلان لتحقيق ذلك، وبالفعل نجح في تقويض مدينة عسقلان بعد تشييد حصون بيت جبرين وبينى وتل الصافية، كما أتم عملية التحكيم الصليبي في تحقيق مزيد من السيطرة على صحراء النقب بإنشاء حصن الكرك.

جملة القول أننا نجد أن فترة حكم الملك فولك الأنجوى شهدت تشييد كم من القلاع التي تمكن من خلالها من تأمين المملكة، وتحقيق أمان من مخاطر الغارات الإسلامية سواء من جبهة دمشق أو عسقلان، وطريق يافا - القدس مقارنة بالفترة السابقة، وبهذا أصبح الشغل الشاغل للملك بيت المقدس هو إسقاط عسقلان وقلعتها.

عهد الملك بلدوين الثالث (1143 - 1163 م / 538 - 559 هـ)

كرس الملك بلدوين الثالث جهوده من أجل إسقاط مدينة عسقلان الإسلامية وقلعتها. وأعتمد على سياسة سابقه وهي تشييد القلاع، وبالفعل شيّد الملك بلدوين الثالث قلعة غزة "التي تقع على بعد عشرة أميل جنوب عسقلان"، وبذلك التشييد تم محاصرة عسقلان من ناحية الجنوب مثلما حوصرت من الشمال والشرق عن طريق حصون بيت جبرين وبينى وتل الصافية⁽²⁹²⁾.

أما بخصوص تاريخ إنشاء قلعة غزة، فكان في شتاء عام 1149 - 1150 م / 544 - 545 هـ⁽²⁹³⁾، فقد منحت تلك القلعة لفرسان الداوية، ونجحوا في استخدامها لشن الغارات العنيفة على عسقلان أو استخدام الكمان، ولم يكن دور قلعة غزة العسكري مضايقة عسقلان فقط، بل أصبحت القلعة بعد فتح مدينة عسقلان تستعمل كخط دفاع حصين من الناحية الجنوبية وصارت مظلة أمان كبيرة للإقليم ضد الفاطميين⁽²⁹⁴⁾.

ويتأسس قلعة غزة أصبح الوضع العكسري مهياً لاتخاذ خطوة هامة وهي تحقيق السيطرة على عسقلان بعد ما ظلت أمل يراود فكر ملوك بيت المقدس ما يزيد عن نصف قرن حتى تم تحقيقه عام 548هـ / 1153م، ولكي نتضح لنا أهمية سقوط عسقلان، لابد من التعرض لأهميتها.

كانت عسقلان بمثابة حصن شامخ يقع على الساحل في الجهة الجنوبية، وكان يدور حولها سور يمتد داخل البحر في نصف دائرة كأنه درع يقيها هجمات البحر، وكان فيها من الأقوات والذخائر "مالا يحصر"⁽²⁹⁵⁾، كما تكمن أهميتها في أنها كانت آخر القلاع الساحلية ويسقوطها أمتك الصليبيون الساحل بأجمعه من الأسكندرونه شمالاً حتى غزة جنوباً وبالتالي تحولت الجهة الإسلامية الداخلية لدولة حبيسة لا ساحل لها مما أثر عليها اقتصادياً ولعب التجار الغربيين دور الوسيط نهبك عن القلاقل والاضطرابات العسكرية والغارات المستمرة من قبل عسقلان لتفسد النظام المني وتحول الشق الغربي من مملكة بيت المقدس إلى منطقة غير مأمونة، كما أن سقوطها ساعدهم في اتخاذها قاعدة للانطلاق لمصر خلال الملك عموري⁽²⁹⁶⁾.

ولنا أن نتساءل عن الدوافع التي ساهمت مع بعضها البعض بدرجات متفاوتة لاسقاط عسقلان بعد تلك الفترة الطويلة.

يأتي في مقدمتها ضعف الخلافة الفاطمية ومن مظاهر ذلك الضعف إحلال الوزراء محل الخلافة وكثرة الاغتيالات السياسية⁽²⁹⁷⁾، بسبب وجود خليفة قاصر على عرش الدولة الفاطمية (الظافر) وهو الذي مكن الوزراء من الصراع طمعاً في العرش، وكان لتلك انعكاسه في إهمال أمر الدفاع عن مدينة عسقلان أثناء تعرضها لحصار الملك بلديون الثالث عام 1153م / 548هـ⁽²⁹⁸⁾.

السياسة التامينية التي نجح الملك بلديون الثالث في تحقيقها، نتيجة تحالفه مع حكام دمشق ضد العدو المشترك نور الدين محمود، الذي أخذ يسعى لتحقيق الوحدة للجهة الإسلامية ومهاجمته لدمشق - وهو ما عبر عنه ابن القلانسي بقوله كان الدماشقة "عاهدوا الأفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من المسلمين"⁽²⁹⁹⁾، وأما أبو شامة فقد أخبرنا، أن حكام

دمشق" راسلوا الفرنج بخبرة نور الدين وقرروا معهم الأنجاد عليه⁽³⁰⁰⁾، وهكذا مكنت الأوضاع السائدة في العالم الإسلامي بلدوين الثالث ملك بيت المقدس من أن يوجه جهوده ضد الفاطميين في عسقلان وهو أمن من جانب أتابكية دمشق.

كذلك نلاحظ أن مجموعة القلاع الصليبية التي تم تشييدها من قبل ملوك بيت المقدس أمثال بيت جبرين وبيني وتل الصافية وغزة ساهمت بدور فعال في إسقاط قلعة عسقلان⁽³⁰¹⁾.

ومهما يكن الأمر فقد كان سقوط قلعة عسقلان في يد الملك بلدوين الثالث عام 1153م / 549 من أهم المكاسب التي حققتها الجبهة الصليبية في مجال السيطرة على القلاع الإسلامية

مجمل تشييد القلاع في عهد عموري وبلدوين الرابع

أما بخصوص عملية تشييد القلاع الصليبية في زمن ملوك بيت المقدس خلفاء بلدوين الثالث فيمكن أجمالها في تأسيس حصن الداروم (دير البلح) Darum (أو) Daron، الذي قام بتشبيده الملك عموري (املريك الأول) Amalric (I) (1163 - 1174م / 559 - 570هـ) على أكمة قليلة الأنحدار فوق الأطلال القديمة وكان ذلك التشييد قبل هجوم صلاح الدين في عام 1170م / 566هـ بعدة سنوات⁽³⁰²⁾. كان ذلك الحصن يقع جنوب غزة بمسافة «أربعة أميال» كما كانت تبعد عن الساحل بمسافة «خمسة أميال»⁽³⁰³⁾، بني الملك عموري ذلك الحصن بغرض التوسع، ولكي يتمكن من جمع الضريبة السنوية التي فرضها الصليبيون على القرى المحيطة⁽³⁰⁴⁾، وبذلك كان حصن الداروم يمثل مركزاً إدارياً هاماً قام بجمع الأموال لصالح الملك، كما أنه كان أحد الحصون الصليبية المتقدمة الواقعة على حدود الصحراء كما أن أراضي ذلك الحصن امتدت حتى واحة العريش وهي منطقة جرداء تماماً⁽³⁰⁵⁾.

كذلك أقام الملك بلدوين الرابع Baldwin IV (1174 - 1185م / 570 - 581هـ) حصن (جسر بنات يعقوب Chastellet) بعد أن عقد بلدوين الرابع وصلاح الدين معاهدة صلح عام 1177م / 573هـ، لإغلاق المدخل إلى الأردن خاصة بعد صعوبة استرداد بانياس وقعتها، وتم تشييده في أكتوبر 1178م / 574 - 575هـ⁽³⁰⁶⁾، وبني الحصن عند مكن يعرف باسم جسر بنات

يعقوب أو المشهد يعقوبي (Vadum Jacob)، (Gue de Jacob)، على تل يقع على بعد خمسمائة متر جنوبي شرق جسر بنات يعقوب⁽³⁰⁷⁾، أقام الصليبيون الحصن على الطريق الذي يؤدي من طبرية وصفد إلى دمشق، وكان الحصن قريب من دمشق ولكنه على مسافة أقرب من صفد وطبرية⁽³⁰⁸⁾، كما إنه يقع على بعد «عشرة أميال من بانياس»⁽³⁰⁹⁾.

استغل الملك بلدوين الرابع فترة انشغال صلاح الدين بمشاكل الجبهة الداخلية⁽³¹⁰⁾، وبالتالي ضمن الملك عدم مناوأة صلاح الدين له أثناء بناء الحصن⁽³¹¹⁾ ولهذا شرع الملك في جمع كل قوة المملكة من أجل بناء ذلك الحصن وذلك لقرب موقع البناء من الجبهة الإسلامية ولتقليل فترة البناء التي لم تستغرق فعلاً سوى «سنة أشهر»⁽³¹²⁾، وبإتمام العمل في ذلك الحصن، أصبح له السيطرة على كل ممرات الأردن الرئيسية⁽³¹³⁾.

وهكذا كان حصن (مخاضة الأحزان) آخر الحصون الصليبية الهامة التي أقيمت في مملك بيت المقدس خلال فترة الدراسة، ولكن لا يفهم من ذلك أننا المننا بجميع القلاع الصليبية التي تم إنشائها أو السيطرة عليها من الجبهة الإسلامية، بل أن هناك العديد من القلاع الصغيرة أو الأبراج التي أقيمت أو انتزعت من المسلمين لتأمين طرق المواصلات داخل الإقطاعية الصليبية، أو لجمع الإتاوات من الفلاحين المسلمين داخل الإقطاعية، فقد «بلغت حجم الإقطاعيات في داخل مملكة بيت المقدس في أقصى اتساع لها أربع إقطاعيات كبيرة هي باروية صيدا وإمارة الجليل وكونتية يافا وبارونية الشوبك والكرك، وكان أمراء تلك الإقطاعيات يضارعون الملك بما كان لديهم من كبار الموظفين»⁽³¹⁴⁾، وإلى جانب الإقطاعيات الكبيرة اشتملت مملكة بيت المقدس على «اثنتي عشرة إقطاعية صغيرة هي اللد، نابلس، الخليل، حيفا، بيسان، أرسوف، قيسارية، القيمون، تبنين وبنياس، إسكندرونة، الداروم (دير البلح)، بيروت»⁽³¹⁵⁾.

لقد أقيمت عشرات القلاع الصغيرة أو الأبراج داخل حدود تلك الإقطاعيات الصليبية حتى قيل أن عددها داخل حدود إقطاعية قيسارية مثلاً "باع ما يقرب من خمسة وأربعين قلعة، منها قلعة هيو Cas. D. Hugonis Feustelli وقلعة السيد أمريك Cas. Domini Amalric"⁽³¹⁶⁾.

كذلك نلاحظ أن تلك القلاع لم تبين مرة واحدة، بل أن السادة الإقطاعيين (العلمانيين ورجال الدين) المتناوين في حكم الإقطاعية الصليبية ساهموا كل حسب مقدرته وظروف إقطاعيته في تأمينها بتلك القلاع الصغيرة لتلعب دورًا تأمينيًا وتشكل مع القلاع الكبيرة منظومة دفاعية مشتركة: ولقد انطبق ذلك على برونية الكرك والشوبك، فنجد أن بلديين الأول نجح خلال حملته فيما بين عامي 1115 - 1116م / 509 - 510هـ في بناء حصن الشوبك، ودعمها بإنشاء حصن وادي موسى (الوعيرة)، وبعد فترة طويلة أقام باجانوس عام 1142م / 537هـ في عهد الملك فولك حصنًا كبيرًا هو (الكرك) ثم تم تدعيمه في فترات لاحقة حصون سلع والطفيل والحبيس لاستكمال المنظومة الدفاعية⁽³¹⁷⁾ كذلك حينما تحكم أرنولد في بارونية الكرك والشوبك ألزمت الضرورة إضافة حصن سلع لإضافة مزيد من التحكم في طرق التجارة⁽³¹⁸⁾.

والحقيقة أن تلك القلاع الداخلية أو الصغيرة لم تكن بمثابة نقاط حراسة فقط، ولكنها كانت في بعض الأحيان تشكل محاورًا صراع أساسية بين الجبهتين الصليبية والإسلامية، وذلك مثلما حدث لحصن الفولة Ful - al⁽³¹⁹⁾، والذي كانت يقع أعالي الطريق بين بيت المقدس ونابلس، كما كانت يقع في مفترق الطرق في قلب وادي جزريل Valley of Jezreel، والذي شكل محورًا للصراع بين صلح الدين والصليبيين خلال عام 579هـ / 1183م، وكذلك إنشاء وقعة كريسون Creisson في أول مايو 583هـ / 1187م⁽³²⁰⁾.

4- أهم الآراء المرتبطة بطبوغرافية مملكة بيت المقدس وانعكاسها على نشأة القلاع
هناك عدة نقاط هامة يجب مناقشتها، ارتبطت بنشأة القلاع الصليبية والسيطرة على القلاع الإسلامية وكذلك بطبوغرافية مملكة بيت المقدس.

أولاً: عند استعراض عملية نشأة القلاع الصليبية نلاحظ أنها تركزت بصورة كثيفة في عهد الملوك الأوائل حتى عهد الملك بلدوين الثالث ثم كادت أن تنعدم أو انعدمت في عهد باقي ملوك المملكة حتى عهد الملك لوزيجنان Guy of Lusignan (1186 - 1192م / 582 - 588هـ)⁽³²¹⁾، والراجع أن ذلك لعدة أسباب منها:

أن عهد الملوك الأوائل تزامن مع ترسيخ الكيان الصليبي في بلاد الشام بصفة عامة، ومملكة بيت المقدس بصفة خاصة وكانت سياسة الترسخ تعتمد على الأسلوب العسكري المتمثل في إقامة العديد من القلاع، ولهذا حرص الملوك الأوائل على إتمام تلك المرحلة.

ولقد تزامنت السياسة الخاصة بتدعيم مملكة بيت المقدس مع ضعف وتدهور في الجبهة الإسلامية بشقيها الفاطمي والعباسي⁽³²²⁾، وبهذا استفادت المملكة من ذلك التصدع الذي أصاب وحدة العلم الإسلامي المحيط بها، لذلك كانت كل الإنجازات التي حققها صليبيو الحملة الأولى، لا تعود إلى شجاعة خارقة تميزوا بها عن المسلمين، أو إلى فنون فريدة اتبعوها في الحرب والقتال، وإنما إلى ضعف المقاومة الإسلامية التي واجهتهم، بسبب انشقاق مسلمي الشرق الأدنى على أنفسهم سياسياً ومذهبياً⁽³²³⁾، وهكذا كانت ردود الفعل الإسلامية تجاه الهجوم الصليبي في بلاد الشام منذ حصار الصليبيين لإنطاكية وحتى سقوط مدينة بيت المقدس في أيديهم، متأخرة وضعيفة⁽³²⁴⁾، فساهمت تلك الأوضاع في عملية ترسيخ الكيان الصليبي بصفة عامة، ومملكة بيت المقدس بصفة خاصة في عهد ملوك بيت المقدس الأوائل، ولهذا ظهرت القلاع الصليبية بتلك الكثافة لكن مع نمو حركة اليقظة والوحدة الإسلامية، والتي اكتملت مراحلها في عهد صلاح الدين الأيوبي، فأصبحت بمثابة عائقاً ضد سياسة بناء القلاع وحركة التوسع للمملكة والتي أنعدم تحقيقها في عهد ملوك بيت المقدس بدءاً من عموري وحتى لوزيمجان.

ترسخت مملكة بيت المقدس وامتدت واتسعت حتى وصلت حدودها إلى الحد الدمشقي من الجهة الشمالية الشرقية، والحد المصري من الطرف الجنوبي الغربي، وهو أقصى اتساع للمملكة والذي تحقق في عهد الملوك الأوائل، وبهذا أصبح من الصعب على باقي ملوك بيت المقدس تحقيق أي توسع في ظل ظهور الوحدة الإسلامية، وبالتالي تقلصت سياسة بناء القلاع بعد عهد الملك بلدوين الثالث.

أما بخصوص الفترة التي شهدت كثافة في تشييد القلاع الصليبية والسيطرة على القلاع الإسلامية، فإننا لاحظنا أن جودفري هو مؤسس نواة مملكة بيت المقدس والتي شكلت الجزء

الأكبر من إمارة الجليل، كذلك استحق بلدوين الول لقب المؤسس الحقيقي لمملكة بيت المقدس لكثرة ما شيده من قلاع وما سيطر عليه من مدن إسلامية، أما إذا دققنا النظر في عهد الملك فولك الانجوى فإننا ندرک أنه وازى عصر بلدوين الأول من حيث كثافة تشييد القلاع التي دعت المملكة ووفرت لها حظاً أوفر من الأمان والاستقرار.

كذلك لاحظنا من خلال حركة تشييد القلاع الصليبية أن الاتجاه الطبيعي لتوسع الصليبيين في الربع الأول من القرن الثاني عشر أخذ جهة الشمال الشرقي، حيث لم توجد وحدة إسلامية تحول دون ذلك التوسع، لكن عندما ظهرت قوة الزنكيين منذ منتصف ذلك القرن في شمال العراق والشام أخذت حركة التوسع الصليبي أتمجاه آخر هو الاتجاه الجنوبي الغربي أي على حساب مصر⁽³²⁵⁾، وباكتمال الوحدة على يد صلاح الدين تقلصت سياسة بناء القلاع الصليبية في المملكة بدرجة ملحوظة.

ثانياً: نجد أن طوبوغرافية مملكة بيت المقدس قد تغيرت أثناء الفترة الصليبية وهو انعكاس لطبيعة الصراع بين الجبهة الإسلامية والجبهة الصليبية، ولتحقيق الجبهة الصليبية للتحدي المتمثل في ترسيخ كيانهم وسط المحيط الإسلامي، قاموا بتحسين وتوسيع ما وجدوه من حصون وقلاع⁽³²⁶⁾، ولم يكتفوا بذلك بل شيّدوا عددًا كبيرًا من القلاع مستغلين طوبوغرافية المملكة حتى أنه فاق ما بني أو شهدته المنطقة في عصور وفترات سابقة، وكذلك فاق ما بني أثناء الفترة الصليبية في باقي الإمارات الصليبية⁽³²⁷⁾، على الرغم من أنه قبل مجيء الصليبيين كانت القلاع أكثر في المنطقة الشمالية والحقيقة أن كثرة الحصون والقلاع في مملكة بيت المقدس الصليبية عن باقي الإمارات الصليبية ترجع إلى عدة اعتبارات:

أن مملكة بيت المقدس تميزت عن باقي الإمارات الصليبية بأهميتها المقدسة وقديستها في نظر الغربيين فهي المكان الذي حظى بمولد واستقرار بعض الأنبياء والرسل والقدسين، وتعتبر مدينة بيت المقدس العاصمة الرئيسية المقدسة للمنطقة⁽³²⁸⁾، ولم تكن بيت المقدس وحدها هي التي تميزت بقديستها بل انتشرت بعض المناطق التي ارتبطت بالقدسية لما لها من ارتباطات

بذكريات المسيحية الأولى مثل بيت لحم⁽³²⁹⁾، اللد⁽³³⁰⁾، مدينة الخليل⁽³³¹⁾، الناصرة وغيرها⁽³³²⁾، وهكذا تميزت مملكة بيت المقدس بقلب ديني عن باقي الإمارات الصليبية، كما تميزت بوجود مركز تجاري أيضًا تمثل في مدنها الساحلية صيدا وصور ويافا ويأتي في مقدمتها مدينة عكا الساحلية⁽³³³⁾، وعليه فقد تميزت مملكة بيت المقدس بتلك الموانئ التجارية والتالي فاقت الإمارات الصليبية الأخرى في النشاط التجاري، والحقيقة التي لا لبس فيها أن مملكة بيت المقدس كانت بمثابة القلب بالنسبة للكيان الصليبي كله في بلاد الشام، وبالتالي نالت المملكة اهتمامًا من قبل مسيحي غرب أوروبا وانعكس ذلك على وجود مزيد من الاهتمام من الملوك الأوائل بإنشاء الكثير من القلاع للسيطرة على الطرق التجارية وللدفاع عن المقدسات الدينية وتأمين الطرق المؤدية إليها.

لقد تميز موقع مملكة بيت المقدس الجغرافي، عن باقي الإمارات الصليبية في وقوعها بين طرفي الرحى الممثل في الجبهة الدمشقية من ناحية، ومصر الفاطمية ومينائها صور وعسقلان من ناحية أخرى⁽³³⁴⁾، مما أدى لبناء مزيد من القلاع والحصون عن باقي الإمارات الصليبية لتعرضها لهاتين الجبهتين.

انعكست تضاريس المملكة الطبيعية على عدد القلاع المقامة بمملكة بيت المقدس، فحيث كثرت التلال والشواهد الجبلية وقلت السهول نجد الاعتماد على عددًا أقل من القلاع في تلك المناطق⁽³³⁵⁾، بينما نلاحظ كثرة السهول في مملكة بيت المقدس الصليبية قد قللت الدفاعات الطبيعية فأدى ذلك للاعتماد على كم كبير نسبيًا من قلاع⁽³³⁶⁾، وهذا يفسر الكثافة المتزايدة من القلاع على السهل الساحلي ما بين حيفا ويافا في قلب المملكة⁽³³⁷⁾.

ثالثًا: هناك بعض الآراء التي ارتبطت بطبوغرافية نشأة القلاع الصليبية في مملكة بيت المقدس، فرى (ديشامب Deschamps) أن الصليبيين قد شيدوا قلاعهم بما يتلاءم أساسًا مع حدودهم⁽³³⁸⁾، والحقيقة إننا نتفق مع (ديشامب) في أن الدفاع عن الحدود وكان جزءًا من الدوافع العسكرية التي ساهمت في بناء القلاع الصليبية وخاصة الحدودية، ولكننا نختلف معه في جعله الدفاع عن الحدود هو الدافع الأوحده لتشيد القلاع الصليبية، فالراجح أن تشيد القلاع

الصليبية كان إفرأزًا لدوافع مختلفة ساهمت في ذلك التشييد⁽³³⁹⁾، ويدعم ترجيحنا هذا وجود كثافة للقلاع الصليبية على السهل الساحلي بين حيفا ويافا في قلب مملكة بيت المقدس وهي قلاع بعيدة عن الحدود⁽³⁴⁰⁾.

يري سميل أن مملكة بيت المقدس لم تقم أقوى التحصينات على الحدود الشرقية، فكان لا يوجد إلا حصن كوكب الهوا⁽³⁴¹⁾ وكان يرى ضرورة إقامة قلاع كبديل للفترة التي سقطت فيها مدينة بانياس وقلعتها في يد الجبهة الإسلامية⁽³⁴²⁾، ويدعم رأيه بعبور الجيوش الإسلامية مستغلين اضعف التحصيني للمنطقة⁽³⁴³⁾.

هنا نختلف مع سميل في اقتضاره على ذكر حصن كوكب الهوى فقط على الرغم من أنه كان يوجد في الحد الشرقي حصن عال وعندما دمرت تم إنشاء حصن الحبيس جلدك وكذلك خان راحوب، أما في الجهة الشمالية فكانت هناك حصون هونين وتبين ثم مخاضة الأحزان وهذا يدل على أن الصليبيين لم يجهلوا عملية التحصين تجاه جبهة دمشق وكان متماشياً مع ظروف تلك المنطقة، أما عن عدم إقامة قلاع أضخم، فهذا يرتبط بعدة دوافع أخرى.

عدم تقبل الجبهة الإسلامية بدمشق لظهور قلعة صليبية في المنطقة الشرقية، حتى لا تستنزف خيرات السواد المجاور لدمشق ولهذا حرص طغتكين على تدمير قلعة عال عام 1105م/499هـ وبظهور قوة الزنكيين وسيطرتهم على دمشق في عهد نور الدين محمود 1154م/549هـ.

أصبح ذلك أكبر عائق لتشيد القلاع الصليبية وبدء اتجاه التوسع يتجه إلى الجهة الجنوبية الغربية، وحينما أعيدت المحاولة ببناء حصن مخاضة الأحزان عام 1178م/574هـ والذي أصبح له مخاطر على مسلمي بانياس، أصر صلاح الدين على تدميره عام 575هـ/1179م⁽³⁴⁴⁾، حتى يكون ذلك درسًا قاسيًا للجبهة الصليبية.

كما نجد أن عملية بناء القلاع كانت مكلفة وغير سهلة، وخاصة أن المملكة كان لديها التزامات ومهام عسكرية تجاه جبهة الفاطميين بمينائها صور وعسقلان النشيطين إلى جانب مهام تأمينية ودفاعية في كافة أرجاء المملكة مما يزيد من الأعباء المدية على كاهل المملكة.

سيطرة الجبهة الصليبية على مدينة بانياس وقلعتها لفترات طويلة من عام 1129 - 1132م / 524 - 527هـ، ومن 1140 - 1164م / 535 - 560هـ جعلها تستعيز بها عن بناء القلاع في تلك المناطق الشرقية.

كذلك كان لاعتماد المملكة على عقد الهدنات مع جبهة دمشق وإقامة سياسة المناصفت⁽³⁴⁵⁾ أثرها في الاستعاضة بها عن سياسة بناء القلاع وكذلك ساعدتهم تلك السياسة على شحن القوى الصليبية ضد جبهة الفاطميين في صور وعسقلان.

رابعًا من الأوضاع الطبوغرافية للقلاع الصليبية، يتضح لنا مدى الخبرة التي اكتسبها الصليبيون في عملية اختيار المواقع الطبوغرافية⁽³⁴⁶⁾ وأكبر مثال على اكتساب تلك الخبرة، هو خط التحصينات الذي أقامه الصليبيون والذي يبدأ من وادي نهر اليرموك فيما بين عمان والعقبة، وتمثل في حصني الشوك والكرك وعدد من القلاع الصغيرة، وعلى الرغم من أن عشر قلاع لا يمكن أن تأمن مساحة من الأرض تمتد على طول حوالي مائتين وخمسين ميلًا فإن مواقع تلك القلاع عوضتها من حيث الكيف، عما كانت تفتقر إليه من حيث الكم، فتمكنت تلك القلاع من توطيد الوجود الصليبي في منطقة شرق الأردن ومن السيطرة على واحد من أهم الشرايين التجارية والعسكرية بالنسبة للمسلمين، وبالتالي قطعت حركة الوصل بين القاهرة ودمشق⁽³⁴⁷⁾ وهذا يدل على مدى الخبرة التي اكتسبها الصليبيون عن طبوغرافية بيت المقدس وتكونت تكل الخبرة من عدة مصادر منها: كثرة الاحتكاكات العسكرية مع الجبهة الإسلامية كانت أكبر خبرة للصليبيين في إختيار المواقع الطبوغرافية للقلاع الصليبية، وذلك لتوفير الموقع الطبوغرافي الأقل تعرضًا لهجمات المسلمين، وخاصة للقلاع التي تقع في مواجهة الجبهات الإسلامية الكبرى، أو إختيار مواقع طبوغرافية هامة لإنجاح عملية تطويق المدن الفاطمية النشطة.

يتضح ذلك من كثرة الاحتكاكات العسكرية الإسلامية الدمشقية وما أسفرت عنه من هدم لحصن عال عام 1105م / 499هـ فأكسبت الصليبيين خبرة في إختيار أهم المواقع الطبوغرافية في تلك المنطقة فكان إختيارهم لموقع حصن الحبيس جلدك وهو الحصن الكهفي الذي يقع جنوب -

نهر اليرموك والذي تميز موقعه الطوبوغرافي بأنه أقل عرضه لهجمات المسلمين⁽³⁴⁸⁾، كذلك كان لموقعة الصنبرة، التي وقعت أحداثها في الجليل عام 1113م/507هـ وتمثلت بقيادة الجبهة الإسلامية في شرق الدين مودود وطغتكين أما الجانب الصليبي فتمثل في قيادة الملك بلدوين الأول وجو سلين أمير الجليل وكان النصر في صالح الجبهة الإسلامية⁽³⁴⁹⁾، فترتب على تلك الانتكاسة العسكرية التي ألمت بالصليبيين ان ظلت ذكريات تلك الهزيمة عالقة بالأذهان مدة طويلة حيث أستوعب القادة الصليبيون في الجليل وبيت المقدس درسًا من عبور المسلمين لنهر الأردن الذي يعد أهم الموانع الطبيعية⁽³⁵⁰⁾، وبناء الحصن تمكن الصليبيون من مراقبة تحركات المسلمين العسكرية في الجانب الشرقي من بحيرة طبرية، وكذلك مراقبة الطريق من طبرية ليسان، كما تم التحكم في المنطقة الممتدة على جانبي الأردن من جهة الجنوب⁽³⁵¹⁾.

أما بخصوص حسم قضية عسقلان ومحاولة إنهاكها لإسقاطها، وذلك من خلال إقامة عدة قلاع حصينة فقد بدأ الصليبيون تنفيذ تلك السياسة كما لاحظنا بتشييد حصن بين جبرين الواقع على بعد اثني عشر ميلاد من عسقلان، ولقد أدرك وليم الصوري أهمية موقعة وذكر «أنه كان ملائمًا بصورة تامة»⁽³⁵²⁾، كما أنه أشار إلى قلة عنف هجمات مسلمي عسقلان في ذلك الموقع بعد بناء حصن بيت جبرين⁽³⁵³⁾، أما حصن بيني فقد وقع على مسافة "عشرة أميال إلى الجنوب الغربي من اللد"⁽³⁵⁴⁾، وقد أوضح أن الصليبيين أستفادوا من مميزات الموقع المرتفع الذي وجد في المنطقة، حيث "وجدت هناك هضبة مرتفعة فوق سهل من السهول"⁽³⁵⁵⁾، ومنطقي أن الصليبيين أدركوا أن سيطرتهم على تلك الهضبة من شأنها التحكم في المنطقة المشيدة فيها الحصن بصورة محكمة والواقع أن موقع حصن بيني المتميز بوفرة الآبار بأعداد كبيرة⁽³⁵⁶⁾، يدل على أن الصليبيين حرصوا على تشييد حصونهم في موقع ذات مميزات طوبوغرافية متعددة على نحو يضمن في النهاية تميز الحصن المشيد، الأمر الذي يدعو للتأكد أن تلك الحصون لم تشيد إلا بعد دراسة دقيقة للمواقع الجغرافية الأكثر تميزًا ولماثمة لإقامة مثل تلك العماير الحربية الحصينة⁽³⁵⁷⁾، أما حصن تلك الصافية، الذي أقيم على جبل عال بالمقارنة بالأرض الأكثر استواء المجاورة لها⁽³⁵⁸⁾، وقد وصف الموقع بأنه كان "جيد التحصين من الناحية الطبيعية"⁽³⁵⁹⁾، والأمر المؤكد أن الصليبيون

كانوا قد صاروا خبراء بطبوغرافية المنطقة بعد أن شيّدوا من قبل قلعتين، فجاء تشييد الحصن الثالث على نحو دعم رصيد خبرتهم في إقامة العماثر الحربية في تلك المنطقة لحدودهم مع الأملاك الفاطمية ثم جاء أخيراً تشييد قلعة غزة، وكان تشييدها من أجل محاصرة عسقلان من ناحية الجنوب مثلما حوصرت من الشمال والشرق⁽³⁶⁰⁾، ونلاحظ أن تلك الخبرة تكونت لديهم من خلال احتكاكهم العسكري مع حامية عسقلان، فكان بناء الحصنين الأخيرين تل الصافية وغزة لأحكام غلق المنافذ ونقاط الضعف التي أوضحها حصنا بيت جبرين وبينى من خلال احتكاكها بالقوات الإسلامية،

كما كان للحملات التمهيدية - أثرها في تكوين تلك الخبرة - التي نفذت من أجل دراسة طبوغرافية المنطقة لتحديد أهم المواقع لإقامة القلاع الصليبية وأكبر مثال على ذلك الحملات التمهيدية، التي شنّها بلدوين في الفترة من 1100 - 1115 م / 494 - 510 هـ وهي أربع حملات على المنطقة، رافقه فيها الكاهن والمؤرخ فوشيه الشارترى⁽³⁶¹⁾ ونلاحظ أن تلك الحملات التمهيدية ساعدت على اختيار موقع حصن الشوبك لفرض سيطرت وتحكم صليبي على المنطقة.

كما أن الصليبيين استفادوا من خبرة الشعوب القديمة في الجانب الطبوغرافي عن طريق تنشيط قلاعهم، فنجد أن الحصن أو القلعة في مملكة بيت المقدس لم تكن جديدة تماماً، فقد كانت المدن على وجه الخصوص مدنا استولى عليها الصليبيون من حكامهم المسلمين، وهو ما يعني أن الصليبيين لم يقوموا ببناء لكل المدن، وانحصرت مساهمتهم عادة في تطوير نظام الدفاع الموجود بها وغالباً ما كان الصليبيون يبنون الحصون والقلاع، في أماكن كانت بها تحصينات سابقة، ثم هجرها أهلها خلال فترة الثلاثة آلاف سنة التي يمتد تاريخ البلاد بطولها فالراجع أن الصليبيين ساروا على التخطيط الذي قامت عليه التحصينات السابقة، كما أنه من المؤكد أيضاً أنهم قد استفادوا من المباني التي أقيمت في الموقع من قبل فقد كان المنطق الصليبي المحلي يقول "إن قلعة مدمرة هي قلعة نصف مبنية بالفعل"⁽³⁶²⁾. وبهذا نجد أن تنشيط الصليبيين لتلك القلاع القديمة

جعلتهم يستفيدون من طوبوغرافية تلك القلاع القديمة خاصة وأن الزمن لا يغير في موقع المكان وخاصة طرق التجارة.

كذلك نلاحظ أن كثرة ما شيده الصليبيون من قلاع في المملكة ساهم في إنضاج الخبرة الطوبوغرافية لديهم.

خامساً: استغل الصليبيون طوبوغرافية المملكة استغلالاً جيداً يتماشى مع طبيعة صراعهم مع المسلمين، ومن ذلك نجد أن ظهور القلاع الصليبية أو بعبارة أدق إعادة تنشيط قلاع وأديرة رومانية أو قبطية أو السيطرة على قلاع إسلامية، ظهرت منشطة مع تغيير طوبوغرافيتها أو تطويرها عسكرياً، بما يتماشى مع طبيعة الصراع الإسلامي الصليبي، ومن ذلك لا يفهم أن كل موقع جغرافي حصين يتمتع بطوبوغرافية منيعة كان يستغل لبناء قلعة حصينة، ولكن إذا توافرت دوافع أخرى إلى جانب أهمية الدافع الجغرافي مثل الدافع الاقتصادي أو الاجتماعي أو العسكري أو جميعها مجتمعه، يصبح من المحتم استغلال ذلك الوضع الجغرافي أو الطوبوغرافي لإقامة القلعة الصليبية، جملة القول أن القلاع لم تكن إقراراً لاستغلال طوبوغرافية المنطقة أو الوضع الجغرافي للمملكة فقط ولكن قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية كانت إقراراً لأهمية الموقع الجغرافية من الجوانب الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، ثم يصبح من الضروري استغلال أمنع البقع الجغرافية داخل ذلك الموقع واستغلاله في بناء القلعة الصليبية، وسوف نعالج مهام القلاع العسكرية والاقتصادية في الفصل الثاني من هذا البحث.

الهوامش

- (1) ابن حوقل: صورة الأرض، ج 1، ط، 1938، ص 156، 180، الاصحاحي: مالك المهالك، ط 1927، ص 55، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي جويه ليدين، ص 152، أحمد: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ط 1977، ص 14.
- (2) أحمد رمضان أحمد: المجتمع الإسلامي، ص 15، ويقسم المقدسي الشامل إلى أربع أقسام المقدسي، المصدر السابق ص 186.
- (3) ابن حوقل، المصدر السابق، ص 165.
- (4) فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ث د. جورج حداد ج 1، ط. بيروت 1958م، ص 31.
- (5) أحمد رمضان أحمد: المجتمع الإسلامي، ص 15.
- (6) أسامة سيد على أحمد: الساحل الشامي في القرن الثاني عشر/ السادس الهجري، رسالة ماجستير غير مشورة كلية الآداب جامعة عين شمس، ط. 1992، ص 39.
- (7) فيليب حتى: تاريخ سورية، ص 32، أسامة سيد على أحمد: المرجع السابق، ص 40.
- (8) أحمد رمضان أحمد: المجتمع الإسلامي، ص 15 - 16.
- (9) ابن جبير: رحلة ابن جبير، دث، ص 180.
- (10) بضيف Kennedy أن المسلمين والبيزنطيين، قد سقوا الصليبيين في بناء القلاع بالمنطقة الوعرة في شمال الشامل (شمال فلسطين) فكان من القلاع التي بناها المسلمون (عكار والمرقب والأكراد...) انظر (Kennedy (H): Crusader Castles, Cambridge 1994, P.62 - 63).
- (11) أحمد رمضان أحمد: المجتمع الإسلامي، ص 16.
- (12) نفس المرجع السابق.
- (13) المقدسي: المصدر السابق، ص 186.
- (14) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص 121، أسامة سيد على: الساحل الشامي، ص 22.
- (15) أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي، ص 18.
- (16) حاك دي فيرتي: المصدر السابق، ص 41، جوناثان رايلي سميث: الاستراتيجية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص 1050 - 1310 حي الجاني، ط. 1989م، ص 25.
- (17) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص 121.

- (18) محمود محمد الحويري: الأوضاع الحضارية، ص 183
- (19) ر، سبلمن فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، ث. محمد وليد الجلاد، ط. 1985، ص 302.
- (20) محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره، ط بيروت 1969، ص 30 - 31.
- (21) محمود محمد الحويري: الأوضاع الحضارية، ص 183.
- (22) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، د. ث، 90 - 91.
- (23) الاضطخري: مسالك الممالك، ص 63.
- (24) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي، ص 91.
- (25) علية الجتروري، الحياة السياسية في بلاد الشام، ص 67.
- (26) صلاح الدين محمد عبد القادر نوار: تاريخ الشام السياسي خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ط. 1989م، ص 596.
- بنو مرداس هم زعماء قبيلة بني كلاب المحيطين بحلب، وكان الحمدانيون قد سيطروا عليهم لما أقاموا دولتهم، ولكن أخذ بنو كلاب بقيادة صلاح بن مرداس يغيرون على بلاد الحمدانيين وخاصة حلب، وزال بني حمدان، بمحاربة الكلابيين للمنصور بن لؤلؤ حاكم حسب حتى فر إلى الروم في 404هـ / 1013م (عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ص 148) وقد منح الخليفة الفاطمي الحاكم صالح بن مرداس بثلاث المناسبات لقب أسد الدولة (عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطه في مصر، ص 148). وظلت مدينة حلب موضوع نزاع بين الفاطميين والمرداسيين حتى تمكن المرديسيون من فرغ آخر بقيادة محمود الملقب عز الدولة من استيلاء على حلب بمساعدة الكلابيين في 452هـ / 1060م، استمرت في يده، حتى نجحت الأتراك في أحدها عقب وفاة محمود 479هـ / 1066 - 1067م انظر (عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ص 151، 154 - 155).
- (27) Kennedy (H): Crusader Castles., PP 62 - 63.
- (28) عن طبيعة ذلك الصراع في مهاجمة المدن الساحلية الفاطمية في جنوب الشام، أثناء عهد حنا الشمشيق أنظر (علية الجتروري: الحياة السياسية، ص 100).
- (29) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 91.
- (30) Vasilier (A.A.): Histoire de L'Empire Byzantin, T. 1, Paris 1932, P. 310
- (31) صلح الدين نوار: تاريخ الشام السياسي، ص 603.
- (32) ناصر خسرو: سفرنامه، ث. يحيى الخشاب، د.ث.، ص 50.

- (33) إبراهيم سعد فهيم محمود: يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي (1099 - 1291م/492 - 690هـ)، رسالة ماجستير جامعة الإسكندرية، ط. 1991، ص.52.
- (34) يصف لنا المقدسي بالتفصيل عملية بناء قلعة عكا انظر (المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 163).
- (35) المقدسي: نفس المصدر، ص 172، 174.
- (36) غسلي أحمد السيد: إمارة الجليل تحت حكم اللاتين ودورها السياسي في الصراع الصليبي الإسلامي في منطقة الشرف الأدنى الإسلامي (1099 - 1154م 492 - 549هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندرية، ط. 1988م، ص 101.
- (37) ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 71 - 72، بطرس توديود: المصدر السابق، ص 80.
- (38) ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 78، بطرس توديود: المصدر السابق، ص 111، فوشية: المصدر السابق، ص 108 - 111، وليم الصوري: المصدر السابق، ص 1، ص 263.
- (39) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 1، ص 263.
- (40) ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 120، المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 64 - 70، ابن الأثير: الكامل، ص 8، ص 186: ابن العبدي: تاريخ مختصر الدول، ص 196 - 197.
- (41) ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 151، المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 96.
- (42) ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 165 - 169، المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 104 - 106، ابي الفلاح عبد الحي بين العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ص 3، د. ث، ص 396.
- (43) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 1، ص 391.
- (44) رنسيان: المرجع السابق، ص 1، ص 400.
- (45) سعيد عاشور: الحركة، ص 1، ص 180.
- (46) ويدعم هذا الرأي الجدل الذي دار أمام حصن عرقة وضرورة إتمام الحصار.. ولنصعد من حصار عرقة حتى تستسلم حاميتها.. ومن ناحية أخرى فإذا نحن قدرنا ألا جدوى من الحصار، وانتشرت أخبار تحلينا عنه بعيداً، أصبحتنا ونحن جيش غرف بتنفيذه لمشروعاته بنجاح، موضع سخرية واستهزاء" (ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 217).
- (47) ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 182، رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 1، ص 400.
- (48) ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 183، رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 1، ص 400 - 401، سعيد عاشور: الحركة، ص 1، ص 180.

(49) ريمونداجيل: المصدر السابق، صدر 185، بطرس توديبود: المصدر السابق، ص 290، المؤرخ المجهول: المصدر السابق: ص 109، رنسيان: الحروب الصليبية، ج1، ص 402.

(50) ريمونداجيل: المصدر السابق، 185 - 189، المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 110، فوشيه: المصدر السابق، ص 144.

(51) المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 109، وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 61 - 62.

(52) وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 63 - 65.

(53) وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 64.

ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 225، المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 114، بطرس توديبود: المصدر السابق، ص 294. - وثمة رأي يذكر فيه رنسيان [كما "دمروا كنيسة القديس جورج الكبيرة، الواقعة في اللد، التي لا تبعد عن الزملة إلا ميلاً واحداً."] [رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 412] ولكننا تختلف مع رنسيان لعدة اعتبارات منها أن المصادر العربية المعاصرة لأحداث الحملة الصليبية الأولى لم تود عن ذلك التدمير الذي ألحق بكنيسة القديس جورج يمكن الرجوع إليه (المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 114، ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 225، فوشيه: المصدر السابق، ص 145) كذلك أنه لم يعهد من قبل أن قام المسلمون بتدمير المقدسات المسيحية.

(54) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 412.

(55) وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 69 - 71، رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 413.

(56) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية: ج1، ص 414 - 415.

ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 238.

ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 259.

- يقع برج داود في ناحية العرب من مدينة (بيت المقدس)، وتحيط به أسوار المدينة من الحسانين...، ويرج داود مشيد من أحجار - صليبية، ونصف الطريق الصاعد إليه مبني من كتل مربعة ضمت إلى بعضها بمواد لاصقة، وفي وسع خمسة عشر رجلاً أو عشرين رجلاً، أن يصدوا عنه كافة الهجمات المعادية متى توفرت لهم المؤن (فوشيه: المصدر السابق، ص 147 - 148). ويضيف ريتشارد "وتمتلك المدينة حصناً على الجانب العربي وهو أحجار مربعة مرصوفة بعضها ببعض غير قابلة لتكسر... والذي يستخدم كسور المدينة من جانب الحد، ويدعى برج داود، وهو ما يسميه البعض برج انطوليوس". (بورشارد من دير جبل صهيون: وصف الأرض المقدسة، ترجمة د. سعيد البشاوي، ط. 1995م، ص 143).

(57) على أحمد السيد: الخليل الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية (1099 - 1187م / 492 - 583هـ)، ط. 1998م، ص 104 يذكر الرحالة سايلوف أن مدينة الخليل دمرت من قبل المسلمين (سايلوف: المصدر

لسابق، ص42). ولكننا نتفق مع رأي الدكتور سعيد عبد الله اليشاوي أنه لا يعقل أن يقوم المسلمون بتدمير مدينتهم المقدسة، ولم ينشر المؤرخون العربيون المعاصرون للحملة الصليبية الأولى أن مدينة الخليل كانت مدمرة، ويعتقد هنا أن سايلوف يشير الغربيين للاستيلاء على مزيد على الأراضي الإسلامية. (سايلوف: المصدر السابق، ص42 هامش(1)).

(58) على أحمد السيد: الخليل، ص108.

(59) المقدسي: المصدر السابق، ص172.

(60) المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص120، ولیم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص163، سعيد عبد الله اليشاوي: نابلس في عصر الحروب الصليبية، ط. 1991م، ص48، 40، Stevenson: The Crusaders in the East, 1968, P. 40

(61) المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص120، رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ح1، ص416، سعيد اليشاوي: نابلس، ص48، 40، Deschamps: la Defensdu Royaume de Jerusalem, Paris, 1939, P. 12.

(62) Stevenson: The crusaders., PP. 40 – 41

علي أحمد السيد: إمارة الجليل، ص93 – 94.

(63) المرجع السابق، ص94.

(64) ابن شداد: الإغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، ح2، ط. دمشق 1956م ص146.

أما قلعة طبرية فلقد ساهمت عوامل بشرية وطبيعية من زلازل وفيضانات في تحطيم جزء كبير منها ولزيد من التفاصيل، انظر:

- Zvi (R): The lost crusader castle of Tiberias " in the Horns of Hatin, Edited by B. Z. Kedar, Jerusalem, 1992. p 219; Guein (V): Description géographique historique et archeologique de la Palestine, 3 part – Galile'e, T. I. Amaterdom, 1969, P. 250)

أخذت ذلك ليس لدى بعض المؤرخين المحدثين فرجحوا أن قلعة طبرية الصليبية أقيمت خارج المدينة، وخاصة في الجزء الخارجي الأوسط من المدينة على التل الصغير في شمال غرب المدينة، وهو نفس الموقع الذي اختاره ضاهر العمر في بناء قلعة عام 1749م/ 1163هـ ويرون أن ظاهر العمر أقام قلعة على آثار وبقايا القنعة الصليبية. لمزيد من التفاصيل انظر.

- (Guerin (V) Description, 3 Partie Galilee, T.1 P. 250; Rey: Les Colonies Franques De Syrie Au XXII me et XIII me siecles, Paris 1883, p. 447; Prawer (J): Historie Du Royaume Latin De Jerusalem.

ولكننا نتفق مع الباحث Zvi، بأن قلعة طبرية كانت مقامة داخل المدينة وواقعة على شاطئ البحيرة انظر: (RAZI (R): The lost., PP 217, 221) وتؤكد مقولة الرحالة ابن شدد الذي زاد المنطقة في القرن الثالث عشر الميلادي "لست الفرائنج في طبرية قلعة على بحيرتها" (ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ص2، ص132) كذلك ملاحظات رحالة القرنين السابع عشر والثاني عشر توضح موقع قلعة طبرية على شاطئ البحيرة انظر.

- (Jean de thevent: Voyage de thevent aulevant, T. 2 P. 676; Roger (F.E): la Terre Sainte, p. 70)

كذلك الكشوف الحديثة لبروان Broun تؤكد أن مركزية القلعة كانت داخل مدينة طبرية الصليبية. (Broun (E): The lost crusader castle of Tiberias, PP. 221 – 227.

بذلك يمكننا القول بأن قلعة طبرية كانت تقع داخل المدينة وواقعة على شاطئ البحيرة، لأن سور مدينة طبرية كان يحيط بها فيما عدا الجهة المطلة على شاطئ البحيرة "الطرف المحدد بالبحر لا حائط له." (ناصر خسرو: سفرنامه، ت. د. يحيى الخشاب، ط. 1993م، ص63.) (65) على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص101.

(66) Baudri de Dol, T.IV, p. 110 – 111 Albert d'Aix: Historia Hierosplymitana, Vol. IV, p. 523.

- على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص101.

(67) ذكر ابن القلانسي أن ذلك تم عام 494هـ (ابن القلانسي: المصدر السابق، ص225)

- وعن دور مدينة حيفا الهام حتى سقوط مدينة عكا عام 1104م انظر.

(Beyer (G): Die Kreuzfahrer Akkound Galilaea. in Z.D.P.V., 1945, P. 213.)

(68) كانت وفاة جودفري في 18 يولييه عام 1100م/494هـ انظر (فوشيه: المصدر السابق، ص169 – 170، وليم الصوري: المصدر السابق، ص2، ص151 – 152، 160، 187، (Hallam (E): chronicles,

(69) ابن الأثير: الكامل، ص10، ص286، القرظي: اتعاظ الخنفا بأجبار الألة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد، ص3. ط. 1996م، ص23 – 24، المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص337 – 342.

Raoul de Caen: Gesta Tancredi in Expeditione Hierosolymitana, Ed, R. H. C. H- occ, Tome III, Paris

- (70) صلاح الدين نوار: تاريخ الشام السياسي، ص 606.
- (71) Grousset (R): Histoire., T.I, P. 175.
- (72) على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص 90.
- (73) وعن أثر التفكك الإسلامي في تسهيل مهمة الصليبيين انظر.
- (جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية، ط 1988، ص 14، 19).
- (74) وعن عدم وجود نية في عدم مقاومة دقاق لهجوم تكريد على الجليل، ظهر في إصدار أوامر دقائق لمتابعة ظهر الدين طختكين ينقل مصحف عثمان بن عفان من طبرية خوفاً عليه من الصليبيين (علي أحمد السيد: إمارة الجليل، ص 94).
- (75) على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص 102.
- (76) وليم الصوري: المصدر السابق، ح 1، ص 238 - 239، 244 - 245، ليلي طرشوي: إمارة الجليل، ص 25 - 27.
- (77) وليم الصوري: المصدر السابق، ح 2، ص 168.
- (78) على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص 95.
- (79) ريمونداجيل: المصدر السابق، ص 185.
- (80) Praver (J) The latin Kingdom of Jerusalem, London 1972, P. 17.
- (81) على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص 101.
- (82) ابن الأثير: الكامل، ح 10، ط 1995، ص 324، سعيد عاشور: الحركة، ح 1، ص 207.
- وليم الصوري: المصدر السابق، ح 2، ص 181
- (83) سايلوف: المصدر السابق، ص 37، 42 - 44، بورشارد: من دير جبل صهيون: المصدر السابق، ص 70 - 71، 95.
- (84) على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص 97.
- (85) على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص 97.
- (86) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ح 1، ص 441.
- (87) رنسيان: المرجع السابق، ح 1، ص 441 - 442.
- (88) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ح 1، ص 203، السيد الباز العويني: الشرق الأوسط، ح 1، ص 282 - 283.
- (89) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ح 1، ص 204.

- (90) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 22، فوشيه: المصدر السابق، ص 188 - 190.
- (91) وليم الصوري: المصدر السابق، ص 2، ص 181، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص 1، ص 207.
- (92) لم يطلق عليها مملكة بيت المقدس إلا في عام 1100م / 494هـ أي في عهد الملك بلدوين الأول.
- (93) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص 1، ص 226.
- (94) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 2، ص 21.
- (95) سايولف: المصدر السابق، ص 21.
- (96) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 21.
- وليم الصوري: المصدر السابق، ص 2، ص 247.
- (97) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 2، ص 142.
- (98) Albert d' Aix: Historia., T.IV, PP. 637 - 638; Deschamps: la Defense., P. 9 note (I);
Praver (J): Histoire Duroyaume Latin De Jerusalem, T. I. Paris 1969, P. 276 - 277
note (36).
- (99) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 2، ص 147.
- (100) عن بعض تلك المحاولات انظر (ابن الأثير: الكامل، ص 10، ص 365، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 284 - 287).
- (101) فوشيه: المصدر السابق، ص 185 - 187.
- (102) فوشيه: المصدر السابق، ص 186.
- (103) مصطفى حسن محمد الكنائي: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص 13.
- (104) وليم الصوري: المصدر السابق، ص 2، ص 245 - 246.
- (105) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 225، فوشيه: المصدر السابق، ص 188 - 190، على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص 193.
- (106) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 225، فوشيه المصدر السابق، ص 190 - 193.
- عن وصف المقدسي لقلعة قيسارية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي فذكر "وقيسارية ليس على بحر الروم بلد أجل ولا أكثر خبرات منها.. عليها حصن منيع وريض عامر قد أدير عليه الحصن" (المقدسي: المصدر السابق، ص 174).
- (107) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 232، الخنيلي: شذرات الذهب، ص 3، ص 405.
- (108) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 268 - 269، على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص 214.

(109) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص274، فوشيه: المصدر السابق، ص241 - 243، على أحمد السيد: إمارة الخليل. ص215.

(110) Prawer (J): Histoire., T.I, PP. 276 - 277 note (36).

(111) ذكر وليم الصوري عملية بناء قلعة الرملة" .. وهكذا وحد الصليبيون المدينة قد هجرها أهلها.. فكان من الصعب احتلالها كلها مادام سكانها لهذه القيمة الشديدة ومن ثم اكتفوا بإقامة حصن ذي أسوار، ويحفر خندق في جانب منها" وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص223)، والراجح أن تلك القلعة لم تكن جديدة، وإنما هي عملية ترميم وتقوية للقلعة التي أشار إليها المقدسي " وفرصة الرملة عليها حصن منيع بأبواب مجددة" (المقدسي: المصدر السابق، ص174)، ولكن لم يذكر لنا وليم الصوري في أي عهد من الملوك تم ذلك التحصين لقلعة الرملة ولكننا نرجح أنه تم في عهد الملك بلدوين الأول وذلك لكثرة المخاطر على طريق يافا - القدس.

(112) Prawer (J): Histoire., T. I, PP. 276 - 277 note (36).

(113) Ibid.

(114) Deschamps: la Defense du Royaume de Jerusalem, p. 9 note (1).

(115) Albert d'Aix: Histria., T.IV, PP. 637 - 638.

(116) وليم الصوري: المصدر السابق، ح3، ص102.

(117) Benvenisti (M): the Crusaders in the Holy land, Jerusalem 1970, P. 314 - 315.

(118) Prawer (J):,T.I,P 277 note (36).

أما عن تحديد موضع حصن Castellum Arnolid أو Chateau فيجعلنا نتعرض للجدل الذي دار بين جمهور العلماء وهو ما عرضه لنا بنفسه Benvenisti فذكر أن بعضهم زجح أنه وجد في منطقة تسمى al Burj، والتي تبعد عن شمال غرب بيت نوبه بحوالي خمس كيلو مترات في حين ذكر البعض الآخر أنها تقع في Yalu انظر (Genevieve (B.B.): Le Cartulaire du Chapitre du Saint - Sepulcre de Jeru (Salem, Paris 1984, 1984, PP. 153, 412; Benvenisti (M): the Crusaders., PP. 314 - 315) وتكن الباحث يتفق مع رأى بنفسه على استبعاد الموقع الأول لبعده عن وادي يافا - القدس Ayalon - (Benvenisti (M): the crusaders., PP. 314 - 315.)

ولعدم وجود أثار جديدة بالذكر وتتفق على إتخاذ موقع Yalu هو الملائم لوجود الحصن به وخاصة بعد أن كشفت حرب 1967م بعض أثار من حصن أرنولد Castellum Arnold في منطقة Yalu وهي أثار تعود لزمان الملك فولك (Benvenisti (M): the Crusaders., PP. 314 - 315).

لقد أطلق على حصن أرنولد عدة أسماء منها

- Chateau Arnold أو Chateau Arnoul أو Casellum Arnoldi

- انظر (Prawer (J): Histoire., T. 1, PP. 276 – 277 note (36). كذلك عرفت باسم Castleyalu (Genieve (B.B.): le Cartulaire., PP. 153, 412; Benvenisti (M): the Crusaders., انظر PP. 314.)

(119) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ص 146. ولكن وقع ابن شداد في مغالطة أنه أوكل بناء القلعة للداوية، في حين أن الداوية هيئة ظهرت بعد ذلك التاريخ بما يقرب من سبعة عشر عام.

أكد برنجل Pringle بوجود قلعة المدينة صفاً لذلك التاريخ انظر:

- (Pringle (D): Reconstructing the castle of Safad " Palestine Exploration Quarterly, 117 (1985). P. 140)

(120) يورشارد من دير جبل صهيون: المصدر السابق، ص 69، P. 138، T. 2، Grousset (R): Histoire.,

(121) ابن شداد: الأعلاق، ص 14.

(122) Pringle (D): " Reconstructing .", P. 140، على أحمد السيد: إمارة الخليل، ص 124 - 125.

(123) على أحمد السيد: المرجع السابق، ص 125.

(124) Grousset (R): Histoire., T. 2, P 138; Pringle (D): "Reconstructing..". P. 141.

(125) Ernoul: the city of Jerusalem, Trans. By Conder, P.P.T.S., vol. VI, London 1896, P. 51 N. 4.

(126) Deschamps (P): la Defense., P. 125.

(127) وليم الصوري: المصدر السابق، ج 2، ص 268. ويضيف وليم أن الاسم الأصلي لذلك الحصن هو (تئين) ولما كان الحصن واقعاً على جبل شاهق الارتفاع، شديد الانحدار، فقد أطلق عليه اسم "تورون".

وذكر د. رضا السيد حسن أن أصل تئين سرياني أي متاين كما ذكر أن أصل الأسم هو من كلمة تيت (اسم إله فينيقي) انظر (رضا السيد حسن: الصليبيون وأثارهم في جبل عامل، ص 100 هامش 2).

(128) برشارد: المصدر السابق، ص 59 هامش (1).

(129) Deschamps: la Defense., P. 8; سعيد عاشور: الحركة، ج 1، ص 241.

(130) رضا السيد حسن: الصليبيون وأثارهم، ص 101.

(131) Beventsti: O.P.Cit., P. 302

(132) على أحمد السيد: إمارة الخليل، ص 123.

(133) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 241.

(134) وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص268.

(135) بورشارد: المصدر السابق، ص59 هامش (1).

(136) وليم الصوري: المصدر السابق، ص59 هامش (1).

(137) رضا السيد حسن: الصليبيون واثارهم، ص130.

(138) ابن شداد: الأغلاق الخطيرة، ص152.

عن أهمية طبوغرافية حصني تبين وهونين، نستخلصه من مقولة ابن جبير الذي سلك الطريق من بانياس للساحل "... اجتزنا في طريقنا بين هويين وتبين بواد ملتف الشجر - وأكثر شجره الرند - بعيد العمق، كأنه بالأسطيل لو ولجنه العساكر لغابت فيه، لا منحى ولا مجال لسالكه على يد الطالب فيه، المهبط إليه والمطلع عن عقبتان كتودتان. فعجبنا من أمر ذلك المكان، فأجزناه ومشينا عنه يسيراً، واتهيننا إلى حصن كبير من حصون الأفرنج يعرف بتنين". (ابن جبير: الرحلة، ص210).

(139) ليلي طرشوي: إمارة الخليل، ص89.

(140) المرجح السابق، والصفحة.

(141) Benvenisti: the Crusaders., P 355.

(142) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص255، ابن الأثير: الكامل، ح10، ص455-456، العيني: عقد الجمان، ميكروفيلم 35524، ق3، أحداث عام 501هـ.

هناك ليس بين حصن تل المعشوقة وحصن اسكندرونه فذكر الباحث سر الختم عثمان أنها قلعة واحدة انظر (سر الختم عثمان: مدينة صور في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (1097 - 1291م)، رسالة دكتوراه غير منشورة آداب القاهرة، ط1971، ص48). ولكننا نرجح أنها قلعتين نظراً لمصارفة البعد الزمني بين إنشاء الحصنين فذكر ابن القلانسي أن حصن تل المعشوقة بني عام 501هـ/1136م (ابن القلانسي: المصدر السابق، ص255) بينما ذكر المصادر العربية أن حصن اسكندرونه بنيت عام (511هـ/1117م (فوشيه: المصدر السابق، ص262، وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص328). كذلك اختلاف موقع كل منهما، فحصن تل المعشوقة لا يعد عن صور إلا حوالي كيلومترين من جهة الجنوب الشرقي (علي أحمد السيد: إمارة الخليل، ص219)؟؟؟ حصن اسكندرونه تقع على بعد حوالي 5 أميال من صور (وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص328).

(143) علي أحمد السيد: إمارة الخليل، ص219.

(144) قال ابن جبير "تم توجهنا إلى صور.. واحترنا في طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب وهي مطلة على قري وعمائر متصلة" انظر (ابن الجبير: الرحلة، ص212).

(145) بوشارد من دير جبل صهيون: المصدر السابق، ص 41، أما وليم الصوري فيوضح تطور اسم: سكاندليم "... ويصحف الناس اليوم اسم هذا المكان صقولون "اسكنداليوم" ويرجع ذلك إلى أن الاسكندر يسمي في العربية "يسكندر" والكسنداريوم بيسكندرايوم، وإذا كان حرف الراء يتحول في العادة إلى حرف لام فإن الموضوع يعرف عادة باسم سكانداليوم⁰.

(وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص 328 0) وتعرف اليوم باسم حرية اسكندرونة KH IS Kanderuneh انظر (سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية في بيت المقدس (1099 - 1291 م/492 - 690 هـ)، ط الاسكندرية 1990م، ص 404 هامش (0(4)

(146) ويترجم فوشيه اسم Scanda Lion ب(حقن الاسد) (فوشية: المصدر السابق، ص 262).

(147) فوشيه: المصدر السابق، ص 62 حوليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص 328، يورشارد من دير جبل صهيون: المصدر السابق، ص 41. سعيد البيشاوي: المرجع السابق، ص 404 هامش (4).

- Faveau (L.M) "Die Kreuzfahrerrh errSchafft Schafft Schafft Scanda Lion (Iskanderune)" Z.D.P.V.,93,1977, P 12

(148) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 241، سبط بن الجوزي: مرآة الزما، ح8، ص 16.

(149) Deschamps (P) la Defense.P. 9.: J Praver Histoire., T.I. P. 273; Nicolle: Ainal Habis. P 117.

(150) Conder (R.C.): The latin Kingdom.. P 89.

(151) يرجع ابن القلانسي أن بناء قلعة العال تم عام 499 هـ انظر (ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 241).

(152) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 263 - 264، ابن الأثير: الكامل، ح10، ط 1995، ص 467.

(153) عرف حصن الحبيس بعدة أشكال منها Ain Hadis أو Habis Jaldak أو fortress cae de Sueth - The cave

- (Nicolle: OP Cit., P. 117, J Praver histoire, T.I P. 278

- هناك حصن آخر يحمل اسم الحبيس يقع على جبل الحبيس، الذي يقع جنوب غرب قصر البت في البتراء، انظر:

- (سعد محمد المومي: القلاع الإسلامية في الأردن، ط 1988، ص 339 - 342).

(154) Deschamps la Defense, P 9

يذكر الدكتور علي أحمد السيد أن موقع حصن الحبيس يطابق الأطلال المعروفة باسم قصر البردويل أو قلعة بلدوين (علي أحمد السيد: إمارة الخليل.. ص 297) ولكننا لا نرجح هذا الرأي، لأننا كما ذكرنا أراد

- بلدوين اختيار موقع أقل عرضة لهجمات طغتكين فجاء اختياره لمنطقة الكهفية التي تقع جنوب نهر اليرموك انظر.
- (Deschamps OP Cit., P 9) كما يذكر Nicolle "أته في عضو هدية (1108 - 1109م / 502 - 503هـ) بدلا من استمرار الجهة الإسلامية بإعادة بناء حصن عال (قصر بلدوين) شمال اليرموك كان من الممكن الدفاع والسيطرة على منطقة السواد من خلال موقع حانس هنذاك المقامة في الجهة الجنوبية من نهار اليرموك". (Nicolle: OP. Cit., P. 117)
- .Prawer (J): Histoire., T.I. P 278 (155)
- (156) سط بن الجوزي: مرآة الزمان، ح8، ص38.
- Prawer (J): Histoire. T. I P 278: Samail: crusaders in the Holyland, Sout Hampton (157) 1973, P
- (158) على أحمد السيد: إمارة الخليل، ص297.
- Anonymous Gesta Francorum Iherusalem Expugnootlum. R.H.C – Hocc., Tome III, (159) Paris P
- 543، عبد الله البيضاوي: نابلس، ط 1991. ص75.
- (160) سعيد محمد المومي: القلاع الإسلامية في الأردن، ط 1988، ص245.
- (161) Savignac (M.R.): "ou' Airah" P ve Biblique, Paris, 1903, P 118 (161) سعد المومي: القلاع الإسلامية. ص245.
- (162) نفسا لمرجع والصفحة.
- (163) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص291، P 118, 291, Savignac (M.R.): ou' Airah,
- (164) Deschamps (P): la Defense, P. 9; Savignac (M.R.): ou 'Airah, P. 118
- عرف حصن الشوبك أيضًا باسم الجبل الملوكي Montroyal (فوشيه: المصدر السابق، ص257).
- (165) سعيد المومي: القلاع الإسلامية في الأردن، ص243، 245.
- (166) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ح4، د.ث، ص453.
- (167) القلقشندي: صبح الأعشي في صناعة الإنشاء، ح4، د، ث، ص157، لانكسر هارديج: أثار الأردن. ث، سليمان مومي، ط. 1965، ص109.
- (168) Deschamps (P): la Defense, P. 9 (168) حسن عبد الوهاب الحسين: مصر وأمن البحر الأحمر في عصر الحروب الصليبية مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، ص195.

(169) فوشيه: المصدر السابق، ص 257.

(170) الوعيرة تصعير "الوعرة" وهي النطقة صعة الأرتياد انظر (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص 5، ص 380).

Savignac (M.R.) "OU AIRah" P 14 (171).

.Deschamps (P): la defense P. 9 (172).

(173) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص 5، ص 380.

(174) سعد محمد المومي: القلاع الإسلامية في الأردن، ص 336.

Raph Savignac (M.R.): "ou AIRah". P 118 (175).

.Deschamps (P): la defense du Royaume, P. 9 (176).

(177) حسن عبد الوهاب: مصر وأمن البحر الأحمر، ص 196.

(178) ذكر المقدسي على أيلة "وويلة مدينة على طرف شعبة بحر الصين عامرة جليلة ذات نخيل وأسهاك.. والعام يسمونها أيلة ويلة.. (المقدسي: المصدر السابق، ص 178).

(179) حسن عبد الوهاب: مصر وأمن البحر الأحمر، ص 195.

(180) تبعد جزيرة فرعون عن مدينة العقبة "حوالي 12 ميلاً بحرياً"، وتبلغ مساحة جزيرة حوالي ألف متر مربع، وتتألف من هضبتين صغيرتين. ارتفاع كل واحدة خمسين قدمًا. (سعيد المومي: القلاع الإسلامية في الأردن، ص 343).

(181) عرفت قلعة جزيرة فرعون في المراجع الأجنبية - Island of Qureiya (أو) Jazirat Fara'un (أو) Ile de Graye (أو) ile de

pharaon (Deschamps (P): la Defense Du Royaume, P. 9: Benvenisti (M): OP. Cit. P 320)

ويرى Benvenisti أنها عرفت بالعربية باسم (al qureiye) ثم انحرفت في الصوتيات الفرنسية - Ile de Graye انظر (Benvenisti (M) OP. Cit. P 320) ومن المرجح أن أصل تسمية جزيرة فرعون يعود إلى "فارا" والذي أطلقه الرومان عليها، فقد كانت نحن إهتامهم في البعض البيزنطي لخدمة تجارهم في البحر الأحمر. انظر (وزارة الثقافة هيئة الآثار المصرية أثار سيناء في الجزيرة فرعون، ط 1986، الصفحة الأولى).

(182) يذكر أبو الفدا مقولة تبين وجود قلعة فرعون "كان لها قلعة في البحر" (أبو الفدا: معجم البلدان، ص 87).

- (183) لا نكسر هارديج: أثار الأردن، ث سليمان موسي، ط. 1965م، ص 144، ملكوم كامرون ليوبر: صلاح الدين، ث د/ علي ماضي، ط 1988م، ص 60.
- (184) لانكستر هارديج: المرجع السابق، ص 144.
- (185) وقد عرف المكان عند العرب قديماً باسم أيله أو ويله يقابلها بالعبرية اسم ايليم وإيلات وبالآرامية يقولوايلونا وبال يونانية ايلين وباللاتينية بلاويلات والمواظ والاعتبار يذكر الخطط والآثار والمعروف بالخطط القريرية، تحقيق د. محمد زينهم، ح 1، ط 1998، ص 518).
- (186) نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ط 1957، ص 20 هامش (2).
- (187) عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية أخرى، ط 1971، ص 123 سعد محمد المومي: القلاع الإسلامية في الأردن، ص 344 ويضيف تحت وزارة الثقافة هيئة الآثار المصرية أن صلاح الدين الأيوبي بدأ في بناء تلك القلعة بعد طرد الصليبيون من أيلة عام 1170م/ 566هـ انظر (آثار سيناء جزيرة فرعون قلعة صلاح الدين الصفحة (2) بعد المقدمة).
- (188) Deschamps (P): La Defense. P. 9P. Benvenisti: OP. Cit., P. 320.
- (189) ابن الأثير: الكامل، ح 9، ط 1983م، ص 110.
- (190).
- (191).
- (192).
- (193) حسن عبد الوهاب: مصر وأمن البحر الأحمر، ص 195.
- (194) بدأت معركة أرملة الأولى في سبتمبر عام 1101م/ العاشر من ذي الحجة عام 494هـ وجسمت لصالح الجهة الصليبية أنظر (من القلانسي: المصدر السابق، ص 227، أسامة أحمد ريد: حملات الرملة الثالث ضد الصليبيين في عهد الوزير القاضي الأفضل (1101 - 1105م/ 495 - 499هـ). ط الإسكندرية 1981م، ص 43) أما موقعة الرملة الثانية حدثت في 17 مايو 1102م/ 18 رجب 495هـ جسمت لصالح الجهة الإسلامية، ولقد انفذ الملك بلدين منها لصعوبة (ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 229، ابن الأثير: الكامل، ح 10، ص 364 - 365، أسامة ذكي زيد: المرجع السابق، ص 54). أما معركة الرملة الثالثة والتي التحم فيها الطرفان يوم الأحد 27 أغسطس 1105م 14 ذي الحجة عام 498هـ فقد حسمت لصالح الجهة الصليبية (ابن القلانسي: المرجع السابق، ص 65).
- (195).
- (196) وليم الصوري: المصدر السابق، ح 2، ص 210، وبصفة ابن الاثير أنه "فمص كثير من قيامة الفرنج" انظر (ابن الأثير: الكامل، ح 10، ص 399).

- (197) وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص210.
- (198) على أحد السيد: إمارة الخليل، ص123.
- (199) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ح2، ص999 - 1000.
- (200) لمزيد من التفاصيل انظر (فوشيه: المصدر السابق، ص188 - 189، وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص216 - 22، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص225).
- (201) فوشيه الشارتي: المصدر السابق، ص216، وذكر ابن القلانسي أن أسطول الحويرة الذي نزل على "عكا هو نفسه الذي سيطر على ثغر جبل وكانوا نيف وتسعين مركباً" (ابن القلانسي: المصدر السابق، ص232).
- (202) فوشيه: المصدر السابق، ص216 - 217، وليم الصوري: المصدر السابق ح2، ص245 - 247.
- (203) ابن الأثير: الكامل، ح10، ط: بيروت 1995، ص373.
- (204) لمزيد من التفاصيل انظر (فوشيه: المصدر السابق، ص242، وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص290 - 293، سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ح1، ص244).
- (205) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص263، ابن الأثير: الكامل، ح10، ص467.
- (206) Deschamps (P): la Defense Du Royaume, PP. 8 - 9.
- (207) فوشيه: المصدر السابق، ص237 - 238، وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص278 - 280، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص262، زين الدين عمر بن الورددي: تاريخ ابن الورددي، ح2، ط1969، ص28.
- (208) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ح1، ص94 - 95.
- (209) ابن الأثير الكامل، ح10، ص345.
- (210) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ح1، ص238.
- (211) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص269، سعيد عاشور: الحركة الصليبية. ح1، ص243.
- (212) Hallam (E): Chroncles of the crusaders, P. 100
- (213) لمزيد من التفاصيل انظر (وليم العموري: المصدر السابق، ح2، ص337، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ح1، ص391، عليه الجرتوري: إمارة الرها. ص66 - 67. هامش 8).
- (214) فوشيه الشارتي: المصدر السابق، ص269، وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص339.
- Nicholson (R.L.): "the growth of the latin states 1118 - 1144" in Setton" A history of the crusades vol. I. P. 411"

أمام بلدوين الثاني فهو بلدوين دي يورج Baddwin Du Bourg ثاني ملوك القدس اللاتين، وكان رجلاً ورعاً يخشي الله. مشهور بوفاته وخبرته الكبيرة بأمر الحرب. (وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص335، جاك دي فيتري: المصدر السابق، ص35).

كان أبوه هو هيو Hugh كونت ريثيل Rethel، وأمه هي كونتيسة مليزاند Melisend، وكان بلدوين الثاني أمير للرها أي كان حليفة لبلدوين الأول في إمارة الرها وامتدت ولايته على الإمارة أكثر من ثمانية عشر عاماً، تميز خلالها حكمه بالقوة والنجاح. انظر:

(وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص335).

(215) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص543،

Nicholson (R): the growth of the Latin states 1118 – 1144" P 411 - 412.

(216) فوشيه الشارترى: المصدر السابق، ص269 – 270، وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص243 – 244.

(217) فوشيه: المصدر السابق، ص283. أضاف نفس المصدر أن سبب التأجير " يرجع إلى اشتعال نار الحرب بين البندقية والإمبراطورية البيزنطية عندئذ مما جعل البنادقة يوجهون حملتهم الصليبية ضد البيزنطيين، فهاجموا جزيرة كورفو Corfu وقصوا في حصارها 6 أشهر". وذكر الدكتور سعيد عاشور أنتظر الصليبيون في الشام وصول النجدة الموعودة و زاد إلحاحهم في طلب المعونة من البندقية وخاصة بعد وقوع بلدوين الثاني في الأسر في 18 إبريل عام 1123م / 517هـ عندئذ رفع البنادقة حصارهم عن كورفو وأقلعوا إلى عكا لتقديم المساعدة إلى الصليبيين. انظر (سعيد عاشور: الحركة، ج1، ص406).

(218) وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص377.

(219) نفس المصدر السابق، ج2، ص278 – 284،

Michaud (M): Histoire Des Croisades, Tome 2, Paris, P 63.

(220) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص336، ابن الأثير: الكامل، ج10، ص620 – 622، فوشيه: المصدر السابق، ص310 – 311 وليم الصوري: المصدر السابق، ج3، ص39 – 42.

(221) ابن جبير: الرحلة، ص212 الذي ذكر "مدينة يضرب بها الشمل في الحصانة، لا تلقي لطاها بيد طاعة ولا استكانة"، وعن حضانتها انظر (ياقوت الحمصوي: معجم البلدان، ج3، ص434، بتيامين التطيلي: رحلة بيامين، قد غررا حداد، ط. بغداد 1921، ص91 – 92، ابن حوقل: صورة الأرض، ص174.

(222) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج5، ط القاهرة 1935. 182.

(223) ومنها ما حدث من حصار مدينة صور عام 1111م/505هـ انظر (فوشيه الشارترى: المصدر السابق، ص 245-246، وليم الصوري والمصدر السابق، ح2، ص 296-298، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ح1، ص 246.

(224) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ح1، ص 408.

(225) عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص 372، 445.

(226) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ح5، ط. 1992، ص 216، لا يؤيد ابن القلانسي اغتياله على يد الباطية انظر (ابن القلانسي: المصدر السابق. ص 323-324).

(227) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ح5، ط. 1935، ص 178.

(228) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 209، فاطمة عبد اللطيف سيد أحمد الشناوي: معاملة المسلمين السري الصليبيين في بلاد الشام ومصر 1137-1291م/531-691هـ رسالة ماجستير عبر منشورة كلية الآداب جامعة الإسكندرية. ط. 1997، ص 97.

(229) ابن الأثير: الكامل،، ح10، ص 622.

(230) المصدر السابق نفس الصفحة.

(231) وليم الصوري: المصدر السابق، ح3، ص 49، De Schamps: la DefenseK، ويضيف Rey أن اسم دير اللعة أطلق على القلعة فيما بعد كما عرفت أنه في أيامنا هذه.

(232) Rey: les Colonies Franques De Syrie AUX XII me Et XIII me siecles. Paris 1883, P. 524.

(233) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 225، ابن الأثير: الكامل، ح10، ص 657، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ح3، د.ث. ص 3، ابن العماد الحنبلي: ذرات الذهب في أخبار من ذهب، ح4، ص 66، مصطفى الحيارى: "مدينة بانياس في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي" دراسات، المجلد 13 العدد 12، ط. 1986، ص 161-162.

عرفت بانياس بعدة أشكال في اللغة الأجنبية منها Craree de Philippe (أو) Paneas (أو) Banias، انظر:

Guerin (V): Description. Troisieme Partie Galilee, Tome Deuxieme, Amsterdam 1969, P 327. Conder: The Survey of western Palestine memoirs of the topography orogra Hydrography and archaeology, vol. I. London 1881, P. 126

(234) يذكر Deschamps أن بانياس عرفت في المصادر العربية باسم Belinas (بلنياس) انظر.

(Deschamps (P) la Defense, P 145) ولكن الراجع أن مدينة بلنياس هي مدينة ساحلية من سواحل حمص انظر (أبو الفدا: معجم السلطان، ص 254: ياقوت الحمودي: معجم البلدان، ح1، 489). وعن موقع

مدينة نانياس فهي داخلية من جهة الجنوب العربي من مدينة دمشق انظر (القلقشندي: صحح الأعشي في صناعة الأنشاء، ح4، ص104).

(235) Deschamps (P): la defense., P 145 (235), مصطفي الحيارى "مدينة بانياس...."، ص161.

(236) ابن جبير: الرحلة، ص209-210 ويضيف ابن جبير "بانياس.... وهي صغيرة، ولها قلعة يستدير بها تحت السور...."، Victor Guerin: Description., 3 Partie, Galilee, T. 2. P 324.

(237) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ح3، ص3، ولهذا تختلف مع Ronnie في أن أول ظهور لاسم قلعة ظهر لأول مرة عام 1157م/552هـ انظر (Ronnie: OP. Cit., P. 105) كما يرجع تاريخ بناء قلعة بانياس الداخلية إلى الحشاشين وذلك أثناء سيطرتهم على المدينة فأرادوا أن تكون المدينة مركز لهم... ولما حصل في بانياس شرع في تحصينها وترميم ما استرم ونشعت منها" انظر (ابن القلانسي: المصدر السابق، ص221). ولكن ذلك لا يؤيد بنائهم للقلعة ومن الممكن أنهم أعادوا تحصينها.

(238) الصليبي (تضم الصاد المهمة وفتح الباء الموحدة وسكون الباء المتناه تحت وفتح الباء وهاء في الآخر) القلقشندي: المصدر السابق، ح4، ص104، عرفت بأنكر من شكل في اللغات الأجنبية L'Assebebe Subeba و Subeba، انظر:

(Ellenblum (R): "Who Built Qal al Subayba? " Dumbarton oakpapers, number forty – three. 1989, P. 103)

- كذلك عرفت أيضًا بقلعة نمرود، انظر :

- Amitai (R) Notes on the Ayyubid inscription at – Subayba (Qal at Nimrud)" Dumbarton oakpapers. number forty – three, 1989, PP. 113 – 119

- ذكر Ronnie أن قلعة الصليبية كانت تبعد بمقدار ثلاثة كيلومترات عن بانياس انظر (Ellenblum (R): OP Cit. P 105) وحين ذكر Cander أن ذلك أبعده بلع 1 1/4 ميل"، انظر:

- (Conder: The survey. vol. I. P 126)

(239) (Ronnie: OP Cit., P 103).

(240) Deschamps (P) la Defense.. P 114: Guein (V): Description., 3 Partie. Galilee, T. 2. P 327. 359.

- مصطفي الحيارى: "مدينة بانياس"، ص170.

(241) ربر سميل: فن الحرب والقتال، محمد وليم الجلاد، ص323 هامش (1) Ronnie OP Cit., P. 103 N4

(242) ابن شداد: الإغلاق الخطيرة، ص139 – 141.

(243) Jean d'Ibelin le Livre de Jean d'Ibelin. in Assises de Jerusalem, T. I, Paris 1841 PP.

421. 423 Ellen Blum (R) "who built Qal – atal Subayba? " PP. 104 – 105

.170. Deschamps (R): la Defense. P 145 مصطفي الحيارى: «مدينة بانياس»، ص

(244) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 375.

(245) نفس المصدر السابق، ص 521 – 524.

(246) نفس المصدر السابق، ص 521 – 524.

(247) ريس بسميل: فن الحرب والقتال، ص 323 هامش (1)، مصطفي الحيارى: «مدينة بانياس»، ص 170 – 171، 185.

(155) يسري Ronnie Ellen Plum أن التشكيك في مدى دقة المعلومات الخاصة بقلعة الصليبية، والخاصة بإشارة بن شداد تابعه من تحفظاته وحاره. وكذلك إحقاقه في توثيق وتقديق المعلومات التي وصلت إليه ولهذا فهو يعرضها لنا من خلال المصدر الذي أعتمد عليه وهو من يستخلصه من مقولته " يتصل بعلمي شىء من مبدأ أمرها (الصبية) ألا ما قرأته في تاريخ لطيف لأحد بني منقذ، وهو عد الرحمن بن محمد... " (ابن شداد: الإغلاق الخطيرة، ص 139). كذلك ينصح لنا مدى المفارقة عبد التحدث عن القلعة في فترتها الأولى من القرن الثاني عشر الميلادي نجد أنه يغلب على الرواية كثرة التخلص والشك والحذر بعكس ما يحدث حيننا نتحدث عن نفس القلعة خلال القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري فنجد أن من يتحدث عنها يتحدث بثقة، ولذلك فليس هناك تشابه أو تجانس بين الفترتين ولمزيد من التفاصيل، انظر:

- (Ellen Blum (R): "who built Qal' At al – Subayba" P 104).

أما خصوص الروايات الخاصة بجان دي ادلين Jean D' Ibelin فيتشكك فيها Ronnie أيضًا عندما ذكر أن جان دي اللين خلط بين المصطلحات نسبة فقد مصف الصبية بكلمة مدينة أو قرية مثل بانياس ولم نحو اشارته عنها كلمة قلعة، كذلك كيف يستخدم جان دي ايلين كلمة الصبية – وهي لفظة عربية انظر (القلقشندي: صبح الأعشي، ح4، ص 104). في وصفه المكان متفق عليه ولو ظاهرياً أنه من تأسيس الصليبيين ولمزيد من التفاصيل انظر

- (Ellen Blum (R): "who built Qal' At al – Subayba" P 104)

(248) ابن جبير: الرحلة، ص 209 – 210.

William Of Tyre: A History Deeds Done Beyond the sea, Translated Emily Atwater (249)

BaB Cock Krey, vol. II, London 1943, P 257

فذكر وليم

- "There was a citadel in one Part of Banyas well equipped with arms and men and with sufficient food for a short time. Thix would have afforded refuge for the citizens even if the city were taken"

(250) فيذكر وليم "تقع مدينة بانياس" على تخوم بلاد العدو وهي أقرب ما تكون إليها حتى أنه لم يكن أحد يقادر على الاقتراب منها أو مغادرتها من عبر أن يتعرض للخطر، اللهم إلا أن يكون في عصابة قوية، أو سيكلاً طرفاً سرية "وليم الصوري: المصدر السابق، ج3، ص405.

(251) لقد أحدث سقوط مدينة بانياس في يد الجبهة الصليبية صدى ورد فعل عسكري لدى الجبهتين وخاصة حينها حاول بلدوين الثاني استغلال موقع بانياس اهام Praver (J) the Latin kingdom of Jerusalem, London 1972, P. 285 كذلك كانت هناك محاولة لأسقاط مدينة دمشق من قبل الجبهة الصليبية في أوائل نوفمبر 1129م/ أوسط ذي القعدة 523هـ أي عقب إسقاط الصليبيين لبانياس انظر (وليم الصوري: المصدر السابق، ج3، ص52 - 54، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص356). وهكذا نستنتج أنه (لو كان حصن الصبية قد أنشأت في تلك الفترة لظهرها صدى.

(252) ر.س. سميل: فن الحرب، ص.

.Ellen Blum (R): "who built built Qal at al Subayba "P 104 (253)

(254) نلاحظ أن أحد المراجع الحديثة قد أطلقت عليها قلعة خلعات نسبة للمنطقة التي كانت تقع بها، وهي تتميز بأنها أرض صخرية تقع جنوبي نهر الزرقاء فيما وراء نهر الأردن، ثم صار يطلق على كل المناطق الممتدة من نهر أرنون إلى نهر اليرموك انظر (علي أحمد السيد: إمارة الجليل، ص387).

(255) عن مخاطر تلك القلعة على المملكة انظر (وليم الصوري: المصدر السابق، ج3، ص171 - 172).

(256) المصدر السابق، ج3، ص171.

(257) المصدر السابق، ج3، ص171.

(258) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص421. أضاف نفس المصدر أن ذلك الاضطراب تمثل في قتل شهاب الدين محمود حاكم دمشق، فتولى أجود حمل الدين محمد بن يولي الحكم 23 شوال عام 533هـ/ 24 يونية 1139م وأصبحت القيادة في يد معين الدين أثر، ومن ثم صاحب ذلك التغيير بعض الاضطرابات في دمشق.

(259) Deschamps (P): la Defense Du Royaume de Jerusalem, P. 122: Fedden: Crusader castles, P. 22.

عرفت القلعة في المصادر العربية باسم كوكب الهواء، وحصن كوكب (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ح ص، أبو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص82). أما المراجع الأجنبية فقد عرفت Beauvoir أو Belvoir أو Coquet وذلك لأنها كانت تظل على منظر جميل انظر

(Richard (J): le Royaume Latin de Jerusalem, Paris 1953, P. 107.

نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، ص79).

(260) على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص155.

(261) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص375-376، ابن الورددي: تاريخ الورددي، ح2، ص54.

(262) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص427، وليم الصوري: المصدر السابق، ح2، ص.

(263) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص427.

(264) نفس المصدر السابق والصفحة.

(265) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص427.

(266) سرور على عبد المنعم: الدور السياسي لحصن شقيف ارنون في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة طنطا ط1997م، ص58.

شقيف ارنون نفتح أوله وكسر ثانيه ثم بآء مثناه، والشقيف كالكهف أضيف إلى ارنون اسم رجل لمزيد من التفاصيل (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ح3، ص356)، كذلك وجدت عدة حصون تسمى بالشقيف مثل حصن الشقيف ترون يقع بالعرب من صور انظر (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ح3، ص356): لمزيد من التفاصيل انظر: Deschamps La defense, PP. 217 - 221

(267) سرور عبد المنعم: المرجع السابق، ص42-43، ص59.

(268) على أحمد السيد: إمارة الجليل، ص.

لم يكن ذلك آخر تجديد وإعادة بناء على يد الداوية لقلعة صنفد، ولكن تم إعادة بنائها عام 1240م/ هـ انظر:

- (Huygens (R.B.C) " Deconstruccion Castri Saphet. New York 1981, P. B. Pringle (D) Reconstructing" P. 140)

(269) عن عملية تضارب الآراء حول تشييد حصن بيت جبرين انظر (محمد مؤنس: وليم الصوري مؤرخاً للقلاع...، ص16، نبيلة مقامي: فرق الرهبان...، ص78.

- عرف الحصن في المصادر العربية باسم بيت جبرين (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ح2، ص101).
وعرف حصن بيت جبرين خطى باسم حصن بشر مننع (وليم الصوري: المصدر السابق، ح3، ص131). ومن ناحية أخرى أطلق عليها الصليبيون أحياناً Eleutheropolis انظر.
- (Fetellus: Description of the holy land. trans By G.R. Macphersons, P.P.T.S. vol. V, London 1896. P. 41)
- Felellus: OP.Cit., P. 41 (270).
- (271) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ح3، ص101، نبيلة مقامي: فرق الرهبان، ص77.
- (272) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ح3، ص101، نبيلة مقامي: فرق الرهبان، ص77.
- (273) وليم الصوري: المصدر السابق، ح3، ص132.
- (274) محمد مؤنس: وليم الصوري مؤرخاً للقلاع، ص14 - 15.
- (275) نفس المرجع السابق، ص14 - 18.
- (276) وليم الصوري: المصدر السابق، ح3، ص209.
- (277) محمد مؤنس: وليم الصوري مؤرخاً للقلاع، ص16.
- (278) وليم الصوري: المصدر السابق، ح3، ص209.
- (279) نفس المصدر السابق والصفحة.
- (280) وليم الصوري: المصدر السابق، ح3، ص211.
- عرفت القلعة في المصادر العربية باسم (تل الصافية) (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ح2، ص42).
أما وليم الصوري فذكرها باسم Blanchegarde ويرى أن معناها في اللاتينية "برج المراقبة الأبيض"
- (وليم الصوري: المصدر السابق، ح3، ص211).
- (281) وليم الصوري: المصدر السابق، ح3، ص211.
- (282) نفس المصدر السابق، ص210 - 211.
- (283) وليم الصوري: المصدر السابق، ح3، ص102.
- (284) محمد مؤنس: وليم الصوري مؤرخاً للقلاع...، ص22 - 23.
- يذكر مولر أنها تبعد حوالي عشرة أميال عن البحر الميت انظر (مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ث.
محمد وليم الجلاد، ط. دمشق 1982م، ص55).
- (285) مولر: المرجع السابق، ص55.
- (286) سعد محمد المومي: القلاع الإسلامية في الأردن، ص156 - 0.

- (287) محمد مؤنس: وليم الصوري مؤرخاً للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس، ص 24.
- (288) عبد الجليل عبد العزيز عمرو: "نقش أيوبي جديد من قلعة الكرك - الأردن"، المؤرخ العربي، العدد 40، عام 1989، ص 205، سعد محمد المومي: المرجع السابق، ص 162.
- (289) محمد مؤنس: المرجع السابق، ص 23.
- (290) وليم الصوري: المصدر السابق، ص 3، ص 204، أضاف وليم الصوري أن هناك في تلك الفترة ثلاثة أشخاص عرف كل منهم بينجانوس (وليم الصوري: المصدر السابق، ص 3، ص 221 هامش (22) ولكن نجد أن الأستاذ La monte ذكر أن الذي يقصده وليم الصوري كان يشعر وظيفة (سافي الملك) كما نعته Le Strange باسم (باين) Payen انظر.
- Le Strange: Palestine Under the Moslems. Beirut 1965, P 479

(291) مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص 55.

(292) وليم الصوري: المصدر السابق، ص 3، ص 329.

- نوح بلدوين الثالث ملكاً هو وأمه (ملبرند Melisend) روجة الملك فولت في عيد ميلاد المسيح عام 537هـ 1142. وذلك بعد وفاة الملك (فولك)، وكان في الثالثة عشر من عمره حين ال إليه العرش، وقد طالت أيام حكمه حتى بلغت عشرين عاماً، وكانت ملكة بلدوين العقلية وحماية الجسمالي متساوين تمام المساواة (وليم الصوري: المصدر السابق، ص 3، ص 230 - 233).

- أما غرة بلدة مدينة قديمة، وكانت مركزاً تجارياً هاماً، ووجدت بها قلعة قوية، وقد سارت أطلالها ص هجرها الناس، لذلك صمم الملك بلدوين ونبلاء على إعادة بنائها حتى يمكن تطويق عسقلان (وليم الصوري: المصدر السابق، ص 3، ص 329، نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان الفرسان وبلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ص 85 - 86).

(293) محمد مؤنس: وليم الصوري مؤرخاً للقلاع الجنوبية، ص 24.

(294) وليم الصوري: المصدر السابق، ص 3، ص 330.

(295) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 497، أبين بطوطة: رحلة ابن بطوطة، شرح طلال حرب، ط 1992م، ص 80.

(296) المقرزي: اتعاط الخنفة، تحقيق محمد حلمي أحمد، ص 3، ط 1996م، ص 257 - 299.

لمزيد من التفاصيل عن حملات عموري على مصر.

(297) Baldwin (M.W.) "The latin states under Baldwin III and Amalric I (1143 - 1174), Setton vol 1, P 536 - 537.

(298) كان أبرز الوزراء في ذلك الوقت أين مصال وأين السلام والذي استعان كلياً منها بفريق من العسكر على زميله انظر (عبد اللطيف عبد الهادي السيد: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث 1143 - 1163، رسالة ماجستير غير منشورة آداب عين شمس 1990م، ص136).

(299) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص478.

(300) أبو شامة: عيون الروضتين، ق1. ص220 - 221.

(301) انظر الفصل الثاني الوظائف العسكرية للقلاع ص.

(302) وليم الصوري: المصدر السابق، ح4، ص130 - 132، نبيلة مقامي: فرق الرهبان، ص90.

يذكر وليم الصوري أن الدارون معناها بيت الإغريق (وليم الصوري: المصدر السابق، ح4، ص132).

(303) نفس المصدر السابق، ح4، ص133.

(304) نفس المصدر السابق والصفحة.

(305) نبيلة مقامي: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، ص90.

(306) وليم الصوري: المصدر السابق، ح4، ص227، ابن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق، ط.

القاهرة 1698، ص24؛ أبو شامة: المصدر السابق، ق2، ص54 - 55؛ نبيلة مقامي: فرق الرهبان، ص92.

- أما بلدوين الرابع فهو سادس ملوك بيت المقدس وهو ابن الملك عموري وأمه هي الكونتيسة (اجنس) Agnes أنه جوسلين الصغير كونت الرها، وكان مصاباً بمرض الجذام، ورغم ذلك أظهر نبوغاً في الدراسة، وتم توجيهه في يوليو 1174م/ 570هـ في كنيسة القيامة (وليم الصوري: المصدر السابق، ح4، ص173 - 176).

(307) نبيلة مقامي: فرق الرهبان، ص92.

(308) أبو شامة: عيون الروضتين، ق1، ص54 - 55.

- أضاف Beyer أن الملك بلدوين الرابع قد أصاب في اختيار موقع حصن مخاضة الأحزان وبه ضبط الخلل الدفاعي للمملكة من تلك الجهة وبذلك تحكم في ذلك الحصن في جسر مخاضة يعقوب، انظر:

- Beyer (G): "Akkound Galilaea", P. 214

(309) وليم الصوري: المصدر السابق، ح4، ص227.

(310) كان السلطان صلاح الدين منشغلاً بحصار والي بعلبك انظر

(أين واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ح2، ط، ص72).

(311) ذكر لنا وليم الصوري بعض المناوشات من قبل الأهالي انظر

(وليم الصوري: المصدر السابق، ح4، ص 227 - 228).

(312) المصدر السابق، ح4، ص 227.

(313) نييلة مقامي: فرق الرهبان، ص 93.

(314) سعيد البشاوي: الممتلكات الكنسية، ص 79.

Deschamps (P): la Crac Des Chavaliers, Paris 1934, P. 15. 80 - 79

(315) حسن عبد الوهاب حسين: تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، ط. إسكندرية 1990م، ص 78،
96، 275 - 276.

(316) حسن بعد الوهاب حسين: "مصر وأمن البحر الأحمر"، ص 195 - 197.

(317) أحمد رمضان أحد: شبة جزيرة سيناء، ص 116.

(318) لقد نقل الصليبيون الاسم العربي لقرية الفولة فأصبحت la Fula (أر) la Feva انظر.

Pringle (D): "La Feve .., Israle Exploration Journal 35, 1985, PP. 164 - 179

(319).

(320) لمزيد من التفاصيل عن الملك لوز بيجان واعتلاله حكم مملكة بيت المقدس يمكن الرجوع إلى (رنسيان:
الحروب الصليبية، ح2، ص 721 - 726).

(321) كانت الخلافة الفاطمية تعاني من التفكك والانحلال في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الميلاديين (أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين) وذلك بسبب ضعف خلفائها وتنازع الوزراء على الحكم وكثرة الحروب بين عناصر الجيش المختلفة (أسامة زكي زيدك صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ط. 1971م، ص 17). كذلك أصبحت الخلافة العباسية تعني كثيراً من الضعف والانحلال وأصبح خلفائها ألعوبة في أيدي الأمراء، كما كان لكثرة الثورات والحركات المذهبية والدينية داخل الدولة سبباً هاماً في ضعفها (أسامة زكي زيد: المرجع السابق، ص 18).

(322) Oman (C): A History. vol. 1, P 233.

(323) حسين محمد عطية: إمارة أنطاكيا الصليبية والمسلمون (1171 - 1268م)، ط. 1989، ص 115 - 122.

(324) ليلي طرشوني: إمارة الجليل، ص 75.

(325) ليلي طرشوني: إمارة الجليل، ص 75.

(326) Kennedy (H) Crusader Castles, P. 62.

(327) يوحنا فورزبورغ: وصف الأراضي المقدس في فلسطين، ث.د. سعيد عبد الله اليشاوي، ط. فلسطين 1997م، ص 11، 40 - 55 الأضطخري: مسالك الممالك، ص 57، أبين حوقل: صورة الأرض، ص 171.

(328) الأضطخري: المصدر السابق، ص 57، ابن حوقل: المصدر السابق، ص 171 - 172، المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 172.

(329) يوحنا فورزبورغ: المصدر السابق، ص 101، المقدسي: المصدر السابق، ص 176.

(330) يوحنا فورزبورغ: المصدر السابق، ص 97 - 98، سيولف: المصدر السابق، ص 36 هامش (3).

(331) دنيا: المصدر السابق، ص 29 هامش (2)، سيولف: المصدر السابق، ص 36 هامش (3).

(332) عن أهمية مدينة عكا كمياء تجاري انظر (وليم الصوري: المصدر السابق، ص 247).

(333) انظر التمهيد.

(334) ينطبق ذلك على باقي الإمارات الصليبية وخاصة إارة طرابلس لمزيد من التفاصيل انظر (فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. ج 1، ط 1958م، ص 30 - 31، Kennedy (H): Crusader Castles., P. 62

- يضيف لنا الدكتور محمود الحويرى عن وجد كم قليل من القلاع سيطرت على مجاور رئيسية فقد رؤى ضرورة بناء القلاع من صيد إلى انطاكية،؟؟؟ الممرات القليلة التي تربط بين الساحل وداخلية البلاد فشيدت قلعة صهيون بحيث تغطي الطرق الشمالي من جبل العلويين، وكذلك المراقب؟؟؟؟ سلسلة الجبال نحو الساحل مكونة عمراً ضيقاً بين الجبال والبحر، وحصن الأكراد وصافيتا وعكا وغيرها من القلاع، كل منها تسيطر على؟؟؟ الجنوبي لجبل العلويين انظر (محمد محمود الحويرى: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام 0، ص 183).

(335) محمود محمد الحويرى: المرجع السابق، ص 183.

(336) ر.س. سميل: فن الحرب، ص 302 - 303.

(337) لمزيد من المعرفة عن هذا الرأي انظر (ر.س. سميل: فن الحرب، ص 303).

(338) انظر التمهيد.

(339) ر. س. سميل: فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، ص 302.

(340) نفس المرجع السابق، ص 303.

(341) فقد تم الدخول عن طريق الأردن بالعبور مباشرة جنوبي بحيرة طبرية عند جسر الصنطرة، والذي استخدمه خلال الحملات الرئيسية التي قام بها مودود وطفتكين عام 1113م/ 507هـ وصلح الدين

في أعوام 1182م/578هـ / 1183م/579هـ / 1187م/583هـ ويكن محليًا في الواقع (ر.س. ساميل:
فن الحرب والقتال، ص 303).

(342) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسين حشي، ط. القاهرة 1968، ص 28، ابن الأثير
الكامل، 9، ص 148.

(343) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 263 - 264.

(344) على الرغم من أنهم كانوا في البداية يعتمدون على المرشدين البيزنطيين للتعرف على طوبوغرافية وجغرافية
المملكة.

(345) يوشع براور: عالم الصليبيين، ث قاسم عدد قاسم ص 656 - 66.

(346) Deschamps (P): la Defense Du Rayaume De Jerusalem. P 8 - 9.

(347) ابن القلانسي: ديل تاريخ دمشق، ص 294 - 298، ريدة الحلب من تاريخ حلب، حققه سامي الدهان،
2، ط دمشق 1951. ص 163، اليافعي: مرأة الجنان وعبرة اليقظان، 3، ص 193، فوشيه
الشارتري، ص 247 - 249.

(348) Prawer (J) The Latin kingdom of Jerusalem, London 1972, P 285.

(349) Fedden (R) Crusader Castles. P 24.

(350) Deschamps (P) la Defense du royaume de Jerusalem K P. 122.

(351) وليم الصوري: المصدر السابق، 3، ص 131.

(352) نفس المصدر السابق، 3، ص 132.

(353) نفس المصدر السابق، 3، ص 209.

(354) وليم الصوري: المصدر السابق، 3، ص 203.

(355) نفس المصدر السابق والصفحة.

(356) محمد مؤنس أحمد عوض: وليم الصوري مؤرخا للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية، ص 17.

(357) وليم الصوري: المصدر السابق، 3، ص 210.

(358) المصدر السابق، 3، ص 211.

(359) وليم الصوري: المصدر السابق، 3، ص 328 - 329.

(360) فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 181 - 184، سعد محمد المومي: القلاع الإسلامية. ص 245.

(361) يوشع براور: عالم الصليبيين، ث. د/ قاسم عبده قاسم ومحمد حنيفة، ط القاهرة 1981م، ص 199 -

.Benvenisti: The Crusaders in the holy land P. 286 ; 200.

(362).

1

(4)

جامعة باريس

النشأة والتطور والنظم الجامعية

1200 — 1250م

ياسر عبد المعبود

جامعة باريس

«النشأة والتطور والنظم الجامعية»

(1200 — 1250)

أولاً: تكوين المؤسسة الجامعية

في ربيع عام 1200م، كان خادم أحد الطلاب قد تعرض للضرب من قبل صاحب حانة، وقد وقع هذا الحادث في منتزه الرهبان الذي يقع خارج المدينة وعلى مقربة من دير سان جيرمان دي برية، إلا أنه على ما يبدو أن هذا الضرب فقد حدث في أعقاب مشاجرة بين بعض الطلاب الذين كانوا في حالة سكر. هذا ولم يمكن تحديد المسؤولية في هذا الصدد، إلا أن الطلاب الباريسيين قد تجمعوا وانحازوا إلى زميلهم الذي كان قد ضرب خادمة واعتدوا بدورهم على صاحبة الحانة. وكان من الممكن أن تمر هذه الحادثة بسهولة ودون تعقيدات لولا تدخل محافظ باريس وكذلك الأهالي بأسلحتهم، حيث قاموا باقتحام منزل هؤلاء الطلاب المذنبين في نظرهم عقاباً لهم على ضربهم لصاحب الحانة، وقد أدى تصعيد الموقف على ذها النحو إلى معركة حقيقية أصفرت عن مقتل خمسة طلاب⁽¹⁾.

إن العقوبة التي أنزلها محافظ باريس بالاتفاق مع أهل المدينة على الطلاب، كانت بمثابة إجراء غير مألوف مع مثل هذا الأحداث التي يعد الطلبة مذنبين فيها، فقد كانت هذه العقوبة تتجاوز الحدود، والحاصل أن محافظ باريس كان هو الممثل الرسمي للسلطة الملكية في العاصمة، وكان دوره في إنزال العقاب الذي قضى به على هذا النحو ضد الطلاب، قد أعطى للقضية بعداً سياسياً، وذلك حيث أشتكى الأساتذة إلى الملك الفرنسي فيليب أغسطس (1180 - 1223)

والذي يادر على الفور بالتعاطف مع الجامعة، وقد اتخذ هذا الأخير منذ البداية عقوبات ضد المحافظ وشركائه، إل أنه لم يكتف بمجرد إجراءات بوليسية لحل المشكلة، بل إنه لكي يتحاشي نتائج الاضطرابات التي كانت قد وقعت، فقد أعفى الجامعة الباريسية من المشول أمام العدالة الملكية التي كان يارسها محافظ باريس باسمه في العاصمة.⁽²⁾ وهذا الإعفاء كان موضع امتياز رسمي حيث حدد فيه البعد القضائي، والذي جعل الطلاب من الآن فصاعدًا وكذلك الأساتذة، يعتمدون على قضاء أسقف باريس فحسب خاصة في القضايا الجنائية. كذلك وفي حالة الإمساك بأحد أعضاء الهيئة الجامعية - سواء مدرسًا أو طالبًا - وذلك من قبل محافظ باريس وهو في حالة تلبس بالجريمة، فإنه يحال إلى القضاء الأسقفي الذي يقضى في أمره. وعلى آية حال، فإن هذا القضاء الأخير كان الوحيد المختص بالحلم في الجرائم والسرققات والجنح المختلفة التي كان المدرسون والطلاب هم عادة مدبروها أو ضحاياها⁽³⁾.

بهذا الشكل فإن السلطة الملكية تعترف بوجود الهيئة الجامعية وذلك بمنحها وضعًا قضائيًا متميزًا، وكان هذا الوضع يعد بالفعل كسبًا جديدًا في هذا الوقت حيث أنه سيجنب الهيئة الجامعية من الخضوع لتعسف السلطات القضائية العلمانية التي لم تكن تملك آنشد نفوذ وسلطة القضاء الكنسي. فمن وجهة النظر القانونية، كان هؤلاء الجامعيون يشبهون رجال الدين، لذلك فلا عجب أن يمنحوا حقوق لا تقبل المنازعة في هذا الصدد طالما أن الكنيسة في العصر الوسيط كانت تخطي بسلطة روحية تضعها بالفعل فوق السلطة الزمنية⁽⁴⁾.

بالرغم من ذلك، إذا كانت مزينة فيليب أغسطس تعطي الهيئة الجامعية وضعًا مميزًا في نظر مستشار نوتردام، فإنها لم تسو الخلاف القائم بين المعلمين والطلاب الباريسيين من ناحية، وهذا المستشار من ناحية أخرى وذلك فيما يتعلق بمنح درجة الليسانس. فبدخولهم تحت وصاية القضاء الكنسي، فإن ذلك قوى أيضًا سلطات الإدارة الكنسية على هيئتهم. فمن جانبه كان مستشار باريس "جان دو كلنديلي" "Jean de Candelis" الذي كان يارس وظائفه في بداية القرن الثالث عشر، قد ازدادت غطرسته وكان يطلب دومًا من المرشحين لنيل الليسانس أن يؤدوا

اليمن له أو أن يعطوه المال كي يحصلوا على ترخيص بالتدريس. كذلك لكون سلطته تحمل محل السلطة الملكية في الحكم جنائياً على المعلمين والطلاب، فقد كان يتصرف بشكل تعسفي في هذا المجال، وذلك بسجن أولئك الذين يفترض أنه مذنبون بدون أدلة كافية. لقد ظل وضع السلك الجامعي مزعزعاً كما كان الحال قبل إمتياز فيليب أغسطس. وبسبب كثرة الإعفاءات التي كان يعطيها لها هذا الامتياز في تسوية قضاياها خارج حدود المملكة، فمن ثم اتجهت هيئة المعلمين والطلاب إلى رفع الشكوى ضد هذا المستتار إلى البابا نفسه في روما⁽⁵⁾.

في بداية القرن الثالث عشر، كان يشغل الكرسي الرسولي البابا انوسنت الثالث (1198 - 1216) الذي كان قد درس فترة سبابه في باريس، والذي كانت سلطته تمتد على مجموع العالم المسيحي. ولما كان هذا الزعيم الديني حريصاً على حل الصراع القائم بين الهيئة الجامعية والمستشار الكنسي، لذا فقد كلف كلاً من أسقف تروى "Troyes"، ورئيس الشمامسة، ورئيس مجلس الكهنة القانونيين بإصدار الحكم والرأي بهذا الخصوص، وقد كان القرار الذي اتخذته هؤلاء الأخيرون عام 1213 لحل هذا النزاع مهماً⁽⁶⁾، فهو يمنع رسمياً المستشار من مطالبة المرشحين لليسانس بأعطيات مالية⁽⁷⁾. ولكي يصدق واقعياً على تطبيق هذا الإجراء، فهو يجد بشكل هائل من سلطات المستشار في هذا الشأن حيث أنه منذ الآن فصاعداً سوف يمنح هذا الأخير بلا تحفظ إجازة التدريس لكل حاصل على بكالوريا قد قضى معظم المدرسين المختصين بفرع ما من الفروع بأنه أهل لذلك. وفي الحقيقة أن هذا التحكيم يسجل نهاية الاحتكار الذي كانت تحظى به السلطات الكنسية في منح الليسانس. كذلك فإنه في كل المواد التي تدرس على ضفاف السين (قانون - لاهوت - آداب - طب) فإن إجازة التدريس سوف يتم منحها تلقائياً في المستقبل للطلاب الذين سوف يتقدمون لمستشار نوتردام من قبل المدرسين المسئولين عن كل فرع من هذه المواد، كما أن الإجراء الذي أكملته قرارات المرسوم ضد السجن التعسفي كان لا يبد وأن تكون له آثار لا حصر لها على هيكل الهيئة الجامعية ونظام الدرجات وتنظيم الدراسات⁽⁸⁾.

لقد تدخل أسقف تروى بمبادرة من البابا انوسنت الثالث إلى المعلمين والطلاب في باريس فيما يتعلق بإجراء منح درجة الليسانس، وهو يعترف ضمناً باسم الكرسي البابوي بوجود الهيئة الجامعية واختصاصاتها الحقيقية. هذه حقيقة لا جدال فيها، فالمؤكد أن هذه المؤسسة سوف يعترف بها بطريقة رسمية وبشكل آخر البابا الروماني في خلال أوائل القرن الثالث عشر، ولكنه من الملاحظ أن حكم أسقف تروى لا يشكل مرحلة أقل حسماً في هذا الاتجاه، ففي الواقع أنه إذا كان ينقل إلى الهيئة الجامعية اختصاصات كانت تمارسها السلطة الكنسية حتى ذلك الوقت، فإنه يجبرها على اتخاذ هيكل ثابت وقادر على الرد والتعامل مع المهام الجديدة التي آلت إليها والتي كان المعلمون والطلاب الباريسيون يطالبون بها من جانبهم⁽⁹⁾.

إن قرار أسقف تروى وهو يحدد أن الليسانس سوف يتم منحه من الآن فصاعداً تحت إشراف معلمين متخصصين بالمادة، فإنه يدعو بالفعل الهيئة الجامعية أن تقيم لديها لجأناً متخصصة للتشاور في قبول المرشحين لهذه الدرجة. وهو بذلك يضع حداً للفردانية والعزلة التي اتسمت بها حتى ذلك الوقت أنشطة المعلمين والطلبة. ولنيل درجة الليسانس، فإن هؤلاء الطلاب سوف يخضعون إجبارياً لإشراف مجموع المعلمين في تخصصهم وليس لمجرد تقدير المدرسي وحده الذي وجه دراساتهم، والذي كان يستطيع بسهولة أكبر التأثير بوسائله الخاصة على قرار المستشار الكنسي⁽¹⁰⁾. هذا وسوف تأخذ اللجان المتخصصة التي يتطلبها هذا الإشراف اسم كليات الذي كان يحدد بدقة في ذلك الوقت الاختصاصات العملية لكل منها، ووجود هذا الكليات مشهود به لأول مرة في خطاب من البابا هونوريوس الثالث (؟؟؟؟ - 1277) عام 1219، ومع كل فإنه في هذا التاريخ صارت البابوية تعترف صراحة ببيئة المعلمين والطلاب الباريسيين⁽¹¹⁾.

في الحقيقة أن هذا الاعتراف الذي كان لابد وأن يتبع تحكيم أسقف تروى، هو أيضاً النتيجة المترتبة على التوترات المستمرة بين السلك الجامعي، والسلطة الكنسية. وكما سبق القول أن المعلمين الباريسيين كانوا قد أعربوا في وقت مبكر عن رغبتهم في التحرر من الكنيسة من وجهة النظر؟؟؟. فهذا الاتجاه الذي ظهر مع أبييلار في العقود الأولى من القرن الثاني عشر، كان لا يزال

واضح في بداية القرن التالي، فهو يوسم تطور الفكر الفلسفي الذي صحب الانطلاقة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الهائلة للغرب في ذلك الوقت. كما أنه في ظل الحروب الصليبية، والاتصالات المتنوعة مع الحضارات الإسلامية والبيزنطية، فإن أعمال أرسطو التي ظلت طويلاً مجهولة في الغرب، قد ترجمت إلى اللاتينية عن الأصل اليوناني أو عن النصوص العربية، ودخلت إلى الأوساط الفكرية المشغولة دائماً بإيجاد تفسير عقلائي للعالم وأصوله وذلك في مجتمع كان في خضم التغيير. كذلك فإن توسع المدن عمل أيضاً على إظهار طبقة برجوازية مكنت لأبنائها من مواصلة الدرس، وهؤلاء كانوا يقبلون بحماس عقلانية أرسطو، بينما كانت الكنيسة المهتدة في هيمنتها الاجتماعية والروحية مضطرة لأن تثور على هذا الوضع⁽¹²⁾. وفي عام 1210، أدان المجمع الديني باريس برئاسة "بيير دو كوربي" "Pierre de Corbeil" رسمياً إدخال الأرسطية في تعليم العاصمة، وكان لأهمية هذا الاستنكار أن يسترعي انتباه الكرسي الرسولي، حيث كان البابا مشغولاً بالحفاظ على العقيدة الصحيحة للهيئة الجامعية التي كان يدافع عنها ضد تعسف كلاً من مستشار وأسقف نوتردام، فقد كان عليه بالضرورة أن يتدخل لمساندة المبادرة الاسقفية التي كانت تشهد على آية حال بتقديم العقلانية على ضفاف السير⁽¹³⁾.

لذلك نجد أنه في أغسطس من عام 1215، كلف الباب انوسنت الثالث سفيره وقاصده الكاردينال "روبير دو كورسون" "Robert de Courson" الذي كان أيضاً معلماً سابقاً بالمدارس الباريسية، للحد من تأثير الأرسطية في باريس، وذلك بوضع طريقة واضحة النهاج ونظام الدراسات الجامعية في الآداب واللاهوت. وهذه الأحكام التي صدرت من قبل هذا الممثل البابوي تستحق الإشارة إليها، فإنها إذ تؤكد في صراحة تحكيم أسقف تروى سابقاً، فإنها تشير إلى قواعد تشغيل وتنظيم المؤسسة الجامعية⁽¹⁴⁾.

طبقاً للائحة روبر دو كورسون (1215)، فإن طلاب الآداب لن يتمكنوا من الحصول على الليسانس قبل سن الواحدة والعشرين عاماً، وسوف يكون منح هذه الدرجة خاضعاً لامتحان إجباري لإثبات الصلاحية طبقاً لقرار أسقف تروى، كما أنه يتعين على المرشح أن يكون قد

جرس على الأقل لمدة ستة أعوام. أما بالنسبة للنحو اللاتيني، فإنه يتعين على التعليم الجامعي أن يتماشى مع مؤلفات برسكيان ودونات وهم نم الأدباء اللاتيني القدامي، وفي هذا الجانب نجد أن كورسون لا يجدد في الطرق التربوية خلال تلك الفترة فيما يتعلق بعلم النحو، وذلك في وقت كان الكتاب فيه نادرًا، والتقدم التقني لا وجود له بالفعل، وركائز الكتابة ونسخ النصوص كانت تتكلف الكثير، وهذا يكفي لتبرير تحفظ كورسون فيما يتعلق بتدريس النحو⁽¹⁵⁾.

على النقيض من ذلك، فإنه فيما يتعلق بتدريس العلوم الأخرى التي تتضمن الفلسفة، فإن هذا الامتياز يكشف عن تجديدات تربوية تثير حسب الظاهر قلق الكرسي الرسولي، وهي سبب التدخل البابوي. فقد أبدى كورسون تحفظات من ناحية المبدأ على تعليم الاستدلال لأرسطو، وإذا كان لا يمنع كليًا هذا الاستدلال، إلا أنه لا يكسبه طابعًا رئيسيًا. أما فيما يتعلق بالميتافيزيقا وفلسفة أرسطو الطبيعية، فإنه يستبعدهما تمامًا من البرامج الجامعية، كما أنه يدرج صراحة في هذا المنع أعمال بعض المؤلفين المعاصرين المتمسكين بالآراء الأرسطية، والذين شجهم المجمع الديني عام 1210، وهذا يوضح الترابط بين هذا المجمع وما أقره كورسون⁽¹⁶⁾. ويوضح ذلك أن فلسفة أرسطو كانت قد دخلت بالفعل إلى كلية الآداب بياريس في بداية القرن الثالث عشر، ولكن من الملاحظ أن العقلانية الأرسطية لم تكن قد فرضت نفسها على العلوم اللاهوتية. ولهذا فإن أحكام كورسون المتعلقة بهذه العلوم لم تشر إليها وتكتفي بتحديد مدة الدراسة والسن الأدنى لمرشحي ليسانس اللاهوت⁽¹⁷⁾. وللحصول على هذه الدرجة، فإنه صار يتعين على المرشح أن يكون قد بلغ سنة الخامسة والثلاثين، بينما التثقيف اللاهوتي المسبق يجب أن يستمر على الأقل مدة خمس أعوام في البداية. والمعروف أن هذه الأحكام الصارمة لن تحترم دومًا من الناحية التطبيقية، ولكن على الرغم من التغييرات المختلفة، فإنها ستظل نظريًا سارية طيلة أعوام مقبلة، كما أنها سوف تعمل على إعطاء أهمية خاصة لليسانس في اللاهوت⁽¹⁸⁾. هذا الليسانس في اللاهوت الذي يتم الحصول عليه متأخرًا بعد دراسة طويلة، كان يمنح رسميًا في نوتردام إلى المرشحين الذين كانت الكلية المختصة تقدمهم إلى مستشار نوتردام طبقًا لشروط تحكيم أسقف تروي. وقد كان اللاهوت في العصر الوسيط يأتي على قمة تسلسل المعرفة التي كان يفسر بها

الافتراضات والاكتشافات من منظور الدين المسيحي، وكان من الطبيعي أن يحاط المدرسون الذين يدعون لتدريسه بهيبة كبيرة وذلك منذ لحظة دخولهم هذا المجال⁽¹⁹⁾.

طبقاً للائحة كورسون، فإنه يبدو أن إجازة التدريس في العلوم المختلفة كانت تكتمل في ذلك العصر باحتفال خاص يسجل المعلم الجديد في الوظائف الجامعية، وقد كان هذا الحفل الذي يتضمن درساً تديسينياً، هو النتيجة المباشرة للاستقلال الذي تم الاعتراف به لهيئة المعلمين والطلاب الباريسيين لمنح الليسانس. وينصب الاهتمام بوجه خاص على نظام الدرجات الجامعية الذي أخذ يتشكل تدريجياً خلال القرن الثالث عشر. وكان من الواضح أن الأحكام التي أقرها كورسون باسم البابا انوسنت الثالث تحمل مبدئياً جميع تطورات المؤسسة الجامعية. فبعد تحكيم أسقف تروى، فهي تشهد بالفعل اعترافاً واقعيًا بهذه المؤسسة من قبل الكرسي البابوي، وهي تشكل إلى حد ما ميثاق تأسيس جامعة باريس الذي يعطيها أول تنظيم داخلي⁽²⁰⁾.

وبالرغم من أن الامتيازات المتلاحقة للهيئة الجامعية كانت ذات طابع منتظم وكانت تلبى متطلبات ظرف حالي تابع لحدث ما، إلا أن لائحة كورسون المستلهمة مباشرة من الكرسي البابوي تعد ذات طبيعة أخرى في إخلاصها لروح أنوسنت الثالث المحافظة التي ترمي لأن تكون مطاعة في هذا الميدان كما هو الحال في غيره، فهي تحدد بطريقة أمرة أدني القواعد التي ينبغي أتباعها من الآن بالنسبة للتعليم وهيكل الدراسات في العاصمة الفرنسية، ويدافع الحرص التنظيمي بوجه خاص، فإنه يحدد أيضاً أخلاق ولباس مدرسي وطلاب الآداب⁽²¹⁾.

كذلك فإن الولايم التي كانت تلعب دوراً هاماً في الحياة الجامعية، قد منعتها هذه اللائحة خاصة في الاجتماعات ولا سيما خلال الاختبارات التي يخضع لها الطلاب. ويعد هذا المنع ذا أهمية كبيرة نظراً لأنه سوف يتبعه نواهي أخرى في هذا الصدد. ويظهر من ذلك أن أعضاء الجامعة منذ وقت مبكر قد عكفوا على ولايم الطعام الفاخر وأفرطوا فيه، إلا أن خيلاء الجامعيين كانت لا تقتصر على الولايم فحسب، وإنما تعدتها للثياب أيضاً حيث يحدد النص بدقة لباس المعلمين المزاويلن للمهنة. هؤلاء الأخيرين كان يتعين عليهم ارتداء معطف أسود مستدير يتدلى

حتى كعابهم، وكذلك أحذية بسيطة، وتهدف هذه التوصية المزدوجة بالضرورة للحفاظ على حشمة ووقار مهنتهم، وتبدو هذه الأوامر بمثابة تدخل مباشر للبابوية في حياة الهيئة الجامعية⁽²²⁾.

إن لائحة كورسون تضع بلا شك هيئة معلمى وطلاب باريس تحت وصاية الكرسي البابوي، وهذا الواقع سوف تكون له آثارا بعيدة في المستقبل القريب. فلكي تفلت الجامعة من تعسف المستشار، فقد لجأت إلى البابا، والحكم الذي نطق به أسقف تروى باسم البابا، قد أعطاها الحق على الصعيد القضائي، وبالرغم من ذلك فإن السلطة الكنسية العليا قد استحوذت على الأمور وهي تملى الآن إرادتها على الجامعة الباريسية.

وعلى الرغم من التحديدات التي تفرضها على المعلمين والطلاب، فإن لائحة كورسون تمنح جامعة باريس سلطة لا تباري تريد من قوتها، حيث أنها باعتراف الكرسي البابوي، تعد من أولى المؤسسات التعليمية وأكبرها بالعالم المسيحي الأوربي، وإشاعها غير العادي بدءاً من القرن الثالث عشر مبعثه بالضرورة عقد التأسيس والتنظيم هذا، ولكن التطور التاريخي للجامعة وهذا الوضع المميز لم يكن ليمنح لها قط، لو لم تكن هذه الهيئة قد أثبتت بها لا يدع مجالاً للشك، أهميتها مبكراً في العالم الأوربي من خلال روحها الباقية وراثتها التعليمي⁽²³⁾.

لقد كان التعليم الذي يقدم في العاصمة الفرنسية بطباعه المجدد، هو الذي جذب إلى جزيرة المدينة وإلى الضفة اليسرى للسین صفوة المفكرين الفرنسيين والأجانب، كما أنه جذب البابا أيضاً بالتدخل، إلا أن هذا التدخل كان مفيداً، فبالرغم من أن لائحة كورسون قد أعاققت مؤقتاً الأرسطية العلمية، إلا أنها لعبت دوراً كبيراً في تنظيم الدراسات.

وقد ركزت على الفنون الحرة واللاهوت، بينما لم يخضع الطب والقانون في البداية لهذا الإجراء المماثل⁽²⁴⁾. وفي الواقع كان هذان العلمان يدرسان في العاصمة الفرنسية منذ أوائل القرن الثالث عشر، بيد أنه على الرغم من ذلك، كان هذا النوع من التعليم لا يحقق في ذلك الوقت؟؟؟ التي نالها في وقت لاحق. فبالقدر الذي كان فيه الطب والقانون يتأثران من حيث الممارسة

المهنية، كان التدريس قائماً في الأساس على الممارسة التربوية والفكرية، ولم يكن تنظيم الطب والقانون يطرح نفس المشكلات التي كان يطرحها تعليم الآداب واللاهوت⁽²⁵⁾.

كذلك فإن علم الطب كان قد تطور بوجه خاص في بداية هذا العصور بعض المراكز الأخرى مثل "مونبلييه" التي أدركها بشكل مباشر نفوذ المدارس الطبية العربية والبيزنطية التي كانت متقدمة في هذا المجال، ولم تكن باريس قد اجتذبت بعد في بداية القرن الثالث عشر طلابها كما سيكون شأنها في وقت لاحق في هذا العلم.

أما بالنسبة للممارسة القانونية، فعلى الرغم من كونها مختلفة من ناحية المنشأ والمقصد، إلا أنها لم ترق لدرجة الطب، وذلك حيث كان تعليمها أكثر تقدماً في الأقاليم الجنوبية وفي إيطاليا بالذات التي حافظت على استخدام القانون الروماني، أو على الأقل على القانون المكتوف المنبثق عن هذا القانون، ولهذا السبب فإنه لا يمكن أن يكون له في باريس حتى ذلك الوقت من الأهمية التي كان قد أعطاها له منذ وقت مبكر معلمو بولونا⁽²⁶⁾.

هذا ومن الملاحظ أن باريس صارت تخصص في وقت لاحق في تعليم القانون الكنسي، والذي كان له قسم خاص في مدرسة الكتدرائية منذ وقت مبكر، كما أن الظروف كانت مواتية للاهتمام بهذا العلم حيث أ، الكلية التي أنشئت مع الثلاث الأخريات عام 1213 بعد تحكيم أسقف تروى كانت تسمى كلية القانون الكنسي، وذلك لأنها تدرس فحسب القانون الكنسي القائم على مرسوم جراتيان⁽²⁷⁾، والتي كانت قوانينه قد وضعت في منتصف القرن الثاني عشر، وقد احتوت عرضاً شاملاً لقرارات البابوات والمجامع الدينية، كما أنها كانت بالنسبة لتعليم القانون الكنسي تماثل كتاب الأحكام لبطرس اللمباردي بالنسبة لتعليم اللاهوت. ومنذ مد وصياتهم على جامعة باريس، فإن البابوات قد منعوا لفترات طويلة أي تطور لكلية القانون، وهذه حقبة جوهرية، فهي النتيجة المترتبة على الاعتراف بهذه الجامعة من جانب البابا، حيث أن البابوات قد خشوا أن يشجع القانون الروماني القرض بالفائدة، وهو الأمر الذي استهجنه الكنسية بشدة، وذلك حتى لا يكون بمثابة تبرير لأنصار السلطة الإمبراطورية ضد الكرسي

البابوي، لذلك فقد منعوا على الجامعة الباريسية تدريس هذا القانون⁽²⁸⁾.

إن الاعتراف بجامعة باريس من جانب البابا يؤكد إشعاع هذه المؤسسة التي أصبحت منذ ذلك الوقت تستفيد من كفالة الكرسي الرسولي لها، فهذه الجامعة التي حبتها الوصاية البابوية والتي تستجيب للبابا دائماً، بادرت بإستقبال جماعات " رهبان الصدقة" في مركزها الدراسي، ولا سيما كلا من الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان اللذان كانا يريدان هداية الناس عن طريق الوعظ والإرشاد وممارسة فضائل الإنجيل. ومع بقاء هذه الجماعات في الحياة الدنيا، فإنها كانت ملتزمة بنذور الدير، وكان يتعين على أعضائها منذ البداية أن يجمعوا الصدقات لضمان بقائهم، ولهذا السبب فهم يحملون الأسم الذي سوف يظل ملازماً لهم عبر التاريخ، بيد أن الدراسة كانت لا غني عنها لهم وذلك طبقاً لما حدده لهم مؤسسوهم⁽²⁹⁾.

هذا وقد استجاب الرهبان لدعوة الجامعة لهم حيث أقاموا على الضفة اليسرى للسين في حى الطلاب الخاص بكلية الآداب الذي يتعد عن دير نوتردام، حيث يتعين عليهم تعليم طلاب اللاهوت. وقد أثرت جماعات الرهبان الإقامة بعيداً عن مقر مستشار نوتردام نظراً لشدة وتعسف هذا المستشار، ولأنهم كانوا يتبعون البابا مباشرة⁽³⁰⁾. ومن جانبهم فقد استقر الدومنيكان أو الرهبان الوعاظ عام (1218) على منحدرات جبل سانت جينيفيف بشارع سان جاك، الذي اشتق منه أسم "اليعاقبة"، بينما الفرنسيسكان أو الرهبان الصغار فقد وصلوا عام (1219) إلى باريس، وبد أن شغلوا بعض أماكن الإقامة المؤقتة على الضفة اليسرى، استقروا

بصفة نهائية عام 1230 على أرض سان جيرمان دي بريّة بدير الرهبان الفرنسيسكان "كورديلييه" أو ذوى النطاق الذي أصبح ملازماً لهم أيضاً، وذلك لارتدائهم حزاماً على وسطهم دليلاً على الفقر والذلة⁽³¹⁾. وعلى غرار اليعاقبة، فسوف يلعب الفرنسيسكان دوراً هاماً في المجتمع الجامعي وفي إنطلاقة المواد العملية واللاهوتية في القرن الثالث عشر، ومرجع هذا الدور هو الثقافة العالمية والروح المجددة اللتان كانتا تتسمان بهما جامعات الصدقة منذ البداية. ولكنه ليس من المشير للفضول رؤية هذه الجماعات الرهبانية المعفية من القضاء الأسقفي

والموضوعة تحت الرصاية المباشرة للبابا الذي أوصى بها جامعة باريس، سوف تكون أفضل عملاء العقلانية الفلسفية التي منعها السلطة البابوية. فالتناقض لا يبدو إلا ظاهرياً، حيث أن لائحة كورسون وهو يجد من تدريس الأرسطية على ضفاف السين، فإنه كان يشجع بطريقته إدخال الفلسفة والعقلانية الجديدة في الحياة الجامعية⁽³²⁾.

على أية حال، فإنه بالقدر الذي كانت تشجع فيه العمل كفريق في الحياة المشتركة، فإن جماعات الصدقة ولا سيما أديرتها الباريسية، صارت في القرن الثالث عشر مراكز للدراسات التي لا مثيل لها. ولضمان نجاح مهمتها في إثبات عقائد المسيحية، وكذلك لضمان تدريب عال لأعضائها وللإشتراك في الحياة الفكرية بجميع أشكالها بهذا المركز الدراسي الكبير، فإنها كانت تنظم بموقعها تعليمياً رفيع المستوى يغطي مجموع العلوم الدينية والدينية وكانوا يبارسون في ظل الحياة العامة بحوثاً جماعية تخلق منافسة حقيقة في الهيئة الجامعية، ومن المؤكد أن الدومنيكان والفرنسيسكان وهم يقدمون مجاناً خدماتهم العملية، كانوا يثيرون إلى حد ما عدااء معلمي الآداب الذين كانوا يتقاضون أجرًا عن دروسهم. بيد أن الجامعة التي كانت متأثرة بحياتهم التشفيفية والتي كانت تعتمد على عونهم دون السلطة الأسقفية، لم تكن في البداية تشعر بالخطر الذي يمكن أن تشكله هذه الجماعات بالفعل على مستقبلها⁽³³⁾.

وحتى يحين ذلك، فإن تعليم اليعاقبة وذوي النطاق كان ينافس في اللاهوت التعليم الذي يعطيه الإكليروس في كاتدرائية نوتردام، مما أشعل التنافس بين الإكليروس ومؤسسات جماعات الصدقة، بالإضافة لذلك فإن عددًا من الجامعيين العلمانيين وكذلك القساوسة قد دخلوا في سلك الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان كي يكرسوا حياتهم للدرس والتأمل في عصر تعتبر فيه المعرفة بالضرورة نتاج تفكير نقدي⁽³⁴⁾.

وبالطبع فإن الجامعيين الأشد ذكاءً، هم الذين نجحوا سواء من اليعاقبة أو الفرنسيسكان بعد أن تركوا حياتهم العلمانية، وأكثر الأمثلة على ذلك هو مثال الكسندر دي هالس، الذي كان قبل عام 1210 مدرسًا للآداب بالجامعة وقد درس ف البداية القانون الكنسي واللاهوت

بكتدرائية نوتردام، ثم رحل حوالي عام 1230 مع الرهبان الفرنسي سكان ليضع مؤلفاته اللاهوتية المتميزة والتي كانت بشير شهرة مؤكدة⁽³⁵⁾ وعلى الرغم من ذلك، فإن استقرار الوعاظ والرهبان على الضفة اليسرى يبلور الصراع بين السلك الجامعي، والمستشار الأسقفي على حساب هذا الأخير، فما أن أدرك المجلس الكهنوتي الكتدراي الصعوبات التي من الممكن أن يسببها رجال الدين هؤلاء فيما يتعلق بالتعليم اللاهوتي بدير نوتردام، والذين يعترضون دائماً على السلطة الأسقفية ويزاحمون على الضفة اليسرى بجانب رجال كلية الآداب في التعليم اللاهوتي، فقد عقد العزم على أن يفرض لجماعات الرهبان، ولا سيما للدومنيكان منهم حق إقامة الصلاة وتوزيع القرايين في كنائسهم، فالصراع من المؤكد لن يقتصر على العاصمة الفرنسية، بل إنه سوف ينفجر بصورة تامة في العالم المسيحي بأسره منذ وطأت أقدام هؤلاء الرهبان الفقراء بباريس، والتي سوف يظهر فيها الصراع بقوة، حيث أن هذه المدينة هي مقر الجامعة ذات النفوذ التي أفلتت مبكراً من الكنيسة المحلية، والتي تجعل جماعات الرهبان العمل فيها من وظيفتها الفكرية وعملها الأسقفي من منظور يتجاوز هذا الإطار الكنسي⁽³⁶⁾.

ومما يذكر أن هذه الجماعات الرهبانية بروحها المجددة على كل حال، كانت تتصرف كما لو أنها دخيلة، حيث أنها بهذا التصرف شجعت بطريقة حاسمة على تحرر الجامعة الباريسية من سلطة القضاء الأسقفي، وذلك بإنتمائها إلى الضفة اليسرى، فالصراع بين الهيئة الجامعية والسلطة السقفية له تداخلات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتوترات التي ظهرت في نفس الوقت بين مجلس كهنة نوتردام، ورجال الدين بجماعات الصدقة حيث أن هاتين الظاهرتين مرتبطتان، فهما تدعمان وصاية الكرسي البابوي على جامعة باريس، وقد كان على ما يبدو ومنذ البداية أن هذا هو الهدف الذي تسعى إليه البابوية عندما دعت هذه الجامعة لاستقبال الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان في باريس⁽³⁷⁾.

فضلاً عن ذلك، فإن أحداث عام 1219 تسمح بأن توضح الوضع بصورة أكثر، حيث أنه في حين اعترض المجلس الكهنوتي الكتدراي على الرهبان الدومنيكان، فإن الصراع بين الجامعة

والمستشار حينها كان قد بلغ حد القطيعة، وذلك في أعقاب إضراب وشكوى جديدة في روما ضد ابتزازات المستشار الأسقفى، فكانت هجرة معلمى وطلاب كلية الآداب على الضفة اليسرى للسین تأخذ طابعًا هائلًا. فالأولون والآخرون قد أخذوا يستقرون بصفة نهائية على أراضي سانت جينيفيف القريبة من النهر، وقد أخذوا يتصرفون فيها على أنها ملجأ يخصهم منذ بداية القرن الثالث عشر، وذلك حيث أنه عام 1202 تنازل لهم "ماتيوودو مونتورسى" وزوجته "ماتيلد دور جارلاند" عن بستان كروم وهو بستان "موفوازان" الذي يقع على مقربة من "سان جوليان لي بوفر" وكان هذا البستان يمتد على الأجزاء المنخفضة من جبل سانت جينيفيف. وقد استقر رجال كلية الآداب في مكان مناسب لهم ولأنشطتهم الدراسية، وبالتحديد في شارع فوار الذي سيشهد جوهر تعليمهم طيلة قرون مقبلة⁽³⁸⁾.

وفي شارع فوار كان الطلاب يستمعون إلى دروس معلميههم وهم جالسون على القش، وكما كان الحال زمن أيلارد حيث كان التعليم في ميدان موير، كان الدروس تعطى في الهواء الطلق لحين من الوقت في القرن الثالث عشر، ولكنه عما قليل سوف سيتأجر المعلمون غرفة كي يمارسوا فيها أنشطتهم التربوية. على أية حال، فإن الهجرة الجماعية لرجال كلية الآداب إلى الضفة اليسرى كانت تعني القطيعة مع مستشار نوتردام الذي كانت لديه وحده سلطة منح الليسانس إلى المرشحين الذين كانت تقدمهم إليه كلية الآداب، وكان لابد من الحل البديل في هذا الشأن، ولكنه سرعان ما عرض رئيس دير سانت جينيفيف دون عناء خدماته إلى الجامعيين الذين كانوا قد أعطاهم ملجأ على أراضيه⁽³⁹⁾.

لقد كان رئيس دير سانت جينيفيف مشغولًا دائمًا بالمحافظة على حقوقه من التعديلات الممكنة دوما من قبل القضاء الأسقفى، وزيادة في المحافظة على حقوقه من هذه التعديلات وكسب ود هذه القوة الناشئة، فقد حول لمستشاره سلطة منح الليسانس للمرشحين الذين تقدمهم إليه كلية الآداب، وهذا الأمر يعد من الأمور الحاسمة في تاريخ جامعة باريس في العصر الوسيط، حيث أنه اعتبارًا من الآن صارت توجد سلطتان متنافستان ومتقابلتان في منح ترخيص

التدريس للطلاب وهما، مستشار نوتردام من جانب، ومستشار دير سانت جينيفيف من الجانب الآخر⁽⁴⁰⁾.

ونظرا لموقعها الجغرافي المتبادل، فقد صار يقال أن الأول يمنح اليسانس من أسف بينما يمنح الثاني اليسانس من أعلى، ولكن ليس هناك بالضرورة حاجة للقول بأن طريقة التعبير هذه لم تنطو على أي تحقير في مكانه منح اليسانس الذي كان يمنحه مستشار نوتردام، بل على العكس من ذلك، فإن هذا الأخير بصفته ممثل السقف، فقد كان يحتفظ بحق التصدر على مناقشة، ومع ذلك فإنه إذا كان البابا هو نوريوس الثالث (1216 - 1227) يعترف بحقوق رئيس دير سانت جينيفيف في هذا المجال (1222م) فإنه من المؤكد أن هذه الحقوق سوف تكون عملاً مقصوراً على منح اليسانس في الآداب فقط، بينما منح الترخيص بالتدريس في الفروع الأخرى (الطب - القانون الكنسي - اللاهوت) فسوف تظل من اختصاص مستشار نوتردام وحده⁽⁴¹⁾. ولكنه قبل اعتراف البابا بحقوق رئيس دير سانت جينيفيف على حساب مستشار نوتردام، فإن البابا هو نوريوس الثالث قد اتخذ موقفاً لصالح الجباة وجماعات الصدقة اللذان كان يعارضان سلطة أسقف باريس والمستشار، ففي عام 1219 وفي خضم الأزمة كان البابا قد أكد كامل ومطلق استقلال هيئة المعلمين والطلبة وكلياتها، وفي نهاية هذا العام اتخذ موقفاً مؤيداً للدومنيكان ضد مجلس الكنة الكندرائي المعادي للوعاظ الدومنيكان.

بيد أنه في وقت قصير نسبياً تغير الوضع بشكل ملفت للنظر في ظل الأحداث الجارية والقوى المتصاعدة وأصبحت الصورة أكثر وضوحاً، فالجامعة بابتعادها مادياً ومعنوياً عن الهرم الكنسي المحلي، فإنها سرعان ما قبلت الوصاية البابوية - ولم تكن قد حانت بعد الساعة التي أسف فيها على هذه الوصاية الغازية⁽⁴²⁾، لقد كان مستشار نوتردام وأسقف باريس يسعيان جاهدين إلى تقويض الجامعة التي كانت تهدد سلطة كنيسة باريس ونفوذها على المعلمين والطلاب الذين كانوا يزدادون يوماً بعد يوم، وصدر بعد ذلك قانون يجرم التآمر، وقد حرمت الجامعة من حقوقها الكنسية بسبب إدعاء أنها لم تدعن إلى هذا القانون. ويبدو من لغة المراسيم

الكنسية أن هذه المؤامرات المشار إليها تمثلت في إصدار المعلمين لتشريعات داخلية تخصهم وتتعلق بالحكم الذاتي وبقسم اليمين وطاعة هذه التشريعات، بيد أن كنيسة باريس أعلنت أن هذه التشريعات لا يمكن صدورها إلا بعد موافقة أسقف باريس ورجال الكنيسة وتصديقهم عليها، ويوضح ذلك مدى خطورة الموقف الذي كانت تمر به الجامعة حينئذ⁽⁴³⁾.

على الرغم من ذلك، فإنه في عام 1219 كان المعلمون والطلاب وكذلك حلفاؤهم من جماعات الرهبان الفقراء مشغولين بخلع نير الطاعة للسلطة الأسقفية والكتدرائية، وتمركز هذا الصراع بشدة على الصعيد المحلي. وكان لابد للجماعة لكي تدير شئونها الخاصة المالية والداخلية والتعامل المباشر من الجهات الأخرى، فقد كانت بحاجة إلى استقلال حقيقي، وذلك على الرغم من التدخلات البابوية المتلاحقة على الجامعة، والتي كانت لا تزال في بداية مرحلة النمو في هذا التاريخ، حيث أن الأزمة سوف تشتد بعد بضع سنوات بصورة غير متوقعة⁽⁴⁴⁾. ومن المؤكد أنه في عام 1228 كان اختيار وليم داو فيرنى "Guillaume d'auvergne" وهو معلم لاهوت قديم بكتدرائية نوتردام ليشغل منصب أسقف باريس، كان يمكن أن يحمل معه تطوراً مشجعاً في تسوية هذه الخلافات القائمة، فالأسقف الجديد كان واضحاً للجميع، وتجسد مؤلفاته اللاهوتية مقدماً بداية ظهور لمؤلفات مفكري الدومنيكان والفرنسيسكان، بيد أنه بصفته لاهوتى حازم، فقد كان يشاطر زملائه من رجال الدين في الكتدرائية تحفظاتهم فيما يتعلق بجماعات رهبان الصدقة، وكذلك رجال كلية الآداب الذين كانوا يشاركونهم مصالحهم، وقد ساعدت سياسته تلك على تشجيع التوتر القائم بين الهيئة الجامعية والسلطة الكتدرائية والأسقفية⁽⁴⁵⁾.

هذا ويمكن القول إن وليم داو فيرنى الذي كانت صرامته الأخلاقية لا جدال فيها، كان مهتماً بالفعل بإصلاح أخلاق الجامعيين، ففي بداية تولية الأسقفية، عمل على أن يؤنب بشدة تلاميذ طائفة سان توماس دي لوثر الدينية الذين كان يتتهكون حرمة مساكن زملائهم، وكذلك الذين كانوا يسرفون في تناول الغذاء مما يضر بدراساتهم وقد كانت هذه الممارسات محل استنكار وتستحق التوبيخ، وكلما كان يزداد عدد الطلاب، كلما كانت الاضطرابات التي يحدثونها تؤدي

إلى آثار ونتائج خطيرة على الأمن والهدوء العام، ففي فبراير من عام 1229 كان لابد للحوادث الخطيرة التي اندلعت في ضاحية سان مارسيل بين الجامعيين وسكان باريس من أن تقاس آثارها وردود الأفعال التي أحدثتها من جانب السلطات المختلفة وذلك على الصعيد المحلي خصوصاً⁽⁴⁶⁾.

اندلعت هذه الحوادث الخطيرة في مناسبة أيام تناول اللحوم (الاثنين 26 والثلاثاء 27 فبراير 1229) وهي الأيام التي سبق عادة بداية الصوم الكبير. وللتنبه إلى ذلك، فإن هذه الأيام كانت محل احتفالات مختلفة وكانت التجاوزات فيها أمرًا شائعًا حيث كان الطلاب في إجازة وقد انتشروا في مختلف الضواحي وذلك للتريص واللعب. وفي 26 فبراير عام 1229 ذهب بعض الطلاب إلى ضاحية سان مارسيل للاشتراك في احتفالات هذه الأيام وكذلك تناول الأطعمة والأشربة المعتادة في تلك الفترة من العام⁽⁴⁷⁾. وقد أقام الطلاب الذين لعب براء وسهم الشراب على ضرب أحد أصحاب الحانات، إلا أنه حدث في عام 1229 ما كان قد حدث في عام 1200، حيث هب السكان لنجدة هذا الأخير حتى جعلوا الطلاب يلوذون الفرار.

وقد استعان هؤلاء الطلاب بزملائهم من الهيئة الجامعية حيث عادوا في اليوم التالي الموافق 27 فبراير بأعداد أكبر من ذي قبل وهاجموا منزل صاحب الحانة وكسروا كل آنية النبيذ ونثروه على الأرض. وبعد أن أنهى الطلاب من مهمتهم طافوا في الضاحية وهم يضرّبون بغير تمييز كلاً من الرجال والنساء الذين كانوا يقابلونهم في الطريق. ولما علم رئيس دير سان مارسيل بهذه الإهانة التي لحقت بالسكان من جانب الطلاب، رفع الشكوى إلى القاصد الرسولي للبابا إلى أسقف باريس، وقد قدم هذان الآخران الشكوى إلى (بلانش دي كاستيل) "بلانش القشتالية"، التي كانت تمارس الوصاية حينئذ على عرش المملكة لابنها لويس التاسع الذي كان لا يزال قاصرًا⁽⁴⁸⁾.

كان لابد من إنزال العقوبات ضد المذنبين في هذا الحادث، إلا أنا لوصية على العرش تصرفت بتهور وبلاروية، فقد أعطت الأوامر إلى الشرطة الملكية بأن تحمل على الفوز أسلحتها

وأن تخرج وتزعج جميع رجال الدين من مدرسين وطلاب عن تلتقي بهم في ضواحي العاصمة، وقد بدا القمع حينها ظالماً وأعمى وشرس، وبالفعل انتشرت الشرطة في الضواحي وهاجمت ظلياً رجال الدين الأبرياء الذين لم تكن لهم أدنى مسئولية في حوادث ضاحية سان مارسيل، وقتل البعض وأصيب البعض الآخر بجراح خطيرة كما أنهم جردوا من أموالهم وتركوا بعد ضربهم وهم يترفون⁽⁴⁹⁾.

هذا وقد أضطر عدد كبير من رجال الدين الذين كانت تطارهم الشرطة بلا تبصر إلى الاختباء في مزارع الكروم وفي كهوف ضواحي باريس الكثيرة. وقد ظهر من بين الضحايا مدرسان في الهيئة الجامعية. وعندما رأت الجامعة هذا القمع الأعمى الذي أصابها، اجتمعت بحضور الوصية على العرش، والقاصد الرسولي، وبعداً، قررت تعليق الدارسة والأنشطة الجامعية، طالبت بتعويضها عن هذا الظلم الذي لحق بها. ولكن بإتفاق مشترك وجهت الوصية على العرش والقاصد الرسولي وأسقف باريس رفضاً قاطعاً لهذا المطلب، وعلى إثر ذلك قرر المعلمون والطلاب حيثئذ مغادرة العاصمة الفرنسية للإقامة بمدن أخرى بالملكة أو بالخارج على حد قول أحد كتاب الحوليات الذي أورد هذه الأحداث، فإن المدينة التي كانت تتباهي كثيراً بجامعتها، قد أصبحت على حد قوله يتيمة⁽⁵⁰⁾.

لقد اتخذ رحيل المعلمين والطلاب الباريسيين بالفعل طابعاً عاماً، وكان لا بد وأن تكون له آثار هامة على تاريخ التعليم، حيث استقبلت جامعة تولوز التي كانت قد أنشئت قبل ذلك بفترة قصيرة، الكثير من الطلاب والأساتذة في هذه المناسبة وانتعشت عمليات الإقامة الجامعية في أنجرز وريمس وأورليانز، أما عن النتائج التي كان ينبغي لهذه الهجرة أن تخلفها في الخارج فيكفي مثال أكسفورد الذي له مغزاه. فمن المؤكد أن هذه المدينة كانت لها دراساتها منذ القرن الثاني عشر، إلا أنه بعد تعطيل الدراسة عام 1229، دعي ملك إنجلترا "هنري الثالث" (1216 - 1272) إلى مملكته الجامعيين الباريسيين، وكان لا بد لوصول هؤلاء الأخيرين على ضفاف نهر التايمز أن يعطى انطلاقة غير متوقعة للمؤسسة الأكسفوردية، والتي كانت تسمو بالتعليم العلمي على النظري حيثئذ⁽⁵¹⁾.

لقد استفاد هذا البلد الأوربي من الهجرة الباريسية إذن، وكان الخطأ السياسي للوصية على العرض يبدو واضحًا حيث أنه لا يتظر موقفًا آخر من ملكة ذات أصل أسباني تربت في روح الحرب الصليبية الخاصة بالبلاط الأسباني في ذلك الوقت، والتي كانت عندها الشفقة والصرامة الأخلاقية تلامسان التعصب أيضًا⁽⁵²⁾. ومع ذلك، فإن السلطات الكنسية لعبت أيضًا دورًا في هذا القمع، ولهذا السبب فإنه كان لابد لها من أن تثير القريحة الهجائية للجوليارد الذين انتهزوا الفرصة وأقحموا علنًا مسئولية القاصد الرسولي في الأحداث⁽⁵³⁾. ومع ذلك ونظرًا لإخلاص هذا السلك الجامعي لمنهجه الذي سلكه منذ عشرات الأعوام، فقد رجع إلى القاصد الرسولي والذي استنكر تصرف الوصية على العرش، كما أنحاز البابا جريجورى التاسع (1227 - 1241) علانية الهيئة الجامعية وقد كتب إلى وليم دوفيرني لاثمًا على المسلك القمعي تجاه معلمي وطلاب باريس، كما طلب إلى لويس التاسع الصغير أن يفعل كل ما يستطيع من أجل عودة هؤلاء الأخيرين⁽⁵⁴⁾.

كان لابد للتدخلات الأولية للبابوية أن تظل عديمة الأثر مقارنة بالبراءة البابوية التي منحها جريجورى التاسع لجامعة باريس والمعروفة باسم "مرسوم باريس" *Le bulle Parens Scientiarum* أو العهد الأعظم، كما أطلق عليه الأب دنيفيل في حوليته، وكان ذلك في 13 أبريل من عام 1213م، وذلك حتى يعود المعلمون والطلاب تدريجيًا إلى العاصمة الفرنسية⁽⁵⁵⁾.

إن هذا المرسوم الذي كان يكمل الامتيازات السابقة، كان يعطي بالفعل للجامعة ضمانات ضد ظلم وتعسف السلطة الملكية والكنسية كذلك. ولفهم مدى تأثير المرسوم البابوي، فإنه يتعين علينا استرجاع أحكامه الأساسية بإيجاز. فإنه إذا كان يشهد كما سنلمس لاحقًا بتطور إجراء منح الدرجات، فإن هذا القرار البابوي مجدد للاختصاصات التي يعترف بها للجامعة على الصعيد القضائي⁽⁵⁶⁾. فهذا الجامعة لها منذ الآن فمستقبلًا الحق في أن تحدد مواعيد وطرق المحاضرات، والإجازات الدراسية، والعادات التي تراها متوافقة معها بالنسبة للملبس والمسكن وحياة المعلمين والطلاب، كما وأنها تستطيع أيضًا النطق بإبعاد الأعضاء الراضين بالالتزامات

بهذا التنظيم، وعلاوة على ذلك فقد اعترف هذا المرسوم البابوي للجامعة بالتعليق المؤقت للمحاضرات وكذلك الحق في الإضراب⁽⁵⁷⁾.

على النقيض عن ذلك، فإن حمل السلاح كان محرماً على الأساتذة والطلاب، حيث أن الامتيازات التي تضمنتها البراءة كانت خاصة بأعضاء الجامعة، وذلك لمحو صفة الطلاب المزيفين الذين كانوا يطالبون دائماً بحمل السلاح من أجل إثارة الحوادث، وهذا يعني أن البابا الروماني الذي أخبره قاصده الرسولي على هذا النحو الوافي بما حدث، لم يكن يجهد سلوك بعض الطلاب وكذلك رجال الدين الذين أثاروا هذه الأزمة⁽⁵⁸⁾.

وعلى الرغم من ذلك، فإن البابا لكي يحتفظ بتحكيم التسلسل الكنسي، فقد ترك اختصاص القضاء في يد أسقف باريس الذي أصبح له الحق في الحكم بسجن الجامعيين المتمردين⁽⁵⁹⁾. على أية حال، فإن البراءة البابوية (مرسوم باريس) تشهد بالوضع الجديد الذي خلقه التدخل البابوي، فالكرسي الرسولي يعتبر من الآن جامعة باريس مؤسسة خاصة به. هذا وقد طلب البابا غداة إصدار القرار إلى الملك لويس التاسع أن يجدد امتيازات فيليب أغسطس لصالح الجامعة مرة أخرى، والذي كان يجهد البابا أن القديس لويس كان قد قام بهذه المهمة بالفعل منذ عام 1229، وذلك يؤكد وضع البابوية للجامعة تحت الوصاية الفورية⁽⁶⁰⁾.

وبعد مرور ثلاثة أعوام من هذا الحث، وجه جريجوري التاسع إلى جامعة باريس مجموعة مراسيمه التي وضعها وذلك لكي تدرس على ضفاف السين، ورغم أهمية هذا الإجراء، إلا أنه لم يتسرع انتباه المؤرخين⁽⁶¹⁾.

والمعروف أن مراسيم جريجوري التاسع لها أهمية بالغة في تاريخ القانون الكنسي، كما أن لها تأثيرها في سياسة ذلك العصر. فالبابا الروماني كان حريصاً على أن يؤكد للملاهيمنة البابوية على الإمبراطور فردريك الثاني الذي كان يمارس سياسة معادية للكرسي البابوي، فجمع في هذه المجموعة القانونية مراسيم من سبقوه إضافة إلى مراسيمه هو.

ويقيم البابا بهذا الأمر، فإنه كان يرمى إلى أن يفرض بطريقة أوسع على العالم المسيحي اللاتيني التشريع الكنسي، وذلك لكي يجد من تأثير القانون الروماني الذي كان يخدم الدعاية الإمبراطورية في إيطاليا، وقد كانت النية واضحة في هذا الشأن⁽⁶²⁾.

لقد كان المراد هو تأكيد هيمنة القانون الكنسي على العالم المسيحي، وكانت كل من باريس وبولونا مكلفتان بمهمة خاصة في هذا الشأن بسبب الطابع الدولي الذي كان معترفًا به لهما بتدخلات البابا المتلاحقة من أجلها. وفي باريس كان قرار الباب هونوريوس III من قبل يؤكد على منع تدريس القانون المدني في كلية القانون الكنسي، ومع ذلك وتعويضًا لها عن هذا المنع، كان لابد لجريجورى التاسع من أن يسمح عام 1235 بتدريسه في جامعة أورليان التي كانت قد أنشئت في أعقاب إضراب 1229م⁽⁶³⁾.

وفي الحقيقة أنه إذا كانت مبادرة جريجورى التاسع تحد من الدروس القانونية، فإنها كانت تؤكد الصفة العالمية لجامعة باريس. ففي الوقت الذي تفوقت فيه السلطة البابوية بشكل كبير على السلطة الإمبراطورية في العمل على لم شمل الغرب المسيحي، فإن المبادرة المتعلقة بتدريس المراسيم البابوية تأخذ أهمية فريدة، فهي تجعل من هيئة المعلمين والطلاب بباريس مؤسسة تعليم عليا ذات صفة عالمية (مدرسة عامة، كما كان يطلق عليها في ذلك الوقت)، وهي تمنحها حضورًا وسلطة عقائدية سوف تتبوأها دون شريك طيلة الفترة المقبلة⁽⁶⁴⁾.

إن البابوية لن تكف دومًا عن الاعتماد على الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان بباريس، والتي كانت تجعل منهم أدوات مميزة لسياستها في الكنيسة وباقي المؤسسات الاجتماعية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الظاهرة سرعان ما تطورت وأثارت التوترات الاجتماعية نظرًا لاستخدامها في سياسة قمعية، وهو ما عرض سلطة هؤلاء الوعاظ الدينيين من رهبان دومنيكان وفرنسيسكان لخطر مؤكد. فمع استمرار أثر البراءة البابوية (مرسوم باريس 1231) فإن نهاية مدة بابوية جريجورى التاسع تعد مرحلة حاسمة في هذا الشأن.

هذا وفي عام 1239م، وفي أعقاب التشهير بيهودي بدل دينه من لاروشيل يدعى "نيقولوا دونان" "Nicolas Donin" كان قد حدد للبابا أخطاء التلمود، فقد قام هذا الأخير بمخاطبة كل

من السلطات العلمانية والكنسية بأوريا الغربية ولا سيما أسقف باريس ورهبان الصدقة بالعاصمة، الذين كان لديهم مستشرقون مؤهلون في هذا المجال مطالبًا إياهم بمصادرة وإحراق نسخ هذا الكتاب الذي كان يستخدمه اليهود، وذلك بعد فحصها جيدًا، حيث أن هذا التلمود كان يقدم تأكيدات كاذبة⁽⁶⁵⁾.

وبالقدر الذي طالب فيه الكرسي الرسولي بمساعدة خاصة من الجامعيين الدومنيكان والفرنسيسكان الذين كانوا يدرسون في العاصمة، فإنه كان يخصص بشكل مباشر هيئة معلمي وطلاب باريس برمتهم، وهو ما يستحق الإشارة إليه لأنه يوضح بشكل كبير تطور العلاقات بين اليهود والمسيحيين من جانب، والجامعة الخاضعة للتدخل البابوي من خلال جماعات الرهبان الفقراء من الجانب الآخر⁽⁶⁶⁾.

أما قبل القرن الثالث عشر، فكانت المظاهرات المعادية لليهود متفرقة، وكان اليهود حتى ذلك الوقت يمارسون القرض بفائدة (الربا) في حياتهم وهو ما كان متداولًا فيما بينهم رغم تحريمه من وجهة النظر الدينية، وعلى النقيض من ذلك، فإن التحريبات الكنسية منعت طويلًا المسيحيين من أن يعكفوا على هذه الممارسة الرذولة عند آباء الكنيسة أيضًا، وكانت تعاليم هؤلاء الآباء قاطعة في هذا الشأن، وكان من الضروري إرجاع هذه الآراء في القرن الثالث عشر على يد علماء اللاهوت، ولا سيما جماعات الرهبان، الذين كان الفقر مثالهم حيث استنكروا بالضرورة القرض بالفائدة⁽⁶⁷⁾.

كان لابد للبابا أن يكون قاسيًا في قمعه الذي طالب به جماعات الرهبان، حيث أن الكتب المشبوهة كان يتم مصادرتها في أول يوم سبت من الصوم الكبير (3 مارس 1240)، وفي نفس الوقت الذي كان فيه اليهود مجتمعين في المعابد على أن يتم فتح التحقيق بشأنهم، وكانت الأوامر البابوية تطالب بنوع من السرعة في تنفيذ هذه المهمة، وكان يتعين على مستشار نوتردام بصفته مستشارًا للأسقف بالطبع، الذي كان في ذلك الوقت (أوددي شاتوروه).

أن يرأس تحقيقات جماعات الرهبان بالعاصمة التي كانت وحدها القادرة على القيام بالتحقيق الذي لابد منه في هذا الصدد⁽⁶⁸⁾. كذلك كان لابد للقسيس لويس الذي طلب إليه البابا

أيضاً أن يضع السلطة المدنية في خدمة هذا التفتيش، من أن يساعد في هذا العمل، وقد جرى إحراق الكتب اليهودية التي تم تجميعها في باريس على مرتين بناء على أوامر ملكية، غير أن تاريخ هاتين المحرقتين غير معروف في السجلات التاريخية الخاصة بتلك الفترة⁽⁶⁹⁾.

لقد أثارت عملية القرض بالفائدة التي مارسها اليهود الكثير من الاحتجاجات لدى الرأي العام لدى الطبقة الكنسية التي كانت تستخدم هذه العملية وقد ضرورة أيضاً. على أية حال، فإن تنفيذ أوامر الباب في هذه العملية لم يأخذ الشكل الكامل قبل عام 1242م، ولذلك فإنه عند تقلد البابا انوسنت الرابع (1243-1254) العرش البابوي، جدد أوامر سابقة مطالباً القديس لويس بأن يعمل على إزالة جميع نسخ التلمود التي كانت لا تزال موجودة في المملكة حتى ذلك التاريخ⁽⁷⁰⁾. وكان لابد لطلب انوسنت الرابع من أن يثير تحفظات جديدة لدى الكنيسة، لذلك طلب البابا الذي عدل عن رؤية إلى ملك فرنسا عام 1247 أن يعيد نسخ التلمود إلى مالكيها وذلك بعد عملية التفتيش⁽⁷¹⁾. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا الإجراء المتساهل الذي كان يشهد بتردد في عملية التفتيش لابد وأن لا يكون بلا أثر. فبعد بضعة شهور من ذلك كتب المستشار "أودوى شاتوروه" الذي كان قد أصبح كاردينالاً، وأسقف توسكولم والقاصد الرسولي. للبابا، ليقول له أن النظام الكنسي وشرف الكرسي الرسولي يتطلبان استتكار التلمود مها كانت فائدته، وبالفعل ففي 15 أغسطس 1248 تم منع كتب اليهود بشكل نهائي من جانب أساتذة اللاهوت وبمرسوم من جامعة باريس نفسها⁽⁷²⁾.

لقد كان ممثلوا جماعات الرهبان يظهرون في مكان بارز بين المعلمين الذين برز من بينهم على وجه التحديد أسماء كلاً من المحقق الدومنيكاني هنرى دو كولونى، والقديس ألبرت الكبير الذي كان ينتمى أيضاً إلى الدومنيكان، والذي ذاع صيته في التدريس في ذلك الوقت لدى السلك الجامعي بباريس.

والحاصل أنه كما يشهد به حضور "هنرى دو كولونى" في هذا الإجراء التفتيشي، أن العملية التي كانت قد بدأت عام 1239م، والتي وصلت لهذا الشكل بعد عشرة أعوام من ذلك تقريباً،

تبدو كما لو أنها حلقة في مسلسل له مغزاه، وبوجه خاص في إدخال التفتيش في الكنيسة بمساعدة السلطة الزمنية، وهذه الحقيقة لا يمكن إنكارها. فالتوترات التي شهدتها هذه القضية خلال تلك الفترة تُمثل بالضببط الغرسي التدريجي لعملية التفتيش في العالم المسيحي الروماني. والأكبر إثارة للدهشة أن هذا الإجراء الذي إكتمل شكله النهائي في عام 1248، كانت فيه الجامعة الباريسية تنظم في حزب مضاد للتملود، أي أن هذا التاريخ يعد منعطفًا في تاريخ العصر الوسيط بصفة عامة، وكذلك في تاريخ جامعة باريس بصفة خاصة⁽⁷³⁾.

فضلاً عن ذلك، فإنه ينبغي توضيح أن جو هذا العصر كان يشجع بالفعل على القمع، ففي عام 1248 وفي الوقت الذي كان فيه المعلمون بباريس يستنكرون التملود، كان البابا أنوسنت الرابع Innocent Iv دومًا في صراع لا يهدأ مع الإمبراطور "فردريك الثاني" الذي خلعه في عام 1245، كما أبعد البابا عن روما بواسطة هذا الأخير ولم يسترد كرسيه البابوي إلا في عم 1251 بعد وفاة خصمه الإمبراطوري⁽⁷⁴⁾.

لقد كان الصراع إذن متقلبًا دومًا بين الكنيسة والإمبراطورية، وكان التوتر في نفس الوقت على أشده في لانجدوك وخضوع آخر المعازل المناوية هو أمر حديث أيضًا. لقد كان الوضع يتطلب إدخال إجراء التفتيش ضد المخالفين، حيث أصبح المغول آنذاك في قلب أوربا، ولامسلمون وغيرهم يهددون معظم جهات العالم المسيحي سواء في أوربا أو خارجها. كذلك فإن سبب هذا التفتيش يبرره أيضًا الخوف الذي يسيطر على الكنيسة التي يمدق بها الخطر إلى حد كبير، إضافة إلى الاستبداد البابوي الذي كان يقر بطريقة واضحة يضعف المؤسسة الكنيسة وخوار قواها وفقدانها لسيطرتها في كثير من البلاد، هذا الضعف الذي بدا واضحًا بدءًا من أعضائها حتى هيكل العام⁽⁷⁵⁾.

وفي ظل هذا الوضع، فإن الحرب الصليبية تبدو أكثر من أي وقت مضى على جدول الأعمال، ففي 25 أغسطس 1248، وبعد عشرة أيام من ذم التملود، أبحر سان لويس من ميناء "إيج مورتيس" متجهًا صوب الشرق الذي سوف يظل فيه لمدة ستة أعوام، وقد كان بصحبته في

هذه الحملة القاصد الرسولي "أود دو توسكولم"، الذي لعب دورًا حاسمًا في هذا الاستنكار بمساعدة جماعات الرهبان. ويفهم من هذا، كيف أن مصادرة الكتب اليهودية تقع بالضبط في سياق ديني وسياسي أو أنه بعد فترة من الهدوء النسبي، بلورت البابوية في موقف قمعي عقدة الحصار الذي ألم بالعالم المسيحي الروماني في منتصف القرن الثالث عشر⁽⁷⁶⁾.

أما جامعة باريس التي أصبحت تدريجيًا هي المركز الفكري للعالم المسيحي الروماني منذ عام 1200، فكانت هي الأخرى قد أصابها بالضرورة أزمة مجتمع العصر الوسيط، الذي كان عليه أن يشهد أحداثًا مميزة على ضفاف السين بدءًا من عام 1250. ومن الضروري لفهم مدى هذه الأزمة على الهيئة الجامعية الباريسية، فإنه ينبغي سلفًا أن نعرض هيكل ووظيفة هذه المؤسسة التي بلغت رشدًا في هذا العصر، والتي أصبحت تحظى بوضع دولي منذ بابوية جريجوري التاسع.

ثانيًا: هيكل وعمل الهيئة الجامعية

إن شمولية جامعة باريس تتأكد من خلال وجود أمم مختلفة بداخلها من الأساتذة والطلاب الذين تجمعوا داخل هذه الجامعة وهم يمثلون معظم البلاد الأوربية حيثذ خاصة من الشمال الأوربي. وقد تنبه الكرسي الرسولي مبكرًا لهذا الواقع الذي أضفى بالتأكيد على المؤسسة الجامعية طابعًا دوليًا. لذلك ففي 13 مايو 1245 ويطلب من هذه الأخيرة، اعترف البابا انوسنت الرابع (1243-1254) بوجود الأمم الجامعية "Nations"، كما وافق على منحها نفس المميزات الإدارية الممنوحة لهيئة الأساتذة والطلاب في مجملها⁽⁷⁷⁾.

ومن الضروري بالفعل تسجيل هذا التاريخ، وذلك لأنه يمثل بالفعل تحولًا تاريخيًا، حيث أن السلطة الكنسية كانت حتى ذلك الوقت معترضة على وجود هذا الواقع داخل الجامعة، حيث قام المستشار الاسقفي "فيليب دو جريف" بإتهام الأمم الجامعية بتعريض وحدة هيئة الأساتذة والطلاب للخطر على غرار ما قام به البابا هونوريوس الثالث من قبل بمنع الطلاب من حمل السلاح⁽⁷⁸⁾.

لم تكن تدخلات السلطات الكنسية منذ وقت مبكر ضد تجاوزات هذه الأمم التي تكونت في باريس بغير مبرر، ففي غياب التنظيم كانت هذه الأمم تفتعل فيما بينها صراعات كانت تؤدي إلى معارك دموية حقيقية. فهي هيئة تضم أساتذة وطلابًا ممن أصول مختلفة، وكثيرًا ما سقطت أرواح بريئة من جراء تلك المعارك، لذا فقد قام البابا بمنع أعضاء الأمم من حمل السلاح⁽⁷⁹⁾ ومع ذلك، فقد كانت هذه الأمم أمرًا حتميًا داخل مركز جامعي كان يلتقي فيه أساتذة وطلاب ذوي أصول مختلفة، وكان من الحذر أن يتم الاعتراف بها أو تجديد لوائحها حتى يمكن تفادي تلك الحوادث. من هنا جاء تدخل انوسنت الرابع، كما وضحت ضرورة هذا التدخل في مسارعة هذه الأمم في تأكيد استقلاليتها وذلك بمجرد اعتراف البابا بها رسميًا.

كما أنه في أكتوبر 1249 كشف بروتوكول جامعي بأنها كانت أربع أمم، وقد امتلكت كل واحدة منها خاتمها الخاص⁽⁸⁰⁾، حيث كانت لا تمتلك أي منها خاتمًا خاصًا بها قبل هذا التاريخ بحوالي ثلاث سنوات أي حتى 1246⁽⁸¹⁾.

ومن المؤكد أن الأمم الأربع ظهرت منذ وقت طويل في المصادر التاريخية، إلا أن بروتوكول 1249 جاء أكثر دقة حين ذكر صراحة أسم إحداهما - الأمة الفرنسية - التي كانت في صراع مع الثلاث الأخريات، إلا أنه منذ 1250 ظهرت الأمم الأربع بسرعة في النصوص بأسماؤها الخاصة وهي: الأمة الفرنسية، الأمة الإنجليزية، الأمة البيكاردية، والأمة النورماندية⁽⁸²⁾. وينبغي الآن شرح عدد هذه الأمم وكذلك الوحدات الجغرافية التي كانت تمثلها حيث ذكر لي يتضح مفهومها وأهميتها بالنسبة لتاريخ الجامعة.

إن الأمم التي تأسست تلقائيًا داخل الجامعة، كانت بالتأكيد أكبر عددًا في بادئ الأمر، إلا أن الوصاية اليقظة من طرف الكنيسة والبابا، قلصت هذا لعدد إلى أربع مجموعات تمثل طابعًا رمزيًا. ففي التقاليد القديمة وخاصة التقاليد الكنسية، يتمثل العدد أربعة في الجهات الأصلية الأربع، ويؤكد أيضًا على وجود هيئة تقوم بتعيين أعضائها في مجمل العالم المسيحي. من هنا كانت الأمم الأربع تمثل الجهات الأربع أو الرياح الأربع التي ذكرتها إحدى النصوص الكنسية كعمنى لشمولية المجتمع الكنسي الذي جمعه المسيح في مملكته⁽⁸³⁾.

فهذه الصورة تحمل دلالة وسوف نجد أنها تظهر كثيرًا فيما بعد رغم حدوث تغييرات كثيرة، كما أن هذه الأمم الأربع أصبحت تعترف الجامعة بوجودها في الهيكل الجامعي، كما ساعد نظامها وقوانينها فيما بعد على إكساب الجامعة للصفة العالمية.

حتما فإنه لم يكون للأمم الأربع نفس التسمية، ولا حتى نفس الانتفاء الجغرافي من جامعة لأخرى، لكن في بولونا، كما في باريس، نجد أنها سوف تتكون بصورة نهائية في نفس الوقت الذي تلقت فيه الهيئات الجامعية لهاتين الجامعتين مراسيم جريجوري التاسع الذي أعطى للهيئة الجامعية بباريس الصفة الدولية⁽⁸⁴⁾. يبقى من خلال هذا المنظور تفسير الانتفاءات الخاصة بكل من هذه الأمم الأربع داخلا للجامعة الباريسية، فنظرًا لكونها ناشئة من ظروف أدت إلى تجمع أساتذة وطلاب من خلال تقارب إقليمي، فقد أصبحت بالتالي مفروضة من خلال التاريخ والجغرافية السياسية أيضًا، وصارت العلاقات بينها وبين الجهات الرئيسية الأربع غير دقيقة إلا أنه إذا أخذنا في الاعتبار الأقاليم الكنسية والمناطق التي كان يتم فيها اختيار أعضائها، ربما أمكن حصر مواقعها من خلال الاتجاهات الأصلية⁽⁸⁵⁾. ففي الشمال نجد الأمة الإنجليزية التي كانت تنتمي أعضائها من الجزر البريطانية، والتي سرعان ما شملت الجامعيين القادمين من الدول الإسكندنافية وألمانيا. وفي الشرق نجد الأمة البيكاردية والتي كانت تختار أعضائها من عدد معين من الأبرشيات في الشمال والشمال الشرقي من فرنسا وهولندا⁽⁸⁶⁾. وفي الجنوب الأمة الفرنسية التي كانت تختار أعضائها بصورة رئيسية من الأقاليم الكنسية لوسط وجنوب فرنسا والمناطق الجنوبية لأوروبا (خاصة شبه جزيرة ايبيريا وإيطاليا)، وفي الغرب توجد الأمة النورماندية التي كانت تختار أعضائها من الأبرشيات النورماندية السبع التي كانت تمثل مقاطعة روان الكنسية⁽⁸⁷⁾.

إن المواقع الخاصة بالأمم في مقابل الجهات الأصلية الأربع تقريبية، لكنها تأخذ في الاعتبار الضرورات السياسية في ذلك الوقت، حيث أن وجود الأمة الفرنسية في جامعة العاصمة أمر لا يحتاج إلى الجدل، وربما كان موقعها البارز في جنوب باريس سببًا في إقصاء الشمال الشرقي من

المملكة، والذي يبرر تمامًا إنشاء أمة بيكاردية لذلك لم تكن تفرض نفسها في بادئ الأمر. وفيما يتعلق بالأمة الإنجليزية، نجد أن وجودها كان حتميًا في الهيئة الجامعية بباريس، وذلك نظرًا لتجاور هاتين البلديتين، إضافة لما شاع عن باريس من شهرة جذبت الكثير من الأساتذة والطلاب من الجزر البريطانية منذ القرن الثاني عشر وطوال الثالث عشر، إلا أن هذه الأمة مالبثت أن اختارت أعضائها من كل من البلدان الإسكندنافية وألمانيا ووسط أوروبا⁽⁸⁸⁾.

وأخيرًا فإن وجود الأمة النورماندية في الجامعة له ما يبرره أيضًا، فبغض النظر عن قربها، فإن هذا الإقليم كان تحت حكم ملك انجلترا حتى بداية القرن الثالث عشر، وقد احتفظ بشخصيته الخاصة داخل المملكة، أي أن إنشاء هذه الأمة يرجع إلى الفترة التي كانت فيها نورماندى تحت الاحتلال، وتؤكد الكثير من الأمور على أقدمية هذه الأمم داخل الجامعة الباريسية⁽⁸⁹⁾.

هذا وبغض النظر عن الأصل والانتفاء الجغرافي، فقد احتلت الأمم الأربع مكانة هامة في تاريخ الجامعة، وكما سبق القول، فقد امتلكت كل منها خاتمًا خاصًا بها أدى إلى استقلاليتها داخل الدامعة كما يلاحظ أنها لعبت دورًا هامًا في المقابلة بين الدرجات في كلية الآداب التي كانت تمثل أهم مكوناتها، وكانت مهمتها الأساسية هي تقديم المرشحين لامتحانات هذه الكلية ومراقبة دراسة الطلاب وتوفير الأماكن الضرورية لإلقاء الأساتذة لدروسهم⁽⁹⁰⁾.

وأخيرًا كانت لهذه الأمم لوائحها الخاصة وإدارتها وشؤونها المالية الخاصة بها، وكانت تعقد إجتماعاتها تحت رئاسة نائبها المنتخب من طرفها. هذا الأخير يقوم بتمثيل المجموعة القومية (الأمية) داخل الجامعة، وذلك في كل نشاطات الحياة العامة، حتى وإن تم انتخابه لفترة محدودة - شهر تقريبًا - إلا أن دوره الأساسي لا نستطيع إنكاره في هذه الصدد⁽⁹¹⁾. وطبقًا لإرادة انوسنت الرابع التي صرح بها عام 1245، فقد كان نواب الأمم عندما يجتمعون يمثلون كلية الآداب والجامعة في مجملها، وذلك يوحي بمدى اندماج وارتباط المؤسسات عمليًا، ولأن طلاب الكليات العليا كانوا عادة ما يصبحون أساتذة للآداب⁽⁹²⁾.

هكذا كان هؤلاء النواب ميزة انتخاب رئيس جامعة العاصمة، وحدد بروتوكول الاتفاق الذي تم في عام 1249 بين الأمة الفرنسية وباقي الأمم الأخرى، الإجراء الواجب أتباعه في هذا الشأن، ففيها سبق كان هذا الإجراء غير محدد الأسلوب ما كان يؤدي إلى نشوب التراعات، ولكن بناء على رسالة من انوسنت الثالث تعود إلى بداية القرن الثالث عشر، أصبح للهيئة الجامعية مسئول يحمل اسم نائب، وبعد إصدار المنشور البابوي (مرسوم باريس) 1231م، فقد أصبح هذا الأخير يدعي رئيساً أيضاً⁽⁹³⁾.

وقد أكد وجود هذا الرئيس الاستقلالية المتزايدة لهيئة الأساتذة والطلاب تجاه السلطات الكنسية المحلية، كما أنه كان لها أيضاً هدف الفصل بين مسئول الجامعة من ناحية ونواب الأمم الذين كان يشاركون في اختياره من ناحية أخرى، وكان لابد من إيجاد تنظيم تحت أي شكل من الأشكال من أجل توضيح هذا الوضع الجديد⁽⁹⁴⁾. ولهذا فبعد نشوب نزاع بين الأمم وبعضها بهذا الشأن، قرر هؤلاء بصورة نهائية في عام 1249 أسلوب انتخاب مسئول المجتمع الجامعين، ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا الاختيار بينهم محل اتفاق، فكان عليهم اختيار شخصية من بينهم يتم إسناده تلك المهمة إليها، وهذه الشخصية كانت بلا شك هي رئيس الجامعة، وأصبحت هذه التسمية مستخدمة بصورة نهائية، ولكنه تبعاً للملابسات التي كانت تحدث، وكذلك تبعاً للاتفاق الجديد، فقد كانت بالضرورة الشخصية المنتخبة من بين النواب، أو بمعنى أصح أقدم نواب هذه الأمم⁽⁹⁵⁾.

وتأكيداً لسلطة الأمم ونوابه داخل الهيئة الجامعية، وفي حالة اختيار مدير الجامعة من نقابة الأساتذة، فقد كان لابد لبروتوكول 1249 أن يكتسب صفة نهائية، وذلك بأن أصبح الإجراء المتبع لانتخاب المدير دائماً مطابقاً لما نص عليه هذا البروتوكول الذي وافق عليه الجميع.

ولم تستطع التراعات التي كانت تنشب أحياناً فيما بعد أن تشكك فيه، كذلك لم يتم أي تغيير به سوي تغيير مدة الرئاسة التي كانت في البداية محددة بشهر واحد وبسته أسابيع، حيث عدلت لتصل إلى ثلاثة أشهر بعد ذلك في عام 1266⁽⁹⁶⁾.

هذا ولم يكن مدير الجامعة بعد انتخابه يطمئن إلى مركزه داخل الجامعة ويحقق زعامته على عمداء كلياتها - بما فيهم عميد كلية اللاهوت، حتى دخل في سلسلة من المنازعات مع كبار رجال الكنيسة في باريس حول أسبقيته عليهم في المناسبات والحفلات العامة. وقد استطاع مدير الجامعة أن يحقق لنفسه مكانه مساوية بالضبط لمكانة أسقف باريس، وإن كان بعض المديرين قد سجلوا بأسلوب الفخر كيف أنهم في كثير من المناسبات العامة كانوا يتقدمون الكرادلة، والأساقفة والسفراء ورسل البابا، ونبلاء فرنسا⁽⁹⁷⁾.

كان لرئيس الجامعة مهام هامة، وذلك بعد انتخابه من طرف نواب الأمم الذين كانوا يمثلون معًا المجتمع الجامعي، حيث كان يمثل هو شخصيًا هذا المجتمع في مختلف أنشطة الحياة العامة، كما كان يستدعي ويرأس الجمعية العامة للجامعة والتي ظهرت مبكرًا في القرن الثالث عشر، لتؤكد الاستقلالية المبكرة للمؤسسة التعليمية الكبرى في العاصمة الفرنسية. لكن هذه الجمعية كانت تعكس الهيكل الاتحادي للأساتذة والطلاب في مجمله، حيث أنها كانت نتاج الأمم الأربع المكونة لكلية الآداب وللجامعة ككل في آن واحد. كما أنه تم تدريجيًا اشتراط الأستاذية في الآداب لمن يرشح لهذه الجمعية العامة وذلك من أجل أن يقوم بدوره بإعطاء دراسات في اللاهوت أو الطب، وهما المجالان الرئيسيان للكليات المتخصصة المسماة بالكليات العليا⁽⁹⁸⁾. فالذي كان يقوم بالتدريس في هاتين الكليتين دون الحصول المسبق على هذا اللقب، كان لا بد أن يؤدي اليمين أمام رئيس الجامعة من أجل أن يتم قبوله ضمن هيئة جامعة باريس. ومن أجل تفادي حدوث أي اعتراضات أو ملاحظات، فقد كان مدير الجامعة يقوم بإعلام عمداء الكليات العليا عندما يقتضى الأمر ذلك، بجدول أعمال الاجتماعات وأماكن وتواريخ الجلسات المزمع عقدها لمناقشة بعض الأمور الخاصة بهيكل الجامعة وما إلى ذلك، وفيما عدا ذلك فلا يوجد فارق بينهما وبين جمعية كلية الأدب⁽⁹⁹⁾.

على أية حال، فيما أن الأمم تعد من أصحاب السبق في تاريخ الجامعة التي تم إنشاؤها والتي قد حصلت على تفويض من البابا بهذا الشأن، لذلك فإن نوابها قد لعبوا دورًا هامًا داخل جمعية

كلية الآداب، فهم الذين يتخذون القرارات بعد استشارة مجموعتهم الأئمة. فقد سبق ملاحظة أنه بالنسبة لانتخاب رئيس الجامعة وعند حضور الأساتذة الاجتماعات المنعقدة لأي سبب من الأسباب، فقد كان لهم دور محدود في المداولات عكس نواب الأمم. إن اتحادات الأساتذة والطلاب تكونت مع الأمم الربيع المؤسسة للقاعدة الاتحادية لهاتين النقتابيتين، وكان على أي طالب يصل إلى ضفاف نهر السين أن ينضم إلى إحدى هاتين الهيئتين من أجل أن يتمكن من إتمام دراسته الجامعية⁽¹⁰⁰⁾.

إن العلاقة التي كانت موجودة في القرون الوسطى بين الأستاذ وتلميذه أدت بطبيعة الحال إلى إنشاء هيكل تأسيسي، فالطالب القادم إلى باريس من إحدى المقاطعات أو من الخارج، كان في أغلب الأحوال يختار أستاذه من أهل منطقته، وكان التوصيات التي يحملها معه من بلاده والموجهة إلى هذا الأستاذ تجعله في مأمن من الغربية والعزلة، ومع ذلك كانت المجتمعات الإنسانية والمجتمعات الجماعية بصورة خاصة محدودة في ذلك الوقت مما جعل مهمة إيجاد ابن الوطن أمراً سهلاً عند تغيير الإقامة أو الوصول إلى مدينة ما من أجل الدراسة⁽¹⁰¹⁾.

على أية حال، يأخذ هذا الطالب أستاذاً له من بني وطنه، يدخل في المجتمع الجامعي ويندمج ضمن مجموعة الأمة التي ينتمي إليها، وكان هذا الاندماج مهماً بالنسبة لحياته الدراسية، حيث سيتضح ذلك بالنسبة للحصول على الدرجات العلمية، كذلك يستطيع من خلال ذلك المشاركة في جمعيات أمته الخاصة، وكلية الآداب، والجامعة⁽¹⁰²⁾.

وكانت هذه الجمعيات تنعقد في الغالب داخل كنيسة "سان جوليان لي بوفر"، بين نهر السين وشارع جالاند، حيث كان يقيم أهل الآداب والطب، ومع انتقال تعليمهم تدريجياً إلى سفوح جبل سانت جينيفيف، انتقل مركز ثقل الدراسات نحو شارع فوار وموقع فندق كلوني الذي لم يكن موجوداً بعد إلا في فترة سان لويس، ولذلك سرعان ما اعتاد الطلاب عقد اجتماعاتهم في دير سان ماتوران القريب من ذلك المكان والذي كانت تحتله طائفة الترينيتر⁽¹⁰³⁾.

ومن المعروف أن الجامعة تكونت من أربع كليات هي الآداب واللاهوت والقانون والطب، وكانت الكليات الثلاث الأخيرة والمعروفة باسم الكليات العليا مرتبطة أشد الارتباط بكلية الآداب، التي اقتصر على الدراسة التحضيرية التجهيزية لتوجيه الطلاب بعد ذلك إلى التخصص في الكليات الأخرى حسب رغباتهم وميولهم⁽¹⁰⁴⁾. وقد أدى اندماج الكليات العليا الناشئة مع الهيئة الجامعية إلى ظهور منظمة متكاملة داخل العاصمة الفرنسية، وقد كان على هذه الكليات أن تحافظ على استقلاليتها داخل الهيئة الجامعية والتي سوف تندمج تدريجيًا تحت ضغط الأحداث وكذلك تحت ضغط النشاط الخاص بكلية الآداب المؤثرة على الجامعة ككل. وفي القرن الثالث عشر لم تكتسب الأنشطة جميعها نفس الأهمية، ففي تلك الفترة كانت كلية اللاهوت تعتقد في ديرنوتردام، حيث كانت تضم أستاذ اللاهوت الممارس (الإكليريكي) بالإضافة إلى الأساتذة والأوصياء المساعدين له في تلك المهمة، ثم الأستاذ الوصي والمكلف بجماعة الشماسين داخل الهيئة الدينية للعاصمة. هذا التقسيم يمثل طابع هيكلية يتشابه مع مناصب القضاء⁽¹⁰⁵⁾. إلا أن بعض الأديرة الباريسية الخاصة بطوائف الرهبان الدومنيكان والفرنسيكان قد استطاعت بفعل حيويتها ونشاطها الثقافي الخاص أن تحصل بسرعة على مقعدين لأستاذين في كلية الآداب، وقد كانت هذه الممارسة التجاوزية في نظر التقاليد الجامعية محل نزاعات مستمرة سوف يأتي الحديث عنها لاحقاً⁽¹⁰⁶⁾.

كذلك كانت كلية القانون الكنسي تمتلك هيكلًا مشابهًا هيكل كلية اللاهوت وتعد جلساتها معها في ديرنوتردام وذلك قبل أن تستقر على الضفة اليسرى في كلو - برونو، عند زاوية شارع جان دي بوفيه الحالي. وقد كانت أديرة طوائف الرهبان الفقراء في العاصمة حينئذ لا تمتلك تعليمًا خاصًا من هذا النوع من النشاط، ولم يكن عملها يمثل نفس هذا المشاكل التراعية، بل بالأحرى لم يكن هناك تعليم مشهور في تلك الفترة مثل تعليم كلية اللاهوت التي كانت تتمتع بأسبقية واضحة داخل المجتمع الجامعي، إلا أنه سرعان ما تزايدت سلطة كلية القانون الكنسي حيث تأكدت هذه السلطة والأهمية بواسطة المهمة الخاصة التي استندت إليها رسميًا، ألا وهي تدريس القوانين البابوية، وهو ما منحها اهتمامًا دوليًا في أنحاء العالم المسيحي الغربي⁽¹⁰⁷⁾.

أما فيما يتعلق بكلية الطب، فقد كان هيكلها يتطابق مع هيكل سابقتها من الكليات العليا، إلا أنه إذا كان الأطباء متممين إلى طائفة الشماسين مثل باقي جامعي باريس، وإذا كان عليهم ترك الزواج، فإن دراستهم كانت تقترب من دراسة أهل الآداب بطابعها الدنيوي، حيث أنهم استقروا أيضًا فيما بعد على الضفة اليسرى للسين، إلا أنه لم يكن من حق رجال الدين ممارسة الطب⁽¹⁰⁸⁾.

وقد استمرت كلية الطب التي صارت علمانية تمامًا في عقد جلساتها بانتظام، هذا وقد كان أساتذة الطب يستطيعون فتح مدارس لتدريس الطب بصفة مستقلة، وكانوا حينئذ يحملون لقب أساتذة أوصياء، وقد كان لمدارس الطب هيكل مماثل تقريبًا للمؤسسات التعليمية الموجودة من أجل تدريس الآداب⁽¹⁰⁹⁾.

وبالاختلاف مع كلية الآداب التي وضعت تحت الوصاية المباشرة لرئيس الجامعة، نجد أن كليات اللاهوت، القانون، والطب كان لكل واحدة منها عميد يراسها ويمثل مصالحها الخاصة في أنشطة الحياة العامة وادخل الجمعيات العامة في الجامعة. فمذ القرن الوسطي كان للعامة دور أساسي في إدماج الأساتذة والطلاب الباريسيين، كما كان داخل الجمعية العامة للجامعة حيث كان عمداء الكليات يمثلون هذه الأخيرة إلى جانب نواب الأمم، وكان القرارات الهامة تحصل على تصديق هؤلاء وأولئك تحت رئاسة رئيس الجامعة⁽¹¹⁰⁾.

وعلى غرار الأمم، كان للكليات العليا خاتما بكل واحدة منها يؤكد استقلاليتها الخاصة داخل هيئة الجامعة البارسية، وفي هذا اختلاف آخر عن كلية الآداب التي كانت تحت قيادة رئيس الجامعة مباشرة، والتي كانت تستخدم خاتم الجامعة نفسه بحكم أسبقيتها في التنظيم وعلو مكانة أساتذتها. وقد كانت الكليات الأربع، الآداب بالإضافة إلى الكليات العليا في قلب الجامعة تتفق مع الأمم الأربع في ترسيخ مفهوم الشمولية الرمزية، ومع ذلك نجد أنه منذ أن صار مستشار نوتردام غير قادر إلا في حالة استثنائية على منح الإجازة العملية دون ترخيص من الأساتذة المختصين في الأنشطة المعنية، فقد أصبحت الكليات الأربع تتمتع بميزة مؤكدة وهي

منح الدرجات العلمية في الجامعة، وقد خسرت السلطة الكنسية الكثير عندما حاولت الاعتراض على هذه الميزة⁽¹¹¹⁾.

أما بالنسبة لمنح الدرجات، فإن مرسوم باريس عام 1231 سواء في هذا المجال أو في المجالات الأخرى، يعد مرحلة حاسمة في تاريخ الجامعة. فباختلافه عن لائحة روبرت دو كورسون، نجد أنه جاء ليشمل مجمل الأنشطة ويقدم حلولاً جديدة، وذلك من خلال التخطيط الدقيق المنظم لتدرج الحائزين على شهادة البكالوريا والليسانس والأستاذية، حيث استمر ذلك لفترة طويلة⁽¹¹²⁾.

وقد ظهر هذا التدرج بصورة واضحة عندما جاء هذا التنظيم مؤكداً للتقاليد المعروفة حينئذ، حيث كان الحائزون على الليسانس وكذلك الأساتذة معروفون قبل صدور مرسوم باريس، فالأوائل لم يكونوا سوى حاصلين على ترخيص بالتدريس، بينما الآخرون هم ممن كانوا يمارسون مهنتهم بعد حصولهم على الليسانس وبعد ضمهم إلى الهيئة الجامعية⁽¹¹³⁾. وفي المقابل وحتى وإن كانوا موجودين من قبل، فإن الحائزين للبكالوريا والمدعوون للحصول على الليسانس، قد ورد ذكرهم لأول مرة في هذا المرسوم - وهذا الذكر يعد ذو أهمية، فبناء على منشور جريجوري التاسع لم يكن هؤلاء الطلاب أنهموا تعليمهم وأصبحوا قادرين على مساعدة زملائهم الأصغر منهم سنًا، وذلك بأن يقدموا إليهم مبادئ تربوية أولية، لكن بالسماح للهيئة الجامعية نفسها بتحديد طرق ذلك فقد أصبح الاعتراف بلقب البكالوريا خاضعًا لاجتياز امتحانات من طرف الطالب الذي يريد الحصول على ذلك اللقب⁽¹¹⁴⁾.

هذا في حين نجد أن المرشح للحصول على الليسانس أو حائز البكالوريا طبقًا لتحديده في المرسوم بابوي، قد تم تزويده بالفعل بنظام يثبت وضعيته داخل الهيئة الجامعية. وبعد حصوله على الترخيص بالتدريس من طرف مستشار نوتردام أو مستشار سانت جينيفيف، فإن يبدأ مسيرته للحصول على الأستاذية، وذلك بأن يقدم أمام أساتذته الأقدم منه درسًا افتتاحيًا يمنحه الأستاذية في تخصصه⁽¹¹⁵⁾. وقد ألح جريجوري التاسع إلى الأستاذية التي أخذت هي الأخرى

طابعًا تنظيميًا منذ القرن الثالث عشر، والتي كانت مقرونة بتأدية القسم من أجل تدريس اللاهوت والقانون الكنسي.

أما حائزو الليسانس الذين لم يكونوا يرغبون في التدريس، أو الذين يرفضون إكمال مسيرتهم الجامعية، فقد كانوا يعفون من الأستاذية، بينما وفي المقابل كانت الأستاذية إجبارية على كل من أراد إعطاء محاضرات منتظمة بما أن الهيئة الجامعية كانت تمتلك احتكارًا لهذا المجال، مثلها في ذلك مثل كل الهيئات المهنية في ذلك العصر⁽¹¹⁶⁾.

إذا كانت درجات التدرج الجامعي قد تم تحديدها في مرسوم باريس، فإنها مع ذلك كان تحتاج إلى تنظيم وتطوير خاصة فيما يتعلق بالحائزين على البكالوريا. فبناء على دعوة المرسوم البابوي، سارعت الجامعة في تحديد هياكلها الخاصة. ففي عام 1245، أقرت بأنه يجب على حائزي البكالوريا في الآداب أن يقوموا بتحديد دروس في مجالات مختلفة لشرحها في أثناء شهر الصوم، وهذه العبارة تعد جديدة على مصادر ذلك العصر⁽¹¹⁷⁾. كذلك فقد فرض عليهم أيضًا اختبارًا يكون من طرف التنظيم الجامعي، ويتضح ذلك عن خلال ما قامت به الأمة الإنجليزية في عام 1252 من إنشاء لجنة تحكيم خاصة لهذا الغرض، وسرعان ما سمي هذا الاختبار باسم التعريف أو التحديد "Determinatio" أو "Determinacia"، والذي ظهر بعد ذلك بوضوح في النصوص.

إن توصيات الأمة الإنجليزية تعد هامة، من حيث أنها قامت بتحديد دقيق جدًا للإجراء المطلوب بالنسبة لهذا الاختبار، ويكونا خير شاهد على أن هذا الإجراء هو الجدل الأول لبكالوريا عصرنا الحاضر. هذا وكانت لجنة التحكيم المختارة من طرف الأمة الإنجليزية تتكون من ثلاث أساتذة يقومون بامتحان الحاصلين على البكالوريا كل عام في شهر الصوم. والطلاب الذين كانوا يتم اختيارهم قبل عيد الميلاد بواسطة امتحان أولي كان يسمى: (Responsation) كان لابد وأن يكونوا في العشرين من عمرهم⁽¹¹⁸⁾.

كذلك فقد قدم تنظيم 1252 بنودًا دقيقة من أجل تصادي التجاوزات مثل التدليس والمخالفات الأخرى، كما أن العديد من هذه البنود يمثل صورة رائعة لأخلاق ذلك العصر،

حيث تشترط بعض الدقة في مظهر المرشح، كأن يضع على رأسه قلنسوة مصنوعة من نفس نوع القماش المصنوع منه معطفه، أو أن يحضر عاري الرأس، وقد امتدت تلك الدقة في التنظيم إلى مجالات أخرى عديدة⁽¹¹⁹⁾.

هذا وبعد مرور فترة من الزمن ربا في بداية القرن الرابع عشر، أخذ هذا الإجراء المسمى بالتعريف أو التحديد أسم "بكالوريا" الذي هو مشتق من كلمة بكالوريوس "Baccalaureatus" التي تعني المتوج يا كليل الزهور، كما تعني أيضًا العازب المنقطع للدراسة. وتظهر في بعض النصوص القديمة عبارة "الحاصل على البكالوريا المعرف" وهو الشخص القادر على التدريس، وكان هدف الامتحان هو توضيح دور السلطة الكنسية في منح الإجازة المؤهلة للشخص لإتمام مسيرته التعليمية من أجل الحصول على الأستاذية⁽¹²⁰⁾.

لقد كانت لجنة التحكيم تستقبل المرشحين باستمرار وتستطيع أن تعفيهم من بعض الامتحانات، كما كان بإمكان المرشحين أن يرجئوا أنفسهم ويختاروا بديلاً لهم في الجزء الثاني من الصوم، أي منتصف فترة الصيام، وحتى عيد الفصح، وكان هذا البديل عادة ما يتم اختياره من بين المرشحين الفقراء الذين لا يملكون مصاريف الامتحان، فهذه الطريقة كانت تمنحهم نفس اللقب والامتيازات التي كان يتمتع بها المعرف الرئيسي، حيث كانوا يستطيعون الوصول إلى الليسانس ومن ثم إلى الأستاذية ومواصلة مسيرتهم العادية في الجامعة⁽¹²¹⁾. إلا أن نظام البديل هذا لم يكن ليستم بطبيعة الحال في مجتمع كان التنافس فيه يقصى الضعفاء بدون رحمة، إلا أنه ليجد تفسيراً له في أخلاقيات ذلك العصر، حيث أن المسيحية والنظام الاجتماعي السائد قد طلبا وشجعا على التضامن مبدئياً بين الأغنياء والفقراء. كذلك بجانب إمكانية الحصول للبديل مجاناً على درجته، فإن المعرف الرئيسي كان يحصل على إعفاء من امتحانات النصف الثاني من فترة الصوم، وهذا ما جعل الأمر مفيداً بالنسبة إليه أيضاً⁽¹²²⁾.

لقد كانت الجامعة تلعب دوراً تربوياً بصورة أساسية، حيث كان على المرشح أن يقدم قراءات وتعليقات على النصوص لمستمعيه، وأن يرد على أسئلتهم، إضافة إلى هذه العروض

التعليمية كانت تجرى علانية، وكان بإمكان زملاء وتلاميذ المرشح متابعتها عن كثب، وهي الممارسة التي ظلت مستمرة في التقاليد الجامعية حتى الآن عند مناقشة الرسائل الجامعية⁽¹²³⁾. وتحت هذا الشكل كان لابد لهذا الامتحان أن يساير التطور في الطرق التربوية التي تحققت منذ نهاية القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر، فمنذ تلك الفترة كان من الممكن أن يتحول سؤال واحد إلى مادة لمحاضرة كاملة، وفي هذه الحالة كان على المتقدم للامتحان أن يقوم بمعالجة جميع أوجه الموضوع المطروح للمناقشة أو ما يسمى بالموضوع الحر، حيث كان يرد في نهاية عرضه على طلبات التساؤل الموجهة إليه من طرف ممتحنه⁽¹²⁴⁾. وكان في السابق يعتمد علم التربية على الذاكرة والتكرار والحوار الفردي بين الأستاذ وتلميذه، وكان إدخال السؤال الحر في النظام الجامعي أمر أدى إلى تغيير جذري في الهيكل التربوي التقليدي، فقد وضع المرشح في موقع الأستاذ وهو يتحدث ويدافع عن قضية ما، وفي ذلك تدريب حقيقي له على المنصب الذي سيخلفه بعد نجاحه، وهو خطوة هامة نحو إكمال المسيرة الجامعية⁽¹²⁵⁾.

وعلى ضوء ما سبق نستطيع فهم المكانة التي كان يحتلها ذلك الامتحان الولي في تدرج الدرجات الجامعية في النظام التربوي للعصر الوسيط، حيث أصبح الليسانس يأتي تدريجياً كإجراء شكلي، فبعد التأكد من أخلاقيات المرشح ومن معلومات العامة، كانت السلطة الكنسية تقوم بمنحة تلقائياً للطلبة الحاصلين على ضمان الهيئة الجامعية. هذا وقد تم تبني هذا الإجراء في الامتحانات من الامتحان الأولى ثم البكالوريا فالليسانس فالأستاذية، وهو الإجراء الذي أرسته الأمة الإنجليزية منذ 1252 ثم تبنته الم الإقليمية الثلاث الأخرى لكلية الآداب، وكان هذا هو التطور التدريجي لنظام الدرجات في الجامعة الباريسية⁽¹²⁶⁾.

وإذا كانت الأمم الجامعية لها فضل المبادرة في هذا المجال، فيجب ألا ننسى أن كلية الآداب كانت تمتلك بصفتها ممثلة للهيئة الجامعية المسئولة عن الدرجات، حق التصديق على دخول المرشحين إلى الامتحان الأولى ثم البكالوريا. وإذا كانت البكالوريا تحدد قدرة المرشح على الحصول على الليسانس في الآداب، فإن المهلة التي كانت تفصل بين الدرجتين كانت

قصيرة جداً، لذلك كان المتقدم للامتحان أثناء فترة الصوم غالباً ما يحصل على الليسانس في الربيع⁽¹²⁷⁾. ومن خلال تطور المؤسسات في القرون الوسطى، نجد أن البكالوريا قد حازت أهمية كبيرة داخل التدرج الجامعي، وظلت لمدة طويلة كمرجع من أجل تقييم الثقافة العامة للمرشحين لمختلف الوظائف العمومية أو الخاصة، وبالرغم من أنها قد بدأت تفقد الكثير من مكانتها وهيبتها، إلا أنها مع ذلك استمرت في كونها من أولى الدرجات الجامعية، بالإضافة إلى تحمس الرأي العام خاصة الجامعي للحفاظ على مكانة هذه الدرجة العلمية الهامة وعدم التفريط فيها⁽¹²⁸⁾.

ويهدف مكافأة أعضاء لجنة التحكيم والهيئة الجامعية المسئولة عن الامتحانات، كان على المتقدم للامتحان أن يدفع رسوماً لهذا الامتحان، وهذا المبلغ المقرر كان يئائل المبلغ الذي يتعين على الطالب إنفاقه في مدة أسبوع من نفقات معيشته، وهذا ما تعنيه كلمة (debouser) في المصادر، أي ينفق أو يدفع مآلاً، والتي أصبحت بعد ذلك معمة في الاستخدام الجامعي. كذلك كان معدل الرسوم الدراسية المطلوبة من المتقدمين لاجتياز الامتحان تتغير حسب الوضع المالي للمرشح، والذي كان يعفى من سداد هذه الرسوم في حالة ما إذا كان فقيراً، ولكنه كان يتعهد مقسماً على أن يسدها إلى الهيئة الجامعية عندما تكون لديه الإمكانيات اللازمة لذلك⁽¹²⁹⁾.

وطبقاً للممارسات القائمة في هذا العصر، فقد كانت هذه المصروفات الدراسية تخصص لإعانة مدارس شارع فوار، حيث كان هؤلاء الطلاب يؤدون امتحاناتهم، وكان إحمالي المصروفات يتم سدادها إلى وكيل الأمة ينتمي إليها الطالب. بيد أنه بدءاً من القرن الرابع عشر، فإن الأمم سوف يكون لديها تدريجياً محصلين ماليين وهم الذين سوف يحصلون مستقبلاً على هذه الرسوم الدراسية وكذلك رسوم إمتحانات المرشحين⁽¹³⁰⁾.

أما فيما يختص بالمحاضرات، فقد كان الأستاذة يلقون محاضراتهم أول الأمر في غرف يتسأجرونها لهذا الغرض، أو في المترل الخاص بالأستاذ نفسه. وفي الحالات التي يحاضر فيها أستاذ مشهور لا تتسع الغرف العادية لمستمعيه الكثيرين، كان يستعير مبنى عاماً أو قاعة فسيحة

في المدينة ليلقى فيها محاضراته، وكان هذه القاعة غالبًا في شارع فوار، حيث كان الطلاب يجلسون على أرضية مغطاة بالقش، كي لا يتسرب الكبرياء إلى نفوسهم، بينما يجلس الأستاذ على مقعد مرتفع قليلاً حتى يراه الجميع، كذلك لم يكن هناك جدول ثابت للمحاضرات حيث كان يصعب ذلك، نظرًا لارتباط الدراسة بمواعيد دق أجراس الكنائس، بيد أن المعتاد كان ثلاث محاضرات يوميًا أهمها في الصباح وتستمر نحو ساعتين، واثنان بعد الظهر تستمر إحدهما ساعتين والأخرى ساعة ونصف. وإذا كانت محاضرات الصباح تنتهي حوالي التاسعة صباحًا، فإن معني ذلك أن الفترة بين التاسعة والواحدة والنصف بعد الظهر كانت فترة راحة واستجمام للطلاب لتناول الغذاء⁽¹³¹⁾.

من الواضح أن المحاضرات الأساسية خصصت لدراسة الكتاب المقدس والكتب والنصوص الرئيسية في حين خصصت محاضرات بعد الظهر لدراسة الكتب الفرعية، وقد حرم على الأساتذة تحريها باتًا إتباع الطريقة الإملائية في المحاضرات حتى يعتمدوا على المناقشة وأسلوب الحوار مع الطلاب.

أما فيما يتعلق بأهم الدراسات المقررة على الطلاب، فيمكن تتبعها من خلال رصد طبيعة كليات باريس والفروق المميزة لكل كلية عن قريتها نم حيث القوانين وطبيعة الدراسة والامتحانات، وبالرغم من أن كليتي الآداب واللاهوت كانتا تستأثران بالاهتمام الكبير داخل الجامعة، إلا أنه تجدر الإشارة إلى تنظيم كليتي الطب والقانوني الكنسي أيضًا، وذلك في إطار توضيح شمولية جامعة باريس وتأثيرها في المجموع العام للأساتذة والطلاب وكذلك السلطات الكنسية والمدينة⁽¹³²⁾.

كان من الطبيعي أن تكتسب مدرسة للطب تقع في العاصمة هذه الأهمية القصوى، ومن الطبيعي أيضًا أن يصبح أساتذة الطب بباريس فئة ذات ثراء ونفوذ، لكنه بالرغم من ذلك لم تستطع مدرسة الطب الباريسية أن ترقى لمستوى المدارس الطبية الأوروبية ذائعة كمدروستي مونبلييه وسالرنو، كما أنها تستطع أن تجذب إليها طلابًا من أماكن بعيدة⁽¹³³⁾. كذلك فإن لائحة

كلية الطب ما تزال غير واضحة في المصادر السابقة على عام 1250 بشكل جيد. بيد أنه من المعروف أنه ينبغي على المعلم الذي يقدم مرشحًا لنيل الليسانس أن يشهد أمام الكلية بأن هذا الأخير درس لمدة لا تقل عن ستة أعوام عددًا من المؤلفات المتخصصة، من بينها بعض الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية على يد قسطنطين الأفريقي، وكذلك بحث في الطب لـ (جيل دي كوربي) الذي أوضح تعليم الطب في باريس نحو عام 1200م⁽¹³⁴⁾.

كذلك كان من الطبيعي أن يصير الطب مدرسيًا، وذلك في عصر يتميز بازدهار المدرسية ويتضح ذلك من كثرة الجانب النظري وعدم ظهور الجانب العملي مطلقًا، حيث أنه لم يرد حديث عن إجراء أبسط العمليات التشريحية التي كانت شائعة في مدارس الطب الجنوبية، وقصر الدراسة على الجانب النظري فقط بيد أن الممارسة الفعلية شيء آخر⁽¹³⁵⁾. على أية حال، فإنه كان يتعين على حامل البكالوريا قبل حصوله على الليسانس في دروس معينة، أن يشهد ويقسم بأنه أجاب على الأسئلة التي وجهت إليه خلال مناظرتين رسميتين في مدرستي طب مختلفتين، أو خلال مناظرة عامة أمام الكلية المعنية. ومن الواضح أن هذه المناظرات لم تكن مجرد دروس في الطب، بل قراءات نصية معلق عليها وكان بالطبع تطبيق هذه النصوص يحتاج لمواصلة التحصيل والتقدم اللذين تحققا في هذا الجانب في تربية ذلك العصر، ولعله يكون من الواضح أيضًا مدى التشابه والتقارب بين دروس طلاب الطب ونظرائهم في كلية الآداب⁽¹³⁶⁾.

هذا ومع أن المقررات الدراسية لكلية الطب كانت تشمل مؤلفات اليونان مثل جالن وهيبو قراط، بالإضافة إلى قسطنطين الأفريقي واسحق بن سالم ونيقولا السالرنوي، إلا أنه مع قدوم القرن الرابع عشر، وصلت تراجم كاملة لمؤلفات العرب مثل ابن سينا وابن رشد والرازي وعلي بن العباس، وعندئذ أصبحت هذه المؤلفات هي عماد تدريس الطب في الجامعة⁽¹³⁷⁾.

أما بالنسبة للقانون الكنسي فلم تكن دراسته بجامعة باريس ذات طابع علمي، وذلك على العكس من دراسته بجامعة بولونا أو الجامعات التي كانت على شاكلتها، هذا فضلًا عن أن كلية القانون بجامعة باريس كانت أدنى مستوى من مدارس تولوز وأنجرز وأورليان وذلك، حيث أن

الباب هو نوربوس III قد منع دراسة القانون المدني بباريس وجعل الدراسة مقتصرة على القانون الكنسي وحده دون أن يدري أن مثل هذه الدراسة لا يمكن أن تزدهر في بيئة لا يدرس فيها القانون المدني⁽¹³⁸⁾. أما بالنسبة لهيكل الدراسات في القانون الكنسي فقد كان قريباً من هيكل الدراسات في كلية اللاهوت، فحائز البكالوريا في القانون الكنسي كان يقرأ ويعلق تحت إمرة معلم على مراسيم جراتيان، والتي أضيفت إليها المراسيم البابوية لجريجوري التاسع بعد أن وجهها إلى السلك الجامعي بباريس⁽¹³⁹⁾. على أية حال فإن دراسة وتعليم جازر البكالوريا كانت تنقل معارفه إلى زملائه في الدراسة الأصغر سناً، وذلك حين يكون قادرًا على التدريس، كما أن دراسات المرشح القانوني كانت أقصر من دراسات المرشح اللاهوتي، بيد أنها كانت في النهاية تصل به إلى درجة حائز ليسانس ومعلم، كما أن مجرى حياته كان شبيهاً بمجرى حياة زملائه في الكليات المناظرة، إلا أن محدودية كراسي الأستاذية في كلية القانون كانت أكثر صعوبة للحصول عليها عنها في كلية اللاهوت، ولهذا السبب كان الكثير من حائزي البكالوريا في القانون لا يتمكنوا من الوصول إلى الليسانس أو الأستاذية في تخصصهم⁽¹⁴⁰⁾.

على العكس من ذلك، فإنه في الوقت الذي كانت تمتلك فيه الكنيسة إرثاً واسعاً في جميع الميادين، فإن دراسات القانون الكنسي كانت تحتفظ لحائزيها بمصادر مريحة، وذلك بالسماح لهم بالحصول على وظائف في إحدى الكنائس الكبيرة التي كانت تدعوهم لإدارتها نظراً لدراساتهم المتخصصة وكفاءتهم المطلوبة لها، ولهذا السبب فإن طلاب القانون الكنسي قد أخذوا في التزايد بوجه خاص في القرن الرابع عشر، ففي هذا الوقت صار يتجاوز عدد حائزي البكالوريا في القانون عند نظرائهم في اللاهوت بجامعة باريس، وذلك بعد ما كانوا لا يشكلون إلا أقلية في الكليات العليا في القرن الثالث عشر⁽¹⁴¹⁾.

لقد كان ذلك هو عصر الدراسات اللاهوتية الشاملة التي أعدها وأشرف عليها جماعات الرهبان الفقراء التي لم يكن يعينها القانون الكنسي في شيء، والتي سوف تمنع دراسته عنهم البابوية وذلك كي تحافظ على الحالة الدينية التي هم عليها⁽¹⁴²⁾. ويمكن القول أن هذا النظام كان

يهتم أساسًا بإدارة الموارد الكنسية، وكان لا يحق لهذه الجماعات التي كانت قد نذرت نفسها للفقير وهداية الآخرين والدراسة والتفكير، أن تمارس هذا الكهنوت وإدارة سلطة مالية وإدارية في الكنيسة.

ولهذا السبب فإن حائزي القانون غالبًا ما سوف يكونون أعضاء في السلك الأسقفي بباريس والمدن الأخرى، ويبدو أن كلية القانون الكنسي بباريس اشتهرت بكثير من المساوي والعيوب مثل تفشي الرشوة وشراء الدرجات العلمية وغيرها، حيث كانت هذه الكلية قد ضمت فئة كبيرة من أبناء الطبقات الراقية الذين طمعوا في الحصول على مناصب عالية في الكنيسة، عن طريق دراسة القانون الكنسي⁽¹⁴³⁾. بالإضافة أيضًا إلى الإعفاء من الخدمة الكنسية بحجة قضاء خمس سنوات في الدراسة. كذلك فإن الهدايا والرسوم والنفقات التي كانت تدفع من جانب المرشحين للحصول على درجة عملية جعلت من العضوية بمجلس الكلية امتيازًا يمكن من يحصل عليه من الثراء، ومن ثم فقد عمد كل من كان يشغل هذا المنصب إلى احتكاره، وبالتالي لم يعد من حق كل الحاصلين على الدكتوراه أو الأستاذية التمتع بحقوق أعضاء مجلس الكلية⁽¹⁴⁴⁾.

وكما سبق القول، كان خريجو كلية الآداب من ناحية، وحائزو الكبالوريا بالكليات العليا الذية أثبتوا صلاحيتهم التربوية من ناحية أخرى، يتم تقديمهم إلى مستشار نوتردام أو مستشار سانت جينيفيف المنافس لهذا الأخيرة في الآداب، وذلك للحصول على درجة حائزي ليسانس في تخصصاتهم، وبالنسبة للآداب حيث كان عدد الطلاب كبير، فإن الترقية إلى هذه الدرجة كانت تحدث مرارًا بيد أن الوضع كان يختلف في الكليات العليا حيث كان المرشحون أكثر ندرة، ومن ثم فإن الوصول إلى الليسانس في هذه الكليات. كان يتم فحسب كل عامين⁽¹⁴⁵⁾، وكما سبق الذكر أيضًا أن الليسانس لم يكن في معظم الأحوال سوى إجراء شكلي، فالامتحان المتعلق بذلك طبقًا للاتحة روبر دو كورسون يقتصر على المعلمين الذين يحكمون على أخلاقيات المرشح والدراسات التي تلقاها من خلال متابعتهم له أثناء فترة دراسته، وكان الأمر في الغالب يتعلق

بمناقشة بين حائزي البكالوريا والمعلمين المعينين لامتحانه، في حين كان المستشار يتابع بصفة عامة رأى لجنة الامتحان، وما لم يكن هناك استثناء فإن الاختيار كان يجري أحياناً بدون حضوره⁽¹⁴⁶⁾.

على أية حال، فقد كانت لجنة الامتحان تصنف المرشحين حسب ترتيب أحقيتهم وكان يتم إعلان النتائج رسمياً في نوتردام من قبل المستشار أو مستشار دير سانت جينيفيف⁽¹⁴⁷⁾.

ومن خلال تشريعات روبرت دو كورسون يمكن عرض الدراسات في باريس في شكلها الأولى، والتي من الجائز أن يطلق عليها أسم (المنهج المدرسي) والقائم على امتحان الطلاب في كتب محددة سنوياً، وهي الفكرة الشائعة في كلية القانون ببولونا، إلا أن احتمال أخذ كلية الآداب بهذا المبدأ غير مرجح⁽¹⁴⁸⁾.

كذلك فإن أهم ما يلاحظ على منهج الآداب خلوه من أعمال وموضوعات الشعراء والمؤرخين والخطاء من أدباء روما القديمة. أما بالنسبة للمقررات الدراسية المتعارف عليها من خلال تشريعات 1215، 1252، وكذلك من خلال الوثائق الخاصة بتلك الفترة، والتي كانت مقررة للحصول على الليسانس من كلية الآداب فكانت على النحو التالي:

أولاً: في الأجرومية، مجموعة قواعد برسكيان "PrisCians"، وكذلك كتاب "Doctrinale" لمؤلفه اسكندر دوفيلاردى بالإضافة إلى "Grecismus".

ثانياً: في المنطق، كتاب أورجانون أرسطو وكتاب "De anima"، وكتاب بورفيرى "Isagoge"، وكتاب "Barbarismus" ثالث كتب "Ars mairo" بالإضافة إلى "Topics" لبونثيوس، وكتاب جلبرت دولا بوريه "Sex Principia".

ثالثاً: في الفلسفة، كان أهم كتبها "Nichomochon Ethics" لأرسطو والمكون من ثلاثة كتب الأول منها بعنوان "Ethica Vetus"، والكتاب الثاني والثالث من "Ethica Nova" بالإضافة إلى العلوم المدرجة في الفنون الحرة والتي كانت تدرس دون التركيز على كتب

ومن الواضح أن تشريعات كورسون لم تشير إلى البكالوريا من أي جانب، حيث أن هذه الدرجة لم تعرف إلا بعد مرور فترة طويلة بعد كورسون⁽¹⁵⁰⁾. أما بالنسبة للمناظرات فكانت محدودة أثناء الاحتفالات وأعياد الصوم، وكان يطلب عليها التمرينات، وفي هذه المناسبات يكون المرشح للحصول على درجة الليسانس الذي حصل سابقاً على البكالوريا هو أحد المناظرين، بينما يكون خصمه في المناظرة طالباً ممن هم أقل شأنًا. وكانت هذه المناظرات اختيارية في البداية وربما نشأت وظهرت بين الدارسين دون المعلمين، ولكنها أصبحت منذ منتصف القرن الثالث عشر تقليدًا رسميًا وإجباريًا لا بد وأن يشترك فيه كل طالب بالآداب يرغب في الحصول على الليسانس أو الأستاذية⁽¹⁵¹⁾.

وقد أخذ الامتحان المؤدى أمام المستشار يطبق في حالات نادرة إلى أن انتهى تطبيقه مع مرور الوقت، وذلك في الكليات العيا التي كانت تعقد هذه الامتحانات في غياب المستشار، ثم انتقل هذا التقليد بعد ذلك إلى كلية الآداب وبدأ يطبق فيها شكل امتحان يديره أربعة ممتحنين تعيينهم أمة المرشح، وكان يعقد هذا الامتحان في الفترة ما بين الامتحان المنعقد أمام المستشار والأربعة ممتحنين، وامتحانات المحاضرات التي كان يلقيها المرشح على غرار محاضرات أستاذه⁽¹⁵²⁾.

كان الامتحان الأول المنعقد أمام المستشار والممتحنين الأربعة يشتمل على التحرى عن إقامة المرشح أو المتقدم للامتحان ونسبة حضوره للمحاضرات وسلوكه وآراؤه للتدريبات المطلوبة، إلى جانب بعض الأسئلة لقياس تحصيل الطالب في بعض الكتب، وعند نهاية هذا الامتحان يقوم المستشار بالاستعانة بأصوات الممتحنين بإعلان قبول من اجتازوا هذا الامتحان والسماح لهم بالانتقال إلى مرحلة تالية⁽¹⁵³⁾. كان يتم إرسال المرشحين الذين نجحوا في كل الامتحانات المفروضة عليهم إلى المستشار على دفعات (كل دفعة ثمانية أفراد) وذلك لنيل الرخصة، وعند منح هذه الرخصة كانت ترتب أسماء المرشحين ترتيبًا تنازليًا وذلك حسب درجة

النجاح، وكان هذا الترتيب والذي كان على المستشار السير عليه وإتباعه عند منح الرخصة، يمثل الخطوة والوسيلة الوحيدة للتقدم والتميز في جامعة باريس، حيث كان الشرف الوحيد الذي يناله الطالب أثناء الحصول على الليسانس، هو أن يشغل ترتيباً أعلى وسط أقرانه، وكانت هذه الشعيرة لا تقل في حد ذاتها عن أهمية ومكانة الدرجة العلمية نفسها⁽¹⁵⁴⁾. بعد ذلك يقوم المرشحون الناجحون في يوم منح الرخصة بالسير في موكب، مرتدين الزى الجامعي ويبدو أن هذا الموكب كان يبدأ من دير ماتوران حتى قصر الأسقف أو دير سانت جنييف، وذلك بصحبة رئيس الجامعة ومندوبى الأمم الأربع، وبعد ذلك يتم تقديم المرشحين الناجحين إلى المستشار ويطلب منهم إلقاء بعض الكلمات الصغيرة أمام الجمع الغفير ثم يركعون أمام المستشار، حيث يمنحهم إجازة الليسانس باسم الثالوث المقدس وينالون البركة الكنسية، وبذلك يصبح لهم الحق في البدء في التدريس بكلية الآداب⁽¹⁵⁵⁾.

وقد وصل الفاصل الزمني ما بين الحصول على إجازة التدريس والممارسة الفعلية لهذه المهنة ونيل العضوية حوالى العام، فقبل الاحتفال السابق كان على حائز الرخصة المشول أمام أمته للحصول على إقرارها واعترافها بحقه في الترقية والتدريس، وبمجرد أن ينال ذلك، يقسم على أن يطيع رئيس الجامعة والكلية والأمة التابع لها، وأن يمتنع عن فعل كل ما حرّمته الجامعة والكلية والأمة. كما كان في ليلة ما قبل الاحتفال يشترك في مناظرة فريدة من نوعها تعرف بأنها صلوات المساء، بعدها يصبح من حقه إلقاء محاضراته الافتتاحية في حضور أعضاء الكلية، وذلك لتسلم الكتاب والخاتم دليل إقرانه بالعلم من يد عضو مجلس الكلية أو الرئيس أو أستاذه ويصافحه ويقبله قبله الأبوة. وهكذا ينتهى الحفل العام فينصرف الأستاذ الجديد في موكب كبير يحيط به زملائه وأصدقائه وسط دق الطبول⁽¹⁵⁶⁾. وكان على العضو الجديد أن يقدم بعض الهدايا والحلوى لكل أستاذ من أعضاء الهيئة التي أنضم إليها والتي قبلته عضواً فيها، ولكن لا شك في أن الغرامة الكبيرة التي كان يتحملها هذا الزميل الجديد هي الوليمة التي فرض عليه أن يعدها لزملائه وأصدقائه، وقد غالى البعض في هذا النوع من الحفلات بدرجة كبيرة⁽¹⁵⁷⁾.

وقد اختلفت مدة الدراسة بكلية الآداب من حقبة لأخرى، فقد حددها روبرت دو كورسون بستة أعوام وجعل الحصول على إجازة التدريس عند سن العشرين، بينما في تشريعات الأمة الإنجليزية الصادرة في 1252، فقد أقرت مدة الدراسة بخمس سنوات أو أربع على الأقل، حيث يكون السن عند انتهاء الدراسة في الآداب هو التاسعة عشر. ويبدو أن جامعة باريس كانت تميل دائماً لتقليل مدة الدراسة والتعجيل بالحصول على البكالوريا وكذلك الليسانس الذي قلت مدته هو الآخر في بداية القرن الرابع عشر ليصبح خمس سنوات بدلاً من ستة (158).

أما فيما بكلية اللاهوت فالعكس كان صحيحاً، حيث أخذت الدراسة بهذه الكلية تزداد عما حدده روبرت دو كورسون، وذلك رغبة في الحفاظ على أهمية ومكانة هذه الكلية وأساتذة اللاهوت، فضلاً عن الحد من زيادة عدد الطلاب لسهولة السيطرة عليهم وتلقيهم العلوم اللاهوتية كما ينبغي. فرغم أن كورسون اشترط قضاء خمس سنوات دراسية للحصول على البكالوريا، فإن الحصول على الدكتوراه كان يتطلب قضاء ثمانى سنوات دراسية أخرى (159).

وكان على حائز البكالوريا في اللاهوت أن يشترك في المناظرات الأكاديمية في مادته الدراسية، حيث كان يقوم تحت إمرة معلمة بتدريس الكتاب المقدس وأحكام بطرس لمبارد، وقد كان التعليق على نصوص الكتاب المقدس تقليد قديم، ورغم ارتفاع سعر المخطوط وتكلفته العالية، فقد كان هناك طلاب يستطيعون الحصول على نسخ شخصية منه، إلا أن هؤلاء يشكلون حالات استثنائية. وبصفة عامة فقد كان يتم البحث في النص الكامل للكتاب المقدس في الأديرة ومكتبات الطوائف الدينية، والتي استخدمت تعليم هذا الكتاب داخل نظامها الدينى، إلا أن الأمر كان يتعلق غالباً بالترجمة اللاتينية للكتاب المقدس والتي كانت أكثر شيوعاً في القرن الثالث عشر، حيث أن المتخصصين الذين كانوا يلجأون إلى النص الأصلي نادرين باستثناء الرهبان الفقراء الذين أدخلوا تعليم اللغات الشرقية في أديرتهم (160).

وقد كان حائزو البكالوريا في اللاهوت يستخدمون كتباً موجزة ومتنوعة للتعليق على فصول الكتاب المقدس الرئيسية وكان أشهر هذه الكتب هو الكتاب الذي ألفه في نهاية القرن

الثاني عشر بطرس الأكل⁽⁶¹⁾ الذي كان معلمًا للاهوت في نوردام ومستشارًا للأسقف ووضعت جامعة باريس في ذلك الوقت تحت وصايته. وكما يكشف عنه عنوان الكتاب الذي ألفه Historia Scholastica التاريخ المدرسي فإنه كان يراد به ذلك التاريخ المقدس والمخصص للمدارس والطوائف الدينية، والذي كان شائع الاستخدام في النصف الأول من القرن الثالث عشر في أوساط حائزي بكالوريا اللاهوت⁽⁶¹⁾. وكان هؤلاء الأخيرون موضوعون تحت رقابة وسلطة أساتذة نوردام أو الأديرة الأخرى التي يتمون إليها، فقد كانت قراءة النصوص المختارة من الكتاب المقدس والتي يقومون بالتعليق عليها بمساعدة التاريخ المدرسي لبطرس الأكل، تسمح لهم بالفعل بشرح ونقل معارفهم إلى زملائهم الطلاب الأصغر سنًا⁽⁶²⁾، وكان يتعين على حائز البكالوريا أن يظهر قدرته على حل رموز النصوص المقدسة وشرحها باختصار، إلا أن نشاطه في هذا المجال لم يكن يتجاوز عددًا محدودًا من الكتب التوراتية عادة كتابين أحدهما للعهد القديم، والآخر للعهد الجديد، والتي كان قد تعلم قراءتها وتدريسها تحت وصاية المعلم. وفي مجموع نص الكتاب المقدس وفصوله الأساسية، كان كتاب التاريخ المدرسي يسمح له بالإجابة بشكل مناسب على الأسئلة الموجهة له في هذا الشأن⁽⁶³⁾.

ومع ذلك فإنه بدءًا من النصف الثاني من القرن الثالث عشر، فإن انطلاقة نقد التوراث في أديرة جماعات الرهبان بباريس سوف تؤدي إلى لجوء الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان، بشكل متزايد إلى النص الكامل للكتاب المقدس في لغته الأصلية، كما أن الجميع سوف يطالبون بتلاميذهم بالقراءة الكاملة الغير موجزة لهذه الدرجة في النظام الجامعي بباريس خاصة في اللاهوت. ومن المعروف أن قراءة وشرح كتاب الأحكام قبل منتصف القرن الثالث عشر كانت قد أخذت مكانًا هامًا مثل أهمية الكتاب المقدس نفسه، بيد أن هذه الأهمية لهذا الكتاب كانت محل انتقاد من أولئك الذين يرون أن الكتاب المقدس ينبغي أن يكون له السبق في التربية المسيحية⁽⁶⁴⁾. بالإضافة إلى تشديدهم على تثيف الطلاب، ولذلك استحدثت كلية اللاهوت في

(*) سمي بهذا الإسم حيث أنه كان معروف عند شدة النهم للقراءة وخاصة في كتب آباء الكنيسة واللاهوت التي تخصص في التدريس فيها بمدرسة نوردام بباريس.

النصف الثاني من القرن الثالث عشر درجة حائز على البكالوريا مثقف، وكان لا بد وأن يكون هذا النظام نهائيًا، نظرًا لنقص الكراسى الخالية التي تستوعبهم، فإن الكثير من علماء اللاهوت صاروا ينهون حياتهم المهنية عند هذه الدرجة⁽¹⁶⁵⁾.

ومن الناحية العملية، كان بكلية اللاهوت ثلاث درجات ليسانس، وكانت إجراءات القبول للأولى والثانية تماثل في رسميتها إجراءات الكليات العليا الأخرى، حيث كان يتم النجاح عن طريق إلقاء محاضرات خاصة وهذه الدرجات الثلاث هي: (1) Biblicus Ordinarous (2) Sententiarus (3) Baccalorus Formatus، وهذه الدرجة الأخيرة كانت تخص حائزو الليسانس الذين أكملوا دراسة تسعة أشهر في كتاب الأحكام. وبعد الحصول على هذه الدرجة وحتى وقت الحصول على الرخصة، كان من طالب اللاهوت البقاء بباريس لحضور المناظرات أو المشاركة فيها، وكذلك حضور مختلف أنشطة الكلية⁽¹⁶⁶⁾، كما كان يتم في بعض الأحيان استدعاء الحاصلين على درجة الليسانس الثالثة Baccalorus Formatus لإلقاء إحدى المحاضرات الجامعية أو لرئاسة مؤتمر كان يعقد في الأغلب وقت الظهيرة وذلك بعد انعقاد مؤتمر أو محاضرة الأستاذ في الصباح، كما يذكر أن خطب هذه الفترة من العصور الوسطى لم تكن تميل إلى الإيجاز وإنما كانت تستمر لأوقات طويلة تفوق الثلاث أو الأربع ساعات أحيانًا⁽¹⁶⁷⁾.

لقد كان يتم منح الرخصة أو الإجازة بكلية اللاهوت قبيل عيد القديسين الذي كان يعقد احتفالاً سنويًا بالتناوب، وكان يطلق على العام الذي يعقد فيه احتفال هذا العيد اسم "اليوبيل"، حيث كان الأساتذة يشاركون المستشار في الامتحان ويحددون له من يستحق منح الإجازة ومن لا يستحقها، على أن ذلك كان يتم في سرية تامة مسبقًا أي أن امتحان منح الرخصة كان مجرد إجراء شكلي فقط⁽¹⁶⁸⁾.

وكل ما كان يتم في هذا الامتحان بكلية وبحضور المستشار هي مجموعة من الأسئلة تطرح بخصوص مدة الإقامة بباريس وحضور العدد اللازم من المحاضرات وعمل كافة التدريبات والأنشطة التي تقتضيها وتنص عليها التشريعات الجامعية، ثم مجموعة من الاستفسارات حول

ما إذا كانت قدراته وشخصيته وتدنيه تجعل من حقه الحصول على الرخصة أم لا⁽¹⁶⁹⁾، كما أنه أصبح من النادر في هذا الوقت أن نسمع بأن أحداً قد فشل في نيل رضا واستحسان المتحنيين، وذلك حيث أن الأستاذ كان لا يقوى على تقديم أحد تلامذته لهذا الامتحان إلا بعد أن يتأكد من حضوره للمحاضرات وقدراته العلمية، كما وأنه لا يريد أن يسيئ إلى سمعته بتقديم طالب لا يستحق الحصول على هذه الدرجة⁽¹⁷⁰⁾.

إن الالتزامات الخاصة بحائزي البكالوريا والمعلمين توضح بشكل مدهش تدرج الدرجات في جامعة القرون الوسطى، فحائز البكالوريا كان يشارك في الوظائف التربوية للمعلم قبل أن يمارسها بنفسه كمستقل، فكان يدرّب نفسه على ممارسة المهنة، كذلك فإن الأستاذة كانوا يدرسون في الصباح حيث كانت تسمى دروسهم هذه باسم الدروس الاعتيادية، وذلك لأنها كانت متمشية مع وضعهم بصفتهم أستاذة، أما بالنسبة لحائزي البكالوريا فإن محاضراتهم لزملائهم الأصغر سنًا كانت تجرى عادة قبل وجبة الغذاء⁽¹⁷¹⁾. فهم كانوا يعدون الطلاب الذين يخاطبهم ويلقون عليهم مثل هذه المحاضرات كي يتلقوا الدروس في الصباح التالي على يد الأستاذ، وقد أطلق على هذه المحاضرات اسم المحاضرات السريعة أو الموجزة في النصوص. فكانت هذه الفئة من حائزي البكالوريا يعرفون حينئذ بالبديل، والتي أصبحت تعرف في الجامعات الحديثة اليوم باسم المعيد، حيث كانوا في مجموعهم يلبنون احتياجات وهياكل المجتمع في ذلك الوقت، حيث كان عدد الشباب الذين يواصلوا دراساتهم خاصة الدراسة العليا محدودًا جدًا، ويبين ذلك إحدى الآثار التي خلفتها العصور الوسطى على النظم الجامعية الحديثة⁽¹⁷²⁾.

إن تربية القرن الثالث عشر لتشهد بتقدم كبير في تطوير أساليبها، ذلك أن تطور التعليم مع تحديد الالتزامات الخاصة بالمعلمين وحائزي البكالوريا ولاسيما فيما يتعلق بالآداب، يمثل أهمية كبرى في تاريخ التعليم في ذلك الوقت وفي إدراك ضرورة تطور الجانب التنظيمي الجامعي فيما يتعلق باختلاف الدرجات العلمية. كذلك فإن الوضع الجديد أصبح يتطلب تخصيص أماكن لممارسة هذه الأنشطة التربوية والتقويم الدقيق للعام الجامعي. لهذا السبب كان يتعين على هيئة

المعلمين والطلاب أن تتخذ في عام 1245 أحكامًا هامة في هذا الخصوص، وهذه الأحكام تستوجب إشارة خاصة لأنها توضح بشكل أمين إلى حد ما تكوين هذا الجانب من الإطار التربوي لجامعة باريس (173).

أما بالنسبة للمقار الدراسية، فإن أحكام الهيئة الجامعية أصبحت تفرض نفسها على كل حال، فمع تدفق المعلمين والطلاب على باريس، كان لا يمكن بالفعل إلقاء المحاضرات في الهواء الطلق أو في مباني الصدقة، كما كان الحال زمن أبيلارد، لذلك فإن المتطلبات الجديدة التي تطلبتها مدة الدراسة كانت تحتاج لإطار يمكن أن يسمح للطلاب بمواصلة دراسة منتظمة، بيد أن الأماكن كانت نادرة في عاصمة كانت في غمرة التوسع، ونقص هذه الأماكن سوف يلمس أيضًا في إسكان الطلاب وهو الأمر الذي كان يؤدي إلى العديد من التجاوزات، وحمل معه مضاربات محمومة على الإيجارات التي يتعين على الأساتذة دفعها للمدارس التي كانت تؤجر لهم لهذا الغرض (174).

هذا وكانت شروط الإيجار لهذه المدارس جائرة، كما كانت هذه الأماكن التي يستأجرها المعلمون لأنشطتهم التعليمية يعاد تأجيرها لآخرين بأسعار أعلى كثيرًا، كما كان المعلم يستطيع أيضًا أن يشغل ويلا مبرر عدة مدارس، أو أنه يسكن بلا حق في مقر زميل له. وباختصار فإن الوضع الذي رسم للجامعة لكي يبرر تدخلها لحماية نفسها من هذه الإساءات كان غامضًا، بيد أنه لإصلاح هذه التجاوزات القائمة، فقد قررت الهيئة الجامعية من ناحية المبدأ، ألا يمتلك الأساتذة عدة مدارس، كما أنه غير مسموح أن يحمل حائزو البكالوريا محل الأساتذة في إعطاء الدروس مهما كانت الأسباب، ويوضح ذلك أن الهيئة الجامعية كانت بالفعل تتوجه نحو تنظيم أكثر دقة من لائحة حائزي البكالوريا، كما أن تدخلها بهذا الشكل يعلن عن قرب سن تشريعات خاصة لمواصلة الدراسة، وهي اللائحة التي تم تحديدها في عام 1252 على يد الأمة الإنجليزية كما سبق القول (175).

لقد اتخذت لائحة عام 1245 كذلك أحكامًا أخرى تعد ذات بعد عام، أحد هذه الأحكام -

وهو الذي احتل مكاناً بارزاً في هذه اللاتحة - قد صار سارياً زمنًا طويلاً، فهو يوضح أن المعلمين الأوصياء في مقدورهم وحدهم أن يكون لديهم مدرسة، وهذا النعت الذي يصف هؤلاء المعلمين باسم المعلمين الأوصياء قد يكون مبتكراً في القرن الثالث عشر، ولكنه استخدام أيضاً في هذا العصر في الكليات العليا، وذلك لتحديد هؤلاء المعلمين الذين يتولون مسئولية مؤسسة دراسية أو تدريب الرهبان في طائفة دينية⁽¹⁷⁶⁾.

وكما يشير إليه التنظيم الذي نحن بصده، فإن المعلم الوصي في الآداب، هو ذلك الذي يدير مدرسة لتعليم هذه المواد الأدبية والذي يستأجر مقرأ له لهذا الغرض، وهذه الممارسة التي تبدو قديمة، تكشف من جانبها عن الأهمية التي الأدبية والذي يستأجر مقرأ له لهذا الغرض، وهذه الممارسة التي تبدو قديمة، تكشف من جانبها عن الأهمية التي يكتسبها هذا التأجير في ذلك العصر. فهو يكشف عن وجود فئتين من حائزي الأستاذية في الآداب المعلمين الأوصياء الذين يمارسون مهنتهم بشكل نظامي ويمتلكون مدرسة من ناحية، والمعلمين غير الأوصياء الذين تخلوا عن التعليم بشكل منتظم من ناحية أخرى، وهؤلاء الأخيرين قد يتركون مهنتهم على الفور بعد الحصول على الأستاذية أو بعد فترة طويلة، وذلك نظراً لأنهم أثرياء ويستطيعون العيش من مواردهم الخاصة، أو لأنهم يواصلون دراستهم في كليات أخرى من الكليات العليا وفي كليات الحالتين فقد كانوا على الدوام ضمن هيئة كل الآداب، وكانوا في بعض الحالات يحتفظون بالحق في حضور اجتماعاتها⁽¹⁷⁷⁾. هؤلاء المعلمين غير الأوصياء كانوا لا يستطيعون أن يخصصوا لهم مدرسة للتعليم إلا بعد الحصول على موافقة السلطات الجامعية حيث كان تعليمهم بصفة موسمية أو مؤقتة، وللاستفادة من ذلك، فقد كان يتعين على المعلم الغير وصي أن يتعهد بممارسة الأنشطة التعليمية طيلة مدة العام الجامعي أو على الأقل طيلة الفصل الدراسي الأول من أكتوبر وحتى نهاية الصوم الكبير. ويقوله لهذا الشرط يمكنه أن يستأجر مدرسة وتكون بالفعل مقرأ لتدريسه، وكان يخصص لذلك مقابل مادي تحده الجامعة هؤلاء المدرسين الذين سوف يتقدمون بطلباتهم للجامعة بهذا الشأن كل عام قبل بداية الدروس⁽¹⁷⁸⁾.

ولتوحيد مدة شغل المدارس من جانب مختلف المعلمين الأوصياء مع تحاشي حدوث عدم مساواة لهم مع الأساتذة غير الأوصياء، فقد كان من الملائم تحديد معدل العام الدراسي بشكل نهائي يطبق على الجميع، ولهذا فإن تنظيم عام 1245 يشتمل على توجيهات في هذا الخصوص⁽¹⁷⁹⁾.

ويعد أن أشار إلى الوسائل اللازمة لمحاربة التجاوزات المتعلقة بتأجير المدارس، فإن تنظيم عام 1245 يوضح بوجه خاص أن إجازات عيد الميلاد تبدأ في 18 ديسمبر وتنتهى في 8 يناير، وذلك بعد يومين من عيد الملوك الذي كان يحتفل به في فرنسا العصور الوسطى بنفس الشكل الرسمي لعيد ميلاد المسيح⁽¹⁸⁰⁾. وهذا التنظيم يكمل القرارات البابوية التي كانت قد حددت الإجازة الصيفية للمعلمين والطلاب بشهر واحد، وعلى ما يبدو أن هذه الإجازة كانت تقع ما بين 26 أغسطس حتى الأول من أكتوبر وهو عيد القديس ريمي⁽¹⁸¹⁾.

لقد أمر الباب جريجورى التاسع بالألا تزيد العطلة الصيفية في باريس عن شهر واحد، ولكن البابا لم يستطيع أن يفعل شيئاً حيال الإطالة للإجازات والعطلات الدراسية وخاصة عطلة نهاية العام⁽¹⁸²⁾. وقد كانت بداية الدراسة تأخذ شكل رسمى حيث كانت تشغل هذه الفترة بإلقاء المحاضرات العادية المنتظمة، فالفترة من أول أكتوبر وحتى عيد الفصح كانت تمثل فترة دراسية متميزة بأكبر عدد من المحاضرات العادية، أما الفترة ما بين عيد الفصح وحتى نهاية يونيو فكان يميزها قلة عدد هذه المحاضرات⁽¹⁸³⁾.

بالإضافة إلى العطلة السنوية وعيد رأس السنة، كان هناك عطلة عيد الفصح والى تستمر لمدة أسبوعين فضلاً عن أعياد الكرنفال التي كانت تمتد ثلاثة أسابيع، كما تقرر أن يكون يوم الخميس من كل أسبوع برم عطلة، وذلك إن لم يحدث أثناء الأسبوع حفل جامعى يستدعى تعطيل الدراسة في يوم آخر غير يوم الخميس⁽¹⁸⁴⁾.

وقد اختلفت السن التي يتقدم فيها الطالب للالتحاق بالجامعة، وإن كان يبدو أن هذه السن تراجعت في معظم الأحيان بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة. فكان على الطالب أن يخرج من بلدته في سن مبكرة ويسلك طريقة الملى بالصعوبات حتى يصل إلى باريس أو بولونا أو

أكسفورد، وعندئذ يبدأ في إعداد نفسه للحياة وسط بيئة جديدة. وصعبة لممارسة حياة جديدة. فإذا قبل بالجامعة فإنه لا يجبر على الالتحاق بفرع معين أو التلمذ على أستاذ محدد، بل كانت له مطلق الحرية في اختيار نوع الدراسة والأستاذ، وكذلك المسكن الذي يلائمه⁽¹⁸⁵⁾.

هذا وقد كانت نوعية الطالب أما أن يكون قساً أو راهباً أو رئيس دير أو تاجر، وقد يكون متزوجاً أو أعزب أو حتى غلاماً فلم يكن يطلب منه سوى أن يكون عارفاً باللاتينية، وأن يكون قادراً على أداء أجر زهيد لكل أستاذ يدرس عليه، فإن كان فقيراً، فإنه قد يستعين على ذلك بمعونه تسديدها إليه قريته أو كنيسته أو أصدقاؤه أو أسقفه⁽¹⁸⁶⁾.

وكان الطالب الذاهب إلى الجامعة أو العائد منها يتقل عادة بالمجان ويجد الطعام والمأوى في الأديرة التي تقابله في الطريق، وكان بمجرد قدومه تستقبله جماعة الطلاب من إقليمه أو أمته التي يتسبب إليها وترشده إلى مسكن يعيش فيه، ربما مع أسرة فقيرة وذلك إذا لم يحظ بمسكن في المؤسسات الأخرى، وربما يترك في بيت الطلاب لتقل بذلك نفقاته⁽¹⁸⁷⁾. هذا وقد وضعت إجراءات مشددة على الطلبة لتنظيم حياتهم، وأهمها تحريم حمل السلاح إلا في حالات استثنائية وكذلك التشاجر والمقامرة التي كانت من أكثر مساوئ الطلبة، وكانت تقوع العقوبات عليهم بالحرمان من الكنيسة أو الغرامات المالية. وكان الطلاب يتناولون وجبتين في اليوم الواحد، إحداهما وجبة الغداء في التاسعة أو العاشرة صباحاً، والأخرى وجبة العشاء وكانت في الخامسة مساءً بعدها تأتي فترة الاستجمام والترويح عن النفس بالتره والمرح والشراب، يعودون بعدها لنزلهم لاستذكار دروسهم⁽¹⁸⁸⁾. هذا إلى أن تسول الطلبة أحياناً، قد أتخذ طابعاً دينياً يشبه تسول الراهب، حتى اعتبر الإحسان إلى طالب مقابل الدعاء للمحسن بالثواب لا يقل أثراً وأهمية عن تقديم زكاة للكنيسة ورجالها. وكانت الجامعة تساعد مثل هؤلاء الطلاب المعوزين بإعفائهم من جزء من الرسوم المستحقة عليهم⁽¹⁸⁹⁾. وقد أدى احتشاد أعداد كبيرة من الطلاب الأحداث والشبان في المدن الجامعية إلى كثير من المفاسد حتى اتضح للجامعات أنه لا بد من فرض رقابة على الطلبة، لاسيما إذا كانوا أغراباً يعيشون في مكان ضيق بعيدين عن ذويهم، ولم يلبث أن ازداد هذا الشعور بضرورة فرض رقابة

على حياة الطلبة في باريس بالذات التي امتاز طلاب الآداب فيها بجدائة سنهم⁽⁶⁾.

وقد كانت مشكلة توفير المساكن المناسبة هي إحدى المشاكل الأساسية التي واجهت الطلبة المغتربين في المدن الجامعية وقد تغلبوا على هذه المشكلة باشتراك كل مجموعة في استئجار منزل خاص بهم تحت رئاسة أقدمهم، وبالتدرج انتقلت هذه الرئاسة إلى أحد أساتذة الجامعة⁽¹⁹⁰⁾.

إن هيكل العام الدراسي بباريس وما يفرضه من نظام بدءًا من النصف الأول من القرن الثالث عشر ليسمح بتوضيح ظروف معيشة الطلاب وكذلك معلمهم، وذلك بما أنهم كانوا لا يقيمون لدى الطوائف الدينية والكنيسة والأديرة، فإن هؤلاء وأولئك بصفتهم علمانيين كانوا يسكنون لدى أحد المقيمين أو أحد الأسر أو في حجرات تؤجر لهم من قبل بعض المؤسسات والنقابات الأخرى، وكانت المدارس ذات الإيواء الداخلى نادرة في ذلك العصر بالنسبة

(*) لم يكن طلبة باريس في العصور الوسطى معروفين بحبهم للسلام والهدوء، فقد كانوا مشاكسين لدرجة أن السلام يهرب من المكان الذي يتواجدون فيه على حد قول أحد المؤرخين، فهم يسيبون الاضطراب في المدينة أو بين الناس أو داخل الجامعة، وكثير منهم كان يتجول وهو مسلح ويقتحم البيوت ويتشاجر مع المارة، ويقدمون أحيانًا على قطع أصابع البعض بسيوفهم فيندفعون في مشاجرات عنيفة يؤثر الفرسان المسلحون الانسحاب منها، حيث كان ينضم مواطنون تابعون لأمة بعض الطلاب لمساعدتهم في الشجار، وسرعان ما يجد جميع الطلبة أنفسهم متورطون في الشجار وهو ما يضطر الحاكم للتدخل الفوري بهدف حفظ الأمن والنظام الذي على إثره كان ينتج سقوط بعض الحالات من جراء هذا القمع الملكي، والذي يؤدي بالجامعة إلى وقف المحاضرات كما حدث في نزاع 1229م بباريس.

وقد وصف جاك دي فيترى حال الطلاب بباريس ونزاعهم وصفًا دقيقًا ساخرًا - انظر المقالة في:

N. Downs, Basic Documents in Medieval History, New yourk, 1959, P. 134 F; N.

Cantor, The Medieval World (300 – 1300), New yourk, 1963, P. 287 F.

وانظر الترجمة العربية في الكتاب، جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 170 - 171

Haskins, Studies, P. 60

وعن حوادث الشغب التي كان يفتعلها الطلاب وأثرها انظر:

Rashdall, Op. Cit, Vol. II, PP. 427-435

وانظر أيضًا في:

للمعلمين أو الطلاب. ولتقص المؤسسات التي تستطيع استضافة واستيعاب مثل هذا العدد الضخم، فقد اضطر الجامعيون لاستئجار غرف نوم بادية العاصمة، بيد أن الطوائف الدينية كانت تتعسف معهم برفضها الخضوع للتقديرات التي قضى بها البابا جريجورى التاسع بهذا الشأن في ابريل من عام 1231م⁽¹⁹¹⁾.

وفي عام 1237 اضطر هذا الأخير لأن يذكرهم مرة أخرى بواجبهم مشددًا على لجان الخبراء التي كان الملك قد أقر بتكوينها لتسوية النزاع بين الأطراف المتنازعة⁽¹⁹²⁾ ومع ذلك فقد ظل التدخل البابوي بلا أثر جدى بصدد مشكلة المساكن. وفي 5 مارس 1245 وفي نفس اللحظة التي كانت تشجب فيها الهيئة الجامعية المضاربات على المقار الدراسية، أجبر انوسنت الرابع الخليفة الثانى لجريجورى التاسع من جديد في خطابه للطوائف الكنسية والدينية على ضرورة احترام التنظيم السارى في ذلك الوقت⁽¹⁹²⁾.

وعلى غرار سابقة أكد على ضرورة إجراء التحكيم الذي أصدرته السلطة الملكية حيث كلف المستشار الأسقى باختيار الخبراء الذين سوف يصلحون التجاوزات القائمة في هذا المجال، ويموجب الإعفاءات الجامعية ورغبة الخبراء المعينين لذلك، فقد تم نقل هذا الإجراء إلى السلطة الكنسية للإشراف عليه، إلا أن هذا الإجراء لم يسو جميع المشكلات. والواقع أن الكليات ذات الإيواء الداخلى (Colleges) قد بدأت تتزايد إبتداء من النصف الثانى من القرن الثالث عشر لإسكان الطلاب وكذلك المعلمين، ولتحاشى التجاوزات متعددة الأشكال في ذلك الوقت⁽¹⁹³⁾.

وفي هذا المقام ينبغى أن نذكر الأماكن التي تقيمها الأديرة الكبرى في شمال ووسط فرنسا على الضفة اليسرى للنهر بالنسبة للرهبان الذين كانت توفدهم لمواصلة دروسهم في باريس، ففي الفترة السابقة على عام 1250 أنشئت كلية البرناردين التي أقيمت عام 1246 بجسور شاردونيه على مقربة من ميدان موبير، وذلك للمتممين إلى طائفة سيتو بدير كلير فوه الذي أسسه القديس

(*) كان ذلك في 15 يونيو عام 1237.

برنار عام 1115 وهى الكية التي سوف تتسع بدرجة ملحوظة في القرن الرابع عشر كى تستخدم كمحل إقامة باريسية لطلبة طائفة سيتو برمتهم⁽¹⁹⁴⁾.

على الرغم من ذلك، فإن أولى الكليات غير الدينية كانت سابقة على هذا التاريخ ومن المفترض أنها أنشئت في وقت مبكر لتأمين الوجود المادى للطلبة الفقراء داخل نظام جامعى، حيث كان الطلاب من خارج الطوائف الدينية والمجتمعات الكنسية بلا مأوى إن لم تكن لديهم الإمكانيات اللازمة لاستئجار غرفة بالمدينة، فإن هذه المؤسسات كانت مدعوة لأن تنشأ حسب المبادرات الفردية، بيد أن الأزمة في الإيجارات هي التي سوف تساعد على أن تأخذ إنطلاقتها الحقيقية. وأول مؤسسة من هذا القبيل قد أنشئت باريس في أواخر القرن الثانى عشر عام 1180 وهى كلية الثمانى عشر، (College des Dix-huit) والتي قدر لها أن تقام في المستشفى الرئيسى القديم الواقع على ضفة السين من الجهة الجنوبية من فناء نوتردام. ويرجع السبب في تأسيسها إلى كرم أحد أثرياء لندن ويدعى "جوسوس" "Jocius" كان قد اشترى لدى عودته من الأرض المقدسة مكانًا بهذا المستشفى يأوى فيه ثمانية عشر طالبًا فقيرًا⁽¹⁹⁵⁾. وفي مقابل الاستضافة التي قدمت لهم بالمجان، فقد كان يتعين على هؤلاء الطلاب أن يرشوا جثث الموتى في المستشفى الرئيسى بالماء المقدس، وأن يتلوا المزامير السبعة للتوبة والصلوات التي تصحبها عادة. ومن أخلاقيات وممارسات ذلك العصر يظهر لنا جذور تلك الكليات الباريسية، حيث كانت في البداية مؤسسات خيرية تندرج في الهياكل الاجتماعية والدينية لهذا العصر. وفي مقابل الإمكانيات المادية التي كانت تعطى لهم لتأمين معيشتهم، كان الرهبان يتلون القداس ويصلون من أجل الأحياء والأموات أيضًا، وبهذه الطريقة فإنهم كان يدفعون ضريبتهم إلى المجتمع الإنسانى. والخلاصة أن الخدمة التي كانوا يقدمونها إلى هذا المجتمع لم تكن خدمة عابثة، ذلك لأنهم وحدهم الذين كانوا يجيدون القراءة، ومن خلال إقامة القداس الإلهى، فقد كانوا يقومون بجميع الأنشطة الفكرية والروحية اللازمة لهذا المجتمع المسيحى الوسيط⁽¹⁹⁶⁾.

وبالقدر الذي تعتبر فيه أول مؤسسة من هذا القبيل، ويكونها موحية لأخلاقيات ذلك العصر، فإن إقامة كلية الثمانى عشر تشكل نموذجًا فريدًا في هذا الصدد. فهذه الكلية سارت

تتبعها آخريات، كما أن الظروف كانت توحي لها وتجعل لها بالضرورة خصائص مميزة، إلا أنها تندرج جميعها منذ البداية والنشأة في إمتداد المبادرات الخيرية لمجتمع هذا العصر. وينطبق ذلك أيضًا على كلية سان أونوريه "College de st. Honore" التي تأسست عام 1209 بمقتضى هبة وصية من أحد البرجوازيين بباريس يدعى "إتين بروت" Etienne Berot وهذه الكلية تقع على مقربة من الكنيسة التي تحمل نفس الاسم على الضفة اليمنى للسين، وقد استقبلت ثلاثة عشر طالبًا تحت سلطة رئيس كهنة سان جيرمان لوكسيروا⁽¹⁹⁷⁾.

وفي نفس الوقت كان يتعين على تجمع "سان توماس دي لوفر" الذي كان يقع في نفس المكان، أن يأوى هو الآخر مجموعة من الطلاب تحت سلطة مدير يرأس مجموعة من الطلبة الفقراء كان البابا انوسنت الثالث قد أوصى أسقف باريس أن يقيم لهم كنيسة خاصة أو أن يعد لهم ضريحًا، وسوف يطلق على هذا المسئول عن ذلك التجمع مصطلح (provisor) الذي يعنى مديرًا ثانويًا والذي ظهر لأول مرة في تاريخ المؤسسات الجامعية ولم يلبث أن انتشر بعد ذلك⁽¹⁹⁸⁾. ومنذ العصر الروماني وهذا المصطلح يعنى المسئول أو المشرف على الاحتياجات المادية لأي جماعة كانت، وهو يحتفظ بالطبع بهذا المفهوم في خطاب التوصية الذي أرسله البابا انوسنت الثالث لصالح جماعة سان توماس دي لوفر. وفي البداية كانت الكليات الجامعية - ذات الإيواء الداخلى - مؤسسات دينية فقط هدفها الأساسى تقديم الطعام والمسكن للطلبة الفقراء، إلا أنها في نهاية القرن الرابع عشر أصبحت تدريجيًا مؤسسات تعليمية تضم إلى مهمتها التقليدية تنظيم الدروس التي يستخدمها الطلبة الداخليون⁽¹⁹⁹⁾.

وتشهد المصادر أنه بعد تويخ جماعة سان توماس عام 1247 من قبل أسقف باريس بسبب تجاوزاتها العديدة، فقد اتخذت اسم "سان نيقولا دي لوفر" وظلت في مكان قريب من نفس مكانها الذي كانت تشغله منذ البداية. ولكن مثلها مثل معظم الكليات الأولى، فإنها لم تظهر في التاريخ كثيرًا فيما بعد⁽²⁰⁰⁾. وفي الواقع فإن انجازات وتشيدات ذلك العصر سرعان ما كانت تطفى عليها تشيدات أخرى جديدة سوف يكون موقعها في نفس حى الدراسات الذي كان في أوج انطلاقة على الشاطئ الأيسر للسين والذي أخذ يزداد دوره بروزًا.

هذه الملاحظة تنسحب أيضًا على كلية القسطنطينية - أو الكلية الشرقية - والتي أنشئت لتستقبل عشرة طلاب فقراء قد تم توجيههم لدراسة اللغات الشرقية (العربية وغيرها) والتي وافق البابا انوسنت الرابع عام 1248 على إنشائها. هذا الإنشاء الذي كان يستجيب لاتجاهات أخرى جديدة عن طريق البحث في تحويل وهداية غير المؤمنين بأساليب سلمية وذلك لتعويض فشل الحروب الصليبية، إلا أن ذلك لم يحرز أي تقدم في المستقبل القريب⁽²⁰¹⁾.

وعلى الرغم من الحماية البابوية على هذه الأساليب، إلا أنه سرعان ما سوف تظهر الصعوبات التي لا يمكن تجاوزها وذلك بسبب إخلال الطوائف الدينية بواجباتها، تلك الطوائف التي كانت قد كلفها الباب بإعالة الطلاب الداخليين، إلا أنها أهملت ذلك ولم تدرك أهمية الحفاظ على مثل هذه الكليات حتى اختفت كلية القسطنطينية تمامًا في عام 1363م⁽²⁰²⁾.

في النهاية فإن جماعات الرهبان الفقراء التي أقامت على الضفة الشمالية منذ النصف الأول من القرن الثالث عشر سوف تظل بمثابة الجماعات الجامعية الرئيسية في ذلك العصر، فبرغم أن أعضائها كانوا يحصلون على درجاتهم من كلية اللاهوت مثلهم في ذلك مثل كل الرهبان الآخرين، فإن أديرتهم كانت مراكز فكرية مستقلة، حيث كانت تعود المدرسين والطلاب على مواصفة الأعمال الجامعية، وذلك في وقت لم تكن الجامعي تعي هي وكلياتها العلمانية بمتطلبات تربية المجموع كما يقال اليوم. فتأسيسات جماعة الرهبان الفقراء كان لها السبق في هذا الميدان، وهي من أجل هذا السبب كانت تمارس نفوذًا عميقًا على الممارسات والعقليات الجامعية في ذلك الوقت.

مما لا شك فيه أن جامعة باريس كانت في هذا العصر قد اعتادت على الحياة المشتركة، إلا أنها بخلاف جماعات الرهبان كانت قد تأسست بهدف نقابي، ألا وهو الدفاع عن صالح أعضائها. وبسبب إدراك الرهبان وخاصة الدومنيكان والفرنسيسكان لنفوذهم ودورهم في العملية التعليمية وفعاليتهم وأنشطتهم المتعددة، فسوف يهددون في النهاية بالاستقلال عن الجامعة التي ساعدوها منذ بدايتها، وكان لابد من أن يكون هناك رد فعل لهذه الجامعة وقد تمثل هذا بالتحديد في شدة الاعتراض على جماعات الرهبان مما جعلها يتعين عليها أن تتحمل آثار الأزمة الخطيرة الناجمة عن ذلك، والتي سترتب عليها الكثير من الأحداث، وهذا الصراع هو موضوع الفصل التالي.

الهوامش

- (1) Du Boulay, Op. Cit, Vol. III, PP. 1-2; Paul, Op cit, P. 281; ch. Fourier, L'enseignement Francais de l'antiquite a'la revolution, Paris, 1964, P. 82; D.Knowles, The Evolution of Meleval Thought, London, 1970, P. 163..
- (2) F.B. Artz, The Mind of the middle Ages, New york, 1953, P. 314
راجع أيضًا مرسوم فيليب أغسطس لصالح جامعة باريس، جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات، ص 167 - 169.
- (3) Chartularium Universitatis Parisiensis, Vol. I, No. 16.
انظر أيضًا سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 57 - 58
- (4) P. Feret, La Faculte de theologie de Paris et ses doctures les Plus Celebres Tome I, Moyen age, Paris, 1894, P. 23.
- (5) Douroselle, O.p. Cit, P. 68; Fourier, Op. Cit, P. 83; Paul, Op. Cit., 283; Chartularium, I, No. 17.
- (6) عن مرسوم البابا انوسنت الثالث وكذلك قرار اسقف تروى 1213 - انظر المحقق الأول من هذه الدراسة.
- (7) Paul, Op. Cit, P. 283.
- (8) Du Boulay, Op. Cit, III, P. 23; Chartularium, I, No. 17.
- (9) Chartularium, I, No. 24; Du Boulay, Op. Cit, P. 23; CF. G. Duby & J, Le Goff, Histoire de la France Urbaine, Tome II, Paris 1980, P. 373.
- (10) L.A. Halphen, Atravers L'histoire du Mayen age, Paris, 1950, 1950 P. 287.
- (11) Chartu Larium, I, No. 29.
- (12) S.D' Irsay, Histoire des Universites Frangais et etrangeres des origins a nos Jours, T.I, Paris, 1933, P. 62.
- (13) Feret, Op. Cit, P. 27; Fourier, Op. Cit, P. 83.
- (14) Du Boulay, Op. Cit, III, P. 81
حول أحكام رويير دو كورسون لتنظيم التعليم في جامعة باريس (1215) - انظر المحقق رقم (2) من.

(15) Chartularium, I, No. 20 دراسة عن المناهج الدراسية

(16) Fetet, OP. Cit, P. 28; Le Goff, OP. Cit, P. 83.

(17) Leon, Op. Cit, P. 22.

(18) Chartularium, I, No. 31.

(19) Rioux, Histoire Culturelle de la France, I, P. 163.

(20) Ibid, P. 164; Taylor, Op. Cit, I, P. 418.

(21) Leon Op. Cit, P. 24

A.I. Guerard, French Civilisation, T. by وعن التعليم وارتباطه بنظم الدراسة انظر،

Fisher Unwin Ltd, London, 1920, PP. 201 – 203

Fourrier, Op. Cit, P. 95; Rashdall, Op. Cit, I, P 104.

(22).

(23) Feret, Op. Cit, PP. 30 - 31.

(24) G. Dubu, Histoire de la Civilisation française, Tome I, Moyen age, Paris, 1958, P. 164.

(25) Rashdall, Op. Cit I, P. 322.

(26) E. Wickersheimer, Dictionnaire biographique des medecins en France au moyen age, Tome I, Paris, 1979, P. XI.

(27) عن مرسوم جراتينا وأهميته - انظر سعيد عاشور، الجامعات الأوروبية، ص 30 - 32.

(28) Chartularium, I, No. 32

هذا ويعد الرباط خطية كبيرة ومحرفة صراحة في الكتاب المقدس، وليس من المسور في العصر الوسيط المجادلة في أي موضوع وارد صراحة في الكتاب المقدس، ويفسر ذلك بوضوح مدى استهجان الكنيسة بشدة لتعليم القانون المدني الذي يشجع القرض بفائدة - أي الربا.

راجع العهد القديم: سفر الخروج (أصحاح 22-25)، سفر التثنية (أصحاح 23: 19)، الأمثال (أصحاح 18: 8)؛ في العهد الجديد في انجيل لوقا (أصحاح 6: 35)، متى (أصحاح 25: 14-30). وانظر محاربة الكنيسة للربا في كوتون (ج.ج)، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة وتعليق، جوزيف نسيم يوسف، الإسكندرية، 1989م، ص 288-303.

(29) Rashdall, Op. Cit, I, P. 346.

- (30) C. Stephenson, Medieval History, London, 1953, P. 442.
- (31) Rashdall, Op. Cit, I, P. 348.
- (32) Rutebeuf, (le Poete du XIIIe Siecle), Oeuvres Completes, Publies par E. Faral Tome I, Paris, 1977, PP. 65 - 67.
- (33) Ibid, P. 68.
- (34) Paul, Op. Cit, P. 299.
- (35) E. Durkheim, Levolution Pedagogique en France, T. I, Paris, 1938, P. 175
وعن الكسندر دو هالس انظر، يوسف كرم، المرجع السابق، ص 120 - 121.
- (36) Rutebeuf, Op. Cit, P 69.
- (37) Durkheim, Op. Cit, P. 176.
- (38) Feret, Op. Cit, P. 33; Fourier, Op. Cit, P. 84; Halphen, Op. Cit, P. 303.
- (39) Rioux, Op. Cit, P. 171.
- (40) Feret, L'abbaye de st. Genevieve, t.i, P. 64
وانظر أيضًا في، Chartularium, I, No. 30.
- (41) Feret, Op. Cit, P. 66; Chartularium, I, No. 31.
- (42) Du Boulay, Op. Cit, III, PP. 93 - 94.
- (43) Rashdall, Op. Cit, I, PP. 310 - 311.
- (44) Chartularium, I, No. 60; Fourier, Op. Cit, P. 84.
- (45) Feret, La Faculte de Theologie, I, P. 33.
- (46) Chartularium, I, No. 60.
- (47) Rashdall, Op. Cit, I, P. 334 F.
وانظر كذلك سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 66، وانظر أيضًا في،
Rutebeuf, Op. Cit, P. 319.
- (48) Chartularium, I, No. 61.
- (49) Rashdall, Op. Cit, I, P. 336; Feret, La Faculte de Theologie, Tome, I, P. 34.
- (50) Mettew Paris's, English history, From The year 1235 to 1273, Trans. From The Original Latin By J.A. Giles, London, Vol. III, 1854 P. 149.

(51) Rashdall, Op. Cit, I, P. 337

وكان الملك الإنجليزي حيثذ في صراع مع نظيره الفرنسي لذلك فقد استغل هذا الموقف لصالحه، انظر أيضًا،

Du Boulay, Op. Cit, III. P. 133.

(52) Mettew Paris, Op. Cit, III, P 149.

(53) Rutebeuf, Op. Cit, P. 320.

كان الجوليارد كما هو معروف طلابَ هامشيون ومنحلون، كما كانوا يهاجمون عن طيب خاطر الأكليروس ومسائره وكذلك البابا نفسه، وقد استغلوا هذه الأحداث بصورة كبيرة لمهاجمة أسقف باريس والقاصد الرسولي والبابوية، انظر نماذج من هذه الأشعار في، Rutebeuf, Op. Cit, PP. 320 - 322

(54) Rashdall, Op. Cit, I, P. 339

وانظر كذلك في Du Boulay, Op. Cit, III, P. 138.

(55) Chartularium, I, No. 79

وعن هذا المرسوم ومضمونه انظر، جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 172 - 175.

(56) Du Boulay, Op. Cit, III P. 140.

(57) Chartularium, I, No. 80

يعد هذا المرسوم هو أول مرسوم بابوي يعترف للجامعة بحقها في التوقف عن الدراسة والإضراب حتى تتم الترضية الكافية، ويدل ذلك على مراع البلاط البابوي عن خسارة مادية ومعنوية نتيجة لإغلاق الجامعة. وعن أهم الامتيازات التي حصلت عليها الجامعة من هذا المرسوم انظر، سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 67، وانظر كذلك جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 260 - 261.

(58) Chartularium, I, No. 80

وذلك على غرار ما فعله هونوريوس III من إنحياز للجامعة على حساب الأسقف والمستشار 1222، وعن الطلاب المزيفين في الجامعة انظر، - B. Tierney, The Middle Ages, Vol. I, New york, 1983, PP. 297 - 298.

(59) كان لكنيسة العصر الوسيط الحق السيادي خاصًا بالقضاء الأسقفي، والذي يخص الأسقف بطريقة لا يجوز التصرف فيها، كما أنه يسمح تمامًا بالاستفادة من مزية القانون الذي كان قد منحه فيليب أغسطس عام 1200، والذي أكد لها جريجوري التاسع عام 1231 بعد هذه الحوادث. انظر، Chartularium, I, No. 66.

(60) Ibid, p. 82.

(61) بعث البابا بهذه المراسيم في الخامس من سبتمبر عام 1234، والتي تعد ذات أهمية كبيرة في تاريخ القانون الكنسي والتأكيد على السيادة البابوية في ذلك الوقت، انظر، *Chartularium, I, No. 104*.

(62) Durkheim, Op. Cit, P. 148.

في نفس اللحظة التي أرسل فيها البابا المراسيم القانونية إلى جامعة باريس، كان قد وجه أيضًا نفس المراسيم إلى جامعة بولونا، وذلك نظرًا لفرض الوصاية عليها هي الأخرى، والمعروف أنها كانت تحت وصاية الأباطرة، انظر ذلك،

Rashdall, Op. Cit, I, PP. 170 - 171

(63) *Chartularium I, No. 106*.

(64) *Ibid, No. 107*.

(65) A. Tuilier, "La Condamnation du Talmud Par les maitres Universitaires Parisiens et les attitudes Populaires a legard des Juifs au XIII siecle", Actes du 102 Congres national des societes savants, Limoges, Section du Philoleigie et d'histoire Jusqua 1610, Tome II, 1979, P. 199.

(66) تعد مشكلة التلمود في تلك الفترة من العلمات البارزة في تاريخ جامعة باريس حيث ستحول مجرى الصراعات في المجتمع من الصراع مع مستشار نوتردام والأسقف إلى الصراع مع الرهبان أنفسهم، وسوف يتسبب ذلك في الكثير من الأحداث اللاحقة، انظر، *Chartularium, I, No. 172*، وانظر أيضًا أسحق عبيد، محاكم التفتيش، ص 41.

(67) عاش المسيحيون حتى تلك الفترة في مجتمع قروي يمارس الإكتفاء الذاتي الاقتصادي في عالم إقطاعي كان يجهل بصفة عامة متطلبات النظام المصرفي الذي لاغني عنه لنمو الرأسمالية، وعلى الرغم من ذلك فإن الإنطلاقة المدنية والحضارية كان لابد من أن تدخل تدريجيًا القرض بفائدة في الحياة اليومية وذلك نحو عام 1200 حيث يوجد بدءًا من هذا التاريخ تنافس بين اليهود والمسيحيين الذين أصبحوا بدورهم أصحاب رأسمال وبنوك، ومنذ ذلك الحين، فإن معاداة السامية بدأت تظهر وتنمو في النفوس وقد شجع عليها خضوع سلطة الكنيسة والدولة بشدة لنظام المجتمع الإقطاعي المعادي للرأسمالية، لذلك فقد اتخذ جريجوري التاسع إجراءات قهرية عندما ففتح له نيقولا دونان أخطاء التلمود انظر، *Chartularium, I, No. 131* انظر أيضًا عن الكنيسة والإقتصاد والربا، ومحاولة خروج الكنيسة من مأزق القرض بفائدة الضروري جدا لحياها اليومية؟؟؟؟ المرجع السابق، ص 287 - 303.

(68) أدخل الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان الباريسيين منذ وقت مبكر في أديرتهم تعليم العبرية واللغات الشرقية، وذلك كي يضمنوا أيضًا على صعيد فقه اللغة نجاح المجادلة الصحيحة، وكان لهم بالتأكد كما هو معروف السبق والتفوق في هذا الميدان، كما هو الحال في غيره من الميادين، انظر Tuilier, Op. Cit, P. 201.

(69) Ibid, P. 203

- وعن تلمس لويس التاسع لهذا المشروع انظر، اسحق عبيد، المرجع السابق، ص ص 41 - 42.

(70) Du Boulay, Op. Cit, III, P. 191.

(71) تمت عملية التنقيح في 12 أغسطس 1247م Chartularium, I, No. 172

(72) Tuilier, Op. Cit, P. 210.

(73) Tuililer, Op. Cit, P. 213.

(74) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج 1، ط 7، القاهرة، 1994، ص 402، وانظر كذلك رأفت عبد الحميد، "السمو البابوي بين النظرية والتطبيق"، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة، 1985، ص 216، انظر كذلك في:

Cambridge Medieval History, Vol. 6, P. 156; W. Ullmann, Ashort History of The Papacy In The Midle Ages, London, 1974, PP. 261 - 262

(75) Tuilier, Op. Cit, P. 213.

(76) Tuilier, Op. Cit, P. 214; Du Boulay, Op. Cit, P. 201; Chartularium, I, No. 140.

(77) Du Boulay, Op. Cit, III, P. 202.

(78) Chartularium, I, No. 141

- وعن حالات الشغب التي كان يفعلها الطلاب في معظم الأوقات والتي تسببت في الكثير من الحوادث العنيفة انظر،

Ch.H. Haskins, Studies In Medieval Culture, Oxford, 1929, P. 59.

(79) كان هذا المنع في يوم 31 مايو عام 1222م.

(80) Chartularium, I, No. 187.

(81) وقد كان أول خاتم لها معترف به منذ 30 أكتوبر 1246م انظر، Du Boulay, III, P. 222.

(82) P. Monroe, Atext - Book in The History of Edu Cation, London, 1925, P. 319.

(83) Doctrine des apotres (Didache), 10, 5, Sources Chretiennes No. 248, Text et Traduction Par W. Rordore et A. Tuilier, Paris, 1978.

- (84) راجع مرسوم جريجوري التاسع عام 1231، جوزيف، مرجع سابق، ص 172 ; Rait, Op. Cit, P. 30 .
- (85) Rait, Op. Cit, P. 32.
- (86) Paul, Op. Cit, P. 289.
- (87) J. Favier, La France Medieval, paris, 1983, P. 511.
- (88) Monroe, Op. Cit, P. 320.
- (89) Paul, Op. Cit, P. 289.
- (90) Du Boulay, Op. Cit, III, P. 195.
- (91) Monroe. Op. Cit, P 320.
- (92) chartularium, I, No. 141.
- (93) Fourier, Op. Cit, P. 97.
- (94) Favier, OP. Cit, P. 517.
- (95) Jourdain, Index Chronologicus Chartarium Pertinentium ad Historiam Universitatis Parisiensis ab ejus Originibus ad Finem Decimi Sexti Soeclui, Paris, 1862, P. 259.
- (96) Du Boulay, op cit, III, P. 380.
- (97) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 131.
- (98) Jourdain, op, cit, P. 264.
- (99) Glorieux, la faculte des arts et ses maitres au XIII Siecle, Paris, 1971, P. 55; Rashdall, Op. Cit, I, P. 326.
- (100) Jourdain, Op. Cit, P. 265.
- (101) Favier, Op. Cit, P. 519.
- (102) Leon, Op. Cit, P. 24.
- (103) Favier, Op. Cit, P. 521.
- الترينتير أو طائفة القديس تريتي، تم تأسيسها في عام 1198م على يد "جان دو ماتا"، "وفيلكس دوفالوا"، وذلك من أجل فداء الأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين، حيث كانوا يجمعون التبرعات الأزمة لهذه المهمة، وقد كان دبرهم يقع في قلب حتى الدراسات ويتميز بكرم الضيافة، كما كان بطبيعة الحال جاذبًا لمستولي الهيئات الجامعية الرئيسية وجمعية كلية الآداب ثم بعد ذلك لاحقًا بجمعيات الكليات العليا وكذلك الجمعية العامة

للجامعة التي كان تعقد فيه العديد من اجتماعاتها حتى بعد انقضاء فترة العصور الوسطى، انظر عن ذلك في،
.Chartularium, I, No. 63

جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 146. (104)

(105) Feret, La Faculte de Theologie, P. 35.

(106) Ibid, P. 37.

(107) Monroe, Op. Cit, P. 320; Paul, Op. Cit, P. 288.

(108) V.L. Baullough, The Development of Medicine as a Proffision, New yourk, 1966, P.
203

Chartularium, I, No. 33.

(109) Boulough, Op. Cit, P. 62.

(110) بدأت أسماء وأعمال عمداء الكليات في الظهور تدريجيًا في الوثائق والمصادر منذ عام 1264، انظر،

Chartularium, I, No. 399, Passim.

(111) Fetat, la Faculte de theologie, P. 38; Paul, Op. Cit, P. 288.

(112) Durkheim, Op. Cit, P. 160

راجع أيضًا مرسوم جريجوري التاسع 1231، جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 172 - 175

(113) Durkheim, Op. Cit, P. 162.

(114) Paul, Op. Cit, P. 288

يعد هذا الإلزام البابوي بإتباع نظام دقيق للأساتذة والطلاب من الأمور الهامة، والتي تلقى الضوء على رغبة
البابوية في إتباع الجامعة لذلك التدرج الذي كان سائدًا في هذا العصر بين أهل المهن والتقابات الأخرى،
وضرورة مسايرة الجامعة لهذه الأنظمة باعتبارها مؤسسة كبرى مهينة وتحت الإشراف البابوي.

(115) Feret, Op. Cit, p. 164.

(116) G.G. Coulton, Medieval Panorama, New York, 1955, P. 400 FF; Leraonte, Op. Cit,
pp. 568-574.

(117) Du Boulay, Op. Cit, III, P. 194.

(118) Chartularium, I, No. 201

(Responsatio) امتحان أولي يسبق امتحان البكالوريا وقد ذكر هذا الإمتحان فقط فيما يخص بالأمة الإنجليزية
في الجامعة.

- (119) Durkheim, Op. Cit, P. 167.
- (120) Ibid, P. 168.
- (121) Durkheim, Op. Cit, P. 169.
- (122) Feret, Op. Cit, P. 166.
- (123) J.B. Piobetta, Le Baccalaureat de l'enseignement secondaire en France, Paris, 1937, P. 50.
- (124) Ibid, P. 52.
- (125) Feret, Op. Cit, P. 168.
- (126) Piobeta, Op. cit, P. 53.
- (127) M. Tanake, La nation anglo – Alemande de l' universite de Paris a la Fin du moyen age, Paris, 1990, P. 119.
- (128) Ibid, P. 121.
- (129) Fetet, Op. Cit, P. 171.
- (130) Tanake, Op. cit, P. 82.
- (131) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص ص 137 – 138؛ انظر كذلك جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 318.
- (132) Guerard, Op. Cit, P. 202; Le Goff, Les Intellectuelle au moyen age, P. 83.
- (133) Rashdall, Op. Cit, I, P. 435.
- (134) Du Boulay, Op. Cit, III, P. 402 F; Chartularium, I, No. 452.
- (135) Rashdall, Op. Cit, I, P. 436F.
- (136) Leon, Op. Cit, I, P. 26.
- (137) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 149؛ وعن الدرجات العلمية في الطب ومواد الدراسة انظر، - P. Desportes, Les gradues d'universites dans La societe Urbaine de La France a la fin de moyen age, Paris, 1987, P. 57.
- (138) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 143؛ أيضًا في، Rashdall, Op. Cit, P. 437.
- (139) Ch. Charle et J. Verger, Histoire des Universites, Paris, 1994, P. 26.
- (140) Ibid, P. 27.

(141) Guerard, Op. Cit, P. 202.

(142) Ibid, P. 204.

(143) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 143؛ راجع عن ذلك أيضًا في،

Rashdall, Op. Cit, I, P. 4

(144) Ibid, P. 439.

(145) وكان يعرف احتفال منح الدرجات باسم اليوبيل - انظر، P. 59, Desportes, Op. Cit,

(146) Ibid, P. 59.

(147) Favier, Op. Cit, P. 519.

(148) Rashdall. Op. Cit, I, P. 439.

(149) Ibid, P. 441

كان أهم ما يميز تشريع 1252، هو عدد مرات الحضور المطلوبة من كل طالب لدراسة كل كتاب من هذه الكتب حيث كان الطالب في أغلب الأحيان ملزمًا بحضور محاضرتين عاديتين بالإضافة إلى محاضرة خاصة تلقى عن كل كتاب أسبوعيًا، لذا ليس غريبًا إكتشاف نظام قاسى للتخلص من أعداد كبيرة من الطلاب أو فصلهم، انظر: Chartularium, I, No. 201.

(150) Ibid, No. 203 .

(151) Rashdall Op. Cit, P. 453 .

(152) Rashdall, Op. Cit, I, P. 458

(153) Glorieux, Op. Cit, P. 56.

(154) Rashdall, Op. Cit, P. 459

(155) Ibid, P. 461

- وهذا الاحتفال ومراسيمه، هو نفسه الاحتفال الذي يجرى حاليًا بجامعة أكسفورد وكامبريدج وذلك عند الحصول على درجة الماجستير والدكتوراه، وهو يوضح بالفعل استمرار هذا التقليد منذ فترة العصور الوسطى وحتى الآن، انظر ذلك،

- P. Perdrizet, Le Calandrier de la nation d'Allemagne de l'an cienne Universite de Paris, Paris, 1937, P. 52

(156) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 163 - 164 أيضًا، P. 462, Rashdall, Op. Cit, I,

إن إلقاء نظرة على نظم النقابات التجارية والمهنية في العصر الوسيط ليوضح مدى التشابه الشديد بين الحفلات التي كانت تحييها هذه النقابات عند قبول عضو جديد فيها، وبين الحفل الجامعي السابق لقبول عضو جديد في هيئة التدريس، أو نقابة الأساتذة، انظر، سعيد عاشور، المرجع السابق، ص 161.

(157) سعيد عاشور، نفس المرجع السابق، ص 161 - 162.

(158) سعيد عاشور، نفس المرجع السابق، ص 161 - 162.

(159) Rashdall, Op. Cit, I, P. 462 F

Feret, Op. Cit, P. 41

(160) Du Baulay, Op. Cit, III, P. 191 F

(161) Chartularium, I, No. 173, 178

(162) Feret, Op. Cit, P. 44

(163) Desportes, Op. Cit, P. 62

(164) Bacon, Op. Cit, In Du Boulay, Op. Cit, III, P. 384

(165) Pernoud, Op. Cit, P. 134

هذه حقيقة يجب إبرازها لفهم التدرج الجامعي في باريس والتي كانت السبب المباشر للصراع الذي حدث مرارًا بين الجامعة وجماعات الرهبان الفقراء، وقد أدت لتزاعات ذات مخاطر إقتصادية وإجتماعية وسياسية سوف يأتي الحديث عنها في الفصل التالي من هذه الدراسة.

(166) Rashdall, Op. Cit, I, P. 378

لم يكن شرط الإقامة في باريس يتفد غالبًا، والمحمّل أن بعض حائزي الليسانس كانوا يغادرون باريس ثم يأتون إليها أثناء إنعقاد هذه المناظرات فقط والتي كان عليهم ضرورة المشاركة فيها.

(167) Feret, Op. Cit, P. 46

(168) Rashdall, Op. Cit, I, P. 480

(169) Ibid, P. 481

(170) Feret, Op. Cit, P. 47

(171) Pernoud, Op. Cit, P. 135

(172) عن تراث جامعة العصور الوسطى واستمراره حتى الآن انظر، جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 273.

(173) Halphen, Op. Cit, P. 314

(174) Pernoud, Op. Cit, P. 136

- عن استئجار المدارس في العاصمة الفرنسية وحجرات الدراسة والمضاربات على الأسعار، انظر عن ذلك في،
Ch. Raynaud, La Violence au mayen age, (XIIIe – Xve Siecles), Paris, 1990, P. 42.

(175) Du Boulay, Op. Cit, III, P. 195; Chartularium, I, No. 136

(176) Chartularium, I, No. 457

(177) Halphen, Op. Cit, P. 316

(178) Tanake, Op. Cit, P. 150 F & CF. Chartularium, I, No. 461

(179) Du Baulay, Op. Cit, III, P. 461

راجع أيضًا التنظيم بين المعلمين في استئجار حجرات الدراسة بالاتفاق مسبقًا مع الجامعة وذلك لعدم حدوث
التضارب بينهم، انظر،

Raynoud, Op. Cit, P. 44

(180) Chartularium, I, No. 457

(181) Halphen, Op. Cit, P. 316

ويجدد رشدال العطلة الصيفية بشهر واحد وهو بذلك يساير المراجع الأخرى، إلا أنه يختلف عن الفترة التي
ذكرتها المصادر والمراجع الفرنسية حيث يحددها هو من 28 يونيو وتستمر في كلية الآداب حتى 25 أغسطس وفي
كليتي اللاهوت والقانون الكنسي حتى 15 سبتمبر، وهو يعتمد على إحدى نتائج التقويم في القرن الرابع عشر،
بيد أنه لم يشر لأي مصدر لاتيني أو مرجع فرنسي في ذلك، وقد أخذ العديد من المؤرخين برأى رشدال في
كتاباتهم، انظر، Rashdall, Op. Cit, I, P. 489

وانظر أيضًا، سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 168

(182) Halphen, Op. Cit, P. 321

(183) Tanake, Op. Cit, P. 39p Rashdall, Op. Cit, P. 489

(184) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص 168.

(185) سعيد عاشور، (الجامعات الأوربية) ص 171.

(186) محمد مرسى الشيخ، النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى، الإسكندرية، 1998، ص 137.

(187) وهيب إبراهيم سمعان، المرجع السابق، ص 192 – 193.

(188) D'Irsay, Op. Cit. P. 146

(189) Fourier. Op. Cit. P. 95

وعن مستوى معيشة الطلاب انظر، سعيد عاشور، المرجع السابق، ص 175 - 178؛ وعن تنظيم قواعد الطلاب منذ حضورهم للجامعات وبرنامج حياتهم انظر أيضًا في، Haskins, studies in medieval culture. P. 60 ff

(190) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 178 - 179

(191) Paul, Op. Cit, P. 296 F.

(192) Chartularium, I, No, 114

(193) Du Boulay, Op. Cit, III, P. 195

(194) L. Boutie, Paris au temps de st. Louis, Paris, 1911, P. 127

وراجع أيضًا عن إسكان الرهبان في، Lamonte, O. Cit, P. 571

ومن المعروف أنه قد بقيت بها أطلال هامة حتى الآن تتمثل في غرفة الطعام وبيت المون والمطبخ، والتي يشغلها اليوم ثكنة رجال الإطفاء بشارع بواسى.

(195) Chartularium, I, Introd. No. 50.

وفي القرن الرابع عشر سوف تنتقل هذه الكلية على الضفة الشمالية للنهر بالقرب من السوربون، انظر أيضًا في سعيد عاشور، الجامعات الأوربية، ص 179؛ وعن كليات باريس وتواريخ إنشائها ومؤسسيها انظر،

Rashdall, Op. Cit, I, P. 501

(196) Funck - Brentano, Le Moyen age, Paris, 1922, P 202

(197) Boutie, Op. Cit, P. 128

وعن سان جيرمان ولكسيرا وحياته وأعماله انظر، Chartularium, I, No. 9

وانظر كذلك Du Boulay, Op. Cit, III, P. 459

(198) كان ذلك في يوم 12 فبراير عام 1210 انظر، Rashdall, Op. Cit, I, P. 503

(199) Ibid., P. 503

هذا وقد ظل مصطلح (Provisor) يطلق على المسئول عن الكلية الداخلية وما زال هذا اللقب هو بالفعل الذي يطلق على مدير المدرسة الثانوية الليسيه حتى الآن - انظر في ذلك في،

O. Weijers, Terminologie des Universites au XIIIe siecle, Paris, 1987, P. 52F

(200) Chartularium, I, No. 158p Du Boulay, Op. Cit, III, P. 11

(201) Rashdall, Op. Cit, PP. 503 - 505

(202) Du Boulay Op. Cit, III, P. 14 ; Rashdall, Op. Cit, P. 505F

(5)

الأوضاع السياسية الداخلية لمملكة بيت المقدس اللاتينية
خلال حكم الملك بلدوين الرابع

(1174 - 1185م / 569 - 581هـ)

ياسر كامل محمود

الأوضاع السياسية الداخلية لمملكة بيت المقدس اللاتينية

خلال حكم الملك بلدوين الرابع

(1174 - 1185 م / 569 - 581 هـ)

يتناول هذا الفصل بالدراسة، فترة سياسية من أهم الفترات التي شهدتها المملكة خلال تاريخها الطويل، والتي تميزت بالانقسام السياسي الخطير من الداخل. وهو ما سوف يتبين من خلال عرض محتويات هذا الفصل الذي يستحسن أن نبدأ بالتعرف على ظروف مولد ونشأة بلدوين الرابع، والتعرف أيضًا على شخصية هذا الملك الذي حكم مملكة بيت المقدس طوال أحد عشر عامًا وهي الفترة موضوع البحث.

كان عموري الأول كونت يافا وعسقلان قد تزوج من أجنيس كورتيناى Agnes de Courtney، خلال فترة حكم أخيه الملك بلدوين الثالث، وتقريبًا في حوالى عام 1157م، وقد قوبل زواجهما بمعارضة بطريركية بيت المقدس، لأسباب تبدو غير منطقية⁽¹⁾، وقد أثمر هذا الزواج عن طفلين، هما: سيبيلا Sibylle، والتي ولدت سنة 1159م، وبلدوين الذي ولد في أوائل صيف عام 1161م⁽²⁾، وقد روى المؤرخ وليم الصوري أن الكونت عموري دعا أخيه الأكبر الملك بلدوين الثالث لحضور حفل تعميد ابنه، واستأذنه أن يسميه بؤاسمه، فقبل الملك بلدوين الثالث، وأضاف وليم الصوري أن كبار نبلاء المملكة الذين حضروا حفل التعميد سألوا الملك بلدوين الثالث عن المنحة التي سيهبها للطفل بلدوين فرد عليهم بدعابته المعهودة «مملكة بيت المقدس». ولقد تركت هذه العبارة العابرة أثرًا عميقًا في نفوس بعض نبلاء المملكة الذين سمعواها، لأنهم اعتبروها نذير شؤم بأن الملك بلدوين الثالث سيموت دون أن ينجب طفلاً يرث المملكة؛ وقد تحققت هذه النبوءة، فبعد أقل من ستين مات الملك بلدوين الثالث ولم يتجاوز الثلاثة والثلاثين عامًا⁽³⁾.

عقب وفاة الملك بلدوين الثالث في عام 1163م رفض بطريك بيت المقدس «أملريك» تويج عموري الأول ملكًا على بيت المقدس، بحجة أن زواجه من آجنيس يُعدّ تحديًا لقوانين الكنيسة، وأن حلًا وحيّدًا لتلك المشكلة وهو انفصال عموري عن آجنيس⁽⁴⁾.

أيًا كان الأمر؛ فقد أحبط عموري محاولات البطريرك وأعضاء المحكمة العليا من البارونات، ووافق أن يفصل عن آجنيس ما دام عرش مملكة بيت المقدس صار مقرونًا بطلاقها. على أن يهمنّا هنا، تلك التسوية التي تمت بين عموري وبطريك القدس في حضور مندوب البابا الثالث Alexander III (1159 – 1181م)⁽⁵⁾ والتي تم بموجبها اعتبار سيبلا وبلدوين الرابع طفلين شرعيين، وأن لهما الحق التام في إرث ما خلفه أبوهما، وقد تم الانفصال سنة 1163م.

كان عمر بلدوين الرابع أقل من سنتين عندما انفصل أبواه. وقد تزوجت أمه من أحد النبلاء وهو هيو من ايبيلين Hugh of Ibelin⁽⁶⁾ سيد الرملة⁽⁷⁾. وعندما أكمل بلدوين الرابع عامه السادس تزوج أبوه عموري زوجته الثانية، الأميرة البيزنطية ماريه كومنين Maria Comnena، حفيذة الإمبراطور مانويل كومنين⁽⁸⁾. والتي أنجبت طفلتين، ماتت إحداهما وهى صغيرة، وعاشت الأخرى، وهى الأميرة إيزابيلا Isabella⁽⁹⁾. وليس لدينا أية إشارات مصدرية عن العلاقة بين الملكة ماريه وابن زوجها بلدوين الرابع، ويبدو أن العلاقة بينهما كانت ضعيفة⁽¹⁰⁾.

أما بالنسبة لعموري فقد حرص على تعليم ابنه وريثه «بلدوين الرابع» تعليمًا يليق بمن هو في مكانته، فعهد إلى أكبر علماء المملكة شأنًا وأوسعهم حكمة، وهو المؤرخ وليم الصوري رئيس شماسية صور آنذاك، برعايته وتعليمه الفنون والآداب. ولم يدخل وليم الصوري جهدًا في تعليم هذا الصبي الذي لم يتجاوز عمره وقتذاك التاسعة⁽¹¹⁾. وليس من المستبعد أن يكون بلدوين الرابع قد انتقل للعيش مع مؤدبه وليم الصوري، وأنه اضطلع على مكتبته، والتي حوت مصادر لعلوم شتى يونانية، ولاتينية، وربما عربية أيضًا، وأنه نهل من تلك العلوم الكثير، وبخاصة علم التاريخ. بعد أن أبدى بلدوين «رغبة وميلا شديدين لسماع التاريخ»⁽¹²⁾.

وبرغم ما أظهره بلدوين الرابع من تقدم في الدراسة يشر بمزيد من التفاؤل في تعلمه، إلا

أنه ولسوء طالعته كان مصابًا بمرض خطير اكتشفه وليم الصوري⁽¹³⁾ وشخصه بكلماته الآتية: "حدث في ذات يوم وبلدوين يلهو مع أترابه المماثلين له قدرًا، وقد أخذ كل واحدًا منهم، يقرص الآخر ويخدشه بأظفاره، أن راجوا يصيحون من الألم إلا هو رغم أن رفاقه لم يعفوه من القرص والخدش، فقد تحمل ذلك في صبر كأن لم يكن يشعر بشيء ما مطلقًا، وأخبرني رفاقه أن هذا الأمر تكرر حدوثه منه مرارًا عديدة، فأرجعت ذلك إلى قدرته الكبيرة على التحمل، فلما ناديته وسألته عن جلية الخبر تكشف لي أن هذه الظاهرة هي خدر تام يعترى ذراع الأيمن ويده فلا يشعر معه مطلقًا بالقرص أو الوخز، فساورني القلق وتذكرت حكمة الحكيم القائل، لا شك أن العضو الفاقد للإحساس يستنفد كثيرًا من صحة البدن. ولقد عرفنا بمرور الوقت أن هذه كانت دلائل مرض من أخطر الأمراض لا يرجى الشفاء منه"، إنه مرض الجذام الخبيث⁽¹⁴⁾.

وقد اعتبر بعض رجال الدين هذا المرض عقابًا إلهيًا لعموري الأول بسبب زيجته المخالفة للكنيسة⁽¹⁵⁾.

مهما كان الأمر، فعندما بدت أعراض المرض الأولى تظهر على بلدوين الرابع، استدعى أبوه الأطباء العرب لمعالجته، وكان من بينهم الطبيب المسيحي «أبو سليمان داوود»⁽¹⁶⁾. وقد استعمل الأطباء في علاجه الكمادات والتدليك بالزيت، بل واستخدام السحر؛ ولكن دون جدوى⁽¹⁷⁾، وزاد مرضه حتى أن جميع من بالمملكة كانوا يخشون الاقتراب منه خوفًا من العدوى⁽¹⁸⁾.

وبالرغم من تدهور حالة الصبي بلدوين الرابع إلا أن والده الملك ندب مدربًا عربيًا بارعًا في الفروسية، لتعليمه فن ركوب الخيل. وكان هذا أمرًا ضروريًا لأي نبيل، وقد خضع بلدوين لتدريب وصف بأنه «تدريب من الطراز الأول» واستجاب للتدريب حتى صار «راكبًا ممتازًا»، رغم مرضه⁽¹⁹⁾.

هذا ما كان بشأن ظروف مولد بلدوين الرابع ونشأته، أما بلدوين نفسه فقد كان حسب وصف المصادر الغربية، بهي الطلعة، حاد الذكاء، قوي الذاكرة، حافظًا للجميل، وكان شديد الشبه بأبيه ليس في طلعه فحسب «بل أيضًا في سياته، فكانت له نفس مشيته، ونبرة صوته، وإن

تلجج لسانه في بعض الأحيان⁽²⁰⁾. كما كان تقيًا ورعًا صاحب قدره كبيرة على التحمل⁽²¹⁾. ويضاف إلى ذلك أنه كان شجاعًا وصاحب حكمة بالغة⁽²²⁾. كما كان رغم مرضه صاحب عقل راجح وفكر قوي⁽²³⁾. ولا شك أن هذه الصفات كانت تنبئ عن شخصية قوية، ومع ذلك لا بد أن لا ننسى أن إصابة بلديون الرابع بالجذام كانت أمراض مقلقًا بالنسبة لطالع المملكة.

على أن الأمر الأكثر إقلاقًا من وجهة نظر الملك عموري لم يكن سوء حالة ابنه الصحية فحسب، بل وأيضًا مشاكل ورائة العرش ومصير أسلافه، ويبدو أن عموري كان يدرك احتمالية أن يموت هو نفسه بشكل مفاجئ، فأبوه الملك فولك، كان قد مات فجأة أثناء رحلة صيد، بينما مات أخوه الملك بلديون الثالث بعد مرض قصير، ويبدو أن وفاة أبيه وأخيه المفاجئة تلك كانت تؤرقه، وخاصة عندما وصل سنه الثالثة والثلاثين في سنة 1169م⁽²⁴⁾. في ذلك الوقت كان بلديون الرابع في سن الثامنة - وكان الحد الأدنى لتولية السلطة في المملكة خمسة عشر عامًا⁽²⁵⁾ وهذا يعنى أنه إذا مات الملك عموري فجأة فستكون المملكة في خطر؛ إذ لم يكن لديه من أهله من يخلفه على العرش حالة وفاته؛ لذا رأى عموري أن حل هذه المشكلة يكمن في تزويج ابنته سيبيلا برجل يمتلك الرتبة والتجربة المناسبين، لتأهله للعمل كوصي على العرش، إذا استدعت الحاجة إلى ذلك، وكان عمر سيبيلا في ذلك الوقت حوالى إحدى عشرة سنة وهو السن الذي جرى العرف في القانون الكنسي على اعتباره مناسبًا في الإعداد للزواج⁽²⁶⁾. ولعل هذا ما جعل عموري يطلب من «فردريك» Frederic رئيس أساقفة صور - قبيل زيارته للغرب الأوربي في مهمة دبلوماسية - أن يختار رجلًا مناسبًا لابنته الأميرة ليكون زوجها لها ووريثًا للعرش⁽²⁷⁾.

وقد وقع الاختيار على الكونت «ستيفن من سانكير» Steven of Sancerre عضو بيت بلوا⁽²⁸⁾. الذي قبل عرض فردريك بالزواج من سيبيلا، وقدم إلى المملكة لهذا الغرض سنة 1171م، حيث أقام بها عدة شهور، لكنه رفض العرض بعد ذلك، وعاد إلى بلاده⁽²⁹⁾. ولم يحدد المؤرخون الأسباب التي دعت الكونت ستيفن لرفض الزواج من الأميرة سيبيلا. وقد رجح الأستاذ برنار ج هاميلتون B. Hamilton أن سبب رفض الكونت ستيفن لعرض الزواج، يرجع

إلى زيارة عموري للإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين عام 1171م، والتي اعتبرها ستيفن نذيرًا لهيمنة بيزنطة على المملكة، وهو أمر يحول دون تحقيق أحلامه في نيل عرش المملكة⁽³⁰⁾.

وعلى أية حال، ففي الحادي عشر من يوليو سنة 1174م تحققت مخاوف الملك عموري بوفاته فجأة بسبب مرض الدسنتاريا⁽³¹⁾. ومن بعده آل عرش المملكة الصليبية إلى ابنه بلدوين الرابع، الذي كان يبلغ من العمر آنذاك حوالي الثالثة عشر عامًا⁽³²⁾.

الواقع أن لدينا أكثر من رواية تحدثت عن ظروف تتويج بلدوين الرابع ملكًا لبيت المقدس، إحداها يقصها علينا المؤرخ وليم الصوري الذي ذكر ما نصه: «أنه بعد وفاة الملك عموري اجتمع نبلاء المملكة من مدينيين ودينيين في مجلس اتفقت فيه آراؤهم اتفاقًا كريبًا على تدشين ولده وتتويجه في اليوم الخامس عشر من يوليو، أي بعد أربعة أيام من وفاة أبيه، وقام بإتمام مراسيم التتويج أمالريك بطريرك بيت المقدس..». أما الرواية الأخرى فيقدمها المؤرخ إرنول الذي ذكر أن الملك عموري طلب وهو على فراش الموت الاجتماع برجاله، فلما اجتمعوا «أمرهم بأن يعتلى ابنه «بلدوين» العرش من بعده، فرضخوا لطلبه». وثمة رواية ثالثة ينقلها لنا ميخائيل السرياني تتفق كثيرًا مع رواية إرنول السابقة. مفادها أن الملك عموري أوصى وهو على فراش الموت بخلافته لابنه بغدوين «بلدوين»⁽³³⁾. وبالتدقيق في فحوى تلك الروايات يتضح أنها لم تفسح عن هوية هؤلاء النبلاء الذين ارتضوا بلدوين ملكًا عليهم تنفيذًا لوصاية أبيه. والراجح أن هؤلاء النبلاء لم يكونوا سوى حزب أمراء البلاط الملكي الذين كان من مصلحةهم أن يصل بلدوين الرابع إلى الحكم بالرغم من مرضه وعجزه حتى يحتفظ هذا الحزب بالمركز السلطان⁽³⁴⁾، وربما يقود هذا إلى تفسير ما صرح به وليم الصوري من أن بلدوين الرابع أرغم على تولي شئون الحكم في المملكة⁽³⁵⁾.

على أن الجدير بالذكر هنا؛ هو تشكك بعض المؤرخين المحدثين فيما أورده تلك المصادر وبخاصة الشك في رواية وليم الصوري عن عملية الانتخاب تلك، وكان على رأس هؤلاء المتشككين الأستاذين ملكوم ليونز M. Lyons وديفيد جاكسون D. Jackson اللذين لفتا الانتباه

إلى رسالة مرسله من صلاح الدين الأيوبي إلى ابن أخيه فرخ شاه بعد ثلاثة أيام من وفاة عموري، ذكر فيها أنه سمع من معلوماته الإستخبارية أن الصليبيين لم يوافقوا بعد على اختيار وريث لعموري⁽³⁶⁾. وهذا التشكك يمكن قبوله، بوجهة أن مرور أربعة أيام على وفاة عموري دون أن ينتخب ابنه بلدوين الرابع وريثاً للعرش أمراً يدعو للتساؤل. حيث أن ذلك يناقض مع ما حدث على سبيل المثال عند وفاة الملك فولك سنة 1142م إذ جرى نقل السلطة إلى ابنه بلدوين الثالث تحت وصاية أمه فور انتهاء مراسم دفن الملك⁽³⁷⁾.

لذلك لا مانع من أن تكون مودة وليم الصوري لشخص الملك عموري وولائه للمملكة، قد جعلاه يلوذ بالصمت حول أية شكوك تتعلق بقدرة بلدوين الرابع على الحكم⁽³⁸⁾ ولا مانع أيضاً من أن تكون أفكار كبار نبلاء المملكة قد توجهت إلى إمكانية انتخاب شخص آخر غير بلدوين المريض⁽³⁹⁾. ومن المرجح أن هؤلاء النبلاء تناقشوا حول تعيين ملك غير بلدوين الرابع، ولما طالت مدة المناقشة لأربعة أيام دون أن يجدوا الشخص المناسب لعرش المملكة خافوا أن يحدث أي طارئ قد يهدد المملكة وهي بدون رأس يدبرها. لذلك وافقوا على قبول بلدوين الرابع وريثاً للعرش، على اعتبار أنه الأمير الوحيد المتبقي من السلالة الملكية.

أيًا كان الأمر، فقد توج بلدوين الرابع ملكاً لبيت المقدس في الخامس عشر من يوليو سنة 1174م، وكانت تلك الذكرى السنوية الخامسة والسبعين لسقوط بيت المقدس في يد الصليبيين⁽⁴⁰⁾. وبهذا التويج صار بلدوين الرابع الملك السادس لمملكة بيت المقدس جرياً على رأى أغلب المؤرخين المعاصرين والمحدثين⁽⁴¹⁾.

في الواقع أن مسألة تويج بلدوين الرابع ملكاً لبيت المقدس لم تكن هي المشكلة الوحيدة التي واجهت المملكة الصليبية، بل ظهرت مشكلة داخلية أخرى تتعلق بتعيين وصي على الملك بلدوين الرابع لكي يحكم نيابة عنه حتى يصل بلدوين الرابع للسن القانوني للانفراد بالحكم وهو الخامسة عشر، والواقع أن مسألة اختيار وصي للعرض كانت سبباً دفع المملكة للانخراط في صراع حاد، كان أشد وقعاً من موت عموري وأعظم ضرراً بالنسبة للصالح الصليبي. فقد

شهدت فترة حكم بلدوين الرابع منازعات حول الوصاية على العرش، أسهمت بشكل واسع في تقسيم المملكة كما سيئين خلال ذلك العرض⁽⁴²⁾.

كان اختيار الوصي يتم بقرار من المحكمة العليا مستندة إلى قوانين المملكة التي كانت تنص على أنه في حالة وفاة ملك بيت المقدس تاركًا صبيًا قاصرًا، فإن الوصاية تؤل دون تأخير أو معارضة إلى أقرب الأقرباء لهذا الوريث القاصر سواء كان هذا القريب ذكر أم أنثى. فمن جانب الأم، يمكنها المطالبة بالوصاية على عرش ابنها باعتبارها الأحق قانونًا بهذا المنصب، فإذا تعذر عليها الاضطلاع بمهمة الوصاية لأي سبب من الأسباب، فإن الوصاية تنتقل إلى أقرب قريب ذكر من جهة الأب، أو أقرب قريب ذكر من جهة الأم، واستنادًا على قوانين المملكة تلك غدت الكونتيسة «آجنيس» أم الملك بلدوين الرابع المرشحة الأولى للوصاية على ابنها الملك⁽⁴³⁾.

وبرغم ذلك فإن المحكمة العليا استبعدت آجنيس كورتيناى من الوصاية على اعتبار أن زواجها من عموري - أبو الصبي - قد أبطل، وبذلك لم تعد آجنيس من الناحية القانونية أرملة لعموري⁽⁴⁴⁾. ولكن هذا لم يكن السبب الحقيقي والوحيد وراء إبعاد آجنيس عن الوصاية، حيث كان هناك سببًا آخر، وهو تزايد مخاوف البارونات أعضاء المحكمة العليا من آجنيس إن أصبحت الوصية على المملكة، فقد تستعمل سلطتها في تفضيل النبلاء المنفيين الذين صاروا بدون إقطاعات وجاءوا إلى القدس من مقاطعة أبيها في الرها على أعضاء المحكمة العليا. ومن ثم توفرت أسباب العداء بين أعضاء المحكمة العليا وبين آجنيس كورتيناى⁽⁴⁵⁾.

على الجانب الآخر، لم تكن الملكة ماريه كومنين أرملة عموري الثانية أما للصبي بلدوين الرابع شرعًا، ومن ثم فليس من حقها المطالبة بالوصاية على العرش. ولذلك لم تصل المحكمة العليا إلى قرار فاصل بشأن أقرب الأقارب الذكور لبلدوين الرابع من جهتي الأب والأم ولعل هذا الأمر يفسر السبب في تأخر قرار المحكمة العليا من أجل إعلان وصيًا على الملك القاصر⁽⁴⁶⁾.

مهما يكن من أمر، فقد استقر رأى المحكمة العليا بترك مسئولية إدارة المملكة نيابة عن بلدوين الرابع إلى أحد أقارب الملك الراحل عموري، وهو ميلون دي بلانسي Milon de

Plancy⁽⁴⁷⁾. الذي اختلف المؤرخون المحدثون حول وضعه في المملكة. فبينما يرى قلة من المؤرخين المحدثين أنه كان أول من قام بالوصاية على الملك الطفل بلدوين الرابع⁽⁴⁸⁾، فإن أغلب المؤرخين يميلون إلى اعتبار ميلون دي بلانسي هذا مجرد مشرف فقط على المملكة، وأن أول وصاية كانت لريموند الثالث كونت طرابلس Raymond III⁽⁴⁹⁾.

الواقع أن لدينا ثلاثة مصادر أشارت إلى حقيقة علاقة ميلون دي بلانسي ببلدوين الرابع. يأتي في مقدمة تلك المصادر كتاب «وليم الصوري» الذي ورد في نصه اللاتيني فقرة تحدثت عن وضع ميلون دي بلانسي في المملكة وعلاقته ببلدوين الرابع. ولأهمية هذه الفقرة نورد النص الكامل لها كما ورد بلغته اللاتينية⁽⁵⁰⁾:

"Confusi recesserunt. In regno vero nostro. Procurante Milone de Planci regni negotia obortae sunt graves inimicitiae inter eum et quosdam regni Principes: Invidebant enim, et anxie movebantur, quod, ipsis ignorantibus nec vocatis, ipse solus, nimium de se praesumens, spretis aliis, regisemper assisteret; et caeteris a regia Familiaritate seclusis, eis inconsultis, regni negotia procuraret".

هناك من المؤرخين من فهم هذا النص على أنه تصريح معلن من وليم الصوري بوصاية ميلون الرسمية على الملك بلدوين الرابع⁽⁵¹⁾؛ والبعض الآخر رأى فيه دليلاً على عدم وصاية ميلون، واستند أصحاب هذا الرأي الأخير على أن هذه الفقرة التي وردت عن ميلون دي بلانسي لم ترد باللفظ نفسه حينما تحدثت عن وصاية ريموند الثالث على الملك بلدوين الرابع فيما بعد⁽⁵²⁾. ولقد فسر أحد الباحثين سبب هذا الخلاف بقوله إن الملك عموري قد عين ميلون وصياً على بلدوين الرابع، غير أن أعضاء المحكمة العليا من البارونات لم يقبلوا تعيينه، مما أشكل الأمر على كثير من المؤرخين⁽⁵³⁾.

وقد تزداد الأمور وضوحاً حول تلك الإشكالية إذا ما سقنا رأى المصدرين الآخرين، فقد أشار أحدهما وهو حولية كافارو The Brevis Historia التي كتبت حوالي عام 1200م، أشارت صراحة إلى أن الملك عموري الأول عين قبيل وفاته ميلون دي بلانسي وصياً على ابنه بلدوين

الرابع⁽⁵⁴⁾. أما المصدر الآخر وهى قوانين بيت المقدس "Assises" فقد ذكرت أن ميلون دي بلانسى قد تم تعيينه وصيًا على بلدوين الرابع⁽⁵⁵⁾.

على أية حال، فإذا كان المؤرخون قد اختلفوا حول وصاية ميلون دي بلانسى من عدمها، فإن المؤرخين اتفقوا على أنه كان سنكلاً للملكة Seneschal⁽⁵⁶⁾ منذ عهد الملك عموري الأول، وأنه أوكلت له مهام إدارة المملكة نيابة عن الملك القاصر بلدوين الرابع. وفي هذا الموضوع نجد لزاماً التوقف أمام دراسة العلاقات بين دي بلانسى وبقية نبلاء المملكة؛ لأنها يمثلان السلطة في مملكة بيت المقدس خلال فترة وصاية الملك بلدوين الرابع.

الواقع أن كل ما وصلنا عن ميلون دي بلانسى من معلومات مُستمد من وليم الصوري الذي انفرد بالحديث عن ميلون. والذي كان كارهاً لميلون، بدرجة تجعلنا نملك سبباً قوياً يدعوا لعدم تصديق روايته عنه، إذ صب وليم الصوري جام غضبه عليه واصفاً إياه: بأنه كان «رجلاً متغطرساً، يزدريه الكبير.. لثيم الخلق، خسيس الطبع، ميالاً للمخاصمة مغتاباً، بارعاً كل البراعة في إثارة المشاكل، لا يوقر أحداً..»⁽⁵⁷⁾. غير أن ما أورده وليم الصوري لم يعبر عن مجمل الحقيقة، إذ أدت ترقية ميلون السريعة في المناصب نظراً لثقة الملك عموري الأول فيه، إلى ظهور أعداء كثيرين له، كانوا يحقدون حظه السعيد، ولا نستبعد أن يكون وليم الصوري أحد هؤلاء الكارهين له، فضلاً عن بقية البارونات المحليين، بعد أن غدا ميلون في وضع يسمح له بإملاء أوامره على بارونات المملكة وكبار رجال الكنيسة بما فيهم وليم الصوري نفسه الذي لم يكن قد وصل إلى أي منصب قيادي بعد، أضف إلى ذلك أن ميلون دي بلانسى لو لم يكن قد برهن على قدرته على إدارة شئون مملكة بيت المقدس آنذاك، لما كانت المحكمة العليا قد عهدت إليه وحده القيام بأعباء الحكومة نيابة عن الملك القاصر بلدوين الرابع⁽⁵⁸⁾.

على أية حال فقد شهدت فترة وصاية ميلون دي بلانسى نزاعات بينه وبين كبار نبلاء المملكة، وعلى رأسهم الكونستابل همفري الثاني من تورون، وكذلك مقدمى الإسبترية والداوية⁽⁵⁹⁾. هذه المتاعب الداخلية جعلت الملك بلدوين الرابع يعجز عن إعداد القوات

اللازمة لمهاجمة صلاح الدين في مصر، وقد تسببت هذه الظروف الداخلية أيضًا في عدم استغلال هجوم الأسطول النورمانى على الإسكندرية في 28 يوليو سنة 1174م⁽⁶⁰⁾ تنفيذًا للاتفاق المبرم مع مملكة بيت المقدس في القيام بحملة مشتركة ضد مصر⁽⁶¹⁾.

الواقع أن فشل الملك بلدوين الرابع ووصيه في حشد جيش المملكة لغزو مصر برهن على وجود خلل كبير داخل النظام السياسى للمملكة. وأوضح أن النبلاء كانت لا تعنيهم سوى مصالحهم الخاصة لا الصالح العام⁽⁶²⁾.

في ضوء ما سبق، فقد بدأ موقف ميلون ضعيفًا، ولا يستبعد الباحث أن يكون نبلاء المملكة قد اتفقوا فيما بينهم على عدم تقديم أي عون لميلون خلال هذه الحملة، ففي حالة فشل ميلون في التحرك لغزو مصر، ستقع مسئولية هذا الفشل على عاتقه هو وحده، الأمر الذي قد يؤدي في الغالب إلى تدمير أية شرعية له في إدارة المملكة، وإظهاره بمظهر العاجز عن إدارة دفة الأمور السياسية.

أيًا كان الأمر، فقد استاء كبار النبلاء من طريقة إدارة ميلون دي بلانسى للمملكة، وقد طالب هؤلاء الأمراء وعلى رأسهم همفري الثانى Humphrey II - كونستابل المملكة، ورينالد Reynald سيد صيدا، وغيرهم من النبلاء القدامى، طالبوا بتعيين ريموند الثالث وصيًا على بلدوين الرابع بديلًا عن دي بلانسى، وأصرروا على أن تنظر المحكمة العليا في حقوق ريموند الثالث في الوصاية، وقد استند ريموند عليهم في المطالبة بهذا المنصب، وقد وعدت المحكمة العليا بالرد على مطلب ريموند الثالث في أقرب وقت⁽⁶³⁾. ومن جانبه حاول ميلون دي بلانسى وبإيعاز من الملك بلدوين الرابع، تعطيل المحكمة العليا عن النظر في تلك المسألة، متعللاً بغياب أغلبية كبار أعضاء المحكمة عن البت في هذا الأمر⁽⁶⁴⁾.

في ذلك الوقت كان أعداء ميلون دي بلانسى وخصومه من بارونات المملكة يأملون في التخلص منه، ولذلك فقد تأمر البعض سرًا للقضاء عليه، وعندما علم دي بلانسى بخبر هذا التأمر استخف به، وأخذ يتصرف دون أن يأخذ الحيطة والحذر⁽⁶⁵⁾. وبينما كان يسير في أحد

شوارع عكا في إحدى ليالي أكتوبر سنة 1174م، طعنه شخص مجهول طعنة أودت بحياته «بعد أن لقي من المعاملة أسوأها وأحقرها». واستنادًا لرواية وليم الصوري فقد اختلف رأى عام المملكة في سبب قتله، فقد اعتقد البعض أنه اغتيل بسبب إخلاصه الشديد للملك بلدوين الرابع، بينما ذهب البعض الآخر للقول أنه كان يعد العدة سرًا للاستيلاء على زمام السلطة في مملكة بيت المقدس، وأنه أرسل يطلب المساعدة من أصدقائه في فرنسا لتحقيق مأربه هذا⁽⁶⁶⁾.

وبذلك لاذ وليم الصوري بالصمت ولم يمدنا بمعلومات تفيد في التعرف على هوية القاتل، بل حتى لم يعن نفسه جاهدًا في البحث خلف دوافع تلك الجريمة. أو على الأقل ترجيح أحد الرأيين السابقين. واكتفى بالإشارة إلى عدم معرفته عن يقين صدق أحد الرأيين. وهو أمر يضيف إلى قضية اغتيال ميلون علامات استفهام لها دلالاتها الكثيرة!!، على اعتبار أن وليم كان قريبًا من الأحداث قريبًا يؤهله أن يظطلع على كافة صغائر أمور المملكة. ومع ذلك، فالثابت أن السبب في اغتيال ميلون هو الأسلوب الذي لجأ إليه في معاملته مع النبلاء، فضلًا عن استياء وكرهية أعضاء المحكمة العليا وبارونات المملكة له.

وعلى الرغم من أن مجريات الأحداث في المملكة تشير بأصابع الاتهام إلى ريموند الثالث كونت طرابلس حول مقتل ميلون. فهو الشخص الوحيد الذي من مصلحته أن يغيب ميلون عن مسرح الأحداث، ليتولى ريموند الثالث منصبًا طالب هو بنفسه أن يعتليه. فإننا لا يمكننا قبول الاتهام الذي وجهته زوجة ميلون وهي استيفانى دي ميللى إلى ريموند الثالث بأنه المسئول عن مقتل زوجها⁽⁶⁷⁾. إذ ليس ثمة دليل يؤكد ذلك.

وهكذا ومنذ البداية، نشأ صراع بين الصليبيين من أجل الاستئثار بالوصاية على الملك الصغير بلدوين الرابع، والإنفراد بالحكم دونه، أدى بالكيان الصليبي إلى الانغماس في التجزئة والفوضى اللتين لم تشهدهما المملكة منذ سنين. بعد أن أحدث كبار نبلاء المملكة مناخًا من الهيجان في اللحظة التي كانت الحاجة تدعو إلى الثبات لتسوية المشاكل السياسية الداخلية المستعصية في المملكة المضطربة. وهذه الصورة المخيفة سنشاهدها كثيرًا خلال التاريخ الممتد

لحكم الملك بلدوين الرابع كما سنرى.

بعد وفاة ميلون دي بلانسي خلت الساحة أمام الكونت ريموند الثالث لذلك عاد إلى المحكمة العليا لمملكة بيت المقدس ليقف على الرد الذي وعده به كبار رجال المملكة بشأن أحقيته في الوصاية على الملك القاصر بلدوين الرابع، مستندًا في ذلك إلى القانون الذي يخوله أحقيته في الوصاية، ومدعيًا الوصاية لنفسه لثلاثة أسباب: أنه كان أقرب الناس إلى بلدوين الرابع، وأنه أغنى وأقرب رعاياه المخلصين، وأضاف إلى هذين السببين سببًا ثالثًا، وهو أنه لما أخذ أسيرًا فإنه أمر - وهو في سجنه - أن تسلم كل أملاكه إلى الملك عموري والد الصبي بلدوين الرابع، وأنه إذا قضى نجه في الأسر فإنه يعتبر عموري وريشه الوحيد، باعتباره أقرب الجميع إليه⁽⁶⁸⁾. وبالتدقيق في هذه الأسباب الثلاثة يتضح أن السبب الأول فقط هو الذي كانت له قوته، مع الأخذ في الاعتبار أن ادعائه بأنه كان أقرب الناس إلى الملك بلدوين الرابع أمرًا يحتاج إلى غيضاح. فالملك هنري الثاني ملك إنجلترا Henry II⁽⁶⁹⁾ كان أقرب الأقارب المذكور إلى الملك بلدوين الرابع من ناحية الأب، حيث كان هنري الثاني ابن أخ غير الشقيق للملك عموري، وبالتالي يكون هنري هو ابن عم بلدوين الرابع⁽⁷⁰⁾. بالإضافة إلى ذلك فإن بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وأخيه بلدوين كانت لدهيها ادعاءات جيدة في قرابتهما إلى الملك بلدوين الرابع ربما تقف على قدم المساواة مع إدعاءات ريموند الثالث. أما السبب الثاني، فلا علاقة له بموضع الوصاية، بينما ارتكز السبب الثالث على العاطفة أكثر من أي شيء رسمي آخر⁽⁷¹⁾. والراجح أن تلك الأمور أخذت بعين الاعتبار من قبل المحكمة العليا والتي دامت مناقشتها حول هذا الموضوع يومين متتاليين وبعده وافق الملك وكبار رجال المملكة من مدنيين ورجال دين على مطلب ريموند، فوكلوا له بكل شئون الحكومة وصلاحياتها، شريطة أن يكون تاليًا للملك وتابعًا له⁽⁷²⁾.

كان ريموند وقتذاك في الرابعة والثلاثين من عمره، وكان رجلًا كما وصفته المصادر الغربية، شديد النحافة، متوسط الطول، أسود الشعر، داكن البشرة، اشتهر في طباعة برباطة الجأش وبعده

النظر وحضور البديهة والذكاء وضبط النفس، فضلاً عن النزوة إلى البخل. لم تتوافر فيه ما اشتهر به الصليبيون الأوائل من الميل الشديد للفروسية⁽⁷³⁾.

وفي أثناء السنوات الطويلة التي أمضاها ريموند في الأسر، انكب على القراءة والدراسة، فتعلم اللغة العربية، ودرس سُبل المسلمين وأساليبهم. حتى كان من الممكن أن يحسبه المرء أميراً عربياً لو لم يكن طول قامته النسبي يفضح أصوله الغربية، وعلى الرغم مما اشتهر به من الكفاية والقدرة، إلا أنه كان شديد الطموح والرغبة في أن يصبح ملكاً لبيت المقدس⁽⁷⁴⁾. أما المصادر الإسلامية فكان من رأيها فيه أنه لم يكن للفرنج في ذلك الوقت أكبر منه شأنًا ولا أشجع ولا أجود منه رأيًا⁽⁷⁵⁾. وأشار الرحالة المسلم ابن جبير إلى وصاية ريموند أثناء مروره بالمملكة زمن بلدوين الرابع بقوله «وكان حاجب الملك المجذوم وصاحب الحال هو خاله القومس صاحب طرابلس وطبرية فهو صاحب المجبى وإليه ترتفع الأموال والمشرف على الجميع بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن في الإفرنجية، وهو ذو قدر ومنزلة عند الفرنجة وهو المؤهل للملك والمرشح له وهو موصوف بالدهاء والمكر»⁽⁷⁶⁾. وبالنظر إلى وصف المصادر الصليبية والمصادر الإسلامية نجد أنهما يتفقان كثيرًا حول وصف ريموند.

في فترة وصاية ريموند الثالث (1174 - 1176م) بدأ الملك بلدوين الرابع يواجه مشكلة أخرى، وهي مشكلة زيادة سلطة الأحزاب في المملكة، فقد أدى الصراع على السلطة والوصاية، إلى نشوب صراع بين حزين من نبلاء المملكة وهما: حزب البارونات الوطنيين Native Barons، وحزب القادمين الجدد من الغرب الأوربي "New Comers"⁽⁷⁷⁾، وقد حظى كل حزب بدعم بعض الأعيان والهيئات، والواقع أن الملك بلدوين الرابع لم يكن طرفًا في هذا الصراع بسبب صغر سنه ومرضه⁽⁷⁸⁾.

كان حزب البارونات الوطنيين يتألف من قدامى الصليبيين، الذين ولدوا في المملكة الصليبية واستقروا فيها، وكان هذا الحزب يضم ريموند الثالث كونت طرابلس، وكونستابل المملكة همفري الثاني من تورون، وباليان ابلين سيد الرملة، وأخوه بلدوين، ورينالد سيد صيدا،

وقد انضمت إليهم الملكة ماريه كومنين أرملة عموري الثانية، وكذلك هيئة الإمبراطورية⁽⁷⁹⁾.

أما حزب القادمين الجدد فكان يتألف من الأمراء الصليبيين الذين قدموا حديثاً من الغرب الأوربي، وكان هذا الحزب يضم المغامر الصليبي رينود دي شاتيون Rynould de Chatillon⁽⁸⁰⁾ الذي تم اطلاق سراحه من سجون حلب عام 1175م. وجوسلين الثالث كورتيناى كونت الرها⁽⁸¹⁾ Joscelin III de Courtney، الذي أضحى كونتا لا كونتية له، وأخته الكونتيسة آجنيس كورتيناى أرملة عموري الأولى، وقد انضمت إليهم هيئة فرسان الدواية بسبب خلافات شخصية قديمة بين جيرارد رئيس هذه الهيئة وريموند الثالث⁽⁸²⁾.

لقد كان وجود هذين الحزبين المعادين زمن الملك بلدوين الرابع مثار قلق وخوف داخل دوائر المملكة الصليبية، لاسيما وأن كل حزب منها كانت له سياسته الخاصة التي تستخدم مصالحه الشخصية لا الصلح العام للمملكة. فقد قرر حزب البارونات الوطنيين تبنى سياسة الدفاع عن المملكة، والإبقاء على سياسة التفاهم بينهم وبين جيرانهم المسلمين، خاصة في تلك الفترة الحرجة التي خبا فيها نجم الصليبيين وسطوع نجم المسلمين بقيادة صلاح الدين؛ وكان لهذا الحزب مبرراته التي حملته على إتخاذ جانب الدفاع ومسألة المسلمين، يأتي في مقدمتها أن أعضاء هذا الحزب كانوا من النبلاء الإقطاعيين القدامى الذين حازوا على إقطاعيات كبيرة، وثروات متعددة، وصاروا أفضل حالات من أوضاع إخوانهم في الغرب الأوربي. ولذلك ركنوا إلى حياة الدعة والترف "ولم يعودوا يألّفون الحرب واستكانوا إلى ما هم فيه من الاسترخاء"⁽⁸³⁾.

على النقيض من ذلك، كان حزب القادمين الجدد الذي جسد إتباع سياسة الهجوم ضد المسلمين، وإظهار الرغبة في العمل العدائي⁽⁸⁴⁾. وكان لهذا الحزب أيضًا دوافعه، والتي منها رغبة أعضائه في امتلاك الضياع والأراضي، والاستحواذ على الشهرة والثروة لم يستطيعوا تحقيقها في أوطانهم بأوروبا⁽⁸⁵⁾. وهكذا بدا واضحاً أن سياسة المملكة الداخلية ستوقف على الحزب الذي يسيطر على بلدوين الرابع، ويستطيع أن يفرض سياسته، الأمر الذي سيتسبب لمملكة بيت المقدس في كارثة السقوط الداخلى قبل أن تسقط خارجياً عام 1187م/583هـ⁽⁸⁶⁾.

ومما زاد أحوال المملكة سوءاً أنها لم تقتصر على هذه الانقسامات السياسية فقد بل ظهر خطر آخر تمثل في العدوات الشخصية، بعد أن أضحي معظم البارونات أبناء عمومة أحدهم للآخر "فما يقع في الأسرة من منازعات، يعتبر دائماً أشد العدوات مرارة"⁽⁸⁷⁾. فأرملنا عموري كانت تكن كل واحدة الكراهية للآخرى⁽⁸⁸⁾. وتنعكس خطورة الوضع الذي باتت المملكة عليه في أواصر القرابة التي جعلت الملك يزداد اقتراباً من بيت كورتيناى، إذ عين خاله جوسلين الثالث صنجيلاً للمملكة (سنكالا)، وعادت أمه الكونتيسة آجنيس إلى البلاط، فكان «نفوذها بالغ الخطورة، وجالباً للكوارث»، وقد أخذت تتدخل في شئون حياة بلدوين الرابع وأخته سيبيللا، فاستمع لها بلدوين الرابع، أما سيبيللا فوقعت تحت سيطرتها⁽⁸⁹⁾.

إزاء ذلك، عجز ريموند الثالث عن فرض سيطرته ونفوذه على بقية أقرانه⁽⁹⁰⁾. وأثبت عدم قدرته على رأب صدع المملكة وحل النزاع بين حزبي المملكة، وبذلك كانت فترة وصاية ريموند ريموند الثالث خالية من أي عمل سياسى يذكر، باستثناء حملته غير الموقفة على سوريا والتي سيتم تناوؤها في الفصل التالى. على أن أهم ما يمكن ملاحظته خلال فترة وصاية ريموند أنه في نهاية عام 1174م أصبح وليم الصوري مستشاراً للمملكة، وفي يونيو 1175م عُين رئيساً لأساقفة صور⁽⁹¹⁾. ولا شك أن هذا التعيين كان ورائه ريموند الثالث. ولا يستبعد أن تكون قد جمعت للرجلان علاقات طيبة، لعلها منعت وليم الصوري من أن يوجه الاتهام إلى السياسة الضعيفة التي اتبعها ريموند الثالث.

على أية حال، ففي عام 1176م أنتهت وصاية الكونت وريموند الثالث، إذ وصل الملك بلدوين الرابع إلى سن الرشد بعد أن أتم عامه الخامس عشر، وهو العام الذي جرى العرف في قوانين المملكة على اعتباره مناسباً للانفراد بالحكم وحده دون أوصياء⁽⁹²⁾. وقد قدر للملك بلدوين الرابع أن يدير شئون الحكومة بنفسه حتى عام 1182م بدون وصى. وقد اعتبرت هذه السنوات من أكثر السنوات البناءة طيلة عهده⁽⁹³⁾.

لقد كان بلدوين الرابع رجل دولة من طراز جيد، كان له من النضج السياسى المبكر ما

جعله يدرك ما يدور حوله من مؤامرات، وحاول أن يحفظ التوازن بين الحزبين المتنازعين السابقين. كان ذا بصيرة في اجتماعاته، ولو أن البارونات قد تجاوزوا مع حكمته المبكرة، لكان بالإمكان تفادي العديد من الكوارث السياسية للمملكة⁽⁹⁴⁾.

فعلى الرغم من ازدياد وطأة المرض على الملك بلدوين الرابع، إلا أنه حاول تسيير أمور المملكة بشكل جيد، وكانت أولى خطواته السياسية هو وضع بعض الترتيبات المستقبلية للسلالة الحاكمة وذلك بالبحث عن زوج لأخته الأميرة سيبيل⁽⁹⁵⁾ وقد استقر أمره على دعوة أحد المغامرين الصليبيين الوافدين إلى فلسطين وهو وليم لونجسورد ابن وليم دي مونتيفرات William Longsword de Montefferrat⁽⁹⁶⁾. الذي كانت تربطه بملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا وإمبراطور رومانية المقدسة أو أواصر القرابة⁽⁹⁷⁾. ولعل نسبة النبيل هذا قد أغرى الملك بلدوين الرابع، فعزم على تزويجه من أخته سيبيل، فبهذا الزواج ستكسب المملكة رجلاً قوياً يمكن أن يحافظ على ممتلكات المملكة والدفاع عنها ضد هجمات صلاح الدين المرتقبة، كما أنه سيكون للمملكة خير عون خارجي ممثلاً في ملك فرنسا، وإمبراطور ألمانيا. وقد جرى عقد القران في نوفمبر سنة 1176م، وأصبح وليم دي مونتيفرات بمقتضى هذا الزواج كونتا ليافا وعسقلان⁽⁹⁸⁾، غير أن القدر لم يمهل طويلاً للعب دور في مملكة بيت المقدس إذ مات في يونيو سنة 1177م متأثراً بمرض الملاريا، تاركاً أرملته سيبيل حاملاً في طفل (بلدوين الخامس فيها بعد)⁽⁹⁹⁾.

هناك من شكك في موت وليم مونتيفرات بالملاريا، ورجح أن يكون بعض بارونات المملكة كانوا وراء مقتله بدس السم له⁽¹⁰⁰⁾ وربما يزيد هذا الترجيح قوة هو أن وليم الصوري ذكر أن مجموعة من نبلاء المملكة الكبار أبدوا ندمهم على موافقتهم لتوجيه دعوة لوليم مونتيفرات للمجيء للمملكة من أجل الزواج من سيبيل، وأنهم تخوفوا من انفراد وليم مونتيفرات بشئون من سيبيل فلما تزوجت من وليم لونجسورد أبدى غضبه الشديد، وغادر المملكة الصليبية وهو حائق على الملك بلدوين الرابع وصهره وليم لونجسورد⁽¹⁰¹⁾. وفي ضوء هاتين الروايتين لا يستبعد الباحث أن يكون بعض كبار نبلاء المملكة قد خططوا ونفذوا من أجل

التخلص من الأمير وليم.

على أن الأهم من ذلك أنه بموت وليم مونتيفرات صار موقف المملكة أكثر حرجاً مما كان قبل وصوله⁽¹⁰²⁾. حيث داهمت الملك بلدوين الرابع نوبة مرض شديدة أجبرته في النهاية على استخدام محفة a Litter صار يتنقل عليها⁽¹⁰³⁾ مما أقلق الملك بلدوين الرابع، الذي صار يخشى استغلال المسلمين فرصة تلك الاضطرابات الداخلية فيشنوا حرباً مفاجئة على مملكته⁽¹⁰⁴⁾. لهذا بدأ البحث عن رجل آخر توكل إليه مهام الأشرف على المملكة، الأمر الذي أعاد النزاع الداخلي بين أحزاب المملكة حول اختيار الشخص المناسب.

في ذلك الوقت من أغسطس سنة 1177م وصل إلى ميناء عكا الصليبية "فيليب كونت فلاندرز Philip Count Flanders"⁽¹⁰⁵⁾ وهو أحد أقرباء الملك بلدوين الرابع ومعه عدد كبير من الفرسان الفلمنكيين. ورغم شدة مرض الملك بلدوين الرابع إلا أنه كان على رأس المستقبلين للكونت فيليب، حيث جرى استقباله بالأفراح والاحتفالات، وكان الملك يأمل أن يقبل الكونت فيليب منصب الوصاية على المملكة، لهذا عقد الملك اجتماع حضره كبار رجال المملكة من علمانيين ورجال دين، وعرض الملك تسليم السلطة إلى الكونت فيليب، وأن يكون له الحق الشرعي في الأشرف الأعلى على كافة أمور المملكة في السلم والحرب، غير أن الكونت لم يلبث أن خيب رجاء الملك فيه، بعد أن رفض رفضاً باتاً تولى شئون المملكة متعللاً بأنه لم يحضر إلى المملكة بقصد امتلاك السلطة، "ولكنه جاء ليكرس نفسه لخدمة الرب التي هي هدف زيارته". وأنه جاء لتزويج ابنتى عمه الأميرتين سيبلا، وايزابيلا⁽¹⁰⁶⁾.

كانت تصريحات الكونت فيليب هذه مثار غضب نبلاء المملكة الكبار، حيث يروى المؤرخ إرنول أن أحد بارونات المملكة رد على فيليب معاتباً وموبخاً له "أأنتيم إلى هذه البلاد للزواج؟! ونحن الذين اعتمدنا أنكم جئتم إلينا لمساعدتنا ضد المسلمين وزيادة عدتنا...⁽¹⁰⁷⁾. فامتعض الكونت فيليب لقوله وغادر المملكة غاضباً وارتحل إلى أنطاكية، بعد أن أخذ معه الكونت ريموند الثالث وعدد من الفرسان، ولم يتبق في المملكة سوى عدد قليل من الفرسان سواء من

على هذه الصورة كانت أحوال المملكة السياسية، وعلى التقيض تمامًا كانت الأوضاع الإسلامية الداخلية بقيادة صلاح الدين تسير نحو إتمام الوحدة، فقد شجع غياب سلطة موحدة بين الصليبيين في المملكة إبان عهد الملك بلدوين الرابع مشاريع السلطان صلاح الدين فنجح في ضم دمشق ثم حمص ثم حماة إلى دولته، ولم يبق خارج نطاق دولته الموحدة سوى مدينة حلب. صحيح أن السلطان صلاح الدين لم يقيم بعمل حربي حاسم تجاه الكيان الصليبي طيلة الفترة من 1174م وحتى سنة 1178م⁽¹⁰⁹⁾، إلا أنه ألحق ببعض المدن الصليبية عمليات تخريب واسعة، كشفت للتعجيل بنهايته. ولذلك كان لزامًا على قادة الصليبيين في مملكة بيت المقدس أن يضعوا حدًا لتلك الفوضى السياسية التي أمست تعج بها المملكة داخليًا، والإسراع في اختيار رجل يساعد الملك المريض ويشرف على أمور المملكة ويمنع سيرها نحو الهاوية.

عندئذ دعا الملك بلدوين الرابع إلى عقد اجتماع بالمحكمة العليا ضم كبار نبلاء المملكة، وقد لوحظ غياب ريموند الثالث عن هذا الاجتماع ربما بسبب غضبه من خلعه من الوصاية، لم يحضر بوهيموند الثالث هذا الاجتماع ويبدو أنه كان مشغولًا في أنطاكية بالإعداد لاستقبال فيليب كونت فلاندرز وحملته الفلمنكية⁽¹¹⁰⁾.

خلال هذا الاجتماع طرحت آراء عديدة حول مشكلة الوصاية، وفي النهاية اتفق المجتمعون على تعيين رينو دي شاتيون (أرناط) وصيًا تنفيذيًا وقائدًا عامًا للجيش، ووكلوا إليه بتدبير شئون المملكة في حالة عجز الملك عن مباشرة إدارة المملكة، وتم ذلك في أغسطس من سنة 1177م⁽¹¹¹⁾، والراجح أن اختيار رينو دي شاتيون لهذا المنصب جاء تحت تأثير أمراء حزب القادمين حديثًا من الغرب، وعلى رأسه جوسلين الثالث - خال الملك بلدوين الرابع وسنكاله - والذي كان حاضرًا الاجتماع، بالإضافة إلى الكونتيسة آجنيس أم الملك. ولم يكن بوسع الملك بلدوين الرابع أمام خطر تدهور صحته، سوى الموافقة على هذا التعيين، ولعل هذا يفسر تفوق حزب القادمين الجدد واستثاره بالسلطة.

مما لا شك فيه أن اختيار رينو دي شاتيون لمنصب الوصاية كان خطأ يضاف إلى أخطاء السياسة الداخلية للمملكة الصليبية. إذ أجمعت كافة المراجع التي أرخت لتاريخ مملكة بيت المقدس خلال عهد الملك بلدوين الرابع أن سياسة رينو دي شاتيون الحمقاء أوردت المملكة الصليبية المهالك. فقد وصفته المصادر الصليبية بأنه "فارس من حثالة الفرسان"⁽¹¹²⁾. كما أشارت المراجع الغربية إلى انحطاط أخلاق رينو دي شاتيون وطيشه سياسيًا، مثلما ذكر المؤرخ بلدوين Baldwin، وأنه كان فارسًا مغامرًا خطرًا لا يمكن ضبطه والسيطرة على تصرفاته⁽¹¹³⁾. ويضيف المؤرخ كينج King بأنه كان مثاليًا للفارس اللص في عصره، واتصف بالجشع وعدم الوفاء والغدر والتعصب الأعمى⁽¹¹⁴⁾. أما المؤرخ شلومبرجيه Schlumberger فقد ألمح إلى طمعه في الثروة والجاه⁽¹¹⁵⁾. ولم تختلف نظرة المؤرخين العرب عن تلك الصورة التي رسمها الغربيون له، فابن الأثير يروى عنه أنه "كأ من أعظم الفرنج وأخبثهم، وأعظمهم ضررًا للمسلمين"⁽¹¹⁶⁾. كما وصفه أبو شامة بأنه "كان من أغدر الفرنجية. وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة"⁽¹¹⁷⁾.

الواقع أن الباحث أسهب في ذكر صفات رينو دي شاتيون، لتأكيد حقيقة أن هذا الأمير هو أحد المسئولين الأول عما حل بالمملكة الصليبية من انهيار. إذ أن ما حاول الملك بلدوين الرابع عمله لتحاوش دخول المملكة في معركة فاصلة بينها وبين المسلمين قد تُحسم فيها الأمور بصورة نهائية للجانب الإسلامي، قدم له رينو دي شاتيون بمقدمات دفعت العلاقات بين الجانبين الصليبي والإسلامي إلى الحد الذي جعل التراجع عن لحظة الحسم غير ممكنة⁽¹¹⁸⁾ كما سنرى في أحداث الفصل التالي. وبالإضافة إلى تهور رينو، كان لا يقيم وزنًا لأوامر الملك بلدوين الرابع، فلم يستجيب لأوامر الملك عندما أرسل إليه يأمره برد ما نهبه من قوافل المسلمين القادمة من مصر والمتجهة إلى دمشق سنة 1181م⁽¹¹⁹⁾. ويبدو أن السبب الذي جعل المحكمة العليا توكل إليه بإدارة المملكة، يرجع إلى جهوده الكبيرة التي ظهرت في معركة مونتجيسارد سنة 1177م للحد الذي جعل ابن شداد يضعه على زعامة الجيش الذي قاد المملكة للنصر على المسلمين في تلك المعركة⁽¹²⁰⁾. ومن المرجح أن رينو كان يأنس في نفسه القوة، وأنه بمنصبه هذا، صار يرى

نفسه ندًا قويًا للملك بلدوين الرابع.

على أية حال، فلم تلبث أن شهدت المملكة فترة هدوء نسبي داخلي، بفضل هدنة عام 1180م التي طالب الملك بلدوين الرابع بعقدتها مع المسلمين ووافق عليها صلاح الدين، كان من الممكن للمملكة استغلال تلك الهدنة في ترتيب أوضاعها الداخلية المضربة، والواقع أن الملك بلدوين الرابع انصرف يبحث عن زوج قوى لأخته الأميرة سيبيللا، ربما يمكن ضبط أمور المملكة⁽¹²¹⁾.

أرسل الملك بلدوين الرابع سفارة إلى الغرب الأوربي للبحث عن زوج مناسب للأميرة سيبيللا، وقد توجهت هذه السفارة إلى هيو الثالث دوق برجنديا Hugh III الذي ينحدر من بيت ملوك كاييه، يدعوه إلى قبول الزواج من سيبيللا. ووافق هيو أول الأمر، غير أنه تراجع وأثر البقاء في فرنسا⁽¹²²⁾. الأمر الذي جعل الملك وحاشيته لا يوافقون على الزواج، إذ كان عرض الزواج الذي عُرض عليه هدفه وجود شخص قوى يتولى الإشراف على مملكة بيت المقدس بدلا من رينو دي شاتيون المتهور.

في تلك الأثناء وقعت الأميرة سيبيللا في غرام أحد سادة بيت بينه (ابلين) وهو "بلدوين ابلين" Baldwin Ibellin⁽¹²³⁾، وبرغم أن بلدوين لم يكن من أصل نبيل إلا أن فكرة زواجه من الأميرة سيبيللا قد لقت قبول الجميع داخل المملكة⁽¹²⁴⁾ ولعل هذا دليلاً على الرغبة الملحة لتزويج سيبيللا، من أجل البحث عن وريث للمملكة بعد أن غدا الملك عاجزا عن القيام بأعباء وظيفته⁽¹²⁵⁾، على أن بلدوين ابلين هذا لم يلبث أن وقع في أسر المسلمين خلال معركة مرج عيون، قبل أن تتم مراسم الخطوبة وكتبت سيبيللا له في معتقله تؤكد له أنها لا زالت على جبهها له. ولما أطلق سراحه، أخبرته في برود أنه لم يعد الرجل المناسب لها، متعلقة بالفدية الكبيرة التي ألزم نفسه بدفعها للمسلمين، في حين أنه لا يملك المال الذي تعهد بدفعه⁽¹²⁶⁾. ولذلك توجه بلدوين على القسطنطينية يسأل عاهلها المال المطلوب للفدية، ولما اشتهر به مانويل من الميل إلى إظهار السخاء والكرم، فقد بذل لبلدوين كل ما هو مطلوب من المال لافتدائه⁽¹²⁷⁾. ثم عاد بلدوين

ظافرا إلى مملكة بيت المقدس في أوائل ربيع سنة 1180م، فاكشف أنه تمت خطبة سييلا لرجل آخر (128).

كان هناك سببان وراء رفض سييلا للزواج من بلدوين ايلين، الأول معارضة أمها الكونتيسة آجنيس لتلك الزيجة، إذ عُرف عنها كرهها الشديد لأقارب أزواجها (129). وبالتالي كرهت ارتباط ابنتها من بلدوين الذي يتنمى إلى بيت بينه. السبب الثاني وهو الأهم، وهو شعور حزب البلاط الملكي أن انتقال الملكية من بيت بلدوين الرابع معناه ضياع مصالحهم الشخصية، لذلك فقد قررت الحاشية الاحتفاظ بالسلطة في البيت الملكي مهما كانت النتائج (130).

في ضوء ذلك، ظهرت مسألة أخرى من مسائل تصدع المملكة من الداخل وهى مسألة زواج الأميرة سييلا من «جى لوزنيان» Guy Lusignan الذي وصل من غرب أوروبا برفقة أخيه الأكبر «أمالريك» Amalric (131)، وكان أما لريك هذا يحظى بعطف الكونتيسة آجنيس بشكل اعتقد فيه المؤرخ إرنول أنها كانت على علاقة غير شرعية به (132)، وقد نال جى لوزنيان استحسان الأميرة سييلا بسبب وسامته ووجهته، ووافقت على الخطبة له (133).

ويبدو أن العلاقة بين جى لوزنيان وسييلا تطورت للحد الذي جعل تأجيل الزواج لوقت مناسب أمراً غير ممكن، وفي سبيل معالجة هذا الأمر، تم الزواج على عكس ما تقضى العادات والتقاليد المتبعة في أثناء أسبوع عبد الفصح في ربيع عام 1180م (134)، وفي رواية أخرى يفهم منها أنه وجد سبباً آخر عجل بإتمام مراسم الزواج، وهو أن هذا الزواج كان موجهاً ضد ريموند الثالث، والذي ما إن سمع بذلك حتى دخل مع صديقه الأمير بوهيمند الثالث - أمير أنطاكية - مملكة بيت المقدس بالقوة مع قوات من الفرسان، وسبب ذلك قلقاً شديداً للملك بلدوين الرابع لأنه خشى أن يقوم ريموند الثالث وبوهيمند الثالث بثورة تطيح به عن العرش والاستيلاء على المملكة، لذلك فما إن علم الملك بقدمها حتى أسرع بإتمام زواج أخته، ولذلك فإن الملك من أجل مصلحته الخاصة أمر أن يتم الزواج. وعاد كل من كونت طرابلس وأمير أنطاكية إلى بلديهما (135).

وعلى الرغم من إتمام مراسم الزواج إلا أن الملك لم يكن راضيًا بجى لوزنيان زوجًا لأخته، إذ لم يكن جى هذا من طراز الرجال الذين يمكن لمملكة أن تعتمد عليه في إدارة شئونها في ظل تلك الظروف الصعبة التي تمر بها المملكة، والثابت أن أغلب نبلاء المملكة أيضًا وافقوا الملك بلدوين الرابع الرأى في عدم جدوى جى لوزنيان، الذي لم يكن سوى صبيًا ضعيفًا أحمقًا، لا يملك من المؤهلات إلا جمال الطلعة⁽¹³⁶⁾. ورغم ذلك نجحت الكونتيسة آجنيس في الحصول على موافقة الملك بلدوين الرابع⁽¹³⁷⁾.

بزواج جى لوزنيان من سيبلا اكتمل تكتل حزب القادمين الجدد، والذي ضم الكونتيسة آجنيس وأخيها جوسلين الثالث، وأمريك أخو جى لوزنيان وقد استطاع هذا الحزب السيطرة على الملك بلدوين الرابع⁽¹³⁸⁾ ونجحوا في إقناعه بأن يعهد بالوصاية على العرش إلى جى لوزنيان، فصار لجى لوزنيان السلطة التامة على المملكة، باستثناء مدينة بيت المقدس، والتي احتفظ بها الملك لنفسه، فضلًا عن دخل قدره عشر آلاف بيزنت⁽¹³⁹⁾. وقبل بارونات المملكة على كره منهم ما اتخذته الملك من قرار⁽¹⁴⁰⁾.

كان من أول النتائج السياسية التي ترتبت على زواج جى لوزنيان ووصايته، هو انسحاب بلدوين ابلين من مملكة بيت المقدس وانضم إلى المسلمين، حيث تسبب في العديد من الأضرار للصليبيين⁽¹⁴¹⁾. كما أدى ذلك إلى غضب كونت طرابلس وأمير انطاكية. ولا شك أن الكثير من نبلاء المملكة قد عارضوا تلك الوصاية. وهو أمر أحدث في المملكة انشقاقًا جديدًا يُضاف إلى سابقه، وليس هناك أدل من تعليق المؤرخ وليم الصوري عن وضع المملكة آنذاك بقوله: «لقد تدهور حال البلد إلى درك مهين بسبب ما طبع عليه جى لوزنيان من الحمق وعدم الكفاءة»⁽¹⁴²⁾.

ثم لم تلبث أن توجت سلسلة أخطاء الحزب الذي جمع جى لوزنيان والكونتيسة آجنيس وأخيها جوسلين بأن أقنعوا الملك بلدوين بأن ريموند الثالث يتأمر عليه. الأمر الذي جعل الملك بلدوين الرابع يأمر فرسانه بمنع الكونت ريموند الثالث من دخول أملاك زوجته بالجليل وطبرية عام 1182م، فعاد الكونت إلى إمارته طرابلس غاضبًا من الملك⁽¹⁴³⁾. وأصبحت المملكة

على حافة الحرب الأهلية مع ريموند الثالث، وعندئذ تلك النقطة باتت المملكة على وشك الانهيار⁽¹⁴⁴⁾.

لم تقف الأمور عند هذا الحد بل نشب نزاع بين الملك بلدوين الرابع وزوج أخته جى لوزنيان كونت يافا وعسقلان، ووصلت العلاقات بينها إلى حد أن الملك بلدوين الرابع كان يسعى إلى طلاق أخته سيبيللا منه⁽¹⁴⁵⁾ وقيل إن السبب في ذلك، هو أن الملك بلدوين الرابع رغب في استبدال مدينة القدس بصور، لأن صور كانت أحصن مدن المملكة، وجوها مناسب لصحة الملك، فطلب إلى صهره أن يتبادل المدينتين، غير أن جى رفض هذا الطلب رفضاً قاطعاً⁽¹⁴⁶⁾. ويبدو أن هذا السبب كان سبباً ظاهرياً، وأن السبب المباشر لذلك النزاع هو زيادة شعور جى لوزنيان بضعف الملك بلدوين الرابع، الأمر الذي جعل لوزنيان يتصرف آنذاك كملك وليس كوصي، مما أثار مخاوف الملك بلدوين الرابع فاستدعى كبار أتباعه، وبناء على نصيحتهم قرر الملك فسخ زواج جى من أخته، تمهيداً لعزله من منصبه⁽¹⁴⁷⁾. وقد طلب الملك من بطريك بيت المقدس هرقل Eraclius (1180-1190م)⁽¹⁴⁸⁾ أن يستدعى جى لوزنيان وسيبيللا إلى حضرته ويبين لهما عدم شرعية زواجهما ويعلن إلهما بطلانه، غير أن البطريرك الذي كان من صنيعة كل من آجنيس وأماريك كونستابل المملكة وأخيه جى لوزنيان وزوجه سيبيللا أخذ يماطل في تنفيذ أوامر الملك بلدوين الرابع، حتى تمكن جيلاً لوزنيان وزوجه من أن يفرا هرباً إلى عسقلان. فلما علم الملك بذلك أرسل في طلب الزوجين، ولكن جى لوزنيان رفض الحضور خشية أن يسلبه الملك بلدوين جميع ما صار يتمتع به من سلطة وجاه، وعندما فشل الملك في إجبارهما على العودة للقدس، قرر الملك بلدوين أن يخرج إليه بنفسه ليدعوه إلى الرجوع، ومضى إلى عسقلان مصطحباً بارونات، ولكنه وجد البوابات موصدة، وأمر أن تفتح له البوابات، ولكن أحداً لم يحضر لفتحها، على الرغم من أنه طرق بيده الباب ثلاث مرات دون جدوى على حد قول معظم المصادر⁽¹⁴⁹⁾.

حينئذ، غادر الملك بلدوين الرابع مدينة «عسقلان» غاضباً، واتجه إلى «يافا» لاستردادها من

يدجى لوزنيان، وهناك استقبله فرسان المدينة وساروا معه حتى دخلها دون مقاومة تذكر. وأقام عليها والياً من قبله، ثم تابع سيره نحو مدينة «عكا» حيث عقد هناك مجلس مشورة ضم جميع بارونات المملكة والأساقفة، وكان من المفترض أن يتم في هذا المجلس الاتفاق على إرسال رسل إلى أمراء فرنسا وغيرها من الأقطار الواقعة فيما وراء البحر يسألونهم أن يمدوا يد العون إلى المملكة. غير أن قدوم البطرك ومعه كبير الاستشارة إلى المجلس لفتوا انتباه المجلس إلى موضوع آخر، وهو التماس رضا الملك عن الكونت جى لوزنيان⁽¹⁵⁰⁾، وأستناداً إلى رواية انفردت بها حولية تاريخ هرقل فإن البطريك جثا على ركبتيه متضرعاً إلى الملك بلدين الرابع للعدول عن نيته في عزل لوزنيان من الوصاية والتي تطيح بالجميع وتفرط عقدهم أمام مخاطر خارجية متربصة" لكن الملك لم يستمع لهم ولم يستجب إلى ما طلبوه، فضاقت صدورهم من الملك وغادروا البلاط ورحلوا عن المدينة عازمين أن يبعثوا برناسل إلى ملك فرنسا يرجوه أن يأتي لإنقاذ المملكة من حرب أهلية قد تطيح بالمملكة. وبذلك انفض المجلس دون انجاز أي مما اجتمعوا من أجله⁽¹⁵¹⁾.

في الوقت الذي اجتمع فيه المجلس من أجل حل النزاع بين الملك بلدين الرابع والكونت جى لوزنيان، أقدم الأخير على عمل آخر دل على حماقته وسوء تصرفه، وهو مهاجمته للعرب البدو الذين كان الملك بلدين الرابع قد أذن لهم بالرعى في قلعة الداروم⁽¹⁵²⁾ نظير مبلغ من المال يدفعونه إليه ليظلمهم بحمايته. كان هذا العمل الأحمق هو الذي قطع خط الرجعة لأي تفاهم مستقبلي بين الملك والكونت، وذكر أن تصرف لوزنيان أغضب الملك بلدين الرابع بدرجة زادت من مرضه مما عجل بنهايته⁽¹⁵³⁾.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت للأحداث الأخيرة أثرها في شعور الملك بدنو أجله بعد أن أثقله المرض وأصبح طريق فراشه منتظراً قدره المحتوم ولذلك قرر الملك دعوة المحكمة العليا للانعقاد من أجل مناقشة مصير المملكة قبل وفاته وقد حضر كبار رجال المملكة من مدنيين ورجال دين، وأعلن الملك بلدين الرابع وصيته أمامهم، حيث أوصى بأن يخلفه في العرش ابن

أخته بلدوين الخامس من زوجها الأول وليم مونتيفرات البالغ من العمر آنذاك سنة أعوام، وتقرر أيضًا عزل جى لوزنيان من الوصاية⁽¹⁵⁴⁾. وتم ذلك في الثالث والعشرين من مارس 1183م⁽¹⁵⁵⁾ حيث قام باليان ابيلين سيد نابلس بحمل الطفل الصغير إلى كنيسة القيامة وتم ترسيمه وريثًا للعرش⁽¹⁵⁶⁾، في حين استأنف الملك بلدوين الرابع تسيير الحكومة بنفسه، على الرغم من أنه لم يكن بوسعه أن يتحرك إلا بمساعدة غيره، كما أنه لم يعد باستطاعته أن يوقع باسمه⁽¹⁵⁷⁾.

احتاجت المملكة مرة أخرى للوصاية، بسبب صغر سن بلدوين الخامس، واتجهت أنظار المملكة إلى ريموند الثالث كونت طرابلس⁽¹⁵⁸⁾. مع العلم أن سييلا أم الصغير بلدوين الخامس كانت الأحق شرعًا بمنصب الوصاية، لكن المحكمة العليا برئاسة الملك بلدوين الرابع استبعدتها عن الوصاية. وأوردت حولية تاريخ هرقل تعليلا غير مقبول لهذا الاستبعاد مفاداه أنه حينما انفصلت آجنيس عن عموري، لم تحصل سييلا على الشرعية الملكية وقتذاك لأنها كانت لا تزال طفلة⁽¹⁵⁹⁾. وهو تبرير غير منطقي فقد كان أخوها بلدوين الرابع أيضًا لا يزال طفلًا آنذاك، بل كانت سييلا تكبره بثلاث سنوات. ومع ذلك حصل بلدوين الرابع على الشرعية الملكية. ومن المرجح أن الملك بلدوين الرابع استبعد أخته من الوصاية لمخالفتها له، وهروبها مع زوجها جى لوزنيان، وربما خشى أن تتنازل أخته عن التاج إلى جى لوزنيان إذا ما عُينت وصية على ابنها. وهو ما تم بالفعل بعد وفاة بلدوين الرابع.

في تلكثناء، كانت العلاقة بين الملك بلدوين الرابع والكونت ريموند الثالث يشوبها الفتور كما سبق وأن أوضحنا، ولكن حالة المملكة السيئة دعت البعض في المملكة وعلى رأسهم وليم الصوري في التدخل والتوسط في الصلح بين الكونت والملك؛ فقبل الملك بلدوين الرابع «كارها أن يرى ريموند الثالث» الذي استطاع أن يبرئ ساحته من التهم التي أُلصقت باسمه⁽¹⁶⁰⁾. وبعدها عهد الملك بلدوين الرابع رسميًا بوصاية ريموند الثالث على بلدوين الخامس، وتم ذلك في العشرين من نوفمبر سنة 1183م، ولكن بشروط اشترطها الكونت

ريموند الثالث⁽¹⁶¹⁾.

كان من بين ما اشترطه الكونت ريموند الثالث للوصاية أنه غير مسئول عما يحدث للطفل خلال سنوات الوصاية العشر «فإذا أصاب الطفل سوء كالموت مثلاً فلا يزعمن أحد أن موته كان بسبب ريموند أو بتدبيره». كما طلب أن تسلم قلاع المملكة وحصونها إلى الداوية والإستبارية للحفاظ عليها، حتى لا يكون هو عرضه لأية مسئولية كما طالب أن يكافأ مالياً، ولا يتكلف شيئاً مما يُصرف على المملكة، متعللاً بأن دخله قليل لا يساعده في الصرف على جيش كجيش المملكة. وأضاف إلى ذلك، أنه سيقوم بالوصاية لمدة عشر سنوات فإن مات الطفل خلالها، يتم نقل الوصاية إلى أقرب الناس صلة بالطفل بعد أخذ موافقة البابا، وإمبراطور المانيا، وملكى فرنسا وإنجلترا. وقد وافق الملك بلدوين الرابع على تلك الشروط⁽¹⁶²⁾.

كان وصاية ريموند قد أثارت غضب ومعارضة حزب القادمين الجدد بزعامة أجنيس وأخيها وابتها وجى لوزيان. ووسط هذا الصراع المتنامى في الجبهة الداخلية للمملكة الصليبية، انتهز صلاح الدين الفرصة وتمكن بنجاح من ضم حلب مفتاح سوريا الشمالية إلى مملكته⁽¹⁶³⁾.

ومهما كان الأمر، ففي مارس سنة 1185م مات الملك بلدوين الرابع بعد رحلة طويلة مع المرض ولم يتجاوز عمره الرابعة والعشرين عاماً، وتم دفنه في كنيسة القبر المقدس بجوار أبيه وأجداده⁽¹⁶⁴⁾. وخلفه بلدوين الخامس تحت وصاية الكونت ريموند الثالث. وقد اعتبر المؤرخ رانسيان أن بلدوين الرابع كان من أتعس ملوك بيت المقدس، غير أن بسالته وشجاعته وقدرته لم تكن موضع شك. ولقد أغناه الموت على أن يرى بعيني رأسه سياسة المملكة المؤسفة⁽¹⁶⁵⁾.

إذا انتقلنا إلى الحديث عن سياسة بلدوين الرابع الدينية، فإنه سوف يتم تناولها على ثلاثة محاور هي: علاقة بلدوين الرابع ببطاركة بيت المقدس، ثم المنح والاقطاعات التي حازتها الكنيسة، وأخيراً الانجازات والأعمال التي قام بها رجال الكنيسة تجاه المملكة.

بعد وفاة عموري الأول لم تثير الكنيسة أية مشاكل حول وراثة العرش، بل ارتضت بلدوين الرابع ملكاً للقدس، وقام البطريك أملريك من نيسلى بتتويج بلدوين الرابع في كنيسة القيامة في

الخامس عشر من يوليو سنة 1174م⁽¹⁶⁶⁾ ولذلك فلم يجد الملك بلدوين الرابع أية مضايقات من جانب الكنيسة في عهد بطيريكها أمليرك من نيسلى والذي وصفته المراجع بأنه "كان بسيطاً، قليل الفائدة للكنيسة"⁽¹⁶⁷⁾ ولعل بساطته هذه هي التي جعلته لا يدخل في صراع مع الملك. ومن ثم فقد شهدت فترة بطيريكته وفاقاً مع المملكة، أضاف إلى ذلك أن بلدوين الرابع لم يتدخل في شئون الكنيسة، وفي ضوء هذه العلاقات الطيبة بين المملكة والكنيسة، مارست الكنيسة سلطتها القضائية على كل رجال الدين والعلمانيين في القضايا المتعلقة بالزواج، والشرعية، ووراثة العرش، والهزقة الدينية، والانحرافات الجنسية والمفاسد الأخلاقية، وغيرها من الأمور الدينية⁽¹⁶⁸⁾.

ولكن في السادس من أكتوبر سنة 1180م مات البطريرك أمليرك، وكان لابد من اختيار بطيريكاً خلفاً له يحفظ للبطيركية قوتها في وسط الأوضاع السيئة التي ترزح فيها السلطة العلمانية. وقد أوكل هذا الأمر إلى الملك بلدوين الرابع.

إذ كان من ضمن حقوق ملك بيت المقدس الشرعية، حق اختيار البطريرك، وهذا الحق لا يشاركه فيه أحد، فهو وحده من يملك قرار تعيين البطريرك، حيث يقوم كبار رجال الدين في كنيسة القيامة بتقديم مرشح أو مرشحين للبطيركية، ثم يتم عرض الترشيح على ملك القدس، فإما أن يقر التعيين باختيار أحد المرشحين، وإما أن يرفضه، وفي الحالة الأخيرة يجب على كبار رجال الدين البحث عن مرشحين آخرين⁽¹⁶⁹⁾.

ولقد تفهم وليم الصوري الخطر المحدق الذي يمكن أن يحدث إذا ما وصل إلى البطريركية رجل غير كفء في زمن كانت فيه المملكة في أشد الحاجة إلى دعم من الكنيسة، لذلك حاول ما في وسعه منع ترشيح رجل غير كفء للمنصب⁽¹⁷⁰⁾. واستناداً لآراء المصادر توجه وليم الصوري إلى القائمين على القبر المقدس ونصحهم بعدم انتخاب أي أسقف من أساقفه المملكة، وحذرهم من انتخاب رجل يندمون بعدئذ على اختياره. وكان من جملة ما قاله لهم أيضاً: «لا تختاروا رجلاً تتأذى منه المملكة فيما بعد، لأن الأمر سيكون يبنى وبين رئيس أساقفة قيسارية

(هرقل)، إذ إنكم بعد انتخابكم إياه (يقصد هرقل) تقدمونه إلى الملك فيقبله الملك وأنكم تعرفون أن أم الملك (يقصد آجنيس) تحبه حبًا جمًّا، فإن شئتم اختيار رجل حكيم من أهالي ما وراء البحر فإنني أنا وكبار رجال الدين في المملكة على أتم استعداد لتقديم النصيحة لكم، وأعلموا أن ما دفعني لأنصحكم هو أنني وجدت في أحد الأسفار أن رجلًا اسمه هرقل أعاد الصليب من فارس إلى القدس وأن رجلًا اسمه هرقل سيضع على يديه الصليب»⁽¹⁷¹⁾.

على أية حال، فقد اجتمع كبار رجال الدين في كاتدرائية بيت المقدس، ورشحوا اثنين لمنصب البطركية وهما: وليم الصوري رئيس أساقفة صور، وهرقل رئيس أساقفة قيسارية، وتم تقديم المرشحين إلى الملك بلدوين الرابع ليختار من بينهما من يصلح لتولي منصب البطركية⁽¹⁷²⁾.

لقد كان الفرق بين المرشحين كبيرًا، فوليم الصوري كان حسب وصف إرنول، رجل دين وسياسي بارع، تلقى من العلم ما جعله أول علماء عصره⁽¹⁷³⁾، ولثقة الملك عموري به أرسل أكثر من مرة في بعثة دبلوماسية إلى البلاط البيزنطي، ثم جرى تعيين مؤدبًا خاصًا للأمير بلدوين الرابع، وفي عهد بلدوين الرابع تم انتخابه مستشارًا للمملكة، ورئيسًا لأساقفة صور⁽¹⁷⁴⁾، هذه المؤهلات جعلته أهلاً للترشح لكرسي البطركية بالمملكة. أما المرشح الآخر وهو: هرقل: فقد رسمت المصادر لنا صورة بشعة له إذ وصفه بأنه: «رجل عديم الحياء، ليس له من العلم إلا النزر اليسير، منحل الأخلاق أشد الانحلال، منكبًا على ملذاته، عبدًا لشهواته»⁽¹⁷⁵⁾ أما المؤرخ إرنول فلم يكن هرقل في نظره «سوى رجل دين فقير لا يعرف من القراءة والكتابة إلا القليل، بيد أنه كان وسيئًا بدرجة جعلت الكونتيسة آجنيس تقع في عشقه»⁽¹⁷⁶⁾. وعلى الدرب نفسه أيضًا سار تاريخ هرقل، فذكر رواية تتفق كثيرًا مع الروايتين السابقتين⁽¹⁷⁷⁾.

أيًا كان الأمر ففي السادس عشر من أكتوبر سنة 1180م، تم تقديم كلا المرشحين إلى الملك بلدوين الرابع، والذي اختار هرقل للبطركية⁽¹⁷⁸⁾ وتم استبعاد وليم الصوري⁽¹⁷⁹⁾.

أما عن السبب الذي دفع بلدوين الرابع لاختيار هرقل للبطركية، فقد أجمع إرنول وتاريخ

هرقل وتاريخ ذيل وليم الصوري على أن السبب في ذلك هو أم الملك آجنيس التي طلبت من ابنتها الملك ذلك، وقيل أن أم الملك كانت على علاقة غير شرعية بهرقل إذ كانت تعشقه لجمالها ووسامته⁽¹⁸⁰⁾.

ربما يبدو هذا التعليل غير منطقي. إذ ليس من المعقول أن تصل مثل هذه الشائعة إلى الملك بلدوين الرابع دون أن يكون كارها أو مشمئزاً أو حتى رافضاً تعيين عشيق أمه في هذا المنصب الخطير، مهما بلغ تأثير أمه عليه. لذلك فإننا نتفق مع رأى أحد الباحثين في أن تاريخ ذيل وليم الصوري وتاريخ إرنول وحوالية تاريخ هرقل قد نقلوا جميعاً آرائهم تلك عن وليم الصوري الذي كانت أم الملك سبباً في إبعاده عن البطريركية⁽¹⁸¹⁾. ويضيف رانسيان سبباً آخرًا وهو أن اختيار هرقل كان نكايه في وليم الصوري، الذي كان بحكم خبرته مصدر خوف من جانب الحزب الذي كان آنذاك يسيطر على الملك بلدوين الرابع، والذي كان يجمع آجنيس ورينو دي شاتيون وجوسلين الثالث، وجى لوزنيان⁽¹⁸²⁾. على أن الأهم من ذلك هنا، وهو أن الملك بلدوين الرابع لم يمارس حقه الشرعي في اختيار البطريرك، بعد أن تدخلت أمه آجنيس في شئون الحكم والإدارة، ومارست تأثيرها الفاسد عليه⁽¹⁸³⁾.

على أية حال، فقد اعتبر المؤرخ جروسية Grousset أن اختيار هرقل للبطيركية كارثة كبرى للمملكة، فلقد تم اختياره لاعتباره سياسية من قبل السلطات المحلية، مما يفسر الاستبعاد المتعمد لسلطة البابوية، الأمر الذي جعل رئاسة الأماكن المقدسة تذهب إلى رجال لم يكن لهم من السمة الكهنوتية سوى الملابس، وكانوا يتاجرون علناً في الرتب الكهنوتية⁽¹⁸⁴⁾.

علاوة على ذلك فإن المصادر أضافت أن البطريرك هرقل اتخذ لنفسه عشيقة اسمها "باسك دي ريفري" Pasque de Riveri وهي زوجة تاجر أقمشة وثياب في نابلس، وقد اعتاد هذا التاجر أن يأتي بزوجه إلى القدس، حيث كانا ينزلان في ضيافة البطريرك هرقل، وكان البطريرك يندق عليهما الأموال حتى صارا من الأثرياء، ومن أجل هذا اعتاد زوجها أن يغمض عينيه ويتغافل عنها فيفعل البطريرك معها ما يشاء⁽¹⁸⁵⁾. وقيل إن هذه المرأة صارت تلقب "بالبطيركة

صاحبة نياقة البطيريك⁽¹⁸⁶⁾. وهو بلا شك لقب يحمل الكثير من الاستهجان لشخص البطيريك. وإن صحت تلك الروايات فلا شك أنها توقفتنا على سوء مسلك بعض رجال الدين، وانغماس بعضهم في الرزيلة.

لم يتوقف أمر البطيريك هرقل عند هذا الحد، بل راح يبيك المؤامرات ضد ولیم الصوري، ونجح في الثاني من أبريل 1181م في طرده من أسقفية صور، فتوجه ولیم إلى روما لمناشدة البابا. وبناءً على رواية إرنول رحب البابا ومجلسه البابوي بولیم الصوري ترحيباً كبيراً، ونجح ولیم في تبرئة نفسه من التهم التي ألقها به البطيريك؛ لكن البطيريك أرسل خلف ولیم الصوري طبيباً مرتزقاً نجح في دس السم إلى ولیم، فمات مسموماً في روما⁽¹⁸⁷⁾.

ومع أن رواية إرنول عن دس السم لولیم ليس عليها أدلة. لكنها وبلا شك تروى المأساة والفوضى التي رافقت تعيين هرقل لمنصب البطيريكية، وتؤكد لنا تدهور أوضاع الكنيسة وبطيريكيتها في عهد بلدوين الرابع، بعد أن شهدت فترة من السلام والاستقرار في بداية عهده⁽¹⁸⁸⁾.

أما عن المنح والأقطاعات والإعفاءات الضريبية لممتلكات الكنائس فتعد من أهم العلاقات بين الملك والكنيسة، والواقع أن حجم الإقطاعات والمنح التي قدمت للكنائس والأديرة في مملكة بيت المقدس خلال عهد بلدوين الرابع (1174-1185م / 569-581هـ) كانت قليلة بالمقارنة بالمنح والإقطاعات التي حصلت عليها الكنائس والأديرة في السنوات السابقة لعهد الملك بلدوين الرابع⁽¹⁸⁹⁾.

ويعود السبب في قلة حجم تلك الإقطاعات والمنح إلى عدة عوامل داخلية وأخرى خارجية وثالثة طبيعية. ومن أهم العوامل الداخلية: تلك النزاعات التي نشبت بين الأمراء الصليبيين حول الوصاية على العرش، وظهور النزاعات الانفصالية التي كان رجال الكنيسة طرفاً فيها⁽¹⁹⁰⁾. ولا شك أن المشاكل السياسية والخلافات التي كانت تعج بها المملكة آنذاك قد أثرت على حجم الإقطاعات الكنسية، إذ تسابق الأمراء ورجال الدين إلى إثبات حقوقهم، دون مراعاة

لحقوق الآخرين، الأمر الذي يشير إلى تزعزع المجتمع الصليبي آنذاك. أما العوامل الخارجية فمن أهمها: السياسة الخارجية الفاشلة التي ورثها الملك بلدوين الرابع عن أبيه الملك عموري الأول والتي تركت خزانة المملكة خاوية⁽¹⁹¹⁾، زاد على ذلك، ازدياد ضغط المسلمين بقيادة صلاح الدين على حدود مملكة بيت المقدس خلال الفترة موضوع الدراسة، فقد أشار أحد المؤرخين أن جميع الأراضي المزروعة والأسقفيات في عهد الملك بلدوين الرابع كانت عرضة لهجوم المسلمين، الأمر الذي أدى إلى هجر كثير من المزارعين لأراضيهم، ولذلك فإن عائدات الأسقفيات والكنائس والأديرة كانت غير ثابتة⁽¹⁹²⁾. وأخيرًا كان للعوامل الطبيعية أثرها السلبي على إقطاعات الكنيسة، إذ تعرضت المملكة لزلزال مدمر عام 1170م قضى على الكثير من الإقطاعات الكنسية وما صاحب ذلك من خسائر بشرية واقتصادية، أصابت مملكة بيت المقدس آنذاك، وامتدت آثاره السلبية حتى عهد الملك بلدوين الرابع⁽¹⁹³⁾.

لقد ترتب على تلك العوامل، صدور بعض التشريعات القانونية للمملكة خلال عهد الملك بلدوين الرابع، التي حظرت على المؤسسات الكنسية امتلاك وحياسة الإقطاعات⁽¹⁹⁴⁾. ولكن على الرغم من ذلك، فإنه عند قراءة بعض الوثائق الصليبية التي صدرت في عهد الملك بلدوين الرابع، يتبين لنا أن المؤسسات الكنسية قد حصلت على عشرات من المنح، كانت تقدم للكنيسة في شكل هبة، سواء من كبار النبلاء الإقطاعيين أو من البرجوازيين. ومن أمثلة تلك المنح الإقطاعية التي منحت من الملك بلدوين وحكومته إلى الكنيسة ما حدث في سنة 1177م يث منح الملك بلدوين الرابع إلى بطرس رئيس كنيسة القبر المقدس خمسين من كرمه⁽¹⁹⁵⁾. وفي فبراير من العام نفسه منح أمالريك نائب كونت نابلس بموافقة زوجته وشقيقه، كنيسة القديسة مريم في وادي يهوشفاط Josaphat قطعة أرض صالحة للمرعى تسمى قصر سيل Casresil⁽¹⁹⁶⁾.

وفي العام نفسه 1178م وصلت ممتلكات دير جبل صهيون في بيت المقدس، حياً بأكمله في مدينة القدس ذاتها مع تمتعه بحق فتح بوابة في أسوار المدينة. وكان لذلك الدير أيضًا ممتلكات وأراضي وبساتين وأسواق في عسقلان ويافا ونابلس وقيسارية وعكا وصور، بل وامتدت

ممتلكات هذا الدير خارج المملكة في صقلية وإيطالية وفرنسا⁽¹⁹⁷⁾.

هذا وقد سمح الملك بلدوين الرابع في بعض الأحيان لرجال الدين اللاتين بالتوسع في شراء الأراضي والعقارات من أجل زيادة مساحة إقطاعياتهم وأملاكهم، خاصة في الأوقات التي كانت تتوقف فيها الحروب مع المسلمين. فقد اشترى رجال الدين العديد من القرى والأراضي المزروعة بأشجار الكرم وغيرها. فضلاً عن قيامهم بشراء المنازل والمتاجر وبعض المنقولات الأخرى مثل المحارث والطواحين⁽¹⁹⁸⁾، ففي السابع والعشرين من أكتوبر عام 1175م اشترى بطرس رئيس كنيسة القيامة، بموافقة جميع رجال الدين اللاتين العاملين معه في الكنيسة حقوق جبل طابور في قرية سانت جيل وترمسعيا والدير بمبلغ ألف بيزنت، وقد تولى جارينوس Garinus رئيس دير جبل طابور بيع أملاك الدير في القرى السابقة الذكر، بموافقة ليتاردوس Letardus رئيس أساقفة الناصرة، وجميع رجال الدين العاملين في دير جبل الطابور⁽¹⁹⁹⁾.

كذلك فقد قام بلدوين صاحب قرية سنجيل وبموافقة زوجته ستيفاني Stephani ببيع بعض المنازل والأراضي المزروعة بأشجار الكرم، وجميع المنقولات التي كانت من أملاك رهبان دير جبل طابور في قرية سنجيل⁽²⁰⁰⁾، إلى كنيسة القيامة، ووافق بلدوين على انتقال هذه الأراضي بها فيها من أشجار تنتقل إلى كنيسة القيامة ويكون للكنيسة حق التصرف فيها⁽²⁰¹⁾.

إذا انتقلنا إلى أهم الانجازات والأعمال التي قامت بها كبار رجال الدين خلال عهد الملك بلدوين الرابع، ففي ظل ضعف صحة الملك بلدوين الرابع وضعف السلطة الملكية، بدأ أن هناك دوراً كبيراً قدر للبطيريكية أن تلعبه⁽²⁰²⁾. ففي إشارة مهمة للرحالة يوحنا فوكاس John Phocas أثناء زيارته لمدينة بيت المقدس في أواخر عهد الملك بلدوين الرابع عام 1185م / 581هـ حيث تحدث عن الانجازات والتغيرات الكبيرة التي أحدثها رجال الدين اللاتين في مدينة القدس جرى تقسيم الأراضي وتوزيعها على الأديرة المقدسة حتى أصبحت على شكل غابات مليئة بالشجار، كما قام الرهبان بإنشاء الأبراج فوق أراضيهم، وحصلوا على محاصيل وفيرة⁽²⁰³⁾. ويتضح من حديث فوكاس مدى اهتمام الكنيسة باستصلاح الأراضي الزراعية وإقامة الأبراج

من أجل حمايتها⁽²⁰⁴⁾. كما اهتمت الكنيسة بإنشاء المنازل والمخابز والطواحين في مستوطنات المملكة، وهذا يعنى أنهم حرصوا على توفير متطلبات الحياة للمستوطنات الصليبية⁽²⁰⁵⁾.

أما بالنسبة للمشاركة السياسية للكنيسة ممثلة في بطريركيها في إدارة أوضاع الصليبيين بالشام فقد قامت بدور جليل في حل المنازعات التي كانت تقوم داخل المجتمع الصليبي، ومن أمثلة ذلك اعتماد الملك بلدوين الرابع على البطريركية في حل النزاع القائم بين الأمير بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وكنيسة إمارته⁽²⁰⁶⁾، فعقب اعتلاء هرقل لمنصب البطريركية أرسله الملك بلدوين الرابع إلى أنطاكية لحل المشاكل السياسية التي بها، وقد نجح البطريرك هرقل في عقد هدنة مؤقتة بين الأمير الأنطاكي ورجال دين كنيسته، بعد أن اشترط على الأمير بوهيموند برد ما سلبه من الكنيسة إلى البطريرك الأنطاكي، وأن يترك خليلته سبيلا ويعود إلى زوجته الشرعية تودورا، وإذا ما نفذ ذلك، أسقط عن كاله قرار الحرمان⁽²⁰⁷⁾.

من بين انجازات وأعمال رجال الكنيسة أيضًا، اشترك بعضًا منهم في مجمع اللاتيران الثالث The Third Lateran Council⁽²⁰⁸⁾ الذي عقد بروما، في الخامس من مارس سنة 1178م وكان على رأس المشاركين من رجال المملكة وليم الصوري رئيس أساقفة صور، وهرقل رئيس أساقفة قيسارية، وستة أساقفة آخرين⁽²⁰⁹⁾ وقد عرضوا على المجمع المخاطر التي تتعرض لها المملكة من جراء هجمات صلاح الدين المتكررة، وطالبوا المجمع بإرسال حملة صليبية إلى القدس لمؤازرة الملك المريض بلدوين الرابع⁽²¹⁰⁾. وهكذا فقد شارك رجال الدين في محاولة إيجاد حل للمشاكل السياسية للمملكة الصليبية.

أما عن علاقة مملكة بيت المقدس بهيئة الفرسان الدينية في عهد الملك بلدوين الرابع فخلال عهد هذا الملك نمت الهيئات الدينية المحاربة بصورة ملحوظة، وخاصة هيئتي الاستبارية والداوية.

والواقع أن الهدف الأساسي من قيام تلك الهيئات، كل العناية بمرضى الصليبيين ورعايتهم، ولكن هذا الهدف لم يلبث أن تحول ليتخذ طابعًا دينيًا⁽²¹¹⁾. وإذا كانت الداوية مثلت

بوضوح أنها هيئة لها نشاط عسكري من الدرجة الأولى، فإن الأمر بالنسبة للإستباترية لم يكن واضحاً، فحتى السنوات الأولى من عهد الملك بلدوين الرابع لم يكن نشاط الإستباترية العسكري غير معروف من الناحية القانونية⁽²¹²⁾. حيث كان الباب اسكندر الثالث قد أمر الإستباترية بالامتناع عن حمل السلاح كلياً، وذلك بموجب وثيقتين بابويتين صدرتا عامي 1178، 1180م، ومع ذلك كانت الإستباترية تشارك في الحرب عندما تقتضى حاجات المملكة ذلك⁽²¹³⁾. ولكن في أواخر حكم الملك بلدوين الرابع وبالتحديد في سنة 1182م، بدأت تظهر بوضوح نوعية نشاط هذه الهيئة فقد ورد في قوانين تلك الهيئة عام 1182م ما يؤكد نشاطها العسكري، حيث ذكرت تلك القوانين إن "القتال كان نشاطاً خيرياً آخرًا ومكملاً للمهمة الأساسية للأخوية، حيث كان امتداد لرعاية الفقراء والعناية بهم"⁽²¹⁴⁾ وفي أواخر عهد الملك بلدوين الرابع وتحديداً في أوائل ثمانينيات القرن الثاني عشر بدأ الباب الجديد لوسيوس الثالث Lucius III (1181-1185م)⁽²¹⁵⁾ يعترف بنشاطات الإستباترية العسكرية في المملكة الصليبية⁽²¹⁶⁾، خاصة وأن المملكة كانت قد تعرضت في ذلك الحين إلى هجوم خارجي خطير من جانب صلاح الدين هدد أمنها وزرع استقرارها، بل وفي عهد الملك بلدوين الرابع ثم السباح للهيئات الدينية المحاربة بمهمة التفاوض مع أعداء المملكة خاصة بعد تزايد النزاعات الداخلية بشكل مستمر داخل تلك المملكة بين القادة والأمراء⁽²¹⁷⁾.

بعد اعتراف البابوية بالنشاط العسكري للهيئات الدينية بدأ ينظر إليها على أنها قوة في السياسات الصليبية. ولذلك عندما تولى ريموند الثالث الوصاية على الملك بلدوين الرابع، كان للإستباترية والدواية ممثلين في مجلس دعا إليه لتقرير السياسة الواجب إتباعها إزاء المسلمين⁽²¹⁸⁾.

وما زاد أيضاً من وضع المنظمات الدينية المحاربة العسكرية في المملكة خلال عهد بلدوين الرابع، افتقار المملكة إلى القوة العسكرية، الأمر الذي جعل من تلك الهيئات حماة للكيان الصليبي⁽²¹⁹⁾، وشكلت قوتها العسكرية مدداً كبيراً للجيش المسيحية في تلك الفترة⁽²²⁰⁾.

أما عن الدور العسكري فقد أقيمت على عاتق منظمى الإستباترية والدواية في عهد بلدوين

الرابع مهمة الدفاع عن الحدود والقلاع الداخلية لمملكة بيت المقدس⁽²²¹⁾ خاصة بعد ازدياد هجوم المسلمين بقيادة صلاح الدين على حدود المملكة، ولقد نتج عن ذلك الوضع أن زادت هبات السادة الإقطاعيين على تلك المنظمات وبخاصة الإسمتارية، فقد كان السيد الإقطاعي يعطى الإسمتارية المناطق المعرضة للخطر، والتي لا يستطيع الدفاع عنها⁽²²²⁾ كما جرى تكليف الهيئات الدينية المحاربة من الإسمتارية والداوية برعاية القلاع الملكية⁽²²³⁾.

كما أسند الملك بلدوين الرابع إلى هيئة الإسمتارية مهمة الدفاع عن بيت جبرين وذلك في عام 1179م⁽²²⁴⁾ وفي العام نفسه عهد الملك بلدوين الرابع إلى الداوية بحماية قلعة بلفورت Belfort⁽²²⁵⁾. ومن جهة أخرى فقد جدد الملك بلدوين الرابع عام 1176م الاتفاقية التي عقدها والده الملك عموري مع الإسمتارية، حيث تعهد الملك بلدوين الرابع بمنح الإسمتارية جزء من أراضى مصر في حالة النجاح في الاستيلاء عليها، إضافة إلى ثلاثين ألف دينار بيزنطي أيضًا⁽²²⁶⁾. وساعد على ذلك ما جمعته تلك الهيئات من ثروة طائلة، وما حصلوا عليه من ممتلكات عديدة⁽²²⁷⁾.

الواقع أن المشاركة العسكرية للهيئات المحاربة في عهد بلدوين الرابع كان يتوقف على عدة عوامل أهمها: مصلحتها الشخصية، وكذلك على الحزب المشارك في الحكم، ففي السنة الأولى من حكم الملك بلدوين الرابع رفضت منظمى الإسمتارية والداوية مشاركة الأسطول النورماندى هجومه على مصر، ويعزى المؤرخ هاملتون Hamilton⁽²²⁸⁾ السبب في ذلك إلى أن جوبرت Jobert رئيس منظمة الإسمتارية ربما مانع في وضع منظمته وفرسانه في حرب قد تكلفه الكثير، خاصة بعد أن أرهقت الحرب موارد هيئته لمدة ست سنوات من قبل.

والراجع أن منظمة الداوية رفضت أيضًا لعب أي دور عسكري خلال سنتى وصاية ريموند الثالث على الملك بلدوين (1174-1176م)، وذلك بسبب العلاقات السيئة التي كانت بين ريموند الثالث والداوية، والتي ترجع أسبابها إلى عام 1174م، في حين أن لا يمكننا تطبيق ذلك على الإسمتارية التي كانت تجمعهم بريموند الثالث علاقات جيدة.

ولكن بعد إبعاد ريموند الثالث من الوصاية بعد أن وصل بلدوين الرابع إلى السن القانونية للانفراد بالعرش عام 1177م، زالت كل الأسباب التي كانت تحجب مشاركة الهيئتين في توجيه سياسة المملكة، لذلك نلاحظ مشاركة فرسان الداوية الإسطبارية في موقعة مونتجيسارد التي كانت بين الملك بلدوين الرابع، وصلاح الدين في نوفمبر سنة 1177م والتي انتهت لصالح بلدوين الرابع، صحيح أن مؤرخ المملكة وليم الصوري تحدث عن اشتراك سيد الداوية أودو أوف أماند وثمانون من أخوانه في تلك المعركة، ولم يذكر أدنى إشارة عن اشتراك الإسطبارية في تلك المعركة، إلا أن هناك وثيقة أشارت بوضوح عن اشتراك الإسطبارية في تلك المعركة، كما أخبرنا بذلك روجر دي مولين في خطاب له (229).

على الجانب الآخر، كانت أحياناً تشب النزاعات بين هيئتي الإسطبارية والداوية وبعضهما البعض وبينهما وبين الكنيسة خلال حكم بلدوين الرابع، وانشغلوا بالصراع ونسوا خطر صلاح الدين (230) لدرجة أنها بعد معركة مونتجيسارد، لم يجتمعا معاً في معركة واحدة مع بلدوين الرابع ضد المسلمين حتى وفاة هذا الملك. ففي معركة مرج عيون التي وقعت بين بلدوين الرابع وصلاح الدين عام 1179م/ شارك الداوية وحدهم في المعركة بجانب الملك بلدوين الرابع، في غياب واضح للإسطبارية، ومع ذلك ينسب وليم الصوري (231) خسارة الصليبيين في هذه المعركة إلى مقدم الداوية "ايود دي سانت أماند" الذي وصفه وليم الصوري "بالكبر والغرور وعدم خشية الرب". في حين إننا نلاحظ أنه في حملة أرناط عام 1183م على بلاد الحجاز شارك الداوية وحدهم في هذه الحملة، ولم يشارك الإسطبارية فيها (232) في غياب متعمد من الإسطبارية.

أما عن المنح التي حصلت عليها تلك الهيئات فتبدوا واضحة في ضوء سخاء الملك بلدوين الرابع مع تلك الهيئات حيث منحهم العديد من الممتلكات تقديراً لجهودهم، ففي الحادي والعشرين من يناير 1180م منح الملك بلدوين الرابع الإسطبارية قطعة أرض داخل المملكة (233)، وخلال الأول من مايو عام 1179م صدق الملك بلدوين الرابع بخاتمته على منح الإسطبارية كميات من السكر كان سائسه ووكيله يوحنا قد خصصها منحة سنوية في عكا للإسطبارية (234). وفي الثامن والعشرين من أبريل 1180م عقد الملك بلدوين الرابع اتفاقية مع الإسطبارية وعد فيها

بمنح الإستهتارية مبلغ كبير من المال في حالة اشتراكهم معه في حربه ضد البدو⁽²³⁵⁾، كما منحهم الملك بلدوين الرابع السلطة الكاملة لهم ولمساعدتهم على قرية جُليل⁽²³⁶⁾. وهكذا يتضح أن المنح التي قدمها الملك بلدوين الرابع إلى الهيئات الدينية كانت كثيرة، ويكفي القول أنه في أواخر عهد الملك بلدوين الرابع أصبح للإستهتارية وحدهم 25 قلعة⁽²³⁷⁾.

وعلى أية حال، فقد كان لهذه المنح الكثيرة التي منحت إلى الهيئات الدينية أوجدت نوعًا من الفقر الإقطاعي داخل المملكة، الأمر الذي أدى على ارتفاع أسعار الأراضي، والتي استغلها فرسان هذه الهيئات بصورة متزايدة، حيث قاموا بشراء كميات كبيرة من الأراضي، ومن ذلك ماتم في السابع عشر من نوفمبر 1178م عندما اشترى الإستهتارية وفي حضور مقدم الإستهتارية ووجيه مولينيه من الملك بلدوين الرابع قرية سيليتام Siletam الواقعة في ناحية نابلس مقابل خمسة آلاف وخمسةائة بيزنت بيزنطي⁽²³⁸⁾ وعندما بيعت إقطاعيتي الجليل وجُليل عام 1182م اشترتها الإستهتارية من الملك بلدوين الرابع⁽²³⁹⁾. وهذا وقد تم إعفاء الإستهتارية وكذلك الداوية من دفع الضرائب المترتبة على سلعهم المنقولة، بل وأصبحت مناطق نفوذهم بمثابة مقاطعة شبه مستقلة⁽²⁴⁰⁾.

إلى جانب هيتى الإستهتارية والداوية وجدت بعض الهيئات الأسغر والتي لعبت دورًا مهمًا في سياسة المملكة في عهد بلدوين الرابع ومن أمثلتها هيئة القديس لازاريوس، وقد قامت هذه الهيئة أساسًا من أجل رعاية المجذومين أو الذين أصيبوا بمرض الجذام. ويعتقد أن هذه الهيئة تأسست في مدينة بيت المقدس في أثناء العقد الثاني من القرن الثاني عشر، كما سبق أن ذكرنا. وخلال فترة قصيرة أصبح لدى هيئة فرسان القديس لازاريوس، كنيسة ودير خاص بهم. وفي خلال عهد الملك بلدوين الرابع أو في فترة سابقة عنه ظهر "أخوة بيت القدس المجذومين" كرابطة، وقد تم انتخاب مقدم لهذه الهيئة، وقيل إنه كان مجذومًا مثل باقي رفاقه، وقد أصبح لهذه الهيئة بيوت في مدن مثل طبرية وعسقلان وعكا وربيا في قيسارية أيضًا⁽²⁴¹⁾.

أما عن دور هذه الهيئة فقد كان علاجيًا أكثر منه عسكريًا، إذ ألقى ألقى على عاتق هيئة القديس لازاريوس دور كبير في الاهتمام برعاية المرضى وبخاصة المصابون بالجذام، وصارت لتلك الهيئة مستشفى منظمة تنظيمًا دقيقًا⁽²⁴²⁾.

أما عن علاقة المملكة ببيثة القديس لازاريوس في عهد الملك بلدوين الرابع فالواقع أن الملك لم يوليها أية رعاية تذكر، وظهر ذلك بصورة لافتة للنظر، عندما لم يتقدم بهبة لذير القديس لازاريوس للمساعدة في علاج المرضى المجذومين، رغم أنه هو نفسه كان مريضًا بالجذام⁽²⁴³⁾، ويتضح ذلك من خلال الوثيقة التي صدرت عن الملك بلدوين الرابع في الحادي والثلاثين من سنة 1178م وفيها تراخى عن تجديد المنحة التي كان أبوه وجده قد منحوها لكنيسة القديس لازاريوس المهمة برعاية المجذومين، وكانت هذه المنحة عبارة وقف لأراضي قرية بيسان⁽²⁴⁴⁾ ولعل السبب في عدم سخاء الملك بلدوين الرابع على هذه الهيئة وغيرها من المؤسسات الكنسية يرجع إلى قلة موارد المملكة في عهده، كما سبق وأن أوضحنا.

وهكذا يتضح لنا في النهاية أن فترة حكم مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الرابع كانت فترة منازعات، وجهود سياسية ضائعة من أجل الوصاية، فضلًا عن دبلوماسية مشوشة واستراتيجية مضطربة على حد رأى أحد المؤرخين المحدثين⁽²⁴⁵⁾.

ولنقتبس هنا تلك العبارة البليغة التي علق بها المؤرخ وليم الصوري على أوضاع المملكة قبيل نهاية عهد الملك بلدوين الرابع إذ أورد يقول: "لقد ضاع منا كل ما كان يرضى علينا مجددًا مهيبًا، ولم يعد يطالعنا سوى مصائب وطن حزين، وما منى به من النكبات الكبيرة، وكل هذه لا تؤدي إلا لمزيد من البكاء وفيض من الدموع. إذ ليس من فعال أمرنا شيء يراه العاقل جديرًا بأن يضاف إلى مخزون ذكرياتنا، وليس هناك من شيء يُرضى القارئ أن تشرف روايته الكاتب. لذلك ينطبق علينا تماما الانطباق النبوءة القائلة "كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم، من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جرح وإحباط"⁽²⁴⁶⁾.

ذلك عرض للأحوال السياسية الداخلية للمملكة خلال عهد بلدوين الرابع، أما سياسة بلدوين الرابع الخارجية مع المسلمين فيتناولها الفصل التالي.

الهوامش

(1) اعترض فولشر بطريك بيت المقدس على زواج عموري من آجنيس، بسبب صلة القرابة التي بين الزوجين، والتي كانت من الدرجة الرابعة، ولما كان القانون الكنسي يحرم الزواج حتى الدرجة السابعة، فقد اعتبر زواج عموري من آجنيس زواج غير شرعي!! لزيد من التفاصيل عن تلك الإشكالية انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص23-24.

(2) Hamilton, The Leper Kind and His Heirs "Baldwin IV and The Crusader Kingdom of Jerusalem, (Cambridge, 2000), p. 23p Pierre Aube, Baudouin IV de Jerusalem, Le Roi Le Preux, (Paris, 1981), p. 52 – 55.

وعن تفاصيل ملابسات هذا الزواج. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص22-25؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ت حسن حبشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002م، ص21-23. وانظر:

"The Titular Nobility of The Latin East: The Case of Agnes of Courtenay" in: Crusaders, Cathars and the Holy Places, (ed.) by: Bernard Hamilton, Ashgate, London 2000 pp. 197-201.

وانظر: حجازى عبد المنعم عبد الحفيظ: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول، ص71

(3) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص442-443. وانظر:

- Hamilton, The Leper King, p. 23.

(4) Aube, Budouin IV de Jerusalem, p. 56p Hans E. Mayer, The Beginning of King Amalric of Jerusalem, In: H.H. pp. 121 – 123, 124, 126.

إذا كانت المصادر المعاصرة قد اتفقت على وجوب انفصال عموري عن زوجته إذا ما أراد التاج الملكى رغم أنه الوريث الوحيد له، فإنها اختلفت في تحليل دوافع هذا الانفصال: فوليم الصوري تحدث عن تأكده من وجود قرابة بين الزوجين استقصى بنفسه حقائقها، ورأى أنها سبباً كفيلاً للانفصال. بينما رأى إرنول Ernoul - مؤرخ القرن الثالث عشر - في انتهاء آجنيس المدينة غير شريفة سبباً في عدم أهليتها كزوجة للملك كبير مثل عموري. أما المؤرخ المجهول صاحب كتاب ذيل وليم الصوري فقد تبنى رأى بطريك القدس «املريك» في أن عموري قد ارتكب بزمجته تلك «خطيئة مدمرة تسقط كل حق له في التاج». وأيدته في ذلك حولية تاريخ هرقل L'Estoire

de Eracles. ورغم أن هؤلاء المؤرخين حاولوا إيهامنا بأن دوافع الانفصال كانت لأسباب روحية أخلاقية وحسب، فإن واقع الأمور يؤكد أن محاولة البطريك ومعه بارونات المملكة - على وجه خاص - في الضغط على عموري من أجل تطبيق زوجته آجنيس كانت وراءه دوافع سياسية في المقام الأول ربما سكتت عنها تلك المصادر.

فا معروف أن آجنيس كانت متزوجة قبل عموري من رينالد سيد مُرْعَش، الذي لم يلبث أن لقي مصرعه في معركة إنب Inab في عام 1149م، وبعد عدة شهور فقدت آجنيس ميراثها في مدينة عش، بعد أن فتحها المسلمون سنة 1149م، وفي عام 1150م أسر نور الدين أبيها وسمل عينيه واحتجزه سجيناً في حلب حتى مات هناك في عام 1159م. أما والدة آجنيس "بيترس" Beatrice فقد باعت القلاع الباقية في الرها إلى الإمبراطور البيزنطي ماتويل كومنين بعد أن غدت غير قادرة على الدفاع عنها، مقابل راتب سنوي طوال حياتها وأولادها. ثم عادت مع ابنها جوسلين الثالث وابنتها آجنيس إلى عقاراتهم الخاصة في Saone في إمارة أنطاكية حيث بقيت آجنيس حتى عام 1157م عندما تزوجت من عموري الأول. لذلك تزايدت مخاوف البارونات أعضاء المحكمة العليا من آجنيس إن أصبحت ملكة، فقد تستعمل سلطتها في تفضيل النبلاء المنفيين الذين صاروا بدون إقطاعيات وجاءوا إلى القدس من مقاطعة أبيها الرها على أعضاء المحكمة العليا. ومن ثم توفرت أسباب العداء بين أعضاء المحكمة العليا في عام 1163م وبين آجنيس كورتيناى.

انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص23-25؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ص21-22. وانظر:

Ernoul, Le Chronique, p. 17; L'Estoire de Eracles, in RHC., Occ., Vol. II. P. 5p "The Case of Agnes of Courtenay, pp. 197 - 198; Mayer, The Beginning of King Amalric, pp. 122-123.

ناقش الدكتور حجازى عبد المنعم في أطروحته للدكتوراه آراء المصادر السابقة ورد عليها: انظر: حجازى عبد المنعم عبد الحفيظ: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول، ص72 - 73.

(5) الباب اسكندر الثالث: ولد في Siena سنة 1100م، تم تعيينه شماساً سنة 1150م، ثم كاردينالا سنة 1152م، ثم مستشارا سنة 1153م، وظل يترقى في المناصب الكنسية حتى تم اختياره لكرسى البابوية في روما في السابع من سبتمبر 1159م. للمزيد من التفصيل انظر:

- Kelly, Oxford Dictionary of Popes, pp. 176-177.

(6) L'Estoire de Eracles, pp. 4-5; Hamilton, The Leper King, pp. 26-27.

(7) Aube, Baudouin IV de Jerusalem, p. 55.

هيو من ابلين: هو أكبر أبناء ابلين الكبير مؤسس بيت بينه، وشقيق كلاً من بلدوين سيد الرملة وباليان الأصغر، تزوج من أجنيس كورتيناى طليقة الملك عموري، ومات عام 1169م دون أن ينجب منها انظر:

L'Estoire de Eracles, Vol. II, pp. 5-6.

(8) Mayer, The Beginning of King Amalric, pp. 125-126; Peter W.Edbury, John of Ibelin and the Kingdom of Jerusalem, in: J.R.A.S., Third Series, vol., 9, Part 1, April 1999, Cambridge University Press 1999, p. 141.

(9) Kinnamos, Deeds, pp. 139; "The Queens of Jerusalem 1100-1190" In: Crusaders, Cathars and the Holy Places, p. 161.

(10) Aube, Baudouin IV de Jerusalem, p. 55.

(11) Ibid., p. 55p Hamilton, The Leper King, p. 27.

(12) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص174 وانظر أيضًا:

- Aube, Baudouin IV de Jerusalem, p. 57-58

(13) Krey (A.C.), "William of Tyre: The Making of an Historian in Middle Ages", Spec., Vol. 16, No. 2 (Apr., 1941), p. 154.

(14) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص174 - 175. وأيضًا انظر:

Archer and Kingsford, The Crusades "The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, New yourk, G.P. Putnam's Sons, (London 1902), p. 250p Aube, op. cit., p. 55.

الجذام في اللغة معناه «القطع»، والأجذم هو مقطوع اليد. انظر: جار الله أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة وتقديم: محمود فهمى حجازي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط. القاهرة، 2003م، ج1، ص114؟

أما الجذام من منظور الطب: فهو مرض مزمن يؤثر على الجهاز العصبي الطرفي، كما يؤثر على الجلد، والأغشية المخاطية، والجزء العلوي من الجهاز التنفسي والحبل الشوكي، كما يؤثر على الأعضاء التناسلية مسببًا العقم، وهذا المرض غير معدى إلا في حالات نادرة جدًا، وقد قسم الأطباء هذا المرض إلى أربعة درجات حسب درجة المناعة، الحالة الأولى: مناعة في حالة متميزة Indeterminate Leprosy (IL)، وفي هذه الحالة يكون المرض خفيف غير مكتمل، الحالة الثانية: المناعة في حالة جيدة Tuberculoid Leprosy (TL)، الحالة الثالثة المناعة في حالة ضعيفة Mid Borderline Leprosy (ML)، الحالة الرابعة: المناعة في حالة ضعيفة جدًا Lepromatous Leprosy (LL) انظر:

- Zenab El Gothamy and Abdalla M. Attia, "Leprosy", in *Fundamentals of Dermatology, Andrology, Sexology and Sexually Transmitted Diseases*, Cairo, 2004, pp. 28-34.

وللمزيد عن مرض الجذام انظر:

- L'Ordre de Saint-Lazare dans le Royaume Latin de Jerusalem, *Revue historique* 267 (1982), pp. 19-41.

يتضح من تشخيص وليم الصوري أن حالة بلدوين الرابع المرضية تندرج تحت الحالة الرابعة وهى أن المناعة كانت في حالة ضعيفة جدًا (LL). *Lepromatous Leprosy (LL)*. راجع:

- Hamilton, *The Leper King*, pp. 245-258.

والواقع أنه في القرن الثاني عشر الميلادى كان يعتقد أن مرض الجذام مرض معدى، واعتبر مرض عضال لا تجدى فيه فنون الطب، باستثناء التدخل المقدس. وكان بمجرد أن تشير النتائج أن هذا الشخص مصاب بالجذام كان الناس يتخوفون منه ويتهيونونه حتى لو كان ابن ملك. لذلك كان يتم عزل المصابين عن بقية المجتمع. ولقد جرت محاولات جادة للعناية بالمصابين بهذا المرض اللعين داخل مملكة بيت المقدس، ففي عام 1140م ورثها في وقت سابق تأسست هيئة القديس لازاريوس في المملكة الصليبية للعناية بالمصابين بالجذام، واستمرت هذه الهيئة في محاربة ذلك المرض، ونجحت في الحد من انتشاره، وشاركت هيئة القديس لازاريوس في إقامة مستشفيات نيطة مهمتها الأولى بمكافحة هذا المرض. وفي عام 1170م تم تحديد مقر هذه المستشفى خارج باب القديس ستيفن في القدس. ومن جهة أخرى فقد وهب أفراد من أهل الإحسان المستشفيات وأوقفوها على خدمة مرض الجذام بالتعاون مع التطوعين، ومن أمثال هؤلاء النيبيل الفرنسى رالف Ralph الذي كان سيداً وقائداً لـ 700 رجلاً. والذي تحلى عن كل أملاكه لخدمة المصابين بمرض الجذام الذين كانوا يعيشون في بيت عمده خارج مدينة بيت المقدس. للمزيد انظر:

- Micheal W. Dols, *The Leper in Medieval Islamic Society*, Spec., Vol. 58, No. 4 (Oct., 1983), pp. 491-916; Bernard Hamilton, op. cit., p. 29.

(15) Piers Paul Read, *The Templars*, p. 150.

(16) أبو سليمان داوود: هو طبيب سورى مسيحي عاش بمملكة بيت المقدس ثم هاجر إلى مصر زمن الفاطميين وهناك أنجز شهرة واسعة في علمى الطب والتنجم. وفي عام 1160م سأل الملك عموري بعض حلفائه من المصريين عن طبيب بارز، فرشحوا له الطبيب أبو سليمان داوود، الذي قبل العرض، وذهب إلى القدس ليتولى الشئون الطبية للبلاد الملكى. وفي عام 1174م صار على رأس الأطباء المعتمدين بحالة ورث العرش الملكى بلدوين الرابع. انظر:

- Etan Kohlberg and B. Z. Kedar, "A Melkite Physician in Frankish and Ayyubid Damascus: Muwaffaq al - Din Ya' qub B. Siqlab" in: The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries, (ed.) by B. Z. Kedar, Jerusalem 1992, pp. 114-115.

(17) Hamilton, The Leper King, p. 28p Etan Kohlberg and B.Z. Kedar, loc. Cit., p114.

- من المرجح أن الملك عموري استدعى الأطباء اللاتين أولاً، فلما فشلوا في تحسين حالة ابنه، ندب له الأطباء العرب حسبما ذكرنا. ولعل في هذا دليلاً هاماً على تأخر فنون الطب في مملكة بيت المقدس، وتقدم طب العرب في العصور الوسطى.

(18) تاريخ ميخائيل السورى الكبير، ضمن كتاب الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكار، دمشق 1995م، ج5، ص256.

Hamilton, op. cit., p. 28. (19)

(20) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص175.

(21) Ernoul, Le Chronique, p. 32.

(22) Felix Fabri, The Book of the Wanderings, vol. II, p. 626.

(23) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ضمن كتاب الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق 2000م، ج39، ص310.

لقد أطلق المؤرخون المسلمون على بلدوين الرابع تارة اسم «بردويل»، وتارة «بغدوين»، وتارة أخرى «الملك المجذوم»، وكان من رأيهم فيه أنه كان «مجدوماً عاجزاً عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها». كذلك أورد المؤرخ العماد الكاتب الأصفهاني عنه يقول: «لما هلك الملك أمارى (عموري) خلف ولدًا مجذومًا، وكان مع الوجود معدومًا. قد أعضل داؤه، وأيش شفاؤه، وسقطت أعضاؤه، وطال بلاؤه». فوضع الفرنج التاج على رأسه، وتمسكوا مع أمراضه بأمراسه (المقصود أنهم تمسكوا به رغم مرضه). انظر: ابن الأثير: الكامل، ج1، ص95؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسى في الفتح القدسى: تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبيح، قدم له: حامد زيان غانم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط. القاهرة 2003م، ص67.

وللمزيد عن وصف بلدوين الرابع لدى المصادر الإسلامية. انظر: أبو شامة: الروضتين، ج1، ق2، ص390؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط. القاهرة 1998م، ص256 - 257.

(24) Hamilton, The Leper King, pp. 29-30.

(25) لقد حددت قوانين المملكة سن تولى السلطة بخمس عشرة سنة. انظر:

- Lean d'Jbelin, Livre des Assies, ed. A. Beugnot, in:R.H.C., Occ., Lois I. p. 260.

(26) Hamilton, op. cit., pp. 29-30.

(27) Hamilton, The Leper King, p. 30.

- حدث هذا الأمر نفسه من قبل في أواخر عهد الملك بلدوين الثاني الذي لم يكن لديه وريث ذكر يتولى الحكم من بعده، لذلك اهتم بتزويج ابنته الكبرى مليزند حتى يطمئن على انتظام الأمور من بعده في حكم المملكة، ومن أجل ذلك أرسل اثنين من أتباعه إلى الأمير الأنجوى "فولك" ليخطبا إليه الأميرة مليزند، ويصبح وريشا للعرش. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 3، ص 93.

(28) ستيفن: أكبر أولاد ثيوبولد الثاني Thuobold II كونت بلوا وشارترز وترو، وحفيد سميه ستيفن كونت دي بلوا للمزيد انظر:

- Hamilton, The Leper King, p. 30.

(29) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص 160 - 161.

(30) Anonymi Rhenani, Historia et Gesta Ducius Gotfridi, Sel, Historia Du Obsidione Terre Sancte, Anno MXCVI, RHC, Occ., T. V, Seconde Partie, Imperimerie Nationale, (Paris, M DCCCXCV), p. 513.

(31) الحروب الصليبية، ج 4، ص 176.

(32) Ernoul, Le Chronique, p. 31.

(33) تاريخ مار ميخائيل السريانى الكبير، ت. غريغوريوس صليبا شمعون، تقديم: غريغوريوس، يوحنا إبراهيم، دار ماردين، دمشق 1996م، ج 3، ص 320.

(34) عبد الحفيظ محمد على: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية " 1131 - 1187م، دار النهضة العربية، ط. القاهرة 1984م، ص 100.

(35) الحروب الصليبية، ج 4، ص 173.

(36) Aube, Baudouin IV de Jerusalem, p. 85.

- وراجع أيضًا: ملكوم كامرون ليونز ودينيد جاكسون: صلاح الدين، نقله للعربية على ماضى، راجعه وحققه نقولا زيادة وفهمى سعد، الأهلية للطباعة والنشر، بيروت 1988م، ص 97. وعن نص رسالة صلاح الدين الأيوبي إلى ابن أخيه فرخ شاه. انظر أبو شامة: الروضتين، ج 1، ق 2، ص 382.

(37) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 3، ص 216، 230.

(38) Hamnilton, The Leper King, p. 32.

(39) نيوباي: صلاح الدين وعصره، ترجمة عماد الدين عماد الدين، تقديم: سامي الجندى، دار الجندى للنشر، ط. دمشق 1993م، ص 80.

(40) La Monte, Feudal Monarchy, p.26

(41) Anonymi Rhenani, Historia et Gesta Ducius Gotfridi, p. 513.

- الواقع أن كثيرًا من المؤرخين اللاتين المعاصرين وعلى رأسهم وليم الصوري يترددون في التعت للعددي للملك بيت المقدس اللاتين، فتارة يعد وليم الصوري، بلدوين الرابع الملك السادس للملكة، وتارة أخرى السابق، وهو إذ يعده سادس ملوك القدس، فإنه يكون ضمن فريق المؤرخين الذين لا يعدون "جودفري دي بوايون" ملكًا، إذ أنه ذاته لم يخلع على نفسه لقب ملك، بل فضل أن يتلقب بـ "حامي القبر المقدس". وقد جرى وصف بلدوين الرابع على أنه الملك السادس للملكة في أكثر من وثيقة صادرة عن الملك بلدوين. انظر: وليم الصوري: المصدر السابق، ج4، ص 239، هامش (1).

- وانظر أيضًا:

- Anonymi Rhenani Historia et Gesta Ducius Gotfridi, RHC, Occ., T.V, p. 513. Migne, P.L. t. 155, col. 1284-1249p Genevieve, Le Cartulaire du Chapitre du Saint – Sepulcre de Jerusalem, (Paris, 1984), pp. 515 -516; Aube, Baudouin IV de Jerusalem, p. 87.

(42) Baldwin, The Decline, in Setton, vol. I, p. 591.

(43) Hamilton, The Leper King, p. 84.

- عندما توفي الملك فولك، جرى تتويج ابنه بلدوين الثالث ملكًا، وتم تعيين أمه الملكة ملبيند وصية عليه، وظل بلدوين الثالث تحت وصايتها حتى بلغ أشده، وأنفرد بحكم المملكة دونها.

(44) Hamilton, The Leper King, p. 84.

(45) Ernoul, Le Chronique, p. 17p Hamilton, "The Case of Agnes of Courtenay, pp. 197-198.

(46) Hamilton, op. cit., p. 84.

(47) Archer and Kingsford, The Crusades, p. 250.

- ميلون دي بلانسي: هو أحد القادمين الجدد الذين قدموا إلى مملكة بيت المقدس من إقليم شمبانيا، من مملكة هنري كونت تروي، كانت تربطه بالملك عموري الأول صلة قرابة، حيث كان ابن العم الثالث للملك عموري الأول، فضلًا عن علاقة الصداقة الحميمة التي جمعت بالملك، الذي عينه سكاكًا للمملكة Seneschal عام 1169م، ثم زوجه عموري من استيفاني دي ميللي Stephanie de Milly أرملة همفري الصغير ابن همفري صاحب تورون. وصار بفضل زوجته هذه المتصرف في كل الأراضي الواقعة وراء الأردن، والتي تعرف عند الصليبيين بـ "مونتريال" وعند المسلمين بالشويك. وكان من رأى وليم الصوري فيه أنه "كان من أسرة

- شريفة ولكنه كان لثيم الخلق". للمزيد عنه انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص108-109، 177-180. وأيضًا:
- Grousset, *Histoire des croisades*, vol., II, p. 611; "Miles of Plancy and the Fief of Beirut", in: *Crusaders, Cathers and the Holy Places*, (ed.) by: Bernard Hamilton, pp. 136-137.
- (48) Riley-Smith, *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem 1174-1277* (London 1973), p. 101.
- (49) ريموند الثالث كونت طرابلس: هو ابن ريموند الثاني كونت طرابلس، وابن "هيديرنا" Hederna ابنة بلدوين الثاني، ثاني ملوك مملكة بيت المقدس، وبالتالي يكون ريموند الثالث ابن خالة الملك عموري. عنه بالتفصيل انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص181-182. وانظر أيضًا:
- Gordon H. Pirie, "The Reigning Princes of Galilee" E. H.R., Vol. 27, No. 107 (Jul., 1912), p. 455p La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 27, 50-51.; Baldwin, Raymond III of Tripolis and the fall of Jerusalem, Amsterdam, Adolf M. Hakkert – Publisher 1969, pp. 7-9p Conder, *The Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291*, London 1897, p. 135.
- (50) William of Tyre, *Historia Rerum In Partibus Transmarinis Gestarum*, in R.G.C. Occ., Vol. I, p1007.
- (51) Baldwin, Raymond III of Tripolis, p. 25p Riley-Smith, *The Feudal Nobility*, p.101.
- (52) ذهب كل من رورشت، ورانسيان، وجروسية، وماير، وجان ريتشارد، وغيرهم كثير إلى اعتبار ميلون دي بلانسي ليس وصيًا على الملك بلدوين الرابع، بل اعتبروه مجرد مشرف فقط على المملكة. انظر:
- Rohriect R., *Regesta, Docs, No.*, 542, p. 144; Grousset, *Histoire des croisades*, vol., II, p. 611p Richard (J.), *Le Royaume Latin de Jerusalem*, p. 55.
- وانظر أيضًا: رانسيان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص652؛ ماير: تاريخ الحملات الصليبية، ص178.
- بينما ذهب كل من ستيفنسون، وبلدوين، وريل سميث، ولامونت وبعض المؤرخين الآخرين على اعتبار أن ميلون كان وصيًا على الملك بلدوين الرابع. انظر:
- Stevenson, *The Crusaders in the East*, p. 213. Monte, *Feudal Monarchy*, p. 2. Baldwin M., *The Decline*, in Setton, vol. I, p. 591; Riley-Smith, *The Feudal Nobility*, p. 101.
- (53) عبد الحفيظ محمد على: مشكلات الوراثة، ص101.

(54) Regni Iherosolymitani Brevis Historia, ed. L.T. Belgrano, in Annali Genovesi di Caffaro desuoi continuatore, Vol. I (Genoa, 1890), p. 135.

(55) Jean d'Ibelin, Livre des Assisess, in: RHC, Occ., Lois I, p. 610; La Monte, Feudal Monarchy, p. 27.

(56) وظيفة السنكال: كانت تعد من أخطر وظائف المملكة الصليبية، إذ كان يحل متولى هذه الوظيفة محل الملك أثناء غيابه، ويتصرف في أمور المملكة، وبخاصة الأمور المتعلقة بالجيش. عن وظيفة السنكال راجع:

- Jean d'Ibelin, Livre des Assisess, RHC Lois I, p. 408; La Monte, Feudal Monarchy, p. 116-118; Cahen C., La Syrie du Norde A L'Epoque des Croisade et La Principaute Franque D'Antioche, Paris 12345, p. 453.

(57) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص 108-109، 179.

(58) Hamilton, The Leper King, p. 85.

(59) Hamilton, The Leper King pp. 85-86.

(60) عن تفاصيل الحملة النورماندية على مصر في أوائل عهد بلدوين الرابع، وأسباب وفشلها. انظر: الفصل الثالث.

(61) كان الشاعر عمارة اليمنى قد راسل كل من الملك عموري الأول ووليم ملك صقلية للتأمر على صلاح الدين وذلك بقيام عمارة اليمنى بثورة داخل مصر، في الوقت الذي يقوم فيه عموري ووليم بحملة مشتركة ضد مصر، لكن المؤامرة اكتشفت من قبل صلاح الدين الذي أمر بصلب عمارة، الأمر الذي جعل عموري ينصرف عن مساعدة نورمان صقلية، ثم لم يلبث أن مات عموري الأول في 11 يوليو 1174م، في الوقت الذي كان الأسطول الصقلى قد خرج فيه متجهًا إلى مصر، وقد وصل الأسطول الصقلى إلى الإسكندرية في 28 يوليو من نفس العام، وكان من المنتظر أن يجد أسطول وجيش المملكة في انتظاره للمشاركة في غزو مصر. للمزيد من التفاصيل انظر: حجازى عبد النعم: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد عموري الأول، ص 208 وما بعدها.

(62) Mile of Plancy and the Fief of Beirut, p. 138. Hamilton, op. cit., p. 88.

(63) Riley-Smith, The Feudal Nobility, p. 102.

- وانظر: رانسبان: تاريخ الحروب الصليبية، مج 2، ق 2، ص 652.

(64) Grousset, Histoire des croisades, vol., II, p. 613.

(65) محمد عبد الله مهيوب المقدم: الاغتيالات في بلاد الام والجزيرة زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة المنصورة عام 2005م، ص 187.

(66) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص 179-180؛ عبد الحفيظ محمد علي: مشكلات الوراثة، ص 10-102 وانظر أيضًا:

- Archer and Kingsford, *The Crusades*, p. 250.

يتضح مما أورده وليم الصوري أن ميلون لم يكن يريد أن يصل ريموند الثالث إلى الوصاية، لأن ذلك يقلل من سلطاته الخاصة، وكانت الطريقة الوحيدة لعرقلة مساعي ريموند الثالث، هو إيجاب وصى من بين ملوك وأمراء الغرب الأوروبي، الذين لديهم ادعاء أفضل من ادعاءات ريموند الثالث في الوصاية على بلدوين الرابع. وكان من بين المرشحين لذلك: هنري الثاني Henry II من إنجلترا وهو ابن أخ غير شقيق للملك عموري وهو جيوفري بلانتجينت Geoffrey Plantagenet، وفيليب كونت فلاندرز Philip Count Flanders، وأخوه الأسقف المنتخب لكامبري Peter Bishop elect of Cambrai - وربما كان ميلون دي بلانسي يأمل في أن يطالب أحد هؤلاء الأمراء الثلاثة الغربيين في الوصاية على بلدوين الرابع، ويتركون ميلون يحكم المملكة نيابة عنهم حتى يأتي أحدهم إلى الشرق. راجع:

- Hamilton, *The Leper King*, p. 90.

(67) Ernoul, *Le Chronique*, pp. 30-31.

- ثمة مصدر آخر تحدث عن اغتيال ميلون دي بلانسي وهو حولية كافرو ذكرت أن ميلون تم اغتياله من قبل سادة بيروت وهي رواية جديرة بالأخذ بعين الاعتبار. حيث كانت إقطاعية بيروت تحت سيطرة أحد النبلاء الإقطاعيين يدعى والتر الثالث بريزباري Walter III Brisebarre، ثم جرى نقل هذا الإقطاع إلى ميلون دي بلانسي بفضل زواجه من استيفاني دي ميللي ورثة هذا الإقطاع. الأمر الذي أوجد عداوة بين سادة بيروت وبين ميلون دي بلانسي حول امتلاك إقطاعية بيروت. ومن ثم لا يستبعد أن يكون سادة بيروت كانوا وراء مقتل ميلون. انظر:

- Regni Iherosolymitani Brevis Historia, vol., I, p. 135; Miles of Plancy and the Fief of Beirut, p. 140-144.

(68) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص 177-178، 180-181. وانظر أيضًا:

- Baldwin, Raymond III of Tripolis, pp. 25-26.

(69) الملك هنري الثاني: تولى ملكا على إنجلترا سنة 1154م خلفا للملك الراحل ستيفن، وقد كانت تربطه بالملك عموري صلة قرابة، حيث كان أخو غير شقيق لهذا الملك. عنه راجع:

- Mayer, "Henry II of England and the Holy Land", in: E.H.R., 1982, XCVII, pp. 721-639.

(70) Hamilton, *The Leper King*, p. 89.

(71) Grousset, *Histoire des croisades*, vol., II, pp. 612-613; Hamilton, *The Leper King*, p. 89.

(72) La Monte, Feudal Monarchy, p. 27.

(73) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص182-183؛ رانسيان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص653؛ أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، نقله إلى العربية: عفيف دمشقية، دار الفارابي، ط. بيروت 1989م، ص232.

(74) رانسيان: المرجع السابق، مج2، ق2، ص653؛ أمين معلوف: المرجع السابق، ص232.

(75) ابن الأثير: الكامل، ج1، ص103. وأيضاً: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص390؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ق2، ص390.

(76) رحلة ابن جبير: ص257.

(77) Baldwin, "The Decline and Fall of the Jerusalem", in A History of the Crusades. (ed.): by: Setton, (K.M.) and Baldwin (M.W.) (Madison, Milwaukee, and London, 1969), Vol. I, p. 592.

(78) عبد الحفيظ محمد علي: مشكلات الوراثة، ص100.

ليس معروفاً بدقة تاريخ نشأة هذين الحزبين، أو تفسيراً مرضياً لتطورهما وإن كان يمتثل بداية ظهورهما إبان عهد الملك فولك الأنجوى. يمكن أن نلمح بوادر ظهور أحزاب معارضة للسلطة الملكية أبان نزاع الملك فولك مع زوجته الملكة ميلزند حول الأفراد بالحكم في المملكة. انظر:

- Baldwin, "The Decline", Vol. I, p. 592.

وللمزيد راجع: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص119-123؛ سرور على عبد المنعم: السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوى 1131-1143م/ 526-538هـ رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية بنات عين شمس عام 2000م، ص135-140؛ عبد الحفيظ محمد علي: مشكلات الوراثة، ص100.

(79) رانسيان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص652.

(80) رينو دي شاتيون: هو مغامر صليبي، قدم من مقاطعة شاتيون Chatillon الواقعة شرق فرنسا بدافع الطمع والمغامرة، برز اسمه بعد أحداث الصليبية الثانية. في عام 1153م/ 548هـ تزوج من الأميرة كونستانس Constance ابنة الملك بلدوين الثاني، والوصية على عرش ابنها الصغير بوهيمند الثالث، وقد جعل منه هذا الزواج أميراً لأنطاكية، ثم دفعه طمعه لأن يتحرك عسكرياً لتوسيع دائرة نفوذه خارج إمارته، فقام ببعض التحركات ضد بعض القوى الإسلامية، أسفرت عن سقوطه أسيراً في أيدي بعض جنود حلب عام 1160م/ 555هـ وأمضى في هذا الأسر مدة قاربت الستة عشر عامًا، ثم لم يلبث أن أطلق سراحه حاكم حلب "سعد الدين كمشكين"، امتناناً للمساعدة الصليبية التي قدموها لأهل حلب ضد صلاح الدين

الأيوبي. ثم تزوج مرة أخرى من ستيفاتي دي ميللي - أرملة ميلون دي بلانسي - عام 1177م / 572هـ. وبموجب هذه الزيجة أسندت إليه إدارة إمارة الشوبك والكرك الواقعتين على طريق القوافل المتجهة من مصر إلى بلاد الحجاز. وقد أطلقت عليه المصادر العربية اسم "أرنط". للمزيد من التفاصيل عن رينو دي شاتيون انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص؛ ابن الأثير: الكامل ج 11، ص 132؛ محمود رزق محمود: العلاقة بين أرنط أمير الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين 1187م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة عين شمس عام 1977. وراجع أيضًا:

- Gustave Schlumberger, Renaud de Chatillon, Prince d' Antioche, seigneur de la terre d'outre-Jourdain, Librairie Plon, (Paris, 1923), Vol. I, pp. 115-134.

(81) جوسلين الثالث دي كورتيناى: هو ابن كونت الرها جوسلين الثاني، وأخو الكونتيسة آجنيس - زوجة عموري السابقة - وقد صار كونتا لا كونتية له بعد سقوط الرها في أيدي المسلمين عام 1144م، وقد عينه ابن أخته الملك بلدوين الرابع سنكالا (صنجيلا) للمملكة سنة 1177م. انظر: رانسيان: تاريخ الحروب الصليبية، مج 2، ق 2، ص 655 - 656.

(82) ترجع قصة الكراهية بين ريموند الثالث والداوية إلى عام 1173م عندما قدم الفارس الفلمنكى جيرار ريدفورت إلى طرابلس حيث دخل في خدمة الكونت ريموند، الذي وعده بأن يزوجه أميرة من وريشات الإقطاعيات بطرابلس. غير أنه لما مات سيد البطرون، بعد بضعة أسابيع، آلت أراضيها لابنته لوسيا، تجاهل ريموند طلب جيرار، وزوجها إلى أحد أثريائه البيازة الذي أعطى ريموند وزن الفتاة ذهبًا، فأستبد الغضب بجيرار، والتحق بطائفة الداوية، ولم يلبث أن صار مقدمًا لها، ولم يغفر لريموند تصرفه هذا. انظر: رانسيان: تاريخ الحروب الصليبية، مج 2، ق 2، ص 655. وأيضًا راجع:

- Baldwin, The Decline and Fall of The Jerusalem, Vol. I, pp. 602 - 603.

(83) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص 186. وانظر أيضًا:

- Ibid., Vol. I, p. 592

(84) راجع: رانسيان: تاريخ الحروب الصليبية، مج 2، ق 2، ص 653-654.

(85) نيوباى: صلاح الدين وعصره، ت. عمدوح عدوان تقديم: سامى عدوان، ط. دمشق 1993م، ص 48.

(86) Baldwin, The Decline and Fall of the Jerusalem, Vol. I, p. 592.

(87) رانسيان: تاريخ الحروب الصليبية، مج 2، ق 2، ص 653-654.

(88) Mayer, The Beginning of King Amalric, pp. 123p "The Queens of Jerusalem 1100-1190", p. 164.

وانظر أيضًا: رانسيان: المرجع السابق، مج 2، ق 2، ص 655 - 656.

- (89) Stevenson, *The Crusaders in the East*, p. 213.
- (90) *Ibid.*, p. 214.; Krey (A.C.), "William of Tyre", *Spec.*, p. 154p Baldwin, "The Decline", Vol. I, p. 593.
- (91) Gordon, *The Reigning Princes of Galilee*" E.H.R., p. 455p La Monte, *Feudal Monarchy*, p. 28.
- (92) Jean d'Ibelin, *Livre des Assiess*, in R.G.C., Occ., Lois I, p. 260.
- (93) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 28-29.

وعن تفاصيل معركة مونتجيسارد. انظر: الفصل التالي.

- (94) Grousset, *Histoire des Crusades*, vol., II, pp. 612-613.
- (95) Baldwin, "The Decline", Vol. I, p. 593.
- (96) وليم دي مونتيفرات: هو أكبر أبناء ماركيث مونتيفرات. وقد اشتهر وليم مونتيفرات بخبرته في فنون الحرب، وقد لقبه وليم الصوري بـ "Longsword" أي بذى السيف الطويل، وقد لاحظت الترجمة الانجليزية أن هذا لم يكن لقبه بل كان لقب أبيه. كان أبوه قريباً للويس ملك فرنسا فهو خاله، وأما أمه فهي أخت إمبراطور الرومان "كونراد"، وعمه "فردريك" حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهكذا كانت تربط هذا الماركيز بهذين الحاكمين الكبيرين درجة واحدة من وصلة القرى. لمزيد من التفاصيل عن وليم مونتيفرات. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ 4، ص 198-199، وهامش (26) ص 243، وراجع أيضاً: Ernoul, *Le Chronique*, pp. 47-48.

- (97) Grousset R., *Histoire des Crusades*, vol., II, p. 633.
- (98) Ernoul, *Le Chronique*, pp. 48.
- (99) *Ibid.*, p. 48.
- (100) كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص 123؛ محمد المقدم: الاغتيالات في بلاد الشام، ص 218.

(101) محمد المقدم: المرجع السابق، ص 218.

- (102) Ernoul, *Le Chronique*, p. 48.
- (103) Stevenson, *The Crusaders in the East*, pp. 215 – 216; Baldwin, *The Decline*, Vol. I, p. 593.

- وانظر أيضاً: عبد الحفيظ محمد على: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس، ص 114.

(104) ماير: تاريخ الحملات الصليبية، ص 179.

(105) Anonymi Rhen, Historia et Gesta Ducidꝝ Gotfridi, in: R.H.C., T.V. Partie II, p. 518

(106) Ernoul, Le Chronique, pp. 33-34.

- وانظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 201.

(107) Ernoul, op. Cit., pp. 33.

(108) وليم الصوري: المصدر السابق، ج4، ص 200-204. وانظر أيضًا:

- Ibid., pp. 33-34.

(109) عن تفاصيل بناء صلاح الدين للجهة الإسلامية الداخلية، وحملاته ضد الصليبيين. انظر: الفصل التالي.

(110) Ernoul, Le Chronique, pp. 34.

(111) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 202-203. وانظر:

- Schlumberger, Renaud de Chatillon, Vol. I, pp. 180-181.

(112) وليم الصوري: المصدر السابق، ج3، ص 359.

(113) Baldwin, "The Decline and Fall of the Jerusalem", Vol.I, p. 603.

(114) King E., The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931p, 111

(115) Schlumberger, Renaud de Chatillon, Vol. I, pp. 181-182.

(116) الكامل، ج 11، ص 149-150.

(117) الروضتين، ج 1، ق 2، ص 398.

(118) مصطفى الحيارى: صلاح الدين القائد وعصره، دار الغرب الإسلامي، ط. بيروت 1994م، ص 252.

(119) Ernoul, Le Chronique, pp. 54-55.

(120) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 34. وانظر أيضًا:

- Ernoul, Le Chronique, p. 54p Schlumberger, Renaud de Chatillon, Vol. I, pp. 181-182.

(121) Baldwin, "The Decline and Fall of the Jerusalem", Vol. I, p. 596.

(122) واتسيان: تاريخ الحروب الصليبية، مج 2، ق 2، ص 682.

(123) **بهبوين بلبين**: هو ابن ابلين الكبير مؤسس بيت بينه، الذي منح إلى هيئة الإيستارية، غير أن الرملة انتقلت إلى يد أكبر أبنائه، هيو، ثم صارت بعد وفاة هيو من نصيب أخيه بلدوين، الذي سبق أن تزوج من وارثة إقطاع بيسان، ثم طلقها بسبب صلة القرابة بينهما والتي تجعل من زواجهما باطلاً. أما الأخ الأصغر وهو

باليان، فإنه أضحى زوجًا للملكة ماريه كومنين، وسيدًا للمدينة نابلس التي حازتها الملكة ماريه كعماش لها
انظر:

- Ernoul, *Le Chronique*, pp. 44, 48.

وانظر أيضًا: رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص682 – 683.

(124) عبد الحفيظ محمد علي: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس، ص122.

(125) Ernoul, *Le Chronique*, pp. 56-57; Riley-Smith, *The Feudal Nobility*, p. 105p “The Queens of Jerusalem 1100 – 1190”, p. 166.

(126) Edbury, *The conquest of Jerusalem*, p. 149 – 152.

(127) Ernoul, *op. Cit.*, p. 59.

وراجع أيضًا: رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص683.

(128) المعروف أن آجنيس كانت زوجة لـ هيو ابلين، الأخ الأكبر لبلدوين ابلين. انظر:

- Edbury, John of Ibelin and the Kingdom of Jerusalem, in: J. R. A. S., Third Series, vol., 9, Part 1, April 1999, Cambridge University Press 1999, p. 141; “The Queens of Jerusalem 1100-1190”, p. 166.

(129) عبد الحفيظ محمد علي: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس، ص122.

(130) جى لوزنيان: شاب من أسرة نبيلة من مقاطعة بواتيه بفرنسا، قدم إلى المملكة مع أخيه أمريك، وقد كان جى هذا جبانًا متخاذلاً أحقًا، يعد أحد المسئولين عن سقوط مملكة بيت المقدس داخليًا وخارجيًا. عنه بالتفصيل انظر:

- Smail, “the Predicaments of Guy of Lusignan, 1183-1187, in: *Outremer*, pp. 159-172; Sidney Painter, “The Houses of Lusignan and Chatellerault 1150-1250”, *Spec.*, vol. 30, No. 3 (Jul., 1955), pp. 374-384.

(131) أمالريك: ثاني أبناء كونت لوزنيان، وكان جنديًا لامعًا، قدم من بواتيه من فرنسا إلى فلسطين، فلما مات همفري صاحب تبين، تقرر تعيين أمالريك كندسطيلاً بدلاً من همفري، وتزوج في ذلك الوقت من إيشيفا Ishivia ابنة بلدوين ابلين انظر: رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص684.

(132) Ernoul, *op. cit.*, pp. 60-61.

- لا يمكن قبول كل ما يورده المؤرخ إرتول عن الكونتيسة آجنيس. فتارة يتهمها بأنها كانت على علاقة بالبطريك هرقل، وتارة أخرى يصفها بأنها كانت متعطشة للرجال، وهنا يدعى أنها كانت على علاقة بأمريك أخو الكونت جى لوزنيان. ويرجع أحد الباحثين أن سبب العداوة التي كان يكنها إرتول لآجنيس تعود إلى الموقف

- المعارض الذي أخذته آجنيس من الكونت بلدوين ابيلين. ورفضها تزويجه من ابنتها الأميرة سيبيلا، الأمر الذي أغضب إرنول ريب بيت ابيلين. انظر: أسامه زكي زيد: ملكات بيت المقدس، ص52.
- (133) Riley-Smith, *The Feudal Nobility*, p. 106; H. Lamb, *The Crusades*, p. 51p Edbury, *The Conquest of Jerusalem*, p. 152 – 153.
- (134) Grousset, *Histoire des Crusades*, vol., II, pp. 688-689p Cahen, *La Syrie de Nord*, Paris 1940, p. 426; Baldwin, "The Decline", pp. 596-597; La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 28-29p Edbury, *The Conquest of Jerusalem*, p. 150.
- عيد الفصح: مناسبة مسيحية، يصوم فيها المسيحيون صومهم الكبير، ابتداء من الخامس من مارس وحتى الثلاثين من أبريل من كل عام، وكان يحرم فيها الزواج. انظر:
- Baldwin, *op. cit.*, p. 597.
- (135) Gordon, "The Reigning Princes of Galilee", E.H.R., p. 456; La Monte, *Feudal Monarchy*, p. 29; Edbury, *The Conquest of Jerusalem*, p. 150.
- (136) H. Lamb, *The Crusades*, p. 51.
- (137) Ernoul, *Le Chronique*, p. 60p Sidney Painter, "The Houses of Lusignan, Sepc.", p. 377.
- (138) Anonymi Rhenani, *Historia et Gesta Ducius Gotfridi*, R.H.C., Occ., T.V, *Seconde Partie*, p. 5618; Aube, *Baudouin IV de Jerusalem*, p. 336.
- وأيضاً: رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص507؛ عبد الحفيظ محمد علي: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس، ص125.
- (139) البيزنزنت Besant: إحدى العملات الذهبية التي كانت مستخدمة في العصور الوسطى، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى بيزنطة. انظر: يعقوب الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص110، هامش 2.
- (140) Anonymi Rhenani, *op. cit.*, T.V., *Seconde Partie*, p. 518p Aube, *op. Cit.*, p. 336; Lamb, *The Crusades*, p. 53.
- (141) Ernoul, *Le Chronique*, p. 60.
- (142) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص330.
- (143) Baldwin, "The Decline and Fall of the Jerusalem", Vol. I, p. 598.
- (144) Krey (A.C), "William of Tyre ", Vol. 16, No. 2, p. 159.
- (145) L'Estoire de Eracles, RHC, Occ., II, p.1.

(146) Riley-Smith, *The Feudal Nobility*, pp. 106-107.

(147) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص330؛ رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص709-710.

(148) البطريرك هرقل: فرنسي الأصل، ولد في مقاطعه افيرجن Auvergne بجنوب فرنسا، درس علم اللاهوت بين عامي 1145-1150م، ثم ارتحل إلى بيت المقدس بعد أن صار قسيسًا، حيث تولى منصب رئيس شماسية بيت المقدس عام 1169م، وظل في هذا المنصب حتى وفاة هرنيوسوس Hernessus رئيس أساقفة قيسارية سنة 1175م، حيث انتخب خلفًا له. في عام 1170م نجح في التوسط لعقد اتفاقية بين برنارج أسقف ليديا Bernard Bishop of Lydda وبيطرس Peter رئيس القبر المقدس، على أن الأهم من ذلك، فشله عام 1172م في اقتناع البابا الكسندر الثالث من أجل تعيين جيلبرت دي أسيللي Gilbert D'Assailly كسيد للامبتارية، جربا على رغبة الملك عموري الأول وبيطريك القدس أماريك. وفي سنة 1178م شارك هو ووليم الصوري في مجمع اللاتيران الثالث الذي عقد بروما وفي سنة 1180م تم تعيينه بطريركًا للقدس خلفًا للبطريرك الراحل أمريك من نيسلى. عنه بالتفصيل انظر:

- Kedar B.Z., *The Patriarch Eraclius in Outermer Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem* 1982, pp. 185-189.

(149) مجهول: ذيل وليم الصوري، ص17-18.

(150) نفسه، ص18-19 وراجع أيضًا:

Riley-Smith, *The Feudal Nobility*, p. 106-107.

(151) L'Estoire de Eracles Empereur, R.H.C., Occ., II, pp. 2-3

(152) الداروم: هي قلعة بعد غزة تقع على الطريق المؤدى إلى مصر. وكانت في عهد الملك بلدوين الرابع ضمن الأملاك الخاصة به. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج2، ص324؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ص19.

(153) مجهول: المصدر السابق، ص20.

(154) مجهول: ذيل وليم الصوري، ص19-20. وانظر أيضًا

- Anonymi Rhenani, *Historia et Gesta Ducius Gotfridi*, RHC, Occ., T.V, Seconde Partie, p. 518; L'Estoire de Eracles, R.H.C., Occ., II, pp. 6-7; Conder, *The Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291*, London 1897, p. 144.

(155) L'Estoire de Eracles, II, pp. 7-9.

(156) Grousset, *Histoire des Crusades*, vol., II, p. 743.

- (157) رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص710.
- (158) Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 144.
- (159) L'Estoire de Eracles, II, p. 57-59.
- وانظر: مجهول: المصدر السابق، ص22-23؛ ابن خلدون: العبر، ج5، ص305.
- (160) رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص688.
- (161) Anonymi Rhenani, Historia et Gesta Ducius Gotfridi, RHC, Occ., T.V, Seconde Partie, p. 518.
- (162) مجهول: ذيل وليم الصوري، ص23-24.
- (163) Baldwin, Raymond III of Tripolis, p. 47.
- (164) Ernoul, Le Chronique, pp. 118-119; Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 144.
- (165) رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ق2، ص717-718.
- (166) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص176.
- (167) Hamilton, Latin Church, p. 176.
- (168) براور: الاستيطان الصليبي، ص195.
- (169) Ernoul, Le Chronique, pp. 83-84; L'Estoire de Eracles, RHC, Occ., II, pp. 58-59.
- وانظر: المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص79.
- (170) Grousset, Histoire des Crusades, vol., II, p. 747.
- (171) Ernoul, op. cit., pp. 82-84p L'Estoire de Eracles, II, pp. 57-59.
- (172) المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص79.
- (173) Ernoul, Le Chronique, p. 82.
- (174) Krey (A.C.), "William of Tyre", Spec, Vol. 16, No. 2, pp. 154-156.
- (175) المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص81.
- (176) Ernoul, Le Chronique, pp. 82-83.
- (177) L'Estoire de Eracles, RHC, Occ., II, 57-60.
- (178) Ernoul, op. Cit., p. 84p Grousset, Histoire des Crusades, vol., II, pp. 745-746; Kedar, The Patriarch Eraclius, p. 187-188p Krey (A.C.), "William of Tyre:", Speculum, Vol. 16, No. 2, p. 158.

(179) الراجع أن اختيار هرقل للبطيركية أغلق كل أمل أمام طموح وليم في الوصول إلى منصب هام كالبطيركية. ولكن ظل يواصل منصبه كمستشار وكرئيس لأساقفة صور، ولكن لا شك أن أفكاره ظلت حزينة، وأن حتى منصبه كمستشار انحصر في المكاتبات الرسمية انظر:

- Krey (A.C.), "William of Tyre", Spec., Vol. 16, No. 2, p. 158.

(180) Ernoul, Le Chronique, pp. 82-83; L'Estoire de Eracles, RHC, Occ., II, 57-59.

- وانظر: المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 79.

(181) أسامة زكي زيد: ملكات بيت المقدس، ص 53.

(182) رانسيان: تاريخ الحروب الصليبية، مج 2، ق 2، ص 687.

(183) أسامة زكي زيد: المرجع السابق، ص 51-52 انظر أيضًا:

"The Queens of Jerusalem 1100-1190" pp. 168-169.

(184) Histoire des Crusades, vol., II, p. 746.

(185) المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص 81.

(186) نفسه، ص 81-82.

من بين ما ورد عن البطيريك هرقل، ويدعوا للسخرية تلك القصة التي وردت في كتاب ذيل وليم الصوري، وتناقلتها بقية مصادر القرن الثالث عشر، والتي تروى أن البطيريك هرقل جاءه خادم القصر وهو جالس مع كبار سادة المملكة، وقال له: "سيدى البطيريك: لقد جئتك نبأ طيب سارًا!.. فإن كافاتنى مكافأة طيبة سخية أفضيت به إليك". ظن البطرك والمملك بلدوين الرابع وبقية المجتمعين أنه سوف يذكر خبرا فيه نصر للمملكة. فقال له البطيريك: "هات ما عندك على أن يكون سارًا: فقال له الخادم: "لقد وضعت السيدة باسك دي ريفرى الساعة ابنة لك". فرد عليه البطيريك قائلاً: "اخرس أيها الأحمق ولا ترد". هذه القصة إن صحت، فلا شك أنها توضح لنا صورة من انحلال الأخلاق الصليبية. انظر: ذيل وليم الصوري، ص 81-84.

(187) Ernoul, Le Chronique, pp. 85-86.

- وانظر أيضًا: محمد المقدم: الاستيلاء على بلاد الشام والحزيرة، ص 213.

(188) Grousset, op. cit., p. 747.

(189) لقد كان ملوك القدس يهتمون بالترفيه عن الرعايا على الكيفية التي حيث أخذوا عليها المنح سواء العينية أو المالية، حتى حرصوا على إكفانهم على أربعة أقطاعات كنسية هي: حى الضريح المقدس، اللد، مدينة الناصرة، وأخيرًا بيت لحم، فضلًا عن كميات شاسعة من الأراضى، وأموالًا طائلة، أثارت امتعاض بعض رجال الدين أنفسهم، وعلى رأسهم جاك دي فيترى الذي كتب يقول "لقد تأثر رجال الدين بسموم

الأغنياء، فغدو يجيئون الهدايا، ويبحثون وراء الموارد والعائدات... حتى صار لديهم ممتلكات عظيمة... لقد سمنا وغلظوا واكتسوا شحًا، ومن بين ثراهم وترفهم ظهر المكر والخبث لديهم، فأكلوا وشبعوا وارتكبوا الفسق، وهرولوا إلى مواخير الزانيات، واندفعوا مثل الماء وراء شهواتهم... وبدأ واضحًا أن الحزم في نظام الكنيسة بدأ يتراخى منذ ذلك الحين". انظر: يعقوب الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص 99-104؛ براور: الاستيطان الصليبي، ص 195-196. كذلك ذكر المؤرخ هارولد لامب أن الكنيسة كانت نعمة إلى الأرض والأملاك في عهد الملك بلدوين الرابع. انظر:

- Lamb, The Crusades, p. 48.

(190) اليشاوي: الممتلكات الكنسية، ص 312.

(191) سيد على الحريري: الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص 161.

(192) Hamilton, Latin Church, p. 157.

- وعن عمليات صلاح الدين العسكرية ضد مملكة بيت المقدس خلال الفترة موضوع الدراسة. انظر: الفصل التالي.

(193) عن زلزال عام 1170م وأثره على المملكة بالتفصيل. انظر: محمد مؤنس عوض: الزلازل في بلاد الام عصر الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط. القاهرة 1996م، ص 95-102.

(194) براور: الاستيطان الصليبي، ص 197.

(195) Genevieve, Le Cartulaire du Chapitre du Saint-Sepulcre de Jerusalem, (Paris, 1984), No. 161, p. 315.

(196) Rohricht R., Regesta, Docs. No., 542, p. 144.

(197) Thompson (J.W.), Economic and Social History of the Middle Ages, Vol. I, (London, 1959), p. 406

(198) اليشاوي: الممتلكات الكنسية، ص 267.

(199) Rohricht, Regesta, Docs. Nos., 530-531, pp. 141-142 Genevieve, Le Cartulaire du Chapitre, Nos. 159-160, pp. 310-31; Hamilton, Latin Church, p. 155-156.

- وأيضًا: اليشاوي: المرجع السابق، ص 264.

(200) قرية سانت جيل: كانت في العصر الصليبي تقع ضمن حدود إقطاعية نابلس، وهي ترتفع عن سطح البحر نحو ثمانمائة متر، وتقع في جنوب نابلس. وعلى بعد نحو عشرين كيلو متر منها، كما تبعد عن رام الله نحو واحد وعشرين كيلو متر، وهذا يعني أن سانت جيل تقع في منتصف الطريق الممتد من نابلس في

الشمال إلى رام الله في الجنوب. ويحد قرية سنجيل من الشمال الشرقي قرية سيلون ومن الشرق قرية ترمسيا ومن الغرب قرية عيون ومن الجنوب الغربي قرية عطارة، وكانت سنجيل في العصر الصليبي مركز لإقطاعية صغيرة يحكمها سيد اقطاعي من صغار النبلاء، وكانت تشتهر بزراعة أشجار الكرم. انظر: البيشواي: الممتلكات الكنسية، هامش 3، ص 263.

(201) Rohricr R., Regesta, Doc. No., 531, p. 142; Genevieve, B.B., Le Cartulaire du Chapitre, No. 160, pp. 311-312.

- وراجع أيضًا: البيشواي: المرجع السابق، ص 265.

(202) Grousset, Histoire des Crusades, vol., II, p. 745.

(203) John Phocas, The Pilgrimage in The Holy Land, Trans. By: Aubrey Stewart, in: P.P.T.S. London 1889, p. 12.

(204) البيشواي: الممتلكات الكنسية، ص 293.

(205) Prawer, Crusader Institutions, p. 133.

(206) عقب تعيين هرقل للبطريركية، وقع في أمانة أنطاكية الصليبية نزاع بين الأمير بوهيموند الثالث وبين الكنيسة، وكان السبب في ذلك قيام بوهيموند الثالث بإبعاد زوجته تيودورا واتخاذها لامرأة تدعى سيبلا كخليفة له "يعاشرها معاشرة الأزواج"، ولما فشلت محاولات بطريرك أنطاكية في إقناعه بأن يترك حياة "الدعارة الخبيثة التي يجيها جهراً" أصدر ضده قرار الحرمان، لكن بوهيموند لم يمثل لذلك القرار واستمر في غلواته، وعامل البطريرك والأساقفة الأنطاكيين كما لو كانوا أعداءه، ولم يتورع عن نهب ما حوته الكنائس والأديرة من النفائس المقدسة. ومحاولة إقناع أميرها بوهيموند الثالث بأن يترك خليفته سيبلا ويرد امرأته الشرعية. للمزيد عن تفاصيل هذه الحادثة. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص 263-268.

(207) وليم الصوري: المصدر السابق، ج 4، ص 267.

(208) عن تفاصيل قرارات مجمع اللاتيران الثالث. انظر:

- Migne, P.L., T. 200, Cols. 1195-1216.

- وانظر أيضًا: روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ضمن كتاب الموسوعة الشامية، ج 39، ص 297-299.
(209) في أكتوبر من عام 1178 لم سافرت بعثة من كبار رجال الكنيسة اللاتينية إلى روما لحضور مجمع اللاتيران الثالث، هؤلاء الرجال الكنسيين هم: وليم الصوري، وهرقل، وألبرت Albert أسقف بيت لحم، ورالف Ralph أسقف بسبسية، وجوشوس Gucheus أسقف عكا، ورومانوس Romanus أسقف طرابلس، وپطرس Peter رئيس المرتلين بالقر المقدس، ورنالد Renaldus رئيس دير جبل صهيون. على أن الأمر

الملاحظ هنا هو غياب البطريرك أمريك عن حضور هذا المجمع الهام. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص226.

(210) Baldwin, "The Decline and Fall of the Jerusalem", Vol. I, p. 596; Kedar, The Patriarch Eraclius, p. 187.

(211) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص511.

(212) جوناثان رايلي - سميث: الإبتتارية، ص58.

(213) نفسه، ص62، 78.

(214) نفسه، ص58.

(215) البابا لوكيوس الثالث: هو Ubaldo Allu Cingoli ولد سنة 1110م في Lucca أصبح شماس ثم رئيس كرادلة أوستيا في 1159م، وظل يرتقى في المناصب الكنسية حتى تم تعيينه بابا لروما خلفا للبابا اسكندر الثالث وذلك في الأول من سبتمبر 1181م. عنه بالتفصيل انظر:

- Kelly, Oxford Dictionary of Popes, pp. 180-181.

(216) جوناثان رايلي - سميث: الإبتتارية، ص79.

(217) نفسه، ص80.

(218) نفسه، نفس الصفحة.

(219) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص511.

(220) Smail, Crusading Warfare, pp. 95p Piers Paul Read, The Templars, p. 116.

(221) براور: الاستيطان الصليبي، ص321.

(222) جوناثان رايلي - سميث: المرجع السابق، ص60.

(223) نفسه، ص81.

(224) جوناثان رايلي - سميث: الإبتتارية، ص61.

(225) Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 139.

- قلعة بلفورت Belfort أو بيوفورت Biaufort أو بوفورت Beaufort: بالعربية تعرف بقلعة الشقيف أرنون، وبالفرنسية تعنى الحصن الجميل، وهى قلعة في جنوب لبنان تقع على نهر الليطاني، تم تشييدها في عهد الملك فولك سنة 1139م. عنها انظر: مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص80-81.

(226) Rohricht, Regesta, Regni Hierosolimitani, Innsbruck 1893, No., 537, p. 143.

(227) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص511.

(228) The Leper King, p. 88.

(229) King, The Knights Hospitallers, pp. 107; Rohricht, Regesta, No., 564, p. 150.

(230) Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 130

(231) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص236.

(232) Ibid., p. 141.

(233) Rohricht, Regesta, No., 591, p. 157.

(234) Rohricht, Regesta, No., 582, p. 158.

(235) Ibid., No., 593, p. 158.

(236) جونانان رايلي - سميث: الإبتارية، ص461.

(237) براور: الاستيطان الصليبي، ص321.

(238) Rohricht, Regesta, 562, pp. 149-150.

(239) جونانان رايلي - سميث: الإبتارية، ص453، 461. وانظر أيضًا:

- Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 139.

(240) جونانان رايلي - سميث: المرجع السابق، ص58-60.

(241) براور: الاستيطان الصليبي، ص333.

(242) نفسه، ص334؛ محمد مؤنس. التنظيمات الدينية، ص392.

(243) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص180.

(244) Rohricht, Regesta, No., 562, p. 35.

(245) Baldwin, "The Decline and Fall of the Jerusalem", Vol. I, p. 591.

(246) الحروب الصليبية، ج4، ص342 - 343.

(6)

السلع التجارية في الساحل الشامي

في القرنين 12، 13م

أحمد عبد الله

السلع التجارية في الساحل الشامي

في القرنين 12، 13م

يتضمن هذا البحث دراسة المراكز التجارية في مدن الساحل الشامي، بالإضافة إلى النظم التجارية في تلك المنطقة، وما صاحبت هذه الحركة التجارية من إنتعاش وإزدهار، وإلى أي مدى اعتمد الصليبيون على الغرب الأوروبي في هذا النشاط، وطبيعة العلاقة بين الجانب المسلم والصليبي في تلك المرحلة الحرجة، وسوف يشير الفصل إلى تشجيع سلاطين الإسلام وأمراء الصليبيين المحتلين للأرض لهذه التجارة، كما سيتضح ظهور المراكز التجارية وتطورها.

إلى جانب ذلك ستظهر قيمة السلع الاستراتيجية والتي من أجلها قامت حروب كثيرة مثل التوابل وغيرها من السلع الهامة التي تم تصديرها من الساحل الشامي إلى كافة أرجاء البحر المتوسط، بالإضافة إلى ذلك السلع التي تم استيرادها من الخارج ومنافسة المدن الأوروبية وبخاصة الإيطالية في هذا المجال واحتكارها.

عند استقرار الصليبيين في بلاد الشام، كانوا بمثابة أقلية على الأغلبية الوطنية الموجودة، وقد اعتمد الصليبيون على امتداد الغرب الأوروبي ومجالها الواسع، تعويضاً عن رقعة المساحة الصغيرة التي تمثلت في الشريط الساحلي، لذلك فقد تحكّموا في مصب غرب آسيا التجاري⁽¹⁾.

من المتوصّر أن ما قام به الصليبيون من تحكّمهم في مدن وموانئ الساحل الشامي، التي مثلت المصب للقوافل التجارية القادمة من وسط آسيا، أدى إلى فقدان المسلمين لموانئهم البحرية على البحر المتوسط، مما نتج عنه تعامل المسلمين مع الصليبيين حتى يستطيعوا تصريف منتجاتهم.

وطوال فترة الاحتلال الصليبي لبلاد الشام في القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين، السادس والسابع الهجريين، لم يقدّم الصليبيون بتأسيس أي مدن جديدة، فجميع المدن التي

احتلتها الصليبيون كانت لها تركيبها الإداري والديني والسكاني⁽²⁾.

لذلك نرى أن كل ما تركه الصليبيون لنا هو القلاع الحربية، التي تحكمت في طرق التجارة بالظهير الشامي، حتى تستفيد من الضرائب التي تفرض على تلك القوافل من ناحية، ومن ناحية أخرى تقوم بواجباتها العسكرية والتي شملت الهجوم على المدن الإسلامية، وصد هجمات الجيوش القادمة إليها.

مثلت الإمارات الصليبية في بلاد الشام الينبوع الثاني للتجارة بعد القسطنطينية بالنسبة للغرب الأوروبي، وعلى هذا قامت العديد من المراكز التجارية على طول الساحل الشامي ويأتي في مقدمة هذه المراكز مدينة عكا⁽³⁾، وقد عدت هذه المدينة من أحصن مدن الساحل الشامي، فهي مدينة كبيرة وحصينة⁽⁴⁾، ويرى البعض ومنهم مؤرخ يدعي دويويس بأن مدينة عكا كانت محطة من المحطات الدولية في ذلك الوقت، لأن التجار كانوا يتجمعون بها من مدن ودول عديدة⁽⁵⁾.

يتفق الباحث مع هذا الرأي، خصوصاً وأن مدينة عكا وقعت على طريق التجارة الدولي، وكانت القوافل التجارية القادمة من الظهير تمر عليها مما زاد من أهميتها، لأنها المخرج الطبيعي لمنتجات مدينة دمشق، ضمن المصارف الأخرى.

أزدهرت مدينة عكا في القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الميلادي، السادس والسابع الهجريين، فعكا⁽⁶⁾ المدينة كانت قاعدة مدن الصليبيين بالشام، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الأنحاء⁽⁷⁾، فهي مدينة مزدهمة السكان، وجدت بها كل وسائل الراحة⁽⁸⁾، بل لقد ازدهرت سككها وشوارعها، وضافت بها مواطن الأقدام⁽⁹⁾، وأدى هذا الزحام الشديد إلى تلوث الهواء وانتشار الأمراض، فتعددت حالات الوفاة بها⁽¹⁰⁾.

يلاحظ هنا أن الصليبيين عندما احتلوا مدينة عكا، وبعد عمليات الإبادة التي قاموا بها، تغلبت عليهم النزعة التجارية التي أدت إلى اهتمامه بالمدينة من حيث نظافة شوارعها وسككها، وأيضاً عملوا على توفير وسائل الراحة حتى يقوموا بجذب التجار إليها.

نال ميناء عكا شهرة واسعة في ذلك الوقت، حيث أصبح ميناء الصليبيين الأساسي، وذلك لعدة أسباب وهي: تمتع الميناء بحماية طبيعية من جهات الشمال والشرق والجنوب، فكان مكان آمن من العواصف، إضافة إلى ذلك وقوعه في نهاية طريق التجارة البري المار من وسط آسيا إلى غربها ومنها إلى سواحل البحر المتوسط الشرقية عبر بلاد الشام⁽¹¹⁾.

الجدير بالذكر أن العوامل الطبيعية لعبت دورًا كبيرًا في موانئ الساحل الشامي، نظرًا لما تمتعت به بعض هذه الموانئ من حماية طبيعية، وأيضًا وقوعها على الطرق التجارية التي تسلكها القوافل التجارية القادمة من الظهير الشامي، حيث يقوم التجار ببيع مع ما معهم من سلع ويقومون بشراء السلع الأخرى.

قسم ميناء عكا إلى أربعة أقسام، كل قسم مستقل بذاته مع قيسارته وقصوره، وحتى السلطة التابع لها، وقد جاء ذلك نتيجة للامتيازات التي قام ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية، بمنحها للمدن التجارية الإيطالية، بالإضافة إلى العناصر الدينية الأخرى، وبذلك فقد شكل كلا من فرسان الاستبازية والتيتون كيانات منفصلة داخل المدينة مثلما كان الموضع مع جنوا والبندقية وبيزا⁽¹²⁾.

نستنتج من ذلك أن المدن التجارية الإيطالية التي تصارعت مع بعضها من أجل الحصول على الامتيازات التجارية في مدن الساحل الشامي، قد زاحمتها الفرق والعناصر الدينية الصليبية التي تخلت عن عملها الأصلي وهو خدمة الأماكن المقدسة، ولجأت إلى الاشتغال بالأعمال التجارية والمالية، مما يوضح لنا ما كانت عليه مدن الساحل الشامي من نشاط تجاري كبير، أغرى الكثير بترك وظائفهم الأساسية والانخراط في حركة التجارة بمدن الساحل الشامي، كما سيتضح فيما بعد.

وقد كانت قدرة الميناء الاستيعابية تتسع لرسو عدد ضخم من السفن، التي كانت تأتيه من أماكن عدة من أجل ممارسة النشاط التجاري مع مدن الساحل الشامي، بل ومن أجل نقل الإمدادات الضرورية التي كانت تأتيه من الغرب الأوروبي⁽¹³⁾، حتى لقد ذكر الرحالة الألماني

ثيودريش الذي زار المنطقة خلال المرحلة من 1171-1173م / 567-569هـ أن عدد السفن كان يصل أحيانا إلى ثمانين سفينة⁽¹⁴⁾.

توضح لنا تلك المعلومات أن ميناء عكا كان كبير الحجم، وإن قيل أن عدد السفن التي يتسع لها الميناء تصل إلى ثمانين سفينة، وإن كان هذا العدد يحتوي على شيء من المبالغة، إلا أن ذلك يبرز مدى ما تمتع به هذا الميناء من شهرة حتى أدى ذلك إلى إقبال السفن عليه، بل وتكديسها في أوقات كثيرة، ويوضح ذلك أيضًا أن الميناء صالح لرسو السفن في أوقات كثيرة من العام.

أحيطت مدينة عكا بسور ضخمة به أبراج، كما أضيف إلى ذلك خندق مائي كبير، ووزعت الأبراج عند كل زاوية لإحدى الشوارع مرفقة بسلاسل ضخمة، وقد عاش النبلاء في تلك المدينة عند الحافة الخارجية للمساحة المسكونة قرى الأسوار، وعاش التجار في وسط المدينة حيث كان لهم شارع خاص بهم، وكان ميناء عكا مزدوج داخلي خصص للسفن المحلية التابعة للمدينة، وميناء خارجي خصص لسفن نقل الحجاج والتجارة التي تمر بالميناء⁽¹⁵⁾.

يتضح لنا من ذلك أن ميناء عكا بجانب ما تمتع به من حماية طبيعية، ضمنت له استقبال السفن على مدار العام، فقد حرصت القوى التي سيطرت على هذا الميناء أن تحميه صناعيًا، من خلال إحاطته بالأسوار القوية والحصون المنيعة، حتى تتمتع السفن التي ترسى به بالأمان.

وجد في ميناء عكا الداخلي وجه للقصور، وهو أنه كان لا يتسع للسفن الكبيرة، فكان لزاما على تلك السفن أما أن ترسو خارج الميناء بعيد عن الحاجز، فتعرض للرياح الجنوبية الغربية، وإما أن تمضي إزاء الساحل إلى ميناء صور القريب⁽¹⁶⁾، أما الميناء الخارجي فقد خصص من أجل نقل الحجاج والتجار المارين بذلك الميناء من كل مكان⁽¹⁷⁾.

ويلاحظ أنه مع عدم قدرة السفن الضخمة الحجم للدخول للميناء، فقد كانت تذهب تحت ضغط الزحام على ميناء عكا، إلى ميناء مدينة صور القريبة منها، مما أدى إلى انتعاش الحركة التجارية بذلك الميناء الآخر، كما أن تلك السفن التي كانت تنتظر خارج الميناء حتى يتم إفراغ

البضائع منها، كانت تتعرض للرياح القوية خازج الميناء، فيسبب لها الكثير من الأضرار، ولأصحابها الخسائر المالية.

شهد الجانب البري من مدينة عكا إزدهار التجارة في خلال القرن الثاني عشر الميلادي، السادس الهجري، وذلك لوقوعها على طريق التجارة القادم من مدينة دمشق في الظهير الشامي⁽¹⁸⁾، وهو الذي كان يأتي من الصين والهند مارا بالخليج الفارسي، والذي يتفرع من هناك لعدة فروع برية ونهرية من البصرة إلى بغداد والتي مثلت منطقة الترانزيت الأولى، ومنها تخرج القوافل وتتفرع فرعان:

أحدهما إلى ديار بكر، والآخر إلى دمشق وهي منطقة الترانزيت الثانية ومنها إلى المدن الساحلية وأهمها عكا⁽¹⁹⁾.

من المرجح أن مدينة دمشق كانت بمثابة ترانزيت وسطي بين الظهير الآسيوي والساحل الشامي الذي مثل ترانزيت بحري مهم للغرب الأوروبي، أخذت منه عكا وضعتها وازدهارها التجاري النشط، حيث كانت تستقبل القوافل التجارية القادمة عن طريق البر من دمشق، وكذلك القوافل التجارية البحرية القادمة من الغرب الأوروبي إلى الساحل الشامي.

وقد نشطت التجارة البحرية في ميناء عكا وذلك لوقوعه في منطقة متوسطة من الساحل الشامي، وحدث هذا الانتعاش التجاري في فصلي الربيع والخريف حيث كانت تهب الرياح الشرقية عليه والتي كان يتظرها التجار من أجل السفر للشرق والرسو في الميناء وإنزال بضائعهم فيه⁽²⁰⁾، وأدت تلك الحركة النشطة إلى حدوث نوع من التعاون بين المستوطنين الصليبيين من جهة والمسلمين أهل البلاد من جهة أخرى والتي جنى الفريقان من وراءها أموال طائلة⁽²¹⁾.

من المؤكد أن الوضع الذي كان قائما في منطقة الساحل وسيطرة الصليبيين عليه، كان من الضروري أن يحدث احتكاكا مباشرا بين الجانبين الإسلامي والصليبي، وخصوصا في المجال الاقتصادي وأهمه الجانب التجاري الذي احتاجه كل من الجانبين، خاصة وأن المسلمين سيطروا

على طرق القوافل القادمة من وسط آسيا إلى مدن الساحل الشامي.

اشتغل أهل عكا بالنشاط التجاري حتى أصبحت سككها وشوارعها تغص بالزحام، ولعل ذلك يرجع إلى الهدوء النسبي الذي ساد بين المستعمرات الصليبية والقوى الإسلامية⁽²²⁾، حيث وجدت علاقات سلمية بين الطرفين عندما توقفت المعارك الحربية بينهما، إلا أن المدينة تعرضت للكثير من الضربات التي كانت تعطل بدورها ذلك النشاط الكبير، ومنها الهزات الأرضية الخطيرة والتي كانت تحدث دائماً في بلاد الشام، حيث كانت تخلف وراءها دمار هائل⁽²³⁾.

تجدر الإشارة إلى أنه لم تكن المنطقة الساحلية الشامية هادئة باستمرار، بل كانت تتعرض للكثير من الضربات مثل تلك الزلازل، التي كانت تدمر مدن وقرى بأكملها، مما يؤدي إلى توقف حركة النشاط التجاري في تلك المدن.

جاءت أيضاً العوامل البشرية والتي لعبت دور مهمًا في مستقبل المدينة التجاري، ومنها - معركة حطين التي وقعت بين المسلمين والصليبيين، والتي تم على إثرها استرجاع صلاح الدين لمدينة عكا 1187م - 583هـ حيث حدث توقف مؤقت للحركة التجارية نتيجة الوضع الحربي، غير أن صلاح الدين كان يميل إلى استمرار النشاط التجاري لعكا، فسمح للمدن التجارية بمواصلة أعمالها، ولم يكن السلطان يهدف إلى المحافظة على علاقات تجارية مع الغرب فقط، بل أيضاً للاطلاع على أحوال الصليبيين وتمحس أخبارهم لمحاولة استرداد بقية المدن الساحلية الشامية⁽²⁴⁾.

من الملاحظ أن مدينة عكا دخلت في لعبة السياسة الحربية مع غيرها من المدن الساحلية في الصراع بين المسلمين والصليبيين، مما أدى إلى توتر في العلاقات والأنشطة التجارية للمدينة حين استقرار الأوضاع مرة أخرى.

وفي النصف الثاني من الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، شهدت مدينة عكا بداية النهاية وتمثل ذلك في الحرب التي وقعت بين كل من جنوا والبندقية خارج حدود المدينتين وتركزت في مدن الساحل الشامي وخصوصاً في عكا حيث كان صدام لا مفر منه⁽²⁵⁾، فقد

خططت البندقية لطرده التجار الجنوبية من عكا في عام 1258م - 566هـ لأنهم كانوا بمثابة منافس خطير للبنادقة في تجارة الساحل الشامي الهامة⁽²⁶⁾.

تجدر الإشارة إلى أن ارتفاع شأن عكا كمدينة وميناء، جعل التجار من كافة الأنحاء تركز فيها، ونظرًا للأرباح والمكاسب التجارية التي حققوها زاد طمعهم أكثر، فوقع بينهم الصدام المسلح الذي انتقل معهم من مدينة إلى أخرى من مدن الساحل الشامي، مما كان ذلك من الأسباب الرئيسية للقضاء على الوجود الصليبي بمدن الساحل الشامي.

توالت الكوارث على مدينة عكا ومينائها، ومنها الخسف الذي وقع بالقرب من الساحل، حيث كانت توجد عدة جزر صغيرة قريبة من ميناء عكا، تركز فيها الصليبيون، فماتوا جميعًا واختفت تلك الجزر بتجارها وبضائعها، وساد اضطراب عام في عكا نتيجة لذلك الحادث الرهيب الذي وقع في عام 1261م / 659هـ واهتزت الحركة التجارية للمدينة لذلك الحدث⁽²⁷⁾.

من الملاحظ أن العوامل الطبيعية مثل حركات الخسف والزلازل، جاءت بجانب المعارك الحربية التي شهدتها المدينة بين البنادقة والجنوية، التي أدت إلى تدهور عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري.

وجهت الضربة الأخيرة لميناء ومدينة عكا على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في عام 1291م / 690هـ، حيث استعاد مدينة عكا من الصليبيين، والتي عدت بمثابة آخر جزء من مملكة بيت المقدس الصليبية، وقد وقعت معركة خاضها الصليبيون وكافة المدن التجارية الأوروبية المتمركزة بالمدينة وأبرزهم البنادقة والذين استطاعوا الفرار من المدينة بسفنهم بعد أن استقروا بها قرابة 200 عام، جنوا من ورائها أرباحًا طائلة⁽²⁸⁾.

يتبين لنا مما سبق أن عكا مع فتح السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون لها، وتحريرها من قبضة الصليبيين، لم تعد كسابق عهدها، حيث تم تدمير دفاعاتها، حتى لا تكون مطمع مرة أخرى للصليبيين، وتوقفت بها الحركة التجارية.

بعد سقوط عكا في أيدي المسلمين، تم منع الأوروبيين من ممارسة التجارة المباشرة مع المسلمين، وبدأ التجار الأوروبيون في التوجه للاستقرار في قبرص التي اتخذت مكانة عكا التجارية، وقام التجار الشوام بنقل سلعهم التجارية من الساحل الشامي إلى مدينة فاماغوستا FAMAGUSTA بقبرص، ليتمكن الأوروبيون من شرائها، وأصبحت جزيرة قبرص بمثابة مفتاح التجارة الدولي ومركزاً لالتقاء التجار من كل مكان⁽²⁹⁾.

من الملاحظ أن عكا كانت قد اتخذت مكان مدينة بيت المقدس، وخاصة بعد استعادة المدينة مرة أخرى للمسلمين، حيث كانت مركز ملوك بيت المقدس الصليبية، والعاصمة الصليبية في الساحل الشامي، ولذلك مع سقوطها لم يعد للصليبيين مكان أو مركز لكي يتجمعوا فيه، وانتقل المركز التجاري من عكا إلى مدينة فاماغوستا القبرصية.

جاءت مدينة صور في المركز الثاني بعد عكا، فهي تقع شمال ميناء عكا، وتعد من الثغور المهمة، وقد تشكل ميناءها على هيئة الكف يحيط به البحر من جميع الجهات إلا جانب واحد والذي يوجد به بوابة⁽³⁰⁾، وتم تزويد هذا الجانب بحصون قوية جداً وخنادق وأبراج وجدران، وهذا الجانب له مدخلان، وتمت حراسته بالبوابات الرباعية الأبراج⁽³¹⁾.

يلاحظ هنا أن مدينة صور تمتعت بشهرة كبيرة في منطقة الساحل، فقد مثلت ثغراً مهماً لكل من يتحكم بها، لذلك فقد وجدت مليئة بالعديد من الحصون والبوابات القوية التي دلت على مكانتها المهمة ذلك الوقت.

أما ميناء صور فليس له مثيل في ساحل الشام⁽³²⁾، فهو يشبه ميناء عكا لأن به ميناءين واحد داخلي وخصص للسفن المحلية التابعة للمدينة، والآخر خارجي وخصص للسفن الأجنبية⁽³³⁾، وبين الميناءين توجد أبراج كبيرة ومرتفعة يربط بينها سلاسل ضخمة، تمنع الدخول أو الخروج عند الميناء إلا بعد رفعها⁽³⁴⁾.

يرجع أن ميناء صور شهد حركة نشطة، سواء في الميناء الداخلي أو الخارجي مما جعل السلطان التي سيطرت على المدينة التحكم في تلك الحركة تقوم بإنشاء الأسوار والأبراج العالية

لكي تنظم الحركة التجارية من ناحية، ولكي تحمي المدينة نفسها من ناحية أخرى.

احتوت صور على العديد من الأبنية الساحرة والجميلة، حتى أنه يقال أنها فاقت في جمالها معظم مدن الساحل الشامي⁽³⁵⁾، أما شوارعها وسككها فقد كانت نظيفة، وأهلها امتازوا بالتسامح والمعاملة الحسنة مع المسلمين، بل أنهم ألين في طبائعهم وسلوكهم عن غيرهم من أهالي المدن الأخرى، وظهر ذلك في معاملتهم للمسلمين⁽³⁶⁾.

يرى الباحث أنه حدثت اختلافات عرقية كبيرة بين العناصر الصليبية التي استعمرت المدن الساحلية الشامية، ومن ذلك طبيعة سكان مدينة صور الساحلية الذين أظهروا مرونة أكثر من التعامل مع المسلمين، وخاصة في المعاملات التجارية، على العكس من سكان المدن الساحلية الأخرى الذين كانوا يعتدون على التجار المسلمين في كثير من الأحيان.

امتلكت مدينة صور مرفأ مائي صالح لرسو السفن، غير أنه كان به عيب وهو وجود صخور من جهة الجنوب كانت تعوق حركة الملاحة للميناء، فكان على السفن التي تريد الدخول للميناء أن تدخل من جهة شمال المرفأ مع الابتعاد عن تلك الصخور، ووجد عائق آخر وهو أن تلك الصخور كان العمق القريب منها قليل، مما كان يعرض السفن لخطر التحطم⁽³⁷⁾.

تجدر الإشارة إلى أن العيوب التي وجدت في ميناء صور، قد عملت على إعاقة عملية الملاحة من وإلى الميناء، مما أدى إلى تكبد السفن الكثير من المشقة حتى تستطيع الدخول إلى الميناء، وذلك عن طريق سلوك اتجاه معين للوصول إلى الميناء، وحتى عندما تتفادى ذلك الخطر، كانت تواجه خطر التحطم بسبب العمق القليل عند تلك الصخور، مما جعله ميناء غير آمن نسبياً.

عدت صور مخرج لتجارة دمشق ومنتجاتها، لذلك جرى صراع للتحكم في مرتفعات الجولان بين الجانبين المسلم والصليبي للسيطرة على طريق التجارة بين دمشق وصور⁽³⁸⁾، وأقتنت صور ثروات طبيعية وتجارة واسعة، بل وكانت يتم فيها تصنيع الأصباغ، وهي مهنة صباغة الأقمشة بالألوان المختلفة، وأشهر منتجاتها الأقمشة الأرجوانية وأطلق عليه الأرجوان الصوري النبيل⁽³⁹⁾.

يتضح لنا من ذلك أن مدينة صور بالإضافة إلى موقعها وتحصيناتها المحكمة، تميزت بشيء آخر وهو صناعة الأصباغ التي نالت منتجاتها جودة عالمية في تلك الفترة، إلى جانب الثروات الطبيعية التي وجدت بها، لذلك مثلما كان لها شهرتها في مناعتها العسكرية، حازت أيضًا شهرها في منتجاتها الاقتصادية، ومنها صناعة الأصباغ التي استخدمت في تصنيع الأقمشة.

امتازت صور بميزة أخرى جيدة وهي أن ساحلها كثر فيه السمك، بل أيضًا تمت زراعة سهولها وأوديتها بالكروم وأشجار الفاكهة وحقول الحنطة، بالإضافة إلى ما تمتع به ميناءها من مميزات عديدة، جعلها بحق عروش موانئ الساحل الشامي⁽⁴⁰⁾.

يلاحظ أن صور حازت على ميزة أخرى، وهي تجمع الأسماك عند ساحل الشام في طريق هجرته مما أدى إلى ظهور نشاط صيد الأسماك، الذي كان يدر دخلًا كبيرًا، وكان يدخل في المعاهدات التي كانت تعقد بين المسلمين والصليبيين.

استمر هذا الوضع التجاري النشط قائمًا على ذلك، حتى بعد معركة حطين وسقوط المدن الساحلية الشامية في يد صلاح الدين الأيوبي، فأجتمع بصور أهل البلاد التي استردها صلاح الدين بالأمان، حتى حدث في المدينة زحام شديد من كثرة من هاجر إليها، وعندما أراد صلاح الدين إسقاط صور، فلم يستطع لعدة أسباب منها: مناعة أسوارها وحصونها، وكثرة من وجد بها من الصليبيين، فرحل عنها ولم يسقطها⁽⁴¹⁾.

من المرجح أن تلك الحادثة زادت من أهمية صور، وتفوقت بها على عكا، حيث ظلت بأيدي الصليبيين ولم تسقط في أيدي المسلمين، فاستمر الوضع قائمًا بها كما هو، بل لقد انتقلت إليها كرسي المملكة الصليبية بوصفها حصن قوي، مما زاد من أهميتها.

وفيا يلي؛ يلاحظ أن تدهورا لحق بصور من خلال أن البيازنة في عام 1222م / 619هـ قاموا بتدمير برج الجنويين في عكا، واشتعلت الحرب التي عرفت باسم حرب القديس ساباس ST.Sabas⁽⁴²⁾، بين كل من البيازنة والبنادقة والداوية والتوتونيين والمرسلين من ناحية، والجنويين مدعومين من عناصر الأستبارية وتجار مدينة أنكون Ancone وكاتالونيا Catalogne

من ناحية أخرى⁽⁴³⁾.

يذكر هنا أن الأوضاع في الساحل الشامي في القرن الثالث عشر الميلاد / السابع الهجري، تحولت إلى عدة صراعات داخلية وكثيرة امتدت على طول الساحل الشامي، فقد تحالفت البندقية مع منافستها مدينة بيزا ضد عدوتها اللدودة مدينة جنوا، وذلك في سبيل مصلحتها التجارية في مدن الساحل الشامي، مما كان لهذا الصراع أثره السيء على مسير الحركة التجارية.

على أثر تلك الحرب تمكن الجنويون بمساعدة حاكم صور فيليب منتفرت، من طرد البنادقة والبيازنة من صور⁽⁴⁴⁾، ومن جهة أخرى تحالفت جنوا مع ميشيل باليولوجوس الإمبراطور البيزنطي الذي تمكن من استعادة القسطنطينية عام 1261م / 659هـ وطرده البنادقة منها⁽⁴⁵⁾.

يرجح الباحث أن عداء فيليب منتفرت للبنادقة، ربما يعود إلى أنه ينحدر من أصول إيطالية، تمثل العداء للبنادقة، أو أنه رأى أن نفوذ البنادقة قد زاد في مدينة صور على حساب سلطته، فأراد أن يحد من هذا النفوذ، عن طريق التحالف مع الجنوية ليتمكن من طرد البنادقة خارج مدينة صور.

وتدخلت البابوية لكي تفض هذا الصراع، إلا أن المدن الإيطالية ظلت في تنافسها المستمر، الذي ساهم بشكل كبير في تفكيك أوصال المستعمرات الصليبية في الساحل الشامي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري⁽⁴⁶⁾.

من الجدير بالذكر هنا أن المصلحة الخاصة أحياناً تغلبت على المصلحة العامة، مما كان له أسوأ الأثر على وضع الكيانات الصليبية في الساحل الشامي، فبدلاً من أن تمد المدن الإيطالية وغيرها من المدن التجارية الأخرى مساعدتها للصليبيين تنافست فيما بينها وتعاركت مما أضعف الكيانات الصليبية.

لم يقتصر الصراع بين البنادقة والجنويين في الجانب البري فقط، بل تعداه إلى صدام بحري حيث قام الأسطول البندقي بمهاجمة أسطول جنوى أمام سواحل عكا وذلك في عام 1258م /

656هـ. وتمكن البنادقة على إثره من مهاجمة مواقع الجنوية⁽⁴⁷⁾.

من المرجح أن مثل هذه الحوادث كان لها تأثيرها على نشاط حركة التجارة البحرية بين أوروبا ومدن الساحل الشامي، وخاصة خوف التجار من أن تتعرض سفنهم التجارية التي تجوب البحار في مناطق مختلفة، من أن يلحق بها الدمار وسلب بضائعهم، على يد السفن الأخرى المغيرة، مما كان يسبب ضياع ثرواتهم التجارية، وخسارتهم لأموالهم.

اعتتم المماليك فرصة تلك الصراعات القائمة بين الصليبيين بعضهم مع بعض، وقاد الأشرف خليل بن قلاوون جيشه بعد إسقاط عكا وتوجه إلى صور حيث كانت تابعة لعكا وعند اقتراب جيشه منها أعلنت التسليم وذلك في عام 1291م / 690هـ وهو نفس عام سقوط عكا، وبذلك نظف الأشرف تمامًا الساحل الشامي من الصليبيين⁽⁴⁸⁾.

يلاحظ أن المماليك لم يتركوا فرصة إلا واستغلوها لكي يقوموا باستعادة أملاك المسلمين من أيدي الصليبيين، بل أنهم عملوا على إشعال الصراع فيما بين الصليبيين حتى يسهل عليهم انتزاع الأراضي التي اغتصبوها فيما قبل ذلك.

مع مقارنة الوضع بين عكا وصور نجد الآتي، تميزت مدينة عكا بموقعها المتوسط على الساحل الشامي بين الشمال والجنوب، في حين تميزت صور عن عكا بقوة تحصيناتها واستحكاماتها الطبيعية والصناعية، وقد وجدت في كل من مينائي عكا وصور عيوب وإن اختلفت عن بعضها البعض، إلى جانب ذلك توقف النشاط التجاري في مدينة عكا لفترة أثناء الصراع حولها بين المسلمين والصليبيين في أثناء الحملة الصليبية الثالثة، بينما لم يتوقف النشاط التجاري في مدينة صور، وتفرقت عكا على صور بأن انتقلت إليها ملوك بيت المقدس الصليبيين، بعد استرجاع بيت المقدس على أيدي المسلمين، وبذلك نالت مكانة دينية بجانب مكانتها الاقتصادية.

ويضاف إلى ذلك؛ احتلت مدينة بيروت المركز الثالث في الساحل الشامي، من حيث النشاط التجاري وإقبال التجار الغربيين عليها، فهي مدينة غنية وقوية وكبيرة، وازدهت بالسكان⁽⁴⁹⁾، وذلك لأن المدن الإيطالية امتلكت قواعد لها هناك، بل ومراسلين من التجار

أيضاً⁽⁵⁰⁾، ففي تلك الفترة العنصرية خلال القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين، السادس والسابع الهجريين، تم الجمع بين فكرة الحرب والتجارة. فقد اعتمدت المدن الأوروبية وكذلك الشامية على مهارة تجارها ورأس مالهم وتنظيمهم، وعلى ما تمتعت به الموانئ الشامية من مميزات وبالإضافة إلى مصادر الثروة الطبيعية من زراعة وصناعة⁽⁵¹⁾.

الجدير بالذكر أن المدن الإيطالية لم تترك شيء إلا وفعلته من أجل التجارة، فلم ينصب اهتمامهم على التركيز في المدن الكبرى مثل عكا وصور، بل لقد تركزوا في المدن التي كانت أقل من حيث الشهرة والمكانة، وذلك حتى يستطيعون الاستفادة من تلك المدن، ولكي تخدم مصالحهم التجارية.

تركزت في المدن الساحلية أنظمة إسلامية الأركان، ومع تركيز المدن الأوروبية فيها، فلم يستطيعوا محوها أو تغييرها، فعلى الرغم من أن المدن الإيطالية احتكرت التجارة ومارستها في موانئ الساحل الشامي، إلا أن قوتهم في التجارة البرية لم تكن بحجم مثيلاتها، لأنها تركزت بأيدي تجار المسلمين⁽⁵²⁾.

توجد هنا نقطة مهمة يجب الإشارة إليها وهي أن التجار الغربيين لم يستحدثوا نظاماً جديدة في المدن الساحلية الشامية التي استقروا فيها، بل واجهتهم نظم تجارية قائمة عملوا على الاستفادة منها، بل ونقلوها إلى معاملاتهم التجارية في القارة الأوروبية، وقد تفوق التجار الإيطاليون في التجارة البحرية بسبب قوة أسطولهم، بينما تفوق التجار المسلمون عليهم في التجارة البرية، بسبب سيطرتهم على تجارة الظهير الآسيوي الممتدة من المحيط الهادي شرقاً إلى الساحل الشامي غرباً.

وقد كان لمدينة بيروت ميناء صناعياً وليس من تكوين الطبيعة، وتم إنشاءه على هيئة نصف قمر، وضع حدبه في الأطراف كقرون في شكل برجين كبيرين، يصل بينها سلسلة ضخمة لتنظيم حركة الملاحة داخل الميناء⁽⁵³⁾، وتتصل مدينة دمشق بالبحر المتوسط عن طريق هذا الميناء المهم، الذي يبعد عنها بمسيرة يومين، فمياه هذا الميناء هادئة ولذلك تلجأ إليها السفن في معظم

يلاحظ هنا أن المواني في الساحل الشامي اشتركت في سمة واحدة، وهي وجود السلسلة الكبيرة التي توجد في مقدمة أو مدخل الميناء، ويدل ذلك على أن تلك السلسلة لم تكن من استحداثات الصليبيين، بل وجودها في المدن التي احتلوها واغتصبوها من أيدي المسلمين، ويتضح لنا أن المسلمين أدركوا أهمية الحركة الملاحية، بل ونظموها تنظيم جيد.

استحوذت بيروت على صفة هامة وهي أنها ميناء دمشق، ومخرج منتجاتها، فهذه الميزة عوضت بيروت عن منافسة أهم مينائين في مملكة بيت المقدس الصليبية والساحل الشامي وهما عكا وصور، اللذان يحتلان مركز الصدارة في شتى النواحي الحضارية⁽⁵⁵⁾، الخاصة بالصليبيين في ذلك الوقت، فدمشق هي المستودع الكبير الذي ترد إليه منتجات الشرق كله بكميات هائلة، ومن عدة طرق مختلفة⁽⁵⁶⁾.

يتضح لنا أن المواني التي وقعت في أيدي الصليبيين، عملوا على تعمیرها وتجميلها، وتركوها في أيدي المدن التجارية سواء الإيطالية أو غيرها من المدن الأخرى، فقامت تلك المدن بإرساء قواعدها في الساحل وإنشاء كومات تجارية تابعة لها في هذه المدن، وأدرك التجار ميزة كل ميناء واختلافه عن الآخر، وحاجة كل ميناء ونوع السلع التي يحتاجها، وطبيعة سكان المدينة نفسها.

ظلت مدينة بيروت بأيدي الصليبيين إلى ثمانينات القرن الثاني عشر الميلادي، السادس هجري، حتى جاء زلزال حطين وانهارت الكيانات الصليبية بالساحل الشامي على يد صلاح الدين عام 1187م / 583هـ فبدأ صلاح الدين باسترداد مدن الساحل الواحدة تلو الأخرى إلى أن جاء دور مدينة بيروت، حيث توجه إليها صلاح الدين بجيشه، وفرض عليها حصار محكم⁽⁵⁷⁾.

ويلاحظ أن؛ صلاح الدين من خلال معاشته لأحداث الصراع مع الصليبيين، وعن طريق جمع المعلومات التي ميزت صلاح الدين على الصليبيين، فأدرك أهمية بيروت الاقتصادية وفائدتها للمسلمين، فأسرع إلى الزحف عليها ومحاصرتها.

تمتعت مدينة بيروت بحصانة قوية، فلما حاصرها صلاح الدين بجيوشه، تحصن الصليبيون وراء أسوارها وحاولوا الدفاع عنها، إلا أن أولئك الصليبيين كانوا تكونون من التجار وأصحاب الحرف، ولم تكن معهم قوة عسكرية سواء من الفرسان أو المشاة لتحميمهم، ولم يكونوا ليجيدوا فن الحرب، فسرعان ما استسلموا إلى صلاح الدين من نفس عام الحصار، ودخل صلاح الدين المدينة في 6 أغسطس 1187م / 27 جمادي الأولى 583هـ⁽⁵⁸⁾.

يلاحظ الباحث أن المدن الساحلية في بلاد الشام، والتي استولى عليها الصليبيون، كانت بعض هذه المدن تتركز فيها السلطة العسكرية والتجارية معا مثل عكا وصور، وذلك لمكانتها في الساحل الشامي، والبعض الآخر ومنهم مدينة بيروت، التي كانت السلطة العليا فيها بأيدي التجار، ولم يكونوا من ذوي الخبرة العسكرية، وبالتالي سقطت سريعا بأيدي الجيوش الإسلامية.

برز موقع مدينة بيروت في الشمال وقربها من عكا، حيث استخدمها صلاح الدين الأيوبي كقاعدة لإرسال المؤن والأسلحة إلى القوات المحاصرة داخل عكا من جانب الصليبيين، وقد نجحت خطته فقام بتجهيز سفن أخرى لإرسال المدد إلى تلك المدن، حتى سقطت بأيدي الصليبيين⁽⁵⁹⁾.

يرجح أن مدينة بيروت عندما استعادها المسلمون لم يوقفوا نشاطها التجاري، ولم تفقد مركزها المزدهر بل ظلت تمارس التجارة والدليل على ذلك هو السفن التي أرسلها صلاح الدين محملة بالمؤن والأمتعة، فزال التجار المسلمون التجارة في تلك المدينة وحافظوا عليها.

بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، حدث نزاع في البيت الأيوبي وتشاجر أبناء صلاح الدين وعمهم، واستغل الصليبيون تلك النزاعات وتقدموا لمحاصرة بيروت ولم تصمد حاميتها لعدم وجود الدعم للمصمود أمام الجيوش الصليبية، فتمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيروت فعلا في أكتوبر سنة 1197م / 594هـ وتوجد أهمية كبرى على وقوع بيروت في قبضة الصليبيين مرة أخرى، فإن السيطرة عليها مكنت الصليبيين من إحكام إشرافهم على شواطئ الساحل الشامي، وبخاصة فيما بين طرابلس وعكا⁽⁶⁰⁾.

ويلاحظ حدوث تحول في أوضاع كل من المسلمين والصليبيين على السواء، فقد انشغل المسلمون بخلافاتهم الداخلية وضعفت قوتهم، ومن ناحية أخرى حاول الصليبيون استعادة ما فقدوه من مدن الساحل الهامة وانتزاعها من أيدي المسلمين.

هكذا عادت بيروت مرة أخرى إلى السيادة الصليبية، غير أن الصليبيين لم يلتزموا بالسلام مع جيرانهم المسلمين بل قامت محاولات عديدة للقيام بأعمال القرصنة ضد المراكب التجارية الإسلامية، مما جر عليها حرب المسلمين، فسارع حكامها بعقد صلح مع الظاهر بيبرس، لأنهم غدروا بمركب فيه جماعة من التجار كانوا متوجهين إلى قبرص، فطالبهم بيبرس بمال التجار، فالتزموا بذلك وأطلقوا سراح التجار⁽⁶¹⁾.

يرجح أن الصليبيين في مدينة بيروت كانوا يميلون النشاط التجاري بصورة كبيرة، مما أدى طمعهم في السفن التجارية الإسلامية، والتي مثلت نمو النشاط التجاري الإسلامي مرة أخرى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، وذلك نتيجة تدهور الأوضاع الصليبية مع ظهور قوة المماليك التي عملت على طرد الصليبيين من المراكز التجارية بالساحل الشامي.

وقد قام سلاطين المماليك بنشاط كبير في الحرب ضد كل من المغول والصليبيين، وبالأخص الصليبيين فقاموا بإسقاط المدن والقلع الساحلية التي وقفت في طريق توسعهم، ومنهم السلطان منصور قلاوون الذي قام بهجمة الساحل الشامي واستعاد المدن الساحلية، بل ومراكز الصليبيين، ومنها مدينة طرابلس في الشمال، والتي على إثرها سقطت مدينة بيروت، التي كانت تابعة لها، وذلك في عام 1289م / 688هـ⁽⁶²⁾.

يتضح لنا أن المراكز الصليبية التي أنشئت في الساحل الشامي، وجدت هناك مراكز ثانوية أخرى تابعة لها، بل وتستمد قوتها من تلك المراكز، فإذا حدثت هزات لتلك المراكز، أصاب المدن التابعة لها ذلك، وهذا ما حدث مع مدينة بيروت التي كانت تابعة لطرابلس، فعندما سقطت بأيدي قلاوون لم تصمد بيروت كثيرا.

تلت مدينة طرابلس في حركة التجارة بيروت بالنسبة لتجارة الساحل الشامي الخارجية والداخلية، فكانت طرابلس مخرجًا لتجارة منطقة حلب⁽⁶³⁾، فهذه المدينة اكتسبت شهرة كبيرة، وقد وقع معظم أجزاء المدينة داخل البحر، وهي مدينة مزدحمة سكانيًا يقطنها أجناس مختلفة من يونانيين ولاتين وأرمن وموارنة ونساطرة وجماعات أخرى كثيرة⁽⁶⁴⁾.

من الملاحظ أن الذي دل على قوة ومكانة المدن الساحلية الشامية الاقتصادية، هو كثرة من كان يقطنها من المسلمين سكانها الأصليين، بالإضافة إلى تركيز الكثير من العناصر الصليبية فيها، نتيجة لمناعتها الطبيعية وموقعها الجغرافي الذي كان يجعلها في مكانة اقتصادية متميزة.

وقد وصفت هذه المدينة بأنها مدينة ذات نشاط حر في كبير⁽⁶⁵⁾، والعديد من السماسرة ينشطون بها، وامتازت الأراضي المحيطة بطرابلس بالخصوبة، حيث انتشرت بها العديد من الفاكهة مثل مزارع العنب وبساتين الزيتون وأشجار التين وقصب السكر⁽⁶⁶⁾، وأيضًا لوقوع طرابلس في شمال الساحل الشامي، فقد مثلت حلب نقطة التقاء للطرق التجارية القادمة من العراق واتصلت بدمشق عبر حماة وحمص، كما امتدت مجموعة من الطرق من أنطاكية إلى حلب ودمشق عبر شيزر وكفر طاب، وبذلك وفرت هذه الطرق همزة الوصل بين المدن الداخلية مثل حلب وشيزر ودمشق وبين موانئ بلاد الشام مثل طرابلس وبيروت وصور⁽⁶⁷⁾.

يلاحظ أن مدينة طرابلس وجدت بها عدة مميزات، وهي وقوعها في شمال الساحل الشامي حيث وقعت في نهاية الطرق التجارية القادمة من شمال أوروبا وآسيا إلى سواحل الشام، وأيضًا نهاية الطرق القادمة من وسط آسيا إلى الغرب لسواحل الشام مما أعطاها شهرة كبيرة، فتوافد التجار عليها ونشطت بها الحركة التجارية.

اكتظت مدينة طرابلس بالمخازن التي ملئت بالبضائع الثمينة، وميناؤها جيد يجذب إليه السفن من كل البلاد⁽⁶⁸⁾، كما كانت المدينة عامرة بالأسواق والفسواق والمصانع العاملة⁽⁶⁹⁾، وبجانب عناصر السكان الأصليين من يهود ومسلمين، فقد مارسوا التجارة والصناعة بنشاط كبير⁽⁷⁰⁾، ولذلك كانت أسعار السلع بها مرتفعة مثل الخبز والغلال⁽⁷¹⁾ واستقبل ميناء طرابلس

السفن التجارية الإيطالية التي كانت تقوم برحلتين سنويا إلى الموانئ الشامية⁽⁷²⁾.

ومن المرجح أن ميناء طرابلس تميز باستقباله للسفن التجارية الأوروبية القادمة للساحل الشامي في شكل قوافل، وذلك خلال الرحلات التي تقوم بها تلك السفن على مدار العام، مما يوضح أن ميناء طرابلس صالح لرسو السفن به لفترات طويلة أثناء العام.

بالإضافة إلى ذلك تميزت مدينة طرابلس بوصفها مدينة صناعية، بصناعة الورق الجيد الذي فاق الورق السمرقندي الشهير، حيث كان يتم تصنيعه من قصب السكر⁽⁷³⁾، ولذلك سارع التجار الإيطاليون بالتمركز فيها، ومع مجيء القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، حدث نوعين من التغيير، كانا لهما نتائج بعيدة المدى، الأول: وهو دخول تجار من فرنسا وأسبانيا ودول أوروبية أخرى لممارسة النشاط التجاري في مدن الساحل الشامي، ولذلك وجدت جاليات مارسيليه ومدن أخرى في طرابلس، أما الثاني، وهو توسع هؤلاء التجار في إقامة البيوت التجارية في المدن الداخلية من أجل النشاط التجاري⁽⁷⁴⁾.

يرى الباحث أن مدينة طرابلس أصبحت ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، مركزا لتجمع التجار الأوروبيين الذين حاولوا التوغل في الظهر الشامي.

بدأت المحن تحمل بمدينة طرابلس، وذلك من خلال الزلزال الذي وقع في منطقة بلاد الشام عام 1170م / 565هـ، فقد كان حجم التدمير الذي حل بها كبيرا، وقد جاءها على نحو مفاجئ، ولذلك حدث تغير في أوضاع المدينة بعد هذا الزلزال الذي ضربها، فمات عدد كبير من سكانها وتحولت مبانيها ومسكنها إلى أنقاض وأطلال⁽⁷⁵⁾.

من المتوَصَّر أن طرابلس قد لحقها ضرر اقتصادي شديد، نتيجة هذا الزلزال، فنظرا لتوافد التجار عليها، واستمرار عملية البيع والشراء، وبالتالي سيكون هناك زحام شديد، ومع الزلزال فإن الأضرار سوف تكون كبيرة وخاصة في الجانب التجاري.

صاحبت مظاهر الطبيعة عوامل سياسية أدت إلى تدهور أوضاع الإدارة، وذلك في الثالث

عشر الميلادي، السابع الهجري، حيث تجددت المنازعات مرة أخرى بين بوهيموند الخامس أمير أنطاكية وطرابلس، وملك أرمينيا الصغرى هيثوم الأول، وذلك بسبب وراثة لعرش، هذا إلى جانب أن الداوية ظلوا في نزاع دائم مع أرمينية الصغرى حول حصن بغراس، الذي ظل الأرمن يطمعون في الاستيلاء عليه⁽⁷⁶⁾.

استمرت المنازعات بين الصليبيين في طرابلس ومملكة أرمينيا الصغرى، في الوقت التي ظهرت قوة جديدة على الساحة الإسلامية وهي قوة المماليك التي أخذت تهدم الحصون والإمارات الصليبية، ومنها خروج السلطان قلاوون على رأس جيش ضخم فرض حصارًا على طرابلس، ثم لم يلبس أن استولى عليها بعد أربعة وثلاثين يومًا، وانتهى الحصار بتدمير تحصينات المدينة التي كان سورها عريضًا وقويًا وذلك في عام 1289م / 688هـ⁽⁷⁷⁾.

يلاحظ الباحث أن الصليبيين ابتداء من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، دخلوا في منازعات داخلية فيما بينهم، بل إن الإمارات الصليبية نفسها قامت بها منازعات داخلية أدت إلى ضعفها على جميع المستويات وأبرزها الجانب السياسي والاقتصادي.

شهد القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، غياب مدن مثل عسقلان وأنطربوس وجبله، وإنحطاط مدن أخرى مثل يافا واللاذقية وقيصرية وصيدا، بل امتد هذا الانحطاط إلى مدن الظهير مثل مدينة حلب ودمشق، وذلك نتيجة لاختفاء حكام تلك المدن من الأيوبيين، وسبب آخر وهو تغيير الطريق الناتج عن اكتساح المغول لوسط وغرب آسيا⁽⁷⁸⁾.

من المرجح أنه كان هناك ارتباط شديد الأهمية بين مدن ومراكز التجارة في الظهير الشامي، وبين المراكز التجارية في الساحل، وظهر ذلك واضحًا أثناء اضطراب الأوضاع في المدن الداخلية ونتيجة لتدميرها على أيدي الجيوش المغولية، فساءت الأوضاع في المراكز الساحلية.

وأمتدت على طول الساحل الشامي الكثير من المدن الساحلية، غير أن بعضها لم تزد أهميته عن كونه ميناء للصيد مثل مدينة أرسوف، التي تم مزاولة حرفة صيد الأسماك لتجميعه بالقرب منها، ومدن أخرى ظلت على الرغم من ذلك تحتفظ بأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية،

وتحملت الصعوبات التي واجهتها مثل مدينتي عكا وصور⁽⁷⁹⁾، ومع سقوط تلك المدن الساحلية تعطلت حركة التجارة وفقدت تلك المدن أهميتها الكبيرة⁽⁸⁰⁾.

تجدر الإشارة إلى أن المدن الساحلية الشامية مارست التجارة، غير أن نسبة هذه الحركة اختلفت من مدينة لأخرى، فنالت بعض المدن أهمية وأصبحت مركز تجاري، ولم تكن المدن الأخرى على ذات المستوى من الأهمية التجارية.

أدى استقرار الصليبيين في الساحل الشامي، إلى قدوم الكثير من عناصر وأجناس مختلفة من أنحاء أوروبا، وكانت لهم عاداتهم وتقاليدهم المختلفة، غير أن تلك العناصر كانت أكثر فائدة للساحل الشامي من حيث ممارسة التجارة والزراعة والأعمال الأخرى المفيدة⁽⁸¹⁾، لذلك حدث اتصال بين تجار أوروبا الغربية، بل أنهم حضروا بأنفسهم إلى الساحل الشامي، لأن التجارة كانت تمثل أهمية اقتصادية واجتماعية كبيرة⁽⁸²⁾.

من الملاحظ أن الوضع في الساحل كان متناقضًا في كثير من جوانبه، فتعددت عناصر الصليبيين واختلفت أجناسهم، إلا أنهم اتفقت مصلحتهم على شيء مهم وهو التجارة التي أعطتهم الكثير من الأرباح التجارية.

أما فيما يتصل بالسلع التجارية؛ فقد احتكرت المدن الأوروبية للتجارة الكاملة من مضيق البسفور مرورًا بالساحل الشامي ومنه إلى غرب البحر المتوسط إلى مضيق جبل طارق وشمال غرب أوروبا⁽⁸³⁾، فبعد احتلال الصليبيين للساحل الشامي، أصبح مخرجًا للسلع التجارية لكل من سوريا وفلسطين، بالإضافة إلى جزء كبير من تجارة مصر حملت على سفن أوروبية⁽⁸⁴⁾.

نستنتج من ذلك أن سيطرة المسلمين البحرية على سواحل الشام انتهت مع مقدم الصليبيين واحتلالهم لمدينة الساحل الشامي، بالإضافة إلى ذلك فقدانهم لدور الوساطة التجارية التي قاموا بها بين شرق البحر المتوسط وغربه.

دخلت بعض السلع الهامة في دائرة السلع الاستراتيجية، والتي بسببها نشأت العلاقات بين

الأمم المختلفة، بل وقامت من أجلها الحروب، ولها أيضًا يرجع الفضل في إيجاد الاتصال بين الشرق والغرب بصورة مستمرة، وكانت التوابل أهم تلك السلع حيث كانت القوافل المحملة بها تسلك عدة طرق أصبحت أهم شرايين الاتصال في آسيا وأفريقيا⁽⁸⁵⁾.

لقد مثلت التوابل أهمية بالغة للغرب الأوروبي في ذلك الوقت، حيث استخدموها في حفظ الطعام من الميكروبات التي تفسده، بالإضافة دخولها في صناعة العقاقير الطبية، التي ساعدت على شفاء الكثير من الأمراض التي كانت منتشرة في أوروبا.

كانت للتوابل أهمية كبرى واستخدامات عديدة، منها حفظ المواد الغذائية التي كانت تفسد سريعًا بسبب سوء الأحوال الجوية، واستعملته بعض الشعوب من أجل الرجيم للقضاء على السمنة، ودخلت أيضًا في حفظ اللحوم والقضاء على رائحتها، وحفظها طازجة لأطول فترة ممكنة⁽⁸⁶⁾.

يلاحظ هنا أن السلعة الواحدة كان لها أكثر من استخدام، وتعددت أغراض الشعوب فيها، ولم تقتصر على فئة معينة من أفراد الشعب بل استعملتها طبقات الشعب المختلفة.

لعب الفلفل وهو من التوابل دورًا هامًا لاستخدامه ضمن المقويات وفتح للشهية⁽⁸⁷⁾، كما دخلت التوابل في صناعة النبيذ والعقاقير الطبية، ونتيجة لهذا الاستخدام ارتفعت أسعارها وازداد الطلب عليها وزادت قيمتها الشرائية⁽⁸⁸⁾، وكانت قوافل التوابل والبخور تأتي من مركزها في الهند وتحمل بحرًا إلى جزيرة هرمز، ومن هناك يتوجه الجزء الأكبر من تلك الحمولة وترسل بحرًا إلى موانئ ظفار ثم إلى عدن، ومنها إلى طريق البحر الأحمر ومن هناك إلى مصر وبلاد الشام⁽⁸⁹⁾.

لقد ادعى مرور السفن التجارية المحملة بالتوابل عبر البحر الأحمر حتى تصل إلى موانئ البحر المتوسط، إلى نشاط وازدهار موانئ كثيرة في البحر الأحمر مثل ميناء عدن في اليمن، وميناء عيذاب على البحر الأحمر شمال شرق حلايب، وصولًا إلى ميناء أيلبة عند خليج العقبة، حيث أصبحت تلك القوافل التجارية البحرية مصدر رزق للكثير من سكان تلك المدن.

ووصلت تلك القوافل إلى مختلف مدن الساحل حتى ميناء سان سيمون (السويدية) في الشمال التابع لإمارة لأنطاكية والتي كانت تتجمع بها القوافل التجارية ومنها إلى ميناء السويدية حيث تحمل إلى السفن الأوروبية⁽⁹⁰⁾، وترتب على مواعيد وصول القوافل تحديد مواعيد رحلات الأساطيل التجارية الإيطالية إلى الساحل الشامي⁽⁹¹⁾، ونتيجة لما تحمله تلك السفن التجارية من سلع قيمة، كانت تحملها من مدن الساحل الشامي، أو تأتي بها إليه، فقد كانت تصاحبها سفن حربية خاصة، وهي سفن تم تجهيزها لأغراض الدفاع عن السفن التجارية، فكانت سفن سريعة الحركة وخفيفة الوزن⁽⁹²⁾، وقد فضل التجار هذه الوسيلة لنقل بضائعهم التجارية المسافرة إلى مدن الساحل الشامي، لأنها تكفل لهم أمنا كبيرا من غارات القراصنة⁽⁹³⁾.

نالت التوابل شهرة كبيرة في القرن الثاني عشر الميلادي، السادس الهجري وعرف تجارها وتجارها بالكارمية⁽⁹⁴⁾، ونظراً لأهمية تجارة الكارم في تدعيم الاقتصاد الإسلامي، عني صلاح الدين وخلفاؤه من بعده، بتنظيم شؤونها فخصصوا لخدمتها موظفاً كبيراً، هو ناظر البهار والكارم مهمته رعاية مصالح الكارمية وتجارهم ما بين البحر الأحمر والشام ومصر⁽⁹⁵⁾.

زادت أهمية تجارية الكارم في القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، حيث اهتم سلاطين المماليك بها، ولم يلبثوا أن تاجروا بأنفسهم واحتكروا هذا النوع من التجارة بعد أن انتزعوها من التجار الكارمية، وغالوا في احتكارها وخاصة في السلع النادرة، وأدى هذا الاحتكار إلى ارتفاع أسعارها خاصة في أوروبا إلى أربعة وخمسة أضعاف عن سعرها في الهند⁽⁹⁶⁾.

من المؤكد أن تجارة الكارم حققت ثروات وأرباح طائلة، لذا عمل سلاطين المماليك على الاهتمام بتلك التجارة وتشجيعها، ونظراً لمكاسبها الكبيرة قاموا بالتجارة فيها بأنفسهم حتى يقوموا بتقيق ثروات خاصة بهم.

لقد خصصت المدن التجارية سفن خاصة لنقل التوابل والسلع الأخرى المعدة للتصدير إلى أوروبا، وكانت تسبق القوافل الموسمية وهي سفينة تعرف بالكوكا Coca، وكانت تنتظر في الموانئ لحين وصول القافلة البحرية، حيث يسمح لها بفترة انتظار تشحن خلالها مختلف أنواع

السلع بحيث تترك على ظهرها مساحة كافية فارغة لنقل ما يفيض من التوابل والسلع بعد شحن القافلة الموسمية ورحيلها من الميناء⁽⁹⁷⁾.

من المرجح أن التوابل كانت لها أهمية كبيرة عند التجار الإيطاليين، حتى أنهم خصصوا سفن ذات تكوين خاص، لكي يتمكنوا من نقلها بطرق وأوعية معينة، حتى يتم حفظها سليمة لكي تصل إلى الغرب الأوروبي⁽⁹⁸⁾.

بجانب تجارة التوابل، دخلت تجارة الأعشاب إلى دائرة المنافسة وظهر منها عدة أعشاب هامة، وهي: العنبر حيث كان النوع الجيد منه ما كان يجلب من عمان ويصدر خارجا وكان خفيفا وأبيض دهني⁽⁹⁹⁾، ونبات آخر يسمى مرياقلون وهي زهرات نافعة تستخدم للعلاج من السموم⁽¹⁰⁰⁾، ونوع آخر يسمى حزنبل وقد خصص لإبطال فعل سم لعقارب وكان يجلب من طرسوس⁽¹⁰¹⁾، إلى جانب نبات يدعي اللبلاب ويزرع في أنطاكية وخصص لعلاج تقوية اللثة، واستعمل كمسهل بشكل جيد في أوروبا وحمله البنادقة والفيلورنسيين إلى إنجلترا⁽¹⁰²⁾.

يلاحظ الباحث أن تجارة التوابل لم تستأثر بحجم التجارة كلها، بل دخلت الأعشاب دائرة التجارة الدولية وذلك لاستخدامها في صنع الطعام والعلاج الطبي، لذلك لاقت إقبال كبير على شرائها خاصتها في أوروبا.

كما دخلت تجارة البخور إلى دائرة التجارة الدولية والتصدير عن طريق الساحل الشامي، وأشهر أنواع العود الهندي وأجل صفاته الرزانة واللون المائل إلى السواد ورائحته على النار تشبه رائحته الورد⁽¹⁰³⁾.

لعبت تلك السلع دورا هاما من أجل الطقوس الدينية والتجارة الخارجية مثل آلاف الطوائف المسيحية التي كانت تحتاج للخمر من أجل القداس، والزيت من أجل التقديس والخور خصص من أجل الاحتفال الديني⁽¹⁰⁴⁾، وقد تخصصت مدينة البندقية في البضائع التي قل وزنها وغلى قيمتها، لذلك صممت من أجل ذلك سفن بها حاويات خاصة لتحمل تلك البضائع بشكل حذر وأوعية طويلة وضيقة لحفظ تلك المواد⁽¹⁰⁵⁾.

من المؤكد أن قدوم الحجاج عن طريق السفن للساحل الشامي، وزيارتهم للأماكن المقدسة واستعمالهم للبخور والأعشاب في طقوسهم الدينية أدى إلى نشاط في حركة تجارة البخور والأعشاب وازدهار ليس فقط في بيت المقدس، بل في المدن الساحلية الشامية فيما عرفت باسم تجارة الحج.

وقد اهتمت الإمارات والدول الصليبية على امتداد الساحل الشامي بهذه التجارة، بسبب ما يجني من أرباح فرضت على القوافل التي تمر بأراضيها وتذهب إلى دمشق أو تأتي منها، وأهتم التجار الأوروبيين بشراء نبات الرواند والمسك والفلفل والقرقة وغيرها من منتجات المشرق التي تأتيهم برا عبر القوافل أو بحرا عبر الخليج العربي⁽¹⁰⁶⁾.

ولأهمية هذه التجارة قام التجار باتخاذ الاحتياطات اللازمة من أجل المحافظة على هذه السلع، فقد حرصوا على أن يطرحوا أغطية سميكة مقاومة للماء لحمايتها من الأمطار، وكانوا يهتمون بحفظ المسك من الماء والهواء بنوع من التغليف، بأن تشد أوعية حفظه، ثم تلبس بالخرق المشمعة، وكذلك كان يمتاط على العنبر وعدم تعريضه للنار، كذلك كان يوضع الكافور في إناء زجاج أو صيني داخله أملس⁽¹⁰⁷⁾.

نستنتج من ذلك أن تجارة التوابل كانت مهمة بالنسبة للأوروبيين واستخداماتها المتعددة، مما جعل التجار المسلمون يحافظون عليها بشتى الطرق أثناء نقلها من منبتها في الهند إلى بلاد الشام ومنها إلى قارة أوروبا.

جاءت تجارة الحرير مصاحبة لتجارة التوابل، وأهتم بها التجار الأوروبيون، فقد جاء الحرير من الصين عن طريق المحيط الهندي والخليج العربي إلى مدينة بغداد، ومنها إلى حلب حيث عرفت بسوق الحرير⁽¹⁰⁸⁾، بالإضافة إلى نمو القطن بها مما أعطاه أهمية كبيرة⁽¹⁰⁹⁾، وأخذ الأوروبيون الحرير من الساحل الشامي إلى أوروبا حيث عبروا به عمرات الألب حتى يصلوا إلى أسواق شامبني ومنها يرسل هذا الحرير إلى شمال أوروبا وفرنسا⁽¹¹⁰⁾.

ظهر نوع آخر من الحرير أنتج في إيران، وقد لقي هذا النوع من الحرير إقبالا شديدا في

المستعمرات الصليبية⁽¹¹¹⁾، بل إن الحرير الخام⁽¹¹²⁾، تم إنتاجه في مدن الساحل الشامي نفسها، ومنها مدينة طرابلس الذي تم إنتاج الحرير على مقربة منها، حيث كثر بها وجود صناعات ونساجون الحرير⁽¹¹³⁾، وقد تخصصت عدة مدن في توزيع الحرير، حيث يخرج من دمشق وتتشعب القوافل ثلاث شعب، واحدة إلى بيروت، والثانية إلى صور، والثالثة إلى أنطاكية⁽¹¹⁴⁾، ويجانب هذا النوع من الحرير الصيني والفارسي، كان بلاد الشام منتجتها الخاصة من القطن والحرير، واشتهرت بذلك مدينة صور بمنتجاتها الشفافة⁽¹¹⁵⁾.

من الملاحظ أن المدن الشامية سواء كانت في الظهير أو الساحل الشامي، لم تكتف بدور الوسيط التجاري في نقل أو توزيع البضائع، بل قامت بتقديم منتجات خاصة بها نالت شهرة كبيرة في قارة أوروبا.

وبالمقارنة بين التوابل والحرير، نجد أن التوابل كانت أكثر انتشارًا من تجارة الحرير، وذلك؛ لأن التوابل دخلت في صناعة الطعام وتحضير الأدوية، وأقبل عليها الناس من الطبقات المختلفة، وبذلك دخلت ضمن دائرة الاستعمال اليومي، أما الحرير على الرغم من أهميته في حركة التجارة، وما يحققه من أرباح مرتفعة، غير أن استخدامه اقتصر على طبقة معينة وهي طبقة الأثرياء، نظرًا لارتفاع أسعاره، والتي لم تقدر عليه الطبقات الدنيا، ولأنه عد من مظاهر الترف.

كما تركزت في مدينة أنطاكية صناعة المنسوجات المطرزة بالفضة وأخرى بالذهب، بالإضافة إلى ذلك عباءات كهنوتيه من القماش الأحمر عليها رسومات من الطيور والحيوانات بألوان خضراء صنعت من الذهب⁽¹¹⁶⁾، وراجت في مدينة طبرية صناعة الحصير المنسوب إليها، وقد أقبل عليه المسلمون في المشرق والمغرب وبخاصة حصير الصلاة، والتي بلغ ثمن الواحدة من في بعض الأحيان خمسة دنانير ذهبية⁽¹¹⁷⁾.

لم تقتصر المصنوعات الشامية على ذلك، بل دخلت صناعة الملابس من القטיפنة والتي اشتهرت بها طرابلس وطرسوس، وكان يصنع من أربعة مصادر وهي: صوف الجمال؛ وشعر الماعز؛ وصوف الغنم؛ والحرير⁽¹¹⁸⁾، وصدرت المواد الخام من مواطن إنتاجها في الظهير مثل

القطن الذي كان يزرع في مدينة حلب، ويؤخذ مباشرة إلى مدينة سبتة في بلاد المغرب⁽¹¹⁹⁾، وإلى إيطاليا حيث اعتبر المادة الأولية للصناعات المزدهرة في لومبارديا⁽¹²⁰⁾.

من الملاحظ أن المدن التجارية الإيطالية، لم تكثف بشراء السلع المصنعة فقط مثل الأقمشة والمنسوجات، بل عملت على استيراد موادها الخام الأولية، ونقلها إلى مدنهم من أجل تصنيعها وبيعها من ناحية، ومن أجل تشغيل العمالة لديها من ناحية أخرى.

حققت الكتان شهرة كبيرة وخاصة التي يزرع في مدينة نابلس، والذي عد كتانها من بين الكتان الأكثر طلبا عليه في أسواق القدس وغيرها من الأماكن⁽¹²¹⁾، وقد كانت هذه البضائع ترفهية تطلب لحساب القوى الغنية والطبقات العليا مثل الأمراء والوجهاء والزعماء والإقطاعيون⁽¹²²⁾.

قام التجار الروس والمغوليون بقطع المسافات الشاسعة وأحضروا معهم السناجب والفراء الثمين⁽¹²³⁾، وكانت إمبراطورية أرمينا الصغرى تدم المستعمرات اللاتينية في الساحل الشامي بالفرو والجلود، وعدت مدينة اللاذقية أكبر مخزن لهذا النوع من البضائع، والتي تصل إليها من الشمال ومن آسيا الوسطى بطرق مختلفة، حيث كان هذا النوع شائع الاستخدام في العصور الوسطى وخاصة أوروبا⁽¹²⁴⁾.

من المرجح هنا أن اللطقص الذي شهدته أوروبا في الشتاء، كان له تأثيره على نوع السلع التي دخلت دائرة التجارة، فلشدة البرودة التي شهدتها أوروبا تماثلت على طلب الفرو القادم من آسيا حتى يكون من عناصر الدفء، وخاصة عند بقعة الشتاء والإقطاعيين.

وقد كان لمنتج الشب Olum أهميته في دائرة تصدير السلع من الساحل الشامي إلى مختلف المدن الأخرى، وقد أدرك البنادقة قيمة تلك السلعة، فأحتكروا تجارتها من المسلمين، ومنهم تاجرين كبيرين أحدهما يدعي نيكولاس من مدينة سانتو Nicholas Santo Siro، والآخر وهو شقيقه ويدعي بونيفاس من موليندينو Bonilace Of Molendino، حيث احتكروا تجارة الشب، وفرضوا على سلطان الممالك عدم بيع هذا المنتج لغيرهم⁽¹²⁵⁾.

كان من ضمن الصناعات التي ازدهرت ودخلت دائرة التصدير، هي صناعة المجوهرات فعندما استولى الصليبيون على بيت المقدس وجدوها تحتوي على كميات من الذهب والفضة سوى المجوهرات⁽¹²⁶⁾، فبلغت هذه الصناعة زمن الحروب الصليبية درجاً بعيداً من الإتقان والإحكام بحيث كان تجار الصليبيين يقومون بشرائها ويحملونها إلى أوروبا⁽¹²⁷⁾، بل اشتهرت مدينة نابلس بصنع عجول ذهبية تهاقت عليها الحجاج⁽¹²⁸⁾.

وعن طريق المقارنة بين المجوهرات والشب، نجد أن المجوهرات كانت تصنع تحت الطلب ولطبقة محددة وهي طبقة الأثرياء والأمراء، والتي اعتبروها من مظاهر قوتهم وترفعهم، أما الشب فقد دخل في العديد من الاستخدامات مثل صناعة الأدوية، وحفظ الأطعمة وغيرها من الصناعات الأخرى، والتي أدت إلى انتشارها أكثر من المجوهرات، بل وبشمن أقل من المجوهرات.

ونجد هنا كثير من نبلاء الصليبيين طلبوا من جواهر جينين من أبناء بلاد الشام، أن يصنعوا لهم ما يحتاجون إليه من حلي، وأنية كنسية عديدة كانت ثمينة بما رصعت به من ذهب وفضة⁽¹²⁹⁾، وقد أنصبت جماعات غنية من التجار على استيراد تلك المجوهرات نظراً لقيمتها⁽¹³⁰⁾، واهتم تجار المسلمون بالأحجار الكريمة التي دخلت في تلك الصناعة ومنها المرجان الذي كان مرتفع الثمن ومتغير في الشرق عن الغرب⁽¹³¹⁾.

يتضح لنا هنا مظاهر التأثير الصليبي بحياة المسلمين من الترف الذي عاينوه في الشرق المسلم وذلك من خلال المجوهرات التي كان يرتديها نساء المسلمين وتأثر نساء الصليبيين بهم، مما أدى إلى تزايد الطلب على شراء الأحجار الكريمة في الشرق والمستعمرات الصليبية وإرسالها إلى الغرب الأوروبي.

عرف الصليبيون صناعات متقدمة لم تكن مألوفة لديهم في أوروبا، ومنها صناعة الورق الذي اشتهرت طرابلس بصناعته منذ العصر الأموي، واستمرت تلك الصناعة حتى بعد احتلال الصليبيون لها، وعرف الورق الطرابلسي بجودته ودخل في منافسة قوية مع⁽¹³²⁾، الورق

الدمشقي والحلبى في الظهير الشامي (133).

من المتصور أن الورق لم يكن مألوف في أوروبا في ذلك الوقت، عدا المنطقة الإسلامية الممتدة في الأندلس، لذلك عندما استعمر الصليبيون منطقة الساحل الشامي، وجدوا الورق ينتج ويستخدم بوفرة، فأثر الصليبيون نقله إلى أوروبا حتى يتم استخدامه هناك، بدلا من استخدامهم للجلود في عملية التدوين، سواء في المراسلات الرسمية، أو في الاستخدامات الأخرى.

لم يكتف الصليبيون بمجرد شراء السلع وتصديرها لأوروبا، بل أتهجوا إلى الزراعة داخل مستعمراتهم حيث استفادوا من الأمطار في زراعة الأراضي⁽¹³⁴⁾، وقد استفاد الصليبيون من طرق المسلمين الزراعية مقارنة بأساليبهم⁽¹³⁵⁾، لذلك نجد سكان الضياع من المسلمين⁽¹³⁶⁾، والمدن الرئيسية بأيدي الصليبيين⁽¹³⁷⁾، وقد ترتب على النشاط الزراعي⁽¹³⁸⁾، للصليبيين قيام صناعات متعددة⁽¹³⁹⁾.

من الجلي بين أن الصليبيون عملوا على استخدام الفلاحين المسلمين في زراعة الأراضي التي قاموا باحتلالها، وذلك لخبرة الفلاحين بطبيعة الأرض الزراعية التي عاشوا عليها لزمين طويل، وأيضا معرفتهم بأساليب الري السليمة لتلك الأراضي.

ومن أهم الصناعات التي قامت على المنتجات الزراعية هي صناعة النبيذ، ومن أجلها توسع الصليبيون في زراعة أشجار الكروم للإفادة منه في صناعة النبيذ الذي تميز بوجودته، وأشهره النبيذ البيروتي، وقد دخل هذا النبيذ في الشعائر الدينية⁽¹⁴⁰⁾، ومن أجل ذلك أقام الأوروبيون منشآت لاستغلال الأراضي بزراعة الحقول، وتأجيرها للقادمين الجدد من أوروبا⁽¹⁴¹⁾.

ويلاحظ أن الأراضي الساحلية كانت خصبة، ولم تستغل لفترات طويلة، فكانت مثل الأراضي البكر التي تنتج إنتاج غزير، لذلك وصفها الرحالة بالخصوبة الشديدة، وكثرة مزارعها التي أتقنها المستوطنين من الصليبيين، وخاصة في زراعة الكروم الذي دخل في صناعة النبيذ، حيث أقبل عليه الحجاج المسيحيون من أجل استخدامه في صلواتهم.

ومن المنتجات الزراعية التي لاقت إقبالا في زراعتها أو تصنيعها، قصب السكر الذي وجده الصليبيون منتشرا في الأراضي الزراعية على طول الطريق الساحلي، وقد نقله الصليبيون وطرق زراعته إلى أوروبا⁽¹⁴²⁾، وقد حرص الصليبيون على تصنيعه في مدن الساحل مثل صور وعكا وبيروت⁽¹⁴³⁾.

الجدير بالذكر أن قصب السكر لاقى إقبالا كبيرا عند الصليبيين، وخاصة أثناء فترة الحملة الصليبية الأولى، حيث وجدوه يتشرب بكثرة على امتداد الطريق الساحلي من أنطاكية وحتى بيت المقدس، فأستحسنوه وقاموا بتعلم زراعته، بل وتصديره إلى أوروبا.

ويلاحظ أن الزراعة عدت مصدرا مهماً لدى الصليبيين، فقد لجأ الصليبيون إلى انتزاع مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية وتوزيعها على كبار الأمراء والفرسان ورجال الدين حتى يقوموا بزراعتها⁽¹⁴⁴⁾، ولم تترك الأراضي على حالها، فقد أدخل الصليبيون تطورا في تنظيم تلك الأراضي، حيث قاموا بتقسيمها إلى وحدات محروثة عرفت كل واحدة باسم كاريوكا Carruca أو كاريوكات Carrucate⁽¹⁴⁵⁾، وهي تساوي أربعة آلاف متر مربع⁽¹⁴⁶⁾.

من الجدير بالذكر أن رجال الدين الذين من المفترض انشغالهم بالأمور الدينية، شغلهم أمور أخرى دنيوية مثل الزراعة والتجارة، ونافسوا بذلك رجال التجارة رغبة منهم في الحصول على الأموال التي سعى وراءها الغرب الأوروبي حينذاك.

مع تزايد عدد القادمين من أوروبا في بعض الأحيان إلى المستعمرات الصليبية أدى ذلك إلى التوسع في زراعة المحاصيل التي دخلت في الاستخدام اليومي، وانتقلت أيضًا إلى أوروبا ومنها⁽¹⁴⁷⁾، محصول الزيتون والذي انتشر في مناطق كثيرة من بلاد الشام ومنها مدينة نابلس وهي تعد من أكثر مدن بلاد الشام إنتاجا لمحصول الزيتون⁽¹⁴⁸⁾.

قامت على محصول الزيتون عدة صناعات منها صناعة الزيت الذي يستخرج من الزيتون وصناعة الصابون ذو الجودة العالية⁽¹⁴⁹⁾، وانتشرت تجارة الزيت الذي كثر إنتاجه وأشهر أنواعه زيت ركابي وقد صدر هذا الزيت إلى العراق حيث كثر استهلاكه⁽¹⁵⁰⁾، وقد شاركت مدن الظهير

في زراعة محصول الزيتون ومنها معرة النعمان التي اعتمدت في زراعته على مياه الأمطار والآبار⁽¹⁵¹⁾.

أقبل الصليبيون على زراعة محصول الزيتون، من أجل استخراج الزيت منه، وتصديره إلى أوروبا، وأيضًا من أجل أن يتبركوا بهذا الزيت الذي استخدمه السيد المسيح، ولأهميته الاقتصادية حيث دخل في العديد من الصناعات المختلفة التي دخلت في الاستخدام اليومي مثل صناعة الصابون.

أدرك الصليبيون طبيعة الساحل الشامي وما يتمتع به من مميزات ومنها أنه يتجمع بالقرب منه الكثير من الأسماك⁽¹⁵²⁾، وقد مارس الصليبيون حرفة الصيد من بداية ظهورهم في منطقة الساحل حتى يسد شيء من احتياجاتهم⁽¹⁵³⁾، وتمتعت منطقة الساحل بعدة مصايد هامة منها بحر سدوم (البحر الميت)، وبحيرة طبرية، واحتوت على نوع من الأسماك وهي سمكة الشبوط التي تعلق بها المسيحيون لأن السيد المسيح أكل منها⁽¹⁵⁴⁾.

كما عدت مدينة صيدا من مناطق صيد الأسماك التي تكثر في فصل الربيع، حيث تشدت الرياح في ذلك الفصل وتتصارع الأمواج فتكثر حركة الأسماك في تلك المنطقة⁽¹⁵⁵⁾، وضمّت المصايد الهامة في الساحل بحيرة أفاميه وهي بحيرة كبيرة بالقرب من نهر العاص ويكثر بها نوع من الأسماك شبيه بالحيات يسمى أنكليس لحمه شبيه بالآليه المشويوه وكان يحمل في السفن إلى مختلف الأنحاء⁽¹⁵⁶⁾.

والواقع أن المسيحيين تأثروا بما قام به السيد المسيح، والأماكن التي قام بزيارتها والطعام الذي تناوله، ومنه السمك الذي يسمى الشبوط الموجود ببخيرة طبرية، ويدل ذلك أن الججاج ساهموا في رواج حركة تجارة الأسماك بها لها من مكانة دينية عندهم.

على الرغم من أن الصليبيين تدخلوا في صناعات كثيرة للتصدير، إلا أنهم استعانوا بعناصر من العمال المحليين من سكان المدن للعمل في الصناعات الزجاجية⁽¹⁵⁷⁾، وأهمها صناعة الزجاج الصافي الذي يتم تصنيعه من خلال استخراج رمل البحر واشتهرت بها مدينة صور⁽¹⁵⁸⁾، كما

ازدهرت في مدينة صيدا تجارة التحف الزجاجية والحزفية التي أقبل عليها التجار⁽¹⁵⁹⁾.

اهتم الصليبيون بالصناعات المعدنية والمواد الخام التي نشأت في منطقة الخليل، وصناعة الأملاح التي قام بها الصناع في الخليل على الرغم من أنها منطقة برية، إلا أنه كان للبدو والعناصر الشامية الداخلية الأخرى دورا مهما في احتكار تجارة الأملاح ونقلها إلى المنطقة الساحلية⁽¹⁶⁰⁾، وضمت الصناعات الصلبة صناعة الرخام الذي اشتهرت به مدينة الرملة حيث تعددت ألوانه وأنواعه⁽¹⁶¹⁾.

وقد قامت دمشق بتصدير الشموع الضخمة، التي كانت تفوح منها الروائح العطرة عند إشعالها، حيث لاقت إقبالا منقطع النظير في مملكة بيت المقدس الصليبية، وتم استخدامها في كل الكنائس اللاتينية في بيت المقدس وبيت لحم وغيرها من المدن الساحلية الشامية الأخرى⁽¹⁶²⁾.

من المرجح أن إقبال الحجاج على السلع الشرقية الأخرى، جعلهم يقبلون على استخدام تلك الشموع في الكنائس أثناء أداء صلواتهم، بل وأخذها معهم إلى الكنائس في أوروبا، على أساس أنها قادمة من الشرق.

بل لقد أقبل المسلمون على استخدام تلك الشموع، وقد ظهر ذلك في أثناء المواكب السلطانية، ومن ذلك عندما قام السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بالخروج من قلعة الجبل إلى دمشق، ثم من دمشق إلى مصر، حيث أمر جميع أهل الأسواق على طول الطريق أن يخرج ل واحد منهم ويده شمعة موكبية، ووقفوا من باب النصر إلى مسجد القدم، فعندما ركب السلطان أشعلت تلك الشموع دفعة واحدة، فسار بينها حتى نزل تخيمه⁽¹⁶³⁾.

يلاحظ أن الشموع لاقت إقبال كبير من جانب كل من المسلمين والصليبيين على حد سواء، وذلك حيث استخدمه المسلمون في المواسم الدينية والأعياد، وأيضًا عند خروجهم لمقابلة السلاطين، أما بالنسبة للصليبيين فقد حرصوا على استخدام تلك الشموع في الكنيسة أثناء تأديتهم لعباداتهم.

عرف غرب أوروبا منتجات الخضروات الشامية المتعددة، ومنها نبات السبانخ والخرشوف والباذنجان⁽¹⁶⁴⁾، كما زرعت في غزة نبات الجميز الذي لاقى شهرة جيدة⁽¹⁶⁵⁾، وقد لاحظ الصليبيون نوع من الفاكهة وهو الخروب لحلاوة مذاقها وشهية طعمها، وقد أقبل عليها الصليبيون لتوفرها في الأسواق⁽¹⁶⁶⁾، كما زرعت في مدينة طرابلس أشجار الموز الذي سمي بتفاح الجنة⁽¹⁶⁷⁾، وقد كانت تفوح الرائحة من القوافل التي تمر بالمدن بسبب ما تحمله من فاكهة طازجة⁽¹⁶⁸⁾.

نظرًا لما تمتعت به المنطقة الساحلية من خصوبة التربة وأهمها نوع من التربة يسمى بالتربة الحمراء⁽¹⁶⁹⁾، حيث صدرت تلك التربة إلى مصر لكي تباع هناك بسعر مرتفع لأنها استخدمت كدواء لبعض الأمراض⁽¹⁷⁰⁾ والمرجح أنها كانت أمراض جلدية، واستمرت التجارة في ذلك النوع من التربة وبكميات كبيرة نظرًا لتجدها دائمًا كل عام⁽¹⁷¹⁾.

على الرغم من أن حركة الصادرات لم تتوقف بين الساحل الشامي، وأقطار البحر المتوسط المختلفة، إلا أنه وجدت بعض المعوقات أثرت في تلك الحركة، وهي تنقسم إلى ظواهر طبيعية ومنها الجراد الذي كثر ظهوره ببلاد الشام⁽¹⁷²⁾، فكانت له أثار سيئة بل ومدمرة على المحاصيل الزراعية مما دفع سلاطين المسلمين وملوك الصليبيين إلى التصدي لتلك الحشرة المدمرة⁽¹⁷³⁾.

بجانب هذا الجراد ظهر الفأر الذي كان يأكل الغلال ويخرب محصولها، مما كان يؤدي إلى ارتفاع أسعارها⁽¹⁷⁴⁾، ويضاف إلى ذلك الأوبئة التي تقع بالمنطقة الساحلية فتصيب الماشية والحيوانات، وتفسد على أثارها الآبار⁽¹⁷⁵⁾، فأثر الصليبيون التماس الهدن حتى يصلحوا من أوال الأراضي التي يحتلوها⁽¹⁷⁶⁾.

من الواضح أن تلك الحشرات الضارة تأثر بها كل من المسلمين والصليبيين على حد سواء وخاصة في الناحية التجارية التي كانت تهم كلا من الطرفين، فكانوا يواجهون تلك الحشرات بمحاولة القضاء عليها وعقد الهدن فيما بينهم حتى يتسنى لهم ذلك.

ومن ناحية أخرى كان للزلازل نشاطها الفعال في توقف حركة الصادرات، وقد أصيبت

المدن الساحلية التي ضربها الزلزال بالشلل نتيجة مظاهر التخريب والدمار الذي تلحقه تلك الزلازل بالمدن، وأثر ذلك بالتالي في القوة الشرائية لهذه المنتجات وحدوث انخفاض لها وفي أعداد المستهلكين لتلك السلع في المنطقة الساحلية⁽¹⁷⁷⁾.

العامل الثاني في اضطراب حركة الصادرات بالساحل الشامي، هو عامل بشري، فقد سيطرت المدن الإيطالية البحرية منذ الحملة الصليبية الأولى على سواحل بلاد الشام، مارست حركة التجارة⁽¹⁷⁸⁾، بالإضافة إلى دخول مدن تجارية إيطالية وفرنسية وإسبانية أقل مستوى تجارياً لتلك الفترة حتى عام 1187م / 583هـ، حيث وصلت نشاطها إلى أقصاه في تلك المنطقة⁽¹⁷⁹⁾، حتى جاء زلزال حطين واستردت المدن الإسلامية من الصليبيين عمل صلاح الدين على إلغاء امتيازات المدن التجارية التي وقعت بجانب الصليبيين في معركة حطين⁽¹⁸⁰⁾.

جدير بالذكر هنا أن صلاح الدين بعد قيامه باسترداد المدن الإسلامية، فرق بين المدن التي وقعت ضده في الحرب وبين المدن التي اتخذت موقف الحياد بين الطرفين، مما أدى إلى إلغاؤه لامتيازات المدن المعادية وإبقائه على امتيازات المدن التجارية الأخرى.

بعد أحداث الحملة الصليبية الثالثة استمر البنادقة في ممارسة النشاط التجاري في كل من صور وعكا وأنطاكية وطرابلس، حيث قاموا بالتعامل مع التجار المحليين، الذين كانوا يعتمدون عليهم في نقل البضائع من الظهر الشامي إلى المنطقة الساحلية⁽¹⁸¹⁾، غير أن تلك الأوضاع تغيرت مع مجيء القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، فقد أحدث سقوط القسطنطينية على أيدي البنادقة عام 1204م / 601هـ خلافاً كبيراً بالسوق البيزنطية والشامية، واستولت البندقية على نصيب الأرباح الأكبر⁽¹⁸²⁾.

وفي سبيل تحقيق تلك الأرباح الكبيرة، وفرض البندقية سيطرتها البحرية في شرق البحر المتوسط، فقد عملت على مساندة قوافلها التجارية بأسطول حربي، حتى تستطيع إرسال المساعدات إلى مستعمراتها في الشرق، ولكي تهاجم سواحل ومستعمرات المدن الأخرى المنافسة لها تجارياً⁽¹⁸³⁾.

لم تقف مدينة جنوا المنافس التقليدي للبندقية مكتوف الأيدي، فقد حاولت احتلال جزيرة كريت التي اشترتها مدينة البندقية، حيث مثلت كريت محطة رئيسية وحيوية على الطريق التجاري البحري الذي يصل بين كل من مصر ورومانيا ومدن الساحل الشامي، والتي مثلت نقطة انتظار ومحطة تموين للمدن التي تقع غرب البحر المتوسط في طريقها إلى الشرق وبالعكس⁽¹⁸⁴⁾.

يلاحظ أن الصراع الجنوبي البندقي في البحر المتوسط، ترك أثرا كبيرا وخطير على مسير الحركة التجارية، فلم يكتفي الطرفان بحيز صراعهما في الساحل الشامي وموانئه، بل امتد الصراع إلى السيطرة على الجزر والطرق المؤدية إليه لتحقيق أكبر مكاسب تجارية.

استمر الصراع البندقي الجنوبي فترة طويلة، حتى عام 1261م / 659هـ وهو العام الذي مثل كارثة تجارية كبيرة للبنادقة الذين تم طردهم من القسطنطينية، فكان عليهم أن يقوموا برحلات استكشافية للوصول لمناجح تجارة الشرق⁽¹⁸⁵⁾، وظهرت في الأفق مع حلول منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، بوادر غزو مدمر بدأت في الشرق الأقصى ضد كل من العرب والمسلمين فيما عرف بالغزو المغولي⁽¹⁸⁶⁾.

وصلت الجيوش المغولية للعراق واستولت على بغداد 1258م / 656هـ مما أدى إلى توقف الطرق البرية للقوافل القادمة من وسط آسيا إلى غربها بالساحل الشامي، وتركزت الطرق التجارية بين الشرق والغرب في طريق البحر الأحمر ومصر المملوكية جنوبا من ناحية وطريق طرابزون شنالا بآسيا الصغرى من ناحية أخرى، وبذلك تأثرت تجارة المدن الأوروبية بالساحل الشامي⁽¹⁸⁷⁾.

الجدير بالذكر أن الغزو المغولي لوسط وغرب آسيا أدى إلى اضطراب في طرق التجارة المارة بتلك المنطقة، مما أدى بدوره إلى خوف التجار من ارتياد تلك الطرق خوفاً على تجارتهم من السلب والنهب على أيدي المغول وقطاع الطرق، فساعد ذلك على تعطل حركة التجارة بتلك المنطقة.

جاءت حالة الضعف في الحركة التجارية مع سقوط المدن الساحلية الشامية على يد داوية

الإسلام وهم المالك، وقد قاموا بذلك خوفاً من قدوم حملات صليبية جديدة على السواحل الشامية التي كانت تحت احتلالهم، فخربوا حصونها ودمروا أسوارها، وتم تدمير كل من عكا وصور وصيدا وغيرها، ومحت طرابلس تماماً وتم نقل أهلها إلى الظهير الداخلي، فأثرت تلك الضربات على مجرى الحياة الاقتصادية⁽¹⁸⁸⁾.

من الجدير بالذكر أن حركة الصادرات من الساحل الشامي إلى الغرب الأوروبي ومدن البحر المتوسط، تأثرت كثيراً بما يدور على الساحة السياسية من معارك بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، فقد نشطت مع فترات الهدوء والهدن التي عقدت بين الطرفين، وكان للعوامل الطبيعية تأثيرها القوي على سير تلك الحركة.

وقد تمثل العامل الأكثر أهمية في توقف حركة الصادرات وهو الاتجاه إلى شراء السلع التي كانت تصدر عن طريق مدن الساحل الشامي إلى المدن الأوروبية المختلفة، من أماكن أخرى غير تلك الأراضي التي سيطر عليها سلاطين المالك، وتلك الأماكن هي بغداد Aldach، وطوريس Touris، عبر البحر المتوسط بحراً، ويرا عن طريق أرمينيا الصغرى، وبذلك حتى يتم إضعاف قوة سلاطين المالك اقتصادياً⁽¹⁸⁹⁾.

لجأ الغرب الأوروبي إلى محاربة المسلمين حرباً اقتصادية عنيفة، خاصة بعد طرد بقايا الصليبيين من بلاد الشام، ولذلك بدأ البحث عن أماكن بديلة أخرى لشراء السلع التي كان يحصل عليها من مدن الساحل الشامي، والقيام بمحاولات للتوغل داخل قارة آسيا، من أجل الوصول لمنابع السلع التجارية مثل الحرير والتوابل، ويلاحظ أن تلك الخطة كانت نقطة البداية لحركة الكشف الجغرافية، والدوران حول قارة أفريقيا من أجل الوصول للشرق الأقصى دون المرور في الطريق التقليدي في البحر المتوسط، ثم عبور الأراضي المصرية والشامية للوصول إلى تجارة البحر الأحمر.

أما فيما يتصل بسلع الواردات، فقد كان لها دور بارز في الحركة التجارية، وبدأت تلك السلع في الوصول للساحل الشامي في وقت مبكر من الغزو الصليبي لبلاد الشام، فأثناء الحصار الذي

فردته الجيوش الصليبية الغازية لمدن الساحل الشامي، كانت السفن التجارية الإيطالية والبيزنطية تقدم المنح والمساعدات لتلك الجيوش الغازية في أثناء حصارها للمدن الساحلية الشامية واستيلائها عليها⁽¹⁹⁰⁾.

من المؤكد أن سلع الواردات قد سبقت سلع الصادرات في الحركة الاقتصادية التي قامت في الإمارات التي أسسها الصليبيون، وذلك لحاجة الصليبيين في مرحلة ميكرة من استعمارهم للمدن الساحلية الشامية إلى دعم الوطن الأم في أوروبا لهذا الجنين الوليد الغير شرعي في منطقة غير منطقتة، مما أدى إلى مسارعة المدن الأوروبية لنقل الدعم إليه.

في بادئ الأمر كانت الأرض التي استولى عليها الصليبيون فقيرة من الناحية السكانية، وقد ظلت تلك مشكلة تؤرقهم فترة طويلة حتى طردهم من بلاد الشام، فكان الحجاج يأتون في سفن منفردة أو في أسطول صغير من ثلاث أو أربع سفن، فيصلون إلى بيت المقدس ويزورون قدس الأقداس، ويبقى منهم القليل ويغادر الآخرون⁽¹⁹¹⁾.

ومن أهم السلع التي كانت تأتي للساحل الشامي هي العبيد، والتي أقبل عليها سلاطين المسلمين وخاصة الأيوبيين والمماليك الذين قاموا بشرائهم بأعداد كبيرة، وقد ازدهرت تجارتها في ذلك الوقت، حيث كانت الجيوش الإسلامية في حاجة شديدة إليهم لكي يتم تجنيدهم⁽¹⁹²⁾.

تجدر الإشارة أن الأوضاع في تكوين الجيوش الإسلامية قد تغيرت كثيرا، فبعد أن كان العرب هم العصب الأساسي لتكوين الجيوش الإسلامية، ومع توسع إمبراطورية الإسلام ظهرت عناصر جديدة دخلت في تكوين تلك الجيوش، ومنها أهالي المدن التي فتحها المسلمون، وبعد ذلك تطور الوضع حيث قام الخلفاء والسلاطين بشراء العبيد من الأسواق المختلفة، وعملوا على تعليمهم الدين الإسلامي، وتدريبهم على حمل السلاح وتنشئتهم نشأة عسكرية.

تركزت تجارة العبيد في أيدي التجار البنادقة والجنوية، الذين أثروا ثراء فاحشا من جراء مزاولتها، بل لقد وصل مندوبين عنهم إلى البلاد البعيدة حتى بلغوا بلاد ما وراء النهر⁽¹⁹³⁾، وقد كانت تلك التجارة بأيدي اليهود والسوريون، حيث قاموا بجلب العبيد من روسيا وبولندا

وألمانيا، وتصديرهم إلى بلاد الشام حيث أقبل السلاطين على شرائهم⁽¹⁹⁴⁾.

ومع مجيء الصليبيين لبلاد الشام سيطرت المدن الإيطالية على تلك التجارة، وقاموا بجلب الرقيق من الموانئ الفرنسية إلى الشرق المسلم⁽¹⁹⁵⁾، وقد تصدرت مدينة اللاذقية لتلك التجارة وأبحت مركزا لها في عصر الاحتلال الصليبي لها، حيث استقبلت الرقيق القادم من البحر والقادم من آسيا الصغرى وروسيا وأرمينيا⁽¹⁹⁶⁾، وقد عقدت أسواق نشطة للعبيد، حيث تجمع بها التجار الإطالين لشراء الأسرى من المسلمين والمسيحيين، ولأن تعاليم المسيحية حرمت استبعاد المسيحيين، غير أن تجار العبيد أهملوا ذلك القانون⁽¹⁹⁷⁾.

من المرجح أن بريق الشراء السريع، الذي نتج عن تجارة العبيد بالشرق الإسلامي، وبالساحل الشامي على وجه الخصوص، فقد تغاض التجار الأوروبيون عن الكثير من تعاليم المسيحية التي أعلنت تحريم استبعاد المسيحي للمسيحي، وذلك سعيا وراء المكسب المادي العائد عليهم من تلك التجارة.

وقد تحدت الطلبات على بعض الجنسيات التي زادت عليها الطلب في الساحل الشامي، ومنها عنصر الصقالبة والسلاف الذين زينوا قصور الخلفاء والسلاطين وخاصة الجوارى منه⁽¹⁹⁸⁾، وجاء في المرتبة الثانية الرقيق الأسود، حيث امتلكت معظم زوجات النبلاء من الصليبيين عددا من الجوارى السود، حيث كان يتم جلبهن من الحبشة إلى ميناء جدة، ثم يتم نقلهم إلى بلاد الشام⁽¹⁹⁹⁾.

من الملاحظ أن العبيد والجوارى كانت لهم أهمية كبرى، حيث حرص الملوك والأمراء على شراء أنواع معينة كانت تظل قابضة في قصور السلاطين والأمراء، حيث قاموا بإهدائهم إلى من يريدون، ومن أجل أن يزهروا لمن يحضر إليهم من الرسل مظاهر القوة والترف.

جاءت تجارة الأسلحة في المركز الثاني من سلع الواردات إلى الساحل الشامي، فقد قامت المدن التجارية الإيطالية بلعب دور مهم في تجهيز المسلمين بالمواد الاستراتيجية التي اعتمدوا عليها في مواجهة الصليبيين⁽²⁰⁰⁾، وأهم تلك المواد هي الأخشاب وخاصة الخشب الذي

استخدم في صناعة السفن وآلات الحصار⁽²⁰¹⁾، فعلى الرغم من وجود غابات في الأراضي الإسلامية، غير أنها لم تمتاز أخشابها بالمتانة والصلابة اللازمين لبناء السفن والآلات الحربية حيث تم استيرادها من أوروبا⁽²⁰²⁾.

وقد قام صلاح الدين باستغلال تلك الأخشاب القادمة في صناعة أسطول واجه به أسطول أرناط عندما قام بعملياته العسكرية في الحجاز في البحر الأحمر⁽²⁰³⁾، وحرص حكام المدن الساحلية الشامية من الصليبيين على عقد الهدن في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، مع سلاطين المماليك لكي تستمر تجارة الواردات وتكثر الأجلاب، ومنهم أمير كل من يافا وصاحب بيروت⁽²⁰⁴⁾.

يلاحظ أن تجارة الأسلحة والأشخاب كانت لها تأثير على المسرح السياسي والعسكري، فقد تمكن المسلمون عن طريق استيراد احتياجاتهم من هذه السلع المهمة، أن يقاوموا بها أسلحة الصليبيين التي واجهتهم، بل أيضًا اخترعوا أسلحة جديدة في وقت شهد فيه سباق للتسلح بين الطرفين.

مع استمرار العمليات العسكرية التي وقعت بين المسلمين والصليبيين من جهة، والصراعات التي تقع بداخل المعسكرين من جهة أخرى، أدت إلى نشاط التجار الأوروبيين في عملية بيع الأسلحة إلى كل من الفرق المتنازعة، حيث ربح هؤلاء التجار من وراء ذلك أموال كثيرة⁽²⁰⁵⁾، ولذلك كانت الحروب الصليبية بمثابة نقطة تحول كبيرة في تاريخ أوروبا الاقتصادي⁽²⁰⁶⁾.

وبالمقارنة بين تجارة العبيد وتجارة الأسلحة، نجد أن تجارة العبيد مثلت أهمية كبرى بالنسبة للمماليك الذين حرصوا على تدعيم جيوشهم بتلك العناصر التي ضمنوا ولائها، حيث قاموا بشرائهم وتربيتهم تربية عسكرية، مع تعليمهم للشريعة الإسلامية، في حين نجد أن تجارة الأسلحة جاءت في المرتبة الثانية حيث عمل المسلمون على تصنيع الأسلحة من المواد المتوفرة لديهم، والتي كان نقصها لم يمثل لهم مشكلة كبيرة، حيث أمتلك المسلمون الكثير من الأراضي

الشاسعة المساحة، التي وجدت بها العديد من الغابات، حيث أخذوا منها الأخشاب التي دخلت في صناعة الأسلحة وأدوات الحصار والأساطيل البحرية، ومن جانب آخر شملت تلك الأراضي العديد من المناجم التي أخذوا منها الكثير من المعادن التي دخلت في استخدامات عديدة.

وحظت تجارة المعادن مكانة كبيرة في الساحل الشامي، وأهم تلك الواردات من المعادن هي الفضة، وهي معدن أمكن للتجار الغربيين تقديمها للعالم الإسلامي، وقد حدث سوء للفهم بالنسبة لمعدن الفضة الذي استخدم في سك العملات، على أنه علامة للضعف الاقتصادي للدولة، ومع ذلك فقد استخدمت الفضة بشكل كبير بجانب الذهب في سك العملات، ولم يؤثر ذلك من قيمة الاقتصاد⁽²⁰⁷⁾.

من الملاحظ أن معدن الفضة الذي كان يعتقد أنه علامة من علامات الضعف الاقتصادي، إلا أن معدن الفضة دخل في كثير من الصناعات مثل سك العملة وصناعة المجوهرات والتحف الخشبية.

ودخلت معادن أخرى في الأهمية الاقتصادية ومنها معدن النحاس، وقد اشتهر منه نوعان الأحمر ولا يرى في أماكن إنتاجه اختلاف، أما النوع الآخر وهو الأصفر فإنه يختلف بحسب الأماكن التي يستخرج منها، وأفضل أنواعه الذي جلب من الأندلس حيث برع الصناع في صنعه وتشكيله، ونال الزئبق أيضاً شهرة كبيرة لدخوله في العمليات الكيميائية، وأفضل أنواعه الذي تم جلبه من مدينة طليطلة بالأندلس⁽²⁰⁸⁾.

ومن السلع التي لعبت دوراً مزدوجاً في الصادرات والواردات، وهي الأقمشة التي قام الجنوبيون بتصديرها إلى الساحل الشامي⁽²⁰⁹⁾، حيث لعبت سلعة الأقمشة دوراً مهماً في الاقتصاد المحلي لجنوا، ولذلك ساهمت النساء أيضاً في تلك التجارة لأهميتها الاقتصادية⁽²¹⁰⁾، ولقد اشتهرت مدينة المرية الأندلسية بتجارة المنسوجات الحريرية التي صدرتها إلى الساحل الشامي⁽²¹¹⁾.

يبدو أن الأقمشة التي كانت ترد إلى الساحل الشامي تم لها إعادة تصنيع مرة أخرى على النظم الشرقية، لمهارة الصانع الشاميين الذين برعوا في ذلك المجال، أو أن ذلك الحرير تم تصديره للساحل الشامي كمادة خام فدخل في تصنيع الحرير، ثم عاد تصديره مرة أخرى إلى أوروبا.

نظرا لزيادة إعداد الحجاج القدمين لبلاد الشام، لم تكن المواد الغذائية تكفي حاجاتهم، فكانت تأتي احتياجاتهم من الخارج ومن ذلك الأسماك التي كانت بمثابة طعام شعبي لأهل الساحل، فكان يتم استيراد السمك البوري من مدينة دمياط المصرية حيث كثر بسواحلها⁽²¹²⁾، بالإضافة إلى واردات السفن التجارية الأوروبية للأسماك من غرب أوروبا حيث مراكز تجمع الأسماك ومسار رحلتها إلى الشرق، وخاصة في المراحل الأولى من الاستيطان الصليبي بالساحل الشامي⁽²¹³⁾.

احتاج الساحل الشامي إلى الكثير من المواد الغذائية التي كانت تأتيه من الخارج مثل الحنطة التي كانت تأتيه في سفن خاصة مع الحجاج⁽²¹⁴⁾، بالإضافة إلى القمح الذي استخدم من كلا الجانبين الإسلامي والصليبي⁽²¹⁵⁾، بل إن الزيت والعسل والعلف الذي خصص للماشية أصبح من الواردات المهمة للمنطقة الساحلية الشامية⁽²¹⁶⁾، ودخلت بعض السلع التي لم تكن مرغوبة في العالم الإسلامي واقتصرت على الأراضي التي سيطر عليها الصليبيون ومنها لحم الخنزير المملح والذي مثل سلعة مهمة لهم⁽²¹⁷⁾.

لم تتأثر المدن الساحلية الشامية بتصدير المنتجات الآسيوية فقط، بل استقبلت المنتجات القادمة من إفريقيا ومنها الشب الذي كان يوجد في مصر وتحمله القوافل إلى الأراضي الشامية، وقد لاقى نجاح كبير في الحركة التجارية لاستخدامه في الصباغة والطب حيث يستخدم لعلاج أمراض العيون وحفظ بعض الأطعمة وبخاصة اللحوم التي تفسد سريعا⁽²¹⁸⁾.

يرجح هنا أن الساحل الشامي أصبح نافذة لتصدير المنتجات الإفريقية التي كانت تأتيه بالقوافل عبر الطريق البري في سيناء الذي شهد صراعا إسلاميا صليبيا للسيطرة عليها لما به من

مميزات خطيرة.

دخل نبات البلسان وهو نبات مصري يزرع بالمطرية، ما تستورده مناطق الساحل الشامي من أفريقيا، والتي تسابق عليه التجار الأوروبيون لشراؤها، ونظرًا لأهمية هذا النبات فقد عين له سلاطين وحكام مصر من يحفظه ويحمّله إلى الخزائنة، ومنها يتم نقله إلى قلاع الشام والممارساتان لمعالجة المرضى، وقد تدخل ملوك وأمراء الصليبيين عند ملوك الإسلام لتأمين وصول ذلك النبات إليهم، لأنه يدخل في عملية التعميد ومعالجة مرض ارتخاء الأعصاب⁽²¹⁹⁾.

أتت في ذيل قائمة الواردات إلى الساحل الشامي، الثروات المالية التي أرسلها الغرب الأوروبي من أجل استعادة الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين على حد زعمهم، فقد كانت أموال وفيرة تكونت من مساهمات الأفراد والحجاج وغيرهم، ولاسيما منتجات الثروات الغربية للجياعات العسكرية والتي نقلت على ظهر سفنهم الخاصة، بالإضافة إلى تبرعات أخرى كثيرة عهد بها إلى التجار الإيطاليين⁽²²⁰⁾.

كان على التجار القادمين إلى الساحل الشامي أن يقيموا فترة طويلة في المدن الساحلة حتى يتمكنوا من بيع السلع التي أحضروها معهم إلى الساحل الشامي، وأيضًا حتى يجردوا شحنات السلع التي سوف يشترونها ويعودون بها إلى أوروبا، بل وفي طريق العودة إلى أوطان التجار، كانت القافلة التجارية تمارس التبادل التجاري في المدن التي تقف بها كمحطات في طريق العودة⁽²²¹⁾.

ومن الواضح أن الصليبيين في مدن الساحل الشامي في القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، لم يكن لهم الرغبة في قدوم حملات صليبية جديدة إلى المنطقة، فقد غلبت عليهم الصفة الشرقية، وأرتكنوا إلى حياة الخمول والبذخ، وأبدوا الرغبة في التعايش السلمي مع المسلمين، مما كان له أبعاد الأثر في ازدهار التجارة، وبمعنى أدق يمكن القول أن الروح الصليبية في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، حلت محلها الروح التجارية⁽²²²⁾.

لم تسلم سلع الواردات من المعوقات التي واجهتها وهي مثل المعوقات التي واجهت سلع

الصادرات، وخاصة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، السابع هجري، حيث الغزو المغولي لوسط وغرب آسيا، وبعد معركة عين جالوت وتولي بيبرس للسلطة، كان عند الجائنين المغولي والإسلامي خوف من بعضهما البعض لكون أي فريق منهم يرسل جواسيسه في هيئة تجار، ولذلك سعد بيبرس كثيرا لأنه استلم البضائع القادمة من الأراضي التي استولى عليها المغول (223).

وبذلك لم ترجع الحالة والنشاط التجاري بعد الغزو الغولي إلى سابق عهدها، بل اضطرت الحركة التجارية تماما، حتى التجار التركمان الذين حملوا السلع إلى المسلمين كانوا تحت هيمنة المغول (224)، وقد جاء طرد الصليبيين من الساحل الشامي عامل مهم في اختلال تلك الحركة مع الغرب الأوروبي، خاصة بعد تدمير موانئ الساحل الشامي (225)، بل لقد قام الملك هنري آخر ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية، بعد فراره إلى جزيرة قبرص، بتجميع أسطول صغير لكي يمنع به السفن القادمة إلى الساحل الشامي بهدف التجارة مع المسلمين (226).

من المرجح أن القرن الثالث عشر كان له خاصية، وهي أنه تغير في الخريطة السياسية في المنطقة، وحدث خلل كبير بالقوى الدولية، حيث سقطت الكثير من الممالك الإسلامية في وسط وغرب آسيا على أيدي المغول، مما أدى إلى إشاعة الفوضى والاضطرابات في الطرق التجارية، ويضاف إلى ذلك نشاط حركة الجهاد الإسلامي على أيدي المماليك، مما أدى إلى وجود فوضى في منطقة الساحل الشامي.

كان للبابوية دور مهم في إيقاف العلاقات التجارية مع المسلمين (227)، ففي عام 1179م / 575هـ (228)، عقد الباب إسكندر الثالث مجمع لاتران، وذلك بهدف تحريم التجارة مع المسلمين (229)، بل أنه مع فقد عكا والساحل الشامي رسميا أعلن الحرمان على الذين يذهبون إلى الأراضي الخاضعة للمسلمين أو يرجعون منها محملين بالبضائع، وقد شمل التحريم السفلة ويعتبرون محرومين من الوصية، أي أنهم لا يستطيعون أن يكتبوا وصيتهم (230).

أدرت البابوية مدى تأثير الحركة التجارية في الساحل الشامي على الحملات الصليبية،

حيث أدى ذلك إلى ظهور الفتور بين شعوب الغرب الأوروبي للقيام بحملات صليبية جديدة على الأراضي الإسلامية في بلاد الشام، فلم تتمكن تلك الحملات من تحقيق أغراض البابوية، لذلك نرى البابوية تقوم بإصدار قرارات حرمان ضد كل من يقوم بممارسة التجارة مع المسلمين.

وقد شمل هذا القرار رغبة الغرب الأوروبي في إعادة استعمار الأراضي المقدسة، ومن أجل ذلك تم حظر تصدير مواد الحرب إلى سلاطين المماليك والتي اشتملت على العبيد والسلع التجارية للمواني الشامية، وفرض سياسة عسكرية وإعلانها حرب اقتصادية، وتم بالفعل ممارسة هذا الحظر الذي أعلنته البابوية، وقامت دوريات بحرية بهدف منع السفن من حمل السلع إلى بلاد الشام⁽²³¹⁾.

مثل استعادة سلاطين المماليك للمدن الساحلية، وطرد بقايا الصليبيين من المنطقة الإسلامية، صدمة كبيرة أذهلت الغرب الأوروبي والبابوية على وجه الخصوص، حيث بذلت ما هو وسعها من أجل استعادة بيت المقدس، فأعلنت قرارات بالحرمان كل من تسول له نفسه بالإقدام على التجارة مع المسلمين.

استجابت الجمهوريات الإيطالية للقرارات التي أصدرتها البابوية بوقف الإنجاز مع المسلمين بالساحل الشامي، ومقاطعة تجارة المرور بين الشرق والغرب، والتي كان يستفيد منها المسلمين، وأرادوا بذلك ضرب اقتصاد سلاطين المماليك وحرمانهم من عائد مادي مثل عصب اقتصادهم وقوتهم ليسهل عليهم بعد ذلك هزيمة المماليك اقتصاديا وعسكريا بعد إفقادهم قوتهم البحرية الضاربة⁽²³²⁾.

من الملاحظ أن قرار المدن التجارية الإيطالية بالاستجابة للقرارات التي أصدرتها البابوية، كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى ضرب الاقتصاد الإسلامي، وخاصة في تجارة العبور التي تمتعت بها الأراضي الإسلامية، غير أن تلك الاستجابة كانت لفترة قصيرة، حيث بدأت الخسائر المالية تلحق بهم، مما أدى إلى معاودتهم لممارسة التجارة مع المسلمين مرة أخرى.

كانت استجابة المدن البحرية التجارية للقرارات التي أصدرتها البابوية لفترة قصيرة، فقد وجدوا أنه من الملائم والمريح لهم معاودة زيارة الموانئ السورية مرة أخرى حتى يتمكنوا من الإقامة هناك مرة أخرى، ولكي يجددوا العلاقات التجارية مع سلاطين الإسلام⁽²³³⁾.

الجدير بالذكر أن المدن التجارية الإيطالية، كانت عندها العاطفة الدينية أقل من حبهم للمال والتجارة، لذلك كانوا لا يلتزمون بقرارات الحرمان التي قامت البابوية بفرضها على كل من يتعامل مع المسلمين، وخاصتنا عندما لم تأتي الحملات الصليبية التي قامت بإرسالها إلى الساحل الشامي أهدافها.

وبالمقارنة بين المعوقات التي شهدتها كل من سلع الصادرات و سلع الواردات، نجد أنها كانت مشتركة فيما بينهم، فقد كان للظواهر الطبيعية من شهدتها منطقة الساحل الشامي، من المعارك بين المسلمين والصليبيين، بالإضافة إلى ظهور عدو جديد في شرق آسيا وهو المغول الذي أكتسح العديد من الممالك الإسلامية في غرب آسيا، كل ذلك أدى إلى اضطراب في حركة الصادرات والواردات.

خلاصة القول أن المدن الساحلية الشامية شهدت بروز عدد منها، وأصبحت بمثابة مراكز تجارية سواء للصليبيين أو المسلمين على حد سواء، بالإضافة إلى ذلك صدرت هذه المدن العديد من السلع التجارية، التي كانت تأتي من وسط آسيا عن طريق القوافل التجارية، أو السلع التي كانت تنتج في هذه المدن، وبجانب ذلك استقبلت تلك المدن الكثير من السلع التي أحضرها التجار الأوروبيون معهم من أوروبا من أجل التبادل التجاري.

أما فيما يتعلق بالأسواق في المدن الساحلية الشامية، وتقسيمها وتخطيطها، والتعرف على العناصر العاملة بها، بالإضافة إلى النظم المالية التي استخدمت في تلك الفترة، هذا ما سيتناوله الفصل التالي.

الهوامش

- (1) P.M.Holt, The Eastern Mediterranean Lands in The Period Of The crusades, Warminster, 1977, P 9.
- (2) Joshua Prawer, "Crusader cities", In: The Medieval city, Britain, 1987, P 180.
- (3) Frederic. C. Lane, Venice. A Maritime Republic, Massachusetts 1973, P70.
- (4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص143.
- (5) Anton Leopold, How To Recover The Holy Land, England 2000, P 185
- (6) عن الطرق الداخلية الموصلة داخل مناطق مدينة عكا، انظر خريطة رقم () () .
- (7) ابن جبير، الرحلة، ط. القاهرة 2000، ص240، ص241.
- (8) Johannes Phocas, A Brief Description Of The Holy Land, Trans By: Atewart, P.P.T.S. Vol. V, Landon 1896, P 11.
- (9) ابن جبير، المصدر السابق، ص241.
- (10) Phocas, Op.Cit, P11.
- (11) حاتم الطحاوي، القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد: 58، عدد: 4، ط. القاهرة، أكتوبر 1998م، ص483، ص484.
- (12) John E. La Mont, "Fleet Operations in The First Genoese – Venetian War, (1264-1266)", M.R.S, Vol.30, 1990, P 1,P2.
- (13) Fetellus, Description Of The Holy Land, Trans by: J. R. Macpherson, P.P.T.S, Vol. V, London 1897, P 49.
- (14) Theoderich, Description Of The Holy Places, Trans By: Aubrey Stewart, P.P.T.S, Vol. V, London 1897, P 60.
- محمد مؤنس، الرحالة الأوربيون، ص45 - ص51.
- (15) Urban Tignor, "Life Among The Europeans In Palestine And Syria In The Twelfth And Thirteenth Centures", In Setton, Vol. IV, London 1977, P6.
- (16) رنسان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ت. السيد الباز العربي، ط. بيروت 1980م، ص610.

- (17) Urban Tignor, Op.Cit, P 6.
- (18) Divid Abulafia, "Trade And Crusade", In cross Cultural Convergences In The Crusader Period, New York 1995, P 15.
- (19) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومعطاتها بين الشرق والغرب، ط. القاهرة 1973م، ص 118.
- (20) ابن جبير، الرحلة، ص 246.
- (21) ارنست باركر، الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العربي، ط. بيروت 1997م، ص 69.
- (22) جلال حسني سلامة، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ط. نابلس 1998م، ص 61-62.
- (23) Jacques De Vitry, History Of Jerusalem, Trans by A. Stewart, P.P.T.S, Vol. XI, London 1895, P 217.
- (24) جلال حسني، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ص 69.
- (25) Dotson, Fleet Operations, P 1.
- (26) Donald. M Nicol, Byzantium and Venice, London 1995, P 217.
- (27) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمانه ج 1، تحقيق محمد أمين، ط. القاهرة 1987م، ص 268، ص 323.
- (28) Donald,, Byzantium and Venice, P 216.
- (29) Jonathan Phillips, "The Latin East, 1098-1291", In: The Oxford Illustrated History Of The Crusades, New York 1995, P 128.
- (30) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 433.
- (31) Theoderich, Description Of The Holy Places, P 73.
- (32) ابن جبير، الرحلة، ص 242.
- (33) Theoderich, Op Cit, P 73.
- (34) ابن جبير، المصدر السابق، ص 242.
- (35) Joannes Phocas, A Brief Description Of The Holy Land, P 10.
- (36) ابن جبير، المصدر السابق، ص 241.
- (37) مارينو سانتوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ت. سليم رزق الله، ط. بيروت 1991م، ص 241.

(38) Teaf Kamal, *The Saljuqs Of Syria During The Crusades*, (463-549 A.H/1070 – 1154 A.D), Berlin 1997, P 183.

(39) Fulcher Of Chartres, *AHistory Of The Expeditions To Jerusalem* (1095 – 1127), Tennessee 1969, P 257.

(40) Jacques De Vitry, *History Of Jerusalem*, P 16.

(41) ابن الوردى، تمة المختصر، ج2، ص144.

(42) القديس ساباس ST.Sabas، ولد هذا القديس في مدينة قيسارية Caesarea، في كبادوكيا Cappadocia، وذلك في عام 439م، ويعد أحد البارزين من الجيل الأول من الرهبان، وقد صار قدوة لغيره على نحو صارت معه تعاليمه تؤثر تأثيرا كبيرا على الحركة الديرانية الشرقية، وعندما كان شابا صغيرا لازم القديس أيوثيموس الكبير Eithymius The Great، وفي عام 478م أسس جماعة ديرانية في منطقة مقفرة فيما بين بيت المقدس Jerusalem والبحر الميت Dead Sea، وقد ازدهر أمرها من بعد ذلك بصورة كبيرة وفي عام 493م، كانت له زعامة على كافة الرهبان في فلسطين الذين عاشوا حياة مشابهة لحياته التقشفية، وقد لعب القديس ساباس دورا نشطا في التاريخ الكنسي العام لتلك المرحلة، وأرسل مرتين من قبل بطريرك بيت المقدس إلى القسطنطينية، ووصلتا سير حياته عن طريق كيريل البيساني Cyril Of Scythopolis، وقد قابل القديس ساباس وتأثر بتعاليمه، ويسمى دير ذلك القديس باسم مارسابا Mar Saba، ويعد أحد أقدم الأديرة المعمورة في العالم، ويشغله رهبان تابعين للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وأدرجت المنية القديس ساباس في عام 532م، ويلاحظ أن عيد الأحتفال به هو الخامس من ديسمبر انظر:

- Donand Attwater, *The Penguin Dictionary Of Saints*, New York 1965, P 301.

- دير القيس ساباس Monastery Of ST. Sabas، وقد ذكر عنه أنه بالغ الجمال والانتساع وأن هناك أكثر من ثلاثمائة من الرهبان اليونانيين، يعيشون ضمن جماعة ديرانية تخدم الرب والقيس. لمزيد من التفاصيل انظر:

- محمد مؤنس، الرحالة الأوروبيون في عملة بيت المقدس الصليبية 1099 – 1187م، ص48، ص49.

(43) ميشيل بالا، الجمهوريات البحرية الإيطالية، ص191.

(44) نفسه، ص192.

(45) Dotson, *Fleet Operation*, P 2.

(46) ميشيل بالا، المرجع السابق، ص192.

(47) حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام، ص214.

(48) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص473، ص474.

(49) Theoderichs, Description of the Holy Land, p. 71.

(50) Bouchier, M.A, Ashort History of Antioch, 300B. C-A.D1268, London 1921, p 287.

(51) روبرت لوييز، ثورة العصور الوسطى التجارية (950-1350م)، ت. محمود أحمد أبو صوة، ط. فالينا 1997م، ص126.

(52) شاخت وبيوزورت، تراث الإسلام، ت. محمد زهير السهموري، حسين مؤنس، إحسان صدقي العمر، تحقيق شاكرا مصطفى، مراجعة فؤاد زكريا، ط. الكويت 1978م، ص333.

(53) Joannes Phocas, A Brief Description, P.P 9,10.

(54) نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص148.

(55) ماضي عبد الله السرحان، بيروت تحت الحكم الصليبي وعلاقتها بالمسلمين (504-690هـ/1110-1291م)، ط. الرياض 2001م، ص303.

(56) نفسه، ص304.

(57) ابن الوردى، تمة المختصر، ج2، ص139.

(58) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص784.

(59) ابن العديم، زبدة الحلب، ص. ص423، 424.

(60) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص884.

(61) ابن العديم، زبدة الحلب، ص423، ص424.

(62) قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص248.

(63) نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص151.

(64) Burchard Of Mount Sion, A Description Of The Holy Land, P 16.

(65) كان للنشاط الحرفي دور كبير في تقديم وازدهار المدن الساحلية الشامية، واحتل الصناعات مكاناً رفيعاً وأحدثوا تطوراً عظيماً في مال الصناعة، فهم الذين برعوا في صناعة السكر في العالم بعد أن نقلوه من مواطنه في الهند إلى بلاد فارس وغيرها واستخرجوا منه أصنافاً لم يكن لها مثيل، كما أنهم اتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم، لمزيد من التفاصيل عن النشاط الحرفي، انظر: أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص108.

(66) Urban Tignor, Life Among The Europeans, P14.

(67) حسن عبد الوهاب، أمن الطرق بين المسلمين والصليبيين، ص100.

(68) هايد، تاريخ التجارة، ج1، ص182.

- (69) محمود الحويري، الأوضاع الحضرية، ص130.
- (70) هايد، المرجع السابق، ج1، ص182.
- (71) Fulcher Of Chartres, A History Of The Expedition, P 131.
- (72) سليمان الخرايشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ط. عمان 1993م، ص168.
- (73) ناصر خسرو، سفرنامه، ت. يحيى الخشاب، ط. القاهرة 1945م، ص13.
- (74) Nicola. Ziadeh, Urban Life In Syria Under The Early Mamluks, Beirut 1953, P 139.
- (75) محمد مؤنس، الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1996م، ص99.
- (76) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص980.
- وتقوم الطالبة نهى فتحي بإعداد دراسة عن إمارة طرابلس في القرن 13م/7هـ.
- (77) قاسم عبده، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص248.
- (78) Ziada, Urban Life In Syria, P 134.
- (79) يوشع براور، في تاريخ الحروب الصليبية، ص41.
- (80) مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زترشتين Zettersteen، ط. ليدن، 1919م، ص23.
- (81) Jacques De Vitry, History Of Jerusalem, P 58.
- (82) Postan, Medieval Trade and Finance, Cambridge 1973, P 306.
- (83) Henri Birenne, Economic and Social History of Medieval Europe, New York 1933, P32.
- (84) Arichbald Lewis, Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D.500-1100, New Jersey 1951, P246.
- (85) سونيا هاو، في طلب لتوابل، ت. محمد عزيز رفعت، ط. القاهرة، 1957، ص27، ص28.
- (86) Norbert Ohler, The Medieval Traveller, Trans:- Caroline Hillier, Freiburg 1986, P61.
- (87) Norbert, Ibid, P61.
- (88) أحمد حطيط، "تجارة البحر الأحمر في زمن صلاح الدين الأيوبي"، في:- دراسات إسلامية، ط. بيروت 1995م، ص118.
- (89) Kamal Salibi, A History of Arabia, Delmar, 1980, P117.
- (90) Fulcher of Chartres, A History of the Expeditions to Jerusalem, P93

- (91) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. دمشق 1980م، ص 225.
- (92) حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص 89؛
- (93) هايد، تاريخ التجارة، ج 1، ص 191.
- (94) الكارم: أول ما اختلف فيه الدارسون بشأن الكارم هو اسمه، فهناك من يرى أن تجارة الكارم تنسب إلى الكارمية، وهم طائفة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى وشرق أفريقيا في التوابل وما إليها من السلع الأخرى، أما عن بداية الكارم، فيمكن القول أن وجوده في العصر الفاطمي لم يعد محل خلاف، وقد بذل الفاطميون جهودًا كبيرة ليجتذبوا تجارة التوابل من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر وأقاموا مراكز تجارية على الطريق إلى الهند، لمزيد من التفاصيل انظر: محمد عبد الغني الأشقر، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، ط. القاهرة 1999م، ص 21، ص 33.
- (95) أحمد حطيط، تجارة البحر الأحمر، ص 122.
- (96) نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص 126.
- (97) حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ط. القاهرة 1999م، ص 90.
- (98) Herbert Heaton, *Economic History of Europe*, New York 1948, P 154.
- (99) جعفر بن علي الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، تعليق محمود الأرنؤوط، ط. بيروت 1999م، ص 31.
- (100) ابن فضل الله العمري، مسالك الإيبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، ط. القاهرة 1985، ص 68.
- (101) ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، المجلد الثاني، ج 2، ط. القاهرة ب.ت، ص 20.
- (102) E.S. Bouchier. M.A, *A History Of Antioch 300 B.X – A.D 1268*, London 1921. P 287.
- (103) جعفر الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص 32.
- (104) Norbert, *The Medieval Traveller*, P61.
- (105) Herbet Heaton, *Economic History Of Europe*, New York 1948, P 154.
- (106) Louise Bunger, "Venice And The Crusade", In Setton, Vol. V, London, 1985, P 401.
- (107) علي السيد علي، "طريق القوافل: القاهرة – دمشق في عصر الحروب الصليبية"، ضمن ندوة طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ، ط. القاهرة 2000م، ص 463، ص 464.

(108) Louise Buenger, Venice And The Crusade, P 401.

(109) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص284.

(110) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص.ص 43، 44.

(111) علي السيد، طريق التجارة، ص482.

(112) يوجد طريق يعرف بطريق الحرير، والذي عن طريقه كان يأتي الحرير من وسط آسيا إلى موانئ الساحل الشامي، ويبدأ هذا الطريق من الشرق في من الصين، ويمتد ما يعرف بمنغوليا، وحوض نهر تاريم الصحراوي وفجاج وممرات أفغانستان وبلاد فارس، ثم من بعد ذلك يمتد إلى بلاد الرافدين ومنها بلاد الشام، ومن هناك يتفرع الطريق إلى فرعين، أحدهما اخترق الأناضول إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، أو يتجه نحو موانئ البحر المتوسط، مثل عكا وصور وطرابلس، حيث وجدت هناك السفن التجارية الأوروبية من أجل حمل المنسوجات الحريرية إلى جنوة والبندقية، وغيرها من موانئ القارة الأوروبية، انظر: أبو دلف المهلهل الخزرجي، الرسالة الثانية، تحقيق بطرس بولياكوف وأنس خالدوف، ط. موسكو 1960م، ص37، على أبو عساف، طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة (12)، العددان (39)، (40)، كانون الأول 1991م، ص72- ص82، محمد مؤنس، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1995م، ص321، ص322.

(113) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ص51.

(114) محمود سعيد عمران، المغول والأوروبيون والصليبيون وقضية القدس، ط. الإسكندرية 2003، ص128.

(115) Louise Buenger, Venice And The Crusades, P 402.

(116) Bauchier, A Short History Of Antioch, P 288.

(117) ناصر خسرو، سفرنامه، ت. يحيى الخشاب، ط. القاهرة 1945م، ص53.

(118) ص.ي، «الصناعة السورية زمن الحرب الصليبية»، المقتطف، ج: 3، المجلد: 33، ط. القاهرة 1 مارس 1908م، ص203.

(119) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط. بيروت 1970م، ص154.

(120) أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ت. عبد الهادي عبده، ط. دمشق 1985م، ص305.

(121) رئيسة عبد الفتاح، نابلس في العصر المملوكي، ط. نابلس 1999م، ص121.

(122) Postan, Medieval Trade and finance, P 306.

- (123) William Of Rubruck, The Journey Of William Of Rubruck, London 1980, P90.
- (124) E.Rey, "Les Colonies Franques De Syrie", Aus: XII – XIII, Paris 1883, P 208.
- (125) William Of Ruburk, Op. Cit, P 218.
- (126) William of Tyre, History of the deeds, Vol. One, P 377.
- (127) ص.ي، الصناعة السورية، ص202.
- (128) Fetelus, Description of the Holy Land, P 33.
- (129) على السيد، العلاقات الاقتصادية، ص60.
- (130) رينيه غروسيه، رصد التاريخ، ت. محمد خليل باشا، ب. ط. ب. ت، ص132.
- (131) جعفر الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص22، ص29.
- (132) سليمان الخرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص163.
- (133) Zaida, Urban Life In Syria, P 133.
- (134) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبحار في ممالك الأمصار، ص25.
- (135) زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت 1948، ص177.
- (136) أسامة بن منقذ، الاعتبار، حرره: فيليب حتى، ط. القاهرة 2001م، ص115.
- (137) ابن جبير، الرحلة، ص240.
- (138) تركز النشاط الزراعي في أيدي السكان الشاميين النصراري والمسلمين الخاضعين للصليبيين في مدن الساحل الشامي، فقد قام الصليبيون باستخدامهم في زراعة الأراضي الزراعية التي سيطروا عليها، وذلك لخبرة الأهالي بطبيعة تلك الأراضي، وكان عليهم أن يدفعوا نصف محاصيلهم إلى الصليبيين، وكان يرأس هؤلاء الفلاحين المسلمين في القرى والمزارع، رجل مسلم نيابة عن السيد الصليبي، كوكيل لهذه الضيقة، لمزيد من التفاصيل انظر: حسن عبد الوهاب حسين، "اللاتين والمسلمون واليونانيون في مملكة بيت المقدس اللاتينية"، ضمن كتاب: دراسات في التاريخ الاقتصادي للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية 2002م، ص313.
- (139) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الإسكندرية 1966م، ص380.
- (140) موزي السرحان، بيروت تحت الحكم الصليبي، ص301.
- (141) هايد، تاريخ التجارة، ج1، ص188، ص189.
- (142) زكي النقاش، العلاقات، ص177.

(143) Ziada, Urban Life In Syria, P 132.

(144) جلال حسني، عكا أثناء الحملة الثالثة، ص 135.

(145) أبدي الصليبيون بما فيهم رجال الدين اللاتين، اهتماما خاصا بالأراضي الزراعية، فعملوا على تقسيم أراضي القرية وتنظيمها في وحدات عرفت كل واحدة منها باسم كاريوكا Ciruca أو كاريوكات Carrucate، وقد أتضح ذلك من خلال قيام رجال الدين اللتين في كنيسة القيامة، بتقسيم أراضي مستوطنة راماتيس الجديدة وتنظيمها في كاريوكات، ولم تكن مساحة جميع الكاريوكات متساوية، انظر: سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. إسكندرية 1989م، ص 467-468.

(146) نفسه، ص 388.

(147) حسن حلاق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ط. بيروت 1989م، ص 401.

(148) ابن بطوطة، الرحلة، تحقيق محمد السعيد الزيني، ط. القاهرة ب.ت، ص 65.

(149) الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق مهران، ط. بطرسبرج 1865م، ص 200.

(150) ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، المجلد الثاني، ج: 2، ص 179.

(151) ناصر خسرو، سفرنامه، ت. يحيى الخشاب، ط. القاهرة 1945م، ص 11.

(152) عرفت بلاد الشام عصر الحروب الصليبية بتوافر العديد من المسطحات المائية العذبة والمالحة التي عاشت فيها الأسماك منذ زمن بعيد من قبل مقدم الصليبيين، ووجدت هناك العديد من مصايدها، وتذكر منها في هذا المجال نهر الفرات الذي بنع من آسيا الصغرى ومر قسم منه ببلاد الشام، ثم نهر الأردن الذي ينبع من أسفل جبل الشيخ الغربي والجنوبي، ونهر اليرموك، وهم أهم روافد نهر الأردن، ثم نهر العاص الذي ينبع من بعلبك بلبنان، ووقعت عليه مدينتا حمص وحماه، لمزيد من التفاصيل انظر: محمد مؤنس، "الأسماك في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية"، ضمن كتاب: عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات، ط. القاهرة 2005م، ص 107.

(153) مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، ج: 1، ص 142.

(154) Daniel, Pilgrimage Of the Russian Abbot Daniel In The Holy Land, Trans by: Wilsa, P.P.T.S, Vol. VI, London, P.P 42, 62.

(155) ابن بطوطة، الرحلة، ص 75.

(156) الأنصار الدمشقي، نخبة الدهر، ص 205.

(157) Frederic, Venice, P 72.

- (158) Jacques De Vitry, History Of Jerusalem, P.P 92, 93.
- (159) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ط. الإسكندرية 1968م، ص 167.
- (160) على أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1998م، ص 347.
- (161) ناصر خسرو، سفر نامه، ص 19.
- (162) على السيد، طريق القوافل، ص 481.
- (163) المقرئزي، نحل عبر النحل، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة 2000، ص 109.
- (164) على أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط. دمشق 1989م، ص 75.
- (165) ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، ج 1، ص 167.
- (166) مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، ج 1، ص 174.
- (167) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، تحقيق أحمد أبو ملحم، ط. بيروت 1997م، ص 260.
- (168) ابن شاعر الكتبي، فوات الوفيات والذي عليها، تحقيق إحسان عباس، ج: 2، ط. بيروت 1974م، ص 132.
- (169) Theoderichs, Description Of The Holy Places, P 53.
- (170) Anonymous Pilgrims, I, Trans. By: Aubrey Stewart, London 1894, P 37.
- (171) John Of Wnrburg, Description Of The Holy Land, Trans by: Aubrey Stewart, London, 1894, P 59.
- (172) العظيمي، تاريخ العظيمي، تحقيق على سويم، ط. أنقرة 1982م، ص 53.
- (173) النوري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 29، تحقيق محمد ضياء الدين، ط. القاهرة 1963م، ص 119.
- (174) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج 1، تحقيق محمد أمين، ط. القاهرة 1987م، ص 323.
- (175) شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز عبد الله الخويطر، ط. الرياض 1976م، ص 73.
- (176) العظيمي، المصدر السابق، ص 31.
- (177) محمد مؤنس، الزلازل في بلاد الشام، ص 138.
- (178) Dotson, Fleet Operation, P1.
- (179) كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ت. أحمد الشيخ، ط. القاهرة 1995م، ص 247.
- (180) Hans Mayer, The Crusades, Trans. By: John Gillingham, Oxford 1988, P 168.

(181) Louise Buenger, Venice and The Crusades, P 412.

(182) كلود كاهن، المرجع السابق، ص 247.

(183) Frederic, Venice, P 68.

(184) Steven A.Epstein, Genoa and The Genoese 958 – 1528, North Carolina, 1996, P 104.

(185) Fredreric, Venice, P 80.

(186) Norman Daniel, The arabs And Mediaeval Europe, London 1975, P 218.

(187) سعيد عاشور، حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ط. بيروت 1976م، ص 439.

(188) هنري لامنس اليسوعي، "الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام"، مجلة المشرق، السنة 20، العدد: 2، ط.

بيروت 1922م، ص 111.

(189) مارينو سانتو، كتاب الأسرار، ص 56.

(190) Raymond D Aguilers, Historia Francorum Qui Ceperunt Iherusalem, Trans. By John Hill, Laurita L.Hill, Philadelphia 1968, P 88.

(191) Fulcher Of Chartres, A History Of The Expeditions, P 149.

(192) Norman, The Arabs, P 220.

(193) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص 135.

(194) Postan, Medieval Trade, P 133.

(195) حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، ط. القاهرة 1975م، ص 141.

(196) Rey, Les Colonies Franques, P 210.

(197) Piers Paul, The Templars, London 1999, P 210.

(198) عفاف صبرة، العلاقات بين المشرق والمغرب، ص 165.

(199) على السيد، العلاقات الاقتصادية، ص 165.

(200) Divid Abulafia, Trade and Crusade, P 17

(201) Peter Portner, God Of Battles, Holy Wars Of Christianity And Islam, London 1997, P 135.

(202) محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ط. القاهرة 1965م، ص 140.

(203) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 490.

(204) العيني، عقد الجمان، ج 1، ص 316.

- (205) كلود كاهن، الشرق والغرب، ص 172.
- (206) Postan , Medieval Trade, P 133.
- (207) ديسونيسيوس أجيوس، ريتشارد هيتشكوك، التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى، ت. قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة 2000م، ص 23.
- (208) جعفر الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص 42.
- (209) شاجت وبوزورت، تراث الإسلام، ص 316.
- (210) Steven, Genoa And Genoese, P 101.
- (211) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ط. الإسكندرية 1984م، ص 171.
- (212) ابن بطوطة، الرحلة، ص 29، ص 30.
- (213) Raymond D Aguilers, Historia Francorum, P 120.
- (214) Seawulf, The Pilgrimage Of Saeulf, Trans. By Brownloe, P.P.T.S, Vol. IV, London 1896, P 7.
- (215) سعيد عاشور، العصر المالمكي في مصر والشام، ط. القاهرة 1965م، ص 294.
- (216) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص 106.
- (217) Mayer, The Crusades, P 185.
- (218) علي السيد، طريق القوافل، ص 48.
- (219) ابن فضل الله العمري، مسالك الإبحار، ص 68.
- (220) كلود كاهن، الشرق والغرب، ص 173.
- (221) Frederic, Venice, P 70.
- (222) محمود الحوييري، الأوضاع الحضارية، ص 110.
- (223) Reuven, Mongols And Mamluks, P 11.
- (224) Reuven, Ibid, P 201.
- (225) سليمان الخرابشة، نيابة طرابلس، ص 167.
- (226) Peter W.Edbury, The Kingdom Of Cyprus And The Crusades, 1191-1374, New York 1991, P 103.
- (227) Ziada, Urban Life, P 139.

(228) George Bell and Sons, Select Historical Documents of the Middle Ages, Trans. By F. Handerson, London, 1910, P 336, P 337.

(229) عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص 86.

(230) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص 114.

(231) Peter, Op.Cit, P 104.

(232) Ziada, Urban Life, P 134.

(233) عطية القوصي، «مصر الفاطمية»، ضمن كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، تحرير: رؤوف عباس، ط. القاهرة 1986م، ص 163.





أ. د. زبيدة عطا

ISBN 978-977-495-061-2



9 789774 950612